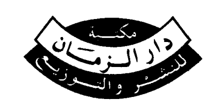
المدينة المنوّرة

ودولة الإسلام الأولى

بقلم

أحمد الشنواني



ⓒ مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع ، ١٤٢٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشنواني، أحمد محمد
المدينة المنورة ودولة الاسلام الاولى. / أحمد محمد الشنواني. - المدينة المنورة ،١٤٢٦ هـ

٤٧٢ ص؛١٧×٢٤ سم.

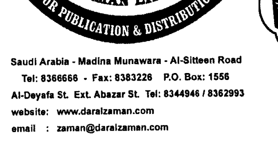
ردمك : ٢-٠-٩٦٣٨-٩٩٦٠

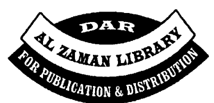
١-المدينة المنورة - التاريخ الاسلامي ٢-المسجد النبوي أ. العنوان
ديوي ٩٥٣,١٢٢ ١٤٢٦/٢٣٠٢

رقم الايداع: ١٤٢٦/٢٣٠٢
ردمك : ٢-٠-٩٦٣٨-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م







المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة - شارع الستين
هاتف: ٨٣٦٦٦٦٦ - فاكس: ٨٣٨٣٢٢٦ ص.ب (١٥٥٦)
فرع الضيافة - إمتداد شارع أباذر هاتف: ٨٣٦٢٩٩٣ - فاكس: ٨٣٤٤٩٤٦
موقعنا على الإنترنت: www.daralzaman.com
البريد الإلكتروني: zaman@daralzaman.com

Saudi Arabia - Madina Munawara - Al-Sitteen Road
Tel: 8366666 - Fax: 8383226 P.O. Box: 1556
Al-Deyafa St. Ext. Abazar St. Tel: 8344946 / 8362993
website: www.daralzaman.com
email : zaman@daralzaman.com



مقدمة المؤلف

تهفو قلوب الملايين من المسلمين ويهزهم الحنين إلى المدينة التي فتحت قلبها وعقلها لدعوة الحق الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه، والتي كافحت كفاحًا مجيدًا في صبر وإيمان عن الإسلام، لتعلو كلمة التوحيد، ويتم الله نوره .

فهذا تاريخ المدينة المنورة قديمًا وحديثًا أقدمه للأمة الإسلامية والشعوب العربية، ومن المعلوم أن المدينة المنورة هي أحب بقاع الأرض إلى الله تبارك وتعالى لقوله صلوات الله وسلامه عليه: «اللهم كما أخرجتني من أحب البقاع إليّ «وهي مكة المكرمة» فأسكني في أحب البقاع إليك» [رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين]، فأسكنه الله تبارك وتعالى «المدينة المنورة» فكانت بذلك أحب بقاع الأرض إلى الله. فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ما على الأرض بقعة أحب إليّ من أن يكون قبري بها» والمدينة المنورة موطن أحب الخلق إلى الله تبارك وتعالى وسيد رسله على الإطلاق ﷺ .

والمدينة المنورة هي محط أنظار العالم ولا أقول العالم الإسلامي فقط؛ بل أقول العالم كله، لأنها مقر صاحب الرسالة العظمى صلوات الله وسلامه عليه الذي أرسله الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين لا للمسلمين فقط فهي بذلك مرجع العقول ومأوى الأفئدة ومحطة الأنظار.

والمدينة المنورة مهبط الملائكة المقربين.

والمدينة المنورة منزل الروح الأمين.

والمدينة المنورة مثوى السادة الأنصار والمهاجرين الأبرار.

والمدينة المنورة مركز خلافة الخلفاء الراشدين وهم من عرف العالم كله فضلهم ومكانتهم.

* * *

كانت هجرة الرسول إلى المدينة بداية مرحلة جديدة للدعوة الإسلامية، إذ جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتمت كلمة ربك في جزيرة العرب كلها. ترى لو لم يهاجر الرسول إلى المدينة، ولم يُدفن بها، أفكان الناس يزورون المدينة؟ أم كانت المدينة تصير إلى ما صارت إليه الطائف وغير الطائف من مدائن بلاد العرب فلا يقيم بها إلا من تكفي مواردها لقوتهم ومقامهم في حدود قدرتهم على استغلال هذه الموارد، وقل أن يزورها أحد من غير أهلها ؟

لست في حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال وليس يختلف فيه اثنان، فمنذ آمنت المدينة بالإسلام، واستقبلت الرسول المهاجر إليها، عرفتها الدنيا وحفظها التاريخ.

لما بشَّر الرسول ﷺ برسالته السماوية في مكة كانت فيها «حكومة الملأ» تجمع في يدها السلطة السياسية والدينية، فاتخذ الرسول ﷺ موقف الداعي الديني والمصلح الاجتماعي، ولكن الظروف لم تتح له وضع نظام سياسي ينطلق من عقيدة الإسلام، فصار يحتل المعارضة ضد النظام القائم من الوجهة الدينية والسياسية، وأخذ يبحث عن بيئة صالحة لنشر رسالته فوجد في يثرب ذلك المكان

الذي يستطيع أن يبشر بعقيدة الإسلام، فكانت هجرته إلى يثرب فتحًا عظيمًا في تاريخ العرب الديني والسياسي؛ إذ أفسحت المجال لبروز عبقريته السياسية ومقدرته على التنظيم حيث تطلب منه الوضع الجديد أن يضع نظمًا سياسية واجتماعية واقتصادية لتفادي الخصومات والخلافات التي كانت تقع بين قبائلها. كما أن الرسول ﷺ أراد أن يجعل من المجتمع المدني نموذجًا للمجتمع العربي الجديد، ويوضح رسالة الإسلام فيه، وليجعل من المدينة «يثرب» قاعدة انطلاق لنشر الإسلام بين قبائل العرب في الجزيرة العربية وخارجها.

فبدأ الرسول ﷺ بعد هجرته إلى يثرب ووصوله إليها يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول بوضع سلسلة من التنظيمات السياسية والإدارية والاجتماعية والمالية، فبنى مسجده في «قباء» واتخذه مركزًا لاجتماعاته وناديًا للمسلمين ومحلاً لعباداتهم، ومعهدًا لتعليم المسلمين أمور دينهم، فأصبح المسجد مركزًا للحكومة ومحل المشاورات في الشئون العامة تُرسل منه البعوث، وتُعقد فيه ألوية الجهاد، ويُستقبل فيه السفراء من قبائل العرب، واتخذه مدرسة لتعليم المسلمين وأبنائهم تعاليم الإسلام وشرائعه. فأصبح اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي والديني باعتباره أداة لعهد المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة.

واهتم الرسول ﷺ بعد ذلك بمعالجته الوضع الاقتصادي، ولا سيما وأن أغلب من هاجر من المسلمين قد ترك أمواله في مكة، فكان على الرسول ﷺ أن يعالج أمر توفير أسباب العيش لهذا العدد الكبير من المهاجرين، فأوجد نظام المؤاخاة فقال ﷺ: «تآخوا في الله أخوين»، وذلك بتوزيع المهاجرين على الأنصار إذ جعل كل

مهاجر يعيش مع أنصاري أخًا له، وبذلك حل الرسول ﷺ مشكلة إعالة المهاجرين، ووثق التعاون بين المسلمين، وترك بينهم روح المودة والإخاء والتعاون والتضحية لبناء دولة هم عمادها.

كما اهتم الرسول ﷺ بمعالجة الوضع السياسي في يثرب «المدينة» ففيها المهاجرون والأنصار واليهود، والمنافقون، ومن بقي من أهل المدينة على الشرك، فوضع دستورًا مدنيًا لتنظيم الأوضاع السياسية بينهم.

ومما لا شك فيه أن الرسول ﷺ كان يتخذ من أحكام القرآن الكريم وروحه هاديًا له في الحكم ودليلاً للعمل، ولما لم تكن الآيات توضح تفاصيل الحكم، فقد كان ذلك متروكًا للرسول ﷺ وتطبيقه وتنفيذه، فهو بذلك قد تمتع بسلطات سياسية وإدارية ومالية وقضائية وحتى سلطات تشريعية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].. ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة: من الآية ٤٢].

وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يكون أمة واحدة في دولة موحدة أصبح قائدها وزعيمها، ووضع السلطات الدينية والسياسية والقضائية بيده، وأصبحت هذه الأسس من القواعد الدستورية لنظام الحكم في الدولة الإسلامية.

ولقد بدأت مرحلة بناء الدولة الإسلامية «العقائدية» في أعقاب الهجرة حيث كانت المرحلة السابقة مرحلة بناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة قد اكتسبت ملامحها الأساسية في العصر المكي، وغدا المسلمون- أفرادًا وجماعات- على استعداد نفسي وذهني كاملين لتقبُّل ما سيجيء من تشريعات وما سيُفرض من

تنظيمات ويُوضع من حدود ويُرسم من علاقات بعد أن هيأهم النضج العقيدي لتقبل كل ما يصدر عن الله ورسوله و«الإسلام» له و«الإيمان» به و«التقوى» خلال ممارسته في السر والعلن، و«الإحسان» في إنجازه على أحسن ما يكون الإنجاز، دون تردد أو سلبية إنما هو الخضوع اليقيني المتبصر بأن هذا الذي يتنزل في ميدان التشريع والتقنين إنما هو الحق المطلق والخير الكامل والصواب الذي ليس بعده إلا الضلال المبين.

وقد أتاح هذا التطور لسير الدعوة الإسلامية أن يتأصل البناء الجديد على أسس متينة متوغلة في أعماق النفس المسلمة على المستوى الفردي والجماعي على السواء، فجاء متماسكًا مترابطًا ثابت الأركان، فضلاً عن أن الإحساس الجديد بـ «الزمن» و«المسئولية» و«يقظة الضمير» التي غرستها العقيدة الإسلامية في النفوس، دفعت المسلم ليس إلى تقبل التشريعات والحدود والأوامر الجديدة وتنفيذها بدقة فحسب؛ بل إلى كسب الوقت و«المسارعة» في تحويلها إلى وقائع مُعاشة وتجارب حية وترجمات يومية وصيغ منقوشة على صفحة المكان والزمان دفعتهم إلى السعي «للإحسان» في الأداء والإبداع في التنفيذ من أجل بلوغ المرحلة القصوى من رضا الله وطاعته.. وقد أتاح هذا كله اطرادًا عجيبًا في نمو الأجهزة التشريعية للدولة الناشئة وسرعة مدهشة في نزول متطلباتها إلى الشارع والبيت والسوق والمسجد والميدان، الأمر الذي يفسر لنا- على المستوى الحضاري- الاختزال الزمني المدهش الذي مارسه المسلمون وهم يبنون عالمهم الجديد وحضارتهم المتوازنة.

لقد أعطى الإسلام بمجتمعه الأول ذلك النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلاً يحتذى وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الإنساني السليم المتكامل الذي يقوم على الإخاء والحب والتسامح والتكافل. وليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية، ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الإسلام ومضمونه. وما تزال صورة هذا المجتمع الإسلامي الأول باتساقها وصلابتها وسلامتها في فهم مضمون الإسلام ومنهجه تعطي علامة القوة في تطبيق الإسلام.. فمن هذه الجماعة الإسلامية انطلقت «الدعوة الإسلامية» إلى العالم كله.. وليس صحيحًا ما يدعيه بعض المستشرقين، ومن تابعهم، من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران، أو أنها توفقت إلى رجال يندُر اجتماعهم في عصر.. ولم يكن مجتمع المدينة، كما تحاول أن تصوره مختلف كتب السيرة، مجتمع حرب وغزوات وقتال. فلو إننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجموعه بضعة شهور في خلال عشر سنوات، ومن هنا فإن المجتمع الإسلامي في المدينة قد قام فعلاً وبنى خلالها دعامتين واضحتين: نظام مجتمع ونظام دولة، كما بنى تشريعًا وقانونًا.

* * *

وقد كان مجتمع المدينة هو منبت دولة الإسلام الكبرى بكل ما تأسس في حياة النبي ﷺ من دعائم هذه الدولة، وإذا كان المجتمع والدولة في المدينة محكومين بالشريعة فإن هذا المجتمع بتطبيقات النبي ﷺ وصحبه قد ألقى بأضوائه على الدولة فأنار لنا الطريق.. وعملت الدولة في خدمة المجتمع وحياطته، فخلدت أضواءه، وأبقت فضائله.

وباتساع المجتمع الإسلامي في المدينة بعد مرحلة التمهيد والتأسيس توالت التشريعات في القرآن الكريم في المسائل المدنية والجنائية والشخصية والدولية والعسكرية اللازمة للجماعة فكانت كثرة هذه التشريعات بالمدينة.

ففي مجتمع المدينة قامت القوة العسكرية المنظمة لحماية دولة المؤمنين، وقد بدأت مهامها بالسرايا التي أوفدها النبي لأهداف محددة، وبالحروب المحلية التي قادها لقمع المشركين، ثم بالمناوشات الأولى مع دولة الروم المحتلة لأكثر الأرض العربية، والتي كانت تهدد مواقعها بالأردن والشام أمن المسلمين ودولتهم الأولى، فكانت وقعة مؤتة، ثم وقعة تبوك التي قادها النبي ﷺ بنفسه.

ولقد تكامل لهذه الدولة القائمة على الإيمان وشريعة الله وأمانة التطبيق صرحها السياسي الوظيفي فأوفد النبي ﷺ السفراء وبعث برسائله إلى كافة أرجاء الوطن العربي من الملوك والزعماء والولاة وإلى ملك فارس الذي يحتل العراق- يدعوهم إلى شرعة الله، وإلى رفع يد الظلم عمن تحتهم من الفلاحين والرعية.

إن خصيصة الشريعة الإسلامية التي خرج منها منهاجها المتميز هو الدعوة إلى الله الواحد الحق، وكفالة هذه الدعوة بالقيم التي تعمل في نصرتها، ومن الوحدانية الخالصة وإليها تتناهى كل القيم الإسلامية: من المساواة والتكافل والحرية والعدل والعمل، وما ينبثق منها من الفضائل المتفرعة عليها كافة.

* * *

وهذا الكتاب يلم بتاريخ المدينة منذ أقدم العصور إلى اليوم، ويرسم صورة واضحة القسمات لمجتمع المدينة الذي كانت تمزقه الحروب والفتن التي كان اليهود يغذونها بسمومهم حتى يقوى نفوذهم على حساب الوجود العربي الممزق.

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة تحول الأوس والخزرج- وهم الذين سماهم الرسول فيما بعد بالأنصار- إلى إخوة في الله، وانمحت العداوة، وساد الحب بينهم.

ويتحدث الكتاب عن الأماكن المقدسة في المدينة: المسجد النبوي، والحجرة النبوية، والروضة الشريفة، كما يتحدث أيضًا عن آثار المدينة ومساجدها، وغير ذلك من القضايا والأحداث التي مرت بهذه البقعة المباركة، بصورة شاملة، تكاد تصبح مرجعًا أساسيًا عن نشأة المدينة وأهم معالمها، وصورة لمجتمعها وتكوين التجمعات الإسلامية الأولى قبل الهجرة، والسياسة الداخلية والخارجية لدولة المدينة، بالإضافة إلى الدبلوماسية الإسلامية لتلك الدولة، وفي النهاية ضمنت كتابي بالحديث عن نشأة الدولة الإسلامية الكبرى .

* * *

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

القاهرة في غرة المحرم ١٤٢٣ هجرية — مارس ٢٠٠٢ ميلادية

المؤلف

أحمد الشنواني

الباب الأول

المدينة المنورة ... بداية التكوين

بـداية التكــوين

إذا جئنا نستوضح ذلك الزمن البعيد لوضع «المدينة المنورة» في ميزان الوجود التاريخي، فلا نكاد نستجلي واقعها إلا بعد الطوفان، في عهد النبي نوح عليه الصلاة والسلام، عندما أمره الله ﷻ ببناء السفينة التاريخية في عرض البحر، والإقامة فيها مع أهله وذويه وأزواج من مخلوقاته تعالى من الحيوان. حيث أغرق الله سبحانه الأرض ومن عليها من الذين طغوا وبغوا وعتوا عن أمره، فدمرهم الطوفان عن آخرهم ولم يبق من نسل آدم إلا النبي نوح وبنوه وممن معه في السفينة التي ظلت عائمة بهم في اللج سنة وعشرة أيام، حتى أذن الله لهم وانحسرت المياه وعادوا إلى سطح الأرض من جديد..

ولقد مرت عشرات السنين قبل أن تسكن المدينة لأول مرة. فنزل بها يثرب وأبوه عبيل بن عوض بن آدم بن سام بن نوح. ولذا سميت «يثرب» باسم أول من نزح إليها. ولكن هؤلاء لم ينعموا فيها طويلاً إذا أجلوا عنها، واستقروا في المكان الذي يسمى «الجحفة» حيث فاجأهم سيل هادر وأجحفهم فيه. وقال رجل منهم يرثيهم :

«عين جودا على عبيل وهل ير ... جع من فات فيضها بانسجام

عمَّروا يثربا وليس بها شفـــ ... ـر ولا صارخ ولا ذو سنـــام

غرســوا لينها بمجــرى معــين ... ثم حفوا النخيل بالآجــــام»

المدينة المنورة بعد الطوفان

وتضاربت آراء المؤرخين في أول من سكن المدينة المنورة بعد الطوفان وانقسموا في ذلك إلى خمسة أقسام :

١ - فمنهم من يقول إن الناس لما خرجوا من سفينة نوح عليه السلام بعد أن استوت على الجودي نزلوا بطرف مدينة بابل العظيمة وكان عددهم إذ ذاك ثمانين شخصًا بين ذكر وأنثى فسموا الموضع الذي نزلوا فيه سوق الثمانين وكان ذلك منهم تخليدًا لعددهم هذا الذي هو أول أهل الأرض بعد فناء من كان فيها سابقًا بسبب الطوفان الذي لم يبق على وجه المعمورة أي مخلوق من نبات أو حيوان أو إنسان وظلوا يتناسلون زمنًا طويلاً حتى كثروا وكثروا جدًا فملّكوا عليهم النمرود بن كنعان ابن حام بن نوح عليه السلام، وكانت ألسنتهم قد افترقت إلى اثنين وسبعين لسانًا بقدرة البارئ جل وعلا ومنها اللغة العربية، منهم عمليق وطسم ابنا لود بن سام ابن نوح عليه السلام، فنزلت أبناء عبيل بيثرب التي هي المدينة المنورة ويثرب هذه سميت باسم أول من سكنها منهم وهو يثرب بن عبيل بن عوض بن أرم بن سام ابن نوح عليه السلام كما ذكرنا من قبل، وكان يثرب هذا هو أكبر أبناء عبيل وولي عهده بعده في عمادة العائلة العبيلية، ولما كثرت فروع هذه العائلة العبيلية تحول بعضهم إلى الجحفة وهي بلدة صغيرة قبل رابغ بقليل وكان السبب بتسميتها بالجحفة أن سيلاً عظيمًا نزل على من فيها فأجحفهم جدًا فسُميت الجحفة لأجل ذلك.

وهذه الرواية مصدرها عبد الله بن عباس- رضي الله تعالى عنهما- وهي أصح الروايات الخمس.

٢ – ومنهم من يقول إن أول من سكن المدينة المنورة بعد الطوفان هو يثرب ابن قانية بن مهلابيل بن أرم بن عبيل بن عوض بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام .

٣ – ومنهم من يقول إن أول من سكن المدينة المنورة بعد الطوفان قوم يقال لهم صعل وفالج ففسقوا وفجروا وطغوا وبغوا فأرسل الله تبارك وتعالى عليهم نبيه داود عليه السلام فغزاهم وأخذ منهم سبيًا كثيرًا، ثم سلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا عن آخرهم ولم يبق منهم إلا سيدتهم العظيمة المسماة (الزهرة) والتي كانت تسكن في مدينتها المنسوبة إليها والمسماة باسمها وهي الزهرة المعروفة حتى اليوم بهذا الاسم شمال المدينة المنورة فأرادت أن تنجو بنفسها من هذا البلاء السماوي الذي صبه الله على قومها فاستأجرت من يحملها على بعير إلى أقرب المدن لتطمئن على حياتها فلما تم لها ذلك وأرادت وضع رجلها للصعود قيل لها إنا لنرى دودًا يغشاك فبكت وقالت بهذا هلك قومي ثم قالت قولتها المشهورة عند الناس حتى الآن: «رب جسد مصون ومال مدفون بين زهرة ورانون» ثم قتلها الدود في الحال، وأعتقد أن المنطقة التي أرادت الإشارة إليها تقع ما بين مسجد الجمعة غربًا وحرة مشربة أم إبراهيم شرقًا، وفيه تشير إلى أن العمالقة كانوا يحنطون الموتى ومنهم من يدفنون أغلب أموالهم وحليهم معهم مثل ما يفعله الفراعنة والله أعلم .

٤ – ومنهم من يقول إن أول من سكن المدينة المنورة بعد الطوفان قوم يقال لهم بنو هيف وبنو مطر وبنو الأزرق وكانوا يسكنون فيما بين مخيض إلى غراب الضائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد وإن آثارهم كانت هناك.

٥ – ومنهم من يقول إن العمالقة كانت منتشرة في البلاد فمنهم من نزل باليمامة ومنهم من نزل بالشام ومنهم من نزل بمكة المكرمة ومنهم من سكن الحجاز فمُن عليهم بسعة الأرزاق وطول الأعمار حتى كان يمضي عليهم أربعمائة سنة ولا يُسمع بجنازة بينهم، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

فبعث إليهم سيدنا موسى عليه السلام جندًا من بني إسرائيل فقتلوهم بالحجاز والمدينة المنورة ومكة المكرمة عن آخرهم .

ثم سكن المدينة المنورة اليهود وكانوا قبائل شتى نحو خمس وعشرين قبيلة وكان سبب سكناهم المدينة المنورة أن ملك الروم حين ظهر على بني إسرائيل وملك الشام خطب ابنة أحد اليهود من نسل هارون عليه السلام وكانت هذه الفتاة مشهورة بالجمال الخارق وبأصالة النسب وكان من الثابت في دين اليهود أنهم لا يزوجون النصارى مطلقًا فخافوا شره إن منعوه من الزواج وعزموا على تنفيذ شريعتهم من عدم الزواج لملك الروم النصراني كما عزموا على الفتك به أخذًا للثأر منه لما حصل منه لبني قومهم فدبروا له فيما بينهم مكيدة محكمة، ثم كتبوا له بأن يشرفهم بنفسه ويحضر إليهم لإنجاز الزواج تنفيذًا لرغبته الكريمة وكان حب الفتاة اليهودية الجميلة قد استولى على قلبه ولبه، فعزم على الحضور إليهم بنفسه وحمل معه ما لذ وطاب من فواكه ومأكولات ومن نقود كثيرة وملبوسات فلما وصل إليهم قابلوه أحسن مقابلة وأنزلوه وحاشيته في أحسن قصر من قصورهم الجميلة ثم فتكوا به وبمن كان معه من حاشية وخدم وأتباع في حفلة رسمية أقاموها له ليلة الزفاف المشئوم عليه فاستراحوا بهذه الصورة الدنيئة منه ومن

شره وأخذوا كل ما كان معه فثأروا بهذه الصورة القبيحة لبني قومهم وقتلوا في شخصه عددًا كبيرًا من أعدائهم.

وقال رسول الله ﷺ : «ما اجتمع يهودي قط بمسلم إلا حدّث نفسه بقتله».

ثم هربت اليهود بعد عملهم الشائن هذا إلى الحجاز فأقاموا فيه وسكن المدينة المنورة عدد كبير منهم، وكان علماء اليهود يعلمون صفة رسول الله ﷺ من التوراة وفيها آية أنه سيظهر بمكة المكرمة ثم يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين، فأقبلوا من الشام يطلبون هذه الصفة حرصًا منهم على اتباعه فلما رأوا هذه الصفة الجلية الواضحة في المدينة المنورة- وكانت إذ ذاك تسمى يثرب- قالوا لبعضهم هذا هو البلد الذي نريده فنزلوه وكانوا أهله حتى أتاهم تُبع وقسمت اليهود المدينة المنورة بينهم على النظام الآتي:

١ - قبيلة بني قريظة وإخوانهم بنو النضير نزلوا بالعالية التي نسمها الآن العوالي، وهي قرية جميلة مشهورة، فأخذوا ينشئون الأموال أي البساتين على واديين يُقال لأحدهما مذينيب، ويُقال للآخر مهزور فاختصت قبيلة بني قريظة بوادي مهزور واختصت قبيلة بني النضير بوادي مذينيب فحفروا الآبار الكبيرة الكثيرة الواسعة العظيمة وغرسوا الأشجار ونزلت عليهم بعض قبائل من العرب فكانوا معهم في أسوأ الأحوال وهذا ما يتوقع أن يكون مع يهود في كل مكان.

٢ - أما قبيلة بني قينقاع فكانت مختصة بالصياغة لأنهم كانوا أغنياء جدًا فكانت سوقهم المسماة سوق الصاغة وكانت منازلهم في العالية في الشمال الغربي من المدشونية، وكانت هناك قرى خاصة بهم وأسواق أيضًا يعملون فيها، وهذه

أسماء بعض قبائل اليهود: بنو قريضة، بنو النضير، بنو قحمم، بنو زغوراء، وبنو ماسكة، بنو لقمقة، وبنو زيد اللات وهم رهط عبد الله بن سلام، وبنو قينقاع، بنو حجر، وبنو ثعلبة، وأهل زهرة، وأهل زيالة، وأهل يثرب وهم العيص، وبنو عكوا، وبنو مزاية.

أما قبائل العرب فكانت بني أنيف وهم حي من بلى ويُقال إنهم بقية العمالقة وبني معاوية بن الحارث وبني الجذماء وهم حي عظيم من أحياء اليمن. وكانت اليهود قد اتخذت الآطام[1] لتتحصن بها من أي عدو يأتيها فأنشأت من هذا النوع (٥٩) تسعة وخمسين أطمًا واقتدت بهم العرب فبلغ مجموع ما بناه العرب (١٣) ثلاثة عشر أطمًا، فكان المجموعة كلها (٧٢) اثنين وسبعين أطمًا قبل هجرة سيدنا رسول الله ﷺ. ولما هاجر سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة نهى الأنصار كما نهى المهاجرين عن هدم هذه الآطام وقال لهم صلوات الله وسلامه عليه إنها زينة المدينة المنـورة.

وأمرهم ﷺ ببناء آطام جديدة غير الـ (٧٢) أطمًا السابق ذكرها، فبنى الأنصار والمهاجرون (٥٦) ستة وخمسين أطمًا جديدة تنفيذًا لأمره الكريم فبلغ مجموع الآطام في عهده المنير صلوات الله وسلامه عليه (١٢٨) مائة وثمانية وعشرين أطمًا.

وكانت الآطام فعلاً عز أهل المدينة المنورة قبل الإسلام وبعده وقبل الهجرة

---

(١) الآطام: مفردها أطم، وهو البيت المربع المسطح، ويُقال لها آجام ومفردها أجم، وهي لغة في الآطام، والآطام بلغة أهل المدينة المنورة إذ ذاك هي القصور، وإذا كانت واسعة ومسكونة دائمًا وأبداً بمالكها وسيدها بخدمه وحاشيته تسمى حصن، كحصن كعب بن الأشرف مثلاً، وحصن خل، وحصن سعد بن أبي وقاص... إلى غير ذلك.

وبعدها، فكانوا يتحصنون بها وفيها من كل عدو يقصدهم من الداخل أو الخارج، وكان من هذه الآطام ما يُعرف اسمه ومنها ما لا يُعرف اسمه، إلا باسم سيده، ومنها ما يُعلم اسم مالكه، ومنها ما لا يُعلم عنه ذلك، ومنها ما يُذكر في الشعر، ومنها ما لا يُذكر فيه.

قدوم الأوس والخزرج إلى المدينة المنورة

قدم الأوس والخزرج إلى المدينة المنورة وهم الذين سماهم رسول الله ﷺ بالأنصار لأنهم نصروه وآزروه بعد أن آمنوا به إيمانًا حقيقيًا خالصًا من صميم قلوبهم وأفئدتهم وأحبوه حبًا حقيقيًا وافتدوه بأرواحهم، وقبل هذه التسمية كانوا يُعرفون بـ «بني قيلة»، وقيلة هذه هي الأم التي تجمع القبيلتين.

والأنصار جمع نصير، وسماهم رسول الله ﷺ بهذا الاسم الكريم لأنهم عززوه وأكرموا وفادتهم عليهم كل الإكرام فآووه ومن معه من المهاجرين وقاموا بأمرهم خير قيام وواسوهم بأنفسهم وأموالهم وآثروهم على أنفسهم في كثير من الأمور.

ولبث الأوس والخزرج بالمدينة المنورة ما شاء الله أن يلبثوا وكانت كلمتهم واحدة ثم وقعت بينهم حروب كثيرة كبيرة لم يُسمع في قوم أكثر منها ولا أطول منها، ويُقال إنها بقيت (١٢٠) مائة وعشرين عامًا حتى جاء الإسلام، منها حرب سمير، وحرب كعب بن عمرو، وحرب يوم السرارة، وحرب يوم الديك، وحرب يوم فارع، وحرب يوم الربيع، وحرب حضير بن الأسلت، وحرب حاطب بن قيس، وحرب يوم بُعاث قبل الهجرة بخمس سنين، فلما قَدِم رسول الله ﷺ إلى

المدينة المنورة أكرمهم الله تبارك وتعالى بإيمانهم به جميعًا.

وجاء في كتب السيرة أن النبي ﷺ قَدِم المدينة المنورة وسيد أهلها عبد الله ابن أُبي بن سلول الذي لم يجتمع الأوس والخزرج قبله على رجل من أهل الفريقين غيره، وكانوا قد عزموا على تتويجه ملكًا عليهم بالمدينة المنورة.

فلما قَدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة فقد عبد الله بن أُبي بن سلول عزه وسطوته وسلطانه ومُلكه الذي كاد يتم له بين لحظة وأخرى فحقد على رسول الله ﷺ وأكل الغيظ قلبه واشتد غضبه بقدوم رسول الله ﷺ فكان يدبر له المكائد ويغري به بعض أتباعه، وقصصه في هذه الناحية كثيرة جدًا.

الباب الثاني

فضل المدينة المنورة

فضل المدينة المنورة

المدينة المنورة هي الأرض التي شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تشرُف بمقام الرسول العظيم محمد ﷺ ووفاته ودفن جثمانه الشريف في ثراها المبارك، وهي المحضن الذي تخرجت منه أعظم الأجيال وأرقاها على مر التاريخ، وكانت هجرة الرسول ﷺ للمدينة هي بداية النصر المبين والتمكين للإسلام والمسلمين في الأرض ومنها سطعت الأنوار الإيمانية لتملأ أرجاء المعمورة بأنوار الحق واليقين.

ولقد حملت أرض المدينة فوق أديمها أعظم من أنجبت البشرية من رجال ونساء كانوا النموذج والمثل الذي تتوقف الإنسانية إليه عندما تتطلع للكمال، ومن المدينة المنورة ومن مسجد النبي الكريم خرجت الأنوار لتعم البشرية ولتقيم حضارة الإسلام السامقة لتكون شاهدة على البشرية على مر الأزمان.

ولقد أُطلقت على المدينة المنورة أسماء كثيرة تنم عن تعدد خيراتها وعطائها، منها ما ذكره محمد بن يحيى إذ قال: حدثني عبد العزيز بن عمران عن أبي يسار عن زيد بن أسلم قال: قال الرسول ﷺ للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة وطيبة وطابة والسكينة وجبار ومجبورة ويندد ويثرب. وعن عبد الله بن جعفر قال: سمى الله ﷻ المدينة: الدار والإيمان ... إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

وقد شرُفت المدينة المنورة ببناء أول مسجد في الإسلام صلى به الرسول ﷺ وهو مسجد قباء، ثم مسجد الرسول ﷺ وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وحوى ثراها جثمان الرسول ﷺ وآل بيته وصحابته الكرام فما أعظمها من تربة وما أعظمها من مكان. ولذا لا نعجب من سلفنا الصالح الذين كانوا يتحرجون من الانتقال فيها ركوبًا والسير فوق ثراها منتعلين خشية ومهابة وتبجيلاً لتلك الأرض العظيمة وما تحويه من عظماء وما احتضنته من أحداث جليلة.

وأما الأحاديث الشريفة التي وردت في فضل المدينة المنورة، وفي فضل سكناها، وفي حرمتها، ورعاية الله تعالى لها، وفي دعاء النبي ﷺ لها ولأهلها، فمنها:

١ - ما أخرجه الشيخان، عن جابر بن سمرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى سمى المدينة طابة» أي سماها بذلك لطيب أهلها، وتسمى أيضًا طيبة.

٢ - وأخرجا- أيضًا- عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة- أي ليجتمع وينضم- كما تأرز الحيّة إلى جحرها».

٣ - وأخرج الطبراني عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة قبة الإسلام، ودار الإيمان، وأرض الهجرة ومثوى الحلال والحرام».

٤ - وفي الصحيحين عن جابر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة كالكير، تنفي خبثها، وينصع طيبها»- أي أنها تطرد الأشرار، ويصفو فيها الأخيار.

٥ - وروى الإمام مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «والمدينة خير لهم- أي في الإقامة بها- لو كانوا يعلمون، لا

يتركها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها- أي شدائدها ومتاعبها- إلا كنت له شفيعًا، أو شهيدًا يوم القيامة».

٦ - وفي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن الرسول ﷺ قال في شأن المدينة المنورة: «المدينة حرم ما بين عير وثور- أي ما بين هذين الجبلين اللذين في جنوبها وشمالها- فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا- أي فمن أحدث فيها ما حرمه الله تعالى- أو تستر على من ارتكب جريمة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً- أي لا يقبل منه فرضًا ولا نفلاً، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ..».

٧ - وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «حرم رسول الله ﷺ ما بين لآبتي المدينة أي ما بين الأرض ذات الحجارة السود التي في شرقها وفي غربها، وتسمى الحرة. فهي بين حرتين عظيمتين فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ما ذعرتها أي ما نفرتها، وجعل ﷺ اثني عشر ميلاً حول المدينة حمى» أي حرمًا لها.

٨ - وفي رواية لمسلم أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة- أي شرع حرمتها بأمرك وإذنك- فجعلها حرمًا وإني حرمت المدينة- أي بوحيك لا يراق فيها دم، ولا يُحمل فيها سلاح للقتال، ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف، ولا يختلي خلاها- أي ولا يقطع كلؤها إلا ما تمس إليه الحاجة-، ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أنشدها- أي لمن

عَرّفها وأعلن عنها».

٩ - ومن الأحاديث الشريفة التي وردت في رعاية الله تعالى للمدينة المنورة: ما أخرجه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يكيد أهل المدينة أحد، إلا إنماع كما ينماع الملح في الماء»- أي إلا ذاب وانمحى كما يذوب الملح في الماء- وروى الشيخان أيضًا عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق».

١٠- ومن الأحاديث التي وردت في دعاء النبي ﷺ لها ولأهلها، ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم عن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مُدَنا، وصححها لنا- أي وارزق أهلها الصحة والعافية- وانقل حماها إلى الجحفة»- أي إلى هذا المكان الخارج عنها- وفي رواية أنه ﷺ قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعفي ما جعلت بمكة من البركة اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدَنا- والمراد بالصاع والمدن مكيالان يتعامل بهما أهل المدينة- اللهم اجعل البركة بركتين».

ولقد تضرع عمر بن الخطاب إلى ربه ﷻ، أن يرزقه الموت بالمدينة المنورة، فقد جاء في صحيح البخاري، عن زيد بن أسلم عن أبيه، أن عمر ﷺ قال: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ ».

فما أحرانا أن نقف في خشوع ومهابة ونحن نتنفس هواء المدينة ونستظل بسمائها وهي السماء التي أظلت أعظم نبي وأعظم جيل شرُفت به البشرية من لدن آدم حتى قيام الساعة. وما أحرانا أن نتعرَّف على معالم المدينة الكريمة ونبجلها ونتعلم مما تمثله من أحداث عظيمة وأن نرقى بأنفسنا وشعوبنا وأن نتخذ من سلفنا العظيم المثل والنبراس حتى يعود لنا بعض ما كان له من مكانة وتمكين.

وفي الفصول التالية نحاول قدر الإمكان التعرف على تلك المعالم والأحداث.

الباب الثالث

أهم المساجد بالمدينة

أهم المساجد بالمدينة المنورة غير مسجد الرسول ﷺ

نظرًا لأهمية هذه المساجد الأثرية التي كان أكثرها موجودًا على عهد الرسول ﷺ فقد قام بتسجيلها الكثير من العلماء الأفاضل والمؤرخين على مر العصور، ولقد قمت بزيارة الكثير من هذه المساجد أثناء زياراتي للمدينة المنورة وأحمد الله أن قيض للمسلمين من العلماء الأخيار من اهتم بتسجيل ومراجعة وجود هذه المساجد في الوقت الحاضر مثل الأستاذ محمد إلياس عبد الغني، ومن قبله العلاّمة أحمد ياسين الخياري- جزاهم الله كل خير عما بذلوه في هذا المضمار وجعله الله في سجل حسناتهم .

ولقد اخترت أهم هذه المساجد والتي يستطيع المسلم زيارتها وقمت باختصار تحديد الموقع وتوضيح أهمية المسجد حتى يستطيع الزائر العادي الإفادة من زيارتها دون إجهاده بتفاصيل لا يحتاج إليها .

المسجد	الموقع	الأهمية
١- مسجد قباء	قرية قباء في الجنوب الغربي للمدينة .	أول مسجد بناه الرسول ﷺ بالمدينة المنورة (والصلاة فيه كعمرة) .
٢- مسجد الجمعة أو بني سالم أو مسجد رانوناء أو مسجد عاتكة.	شارع قبة النازل على يمين المتوجه للمدينة- ٨٠٠ متر من مسجد قباء.	صلى به النبي ﷺ أول جمعة بعد وصوله ﷺ إلى المدينة.
٣- مسجد عتبان بن مالك	شمال مسجد الجمعة في الحوش المواجه لمسجد الجمعة.	صلى النبي ﷺ في بيت عتبان ابن مالك الخزرجي فاتخذه مصلى.
٤- مسجد الفضيخ أو مسجد بني النضير	يقع على بعد ١ كم من مسجد قباء عند تقاطع شارع قربان مع شارع العوالي- ضمن الحوش المسور.	قام أبو أيوب الأنصاري مع الصحابة بإهراق الخمر عندما نزلت آيات تحريم الخمر عند مكان المسجد.
٥- مسجد بني قريظة	شرقي مسجد الفضيخ بين مستشفى الزهراء والمستشفى الوطني متفرع من شارع العوالي حتى شارع الأمير عبد المجيد	صلى النبي ﷺ في موضع المسجد أثناء حصار بني قريظة.

المسجـد	الموقع	الأهمية
٦- مسجد الإجابة أو مسجد بني معاوية	٣٨٥ متر شمالي البقيع على العدوة الشرقية لشارع الملك فيصل ويبعد عن التوسعة السعودية للمسجد النبوي ٥٨٠ متر.	استجاب الله تعالى فيه لدعاء النبي ﷺ أن لا يهلك أمته بالسنة أو الغرق.
٧- مسجد السبّق	الجهة الغربية الشمالية من المسجد النبوي الشريف على بُعد ٥٢٠ متر.	في المكان الذي كان يجرى فيه سباق الخيل في عهد النبي ﷺ استعدادًا للجهاد في سبيل الله.
٨- مسجد أبي ذر أو مسجد السجدة	على بُعد ٩٠٠ متر شمال المسجد النبوي الشريف عند التقاء شارعي أبو ذر وشارع المطار.	صلى فيه الرسول ﷺ شكرًا لما أخبره جبريل (من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه) فسجد الرسول ﷺ لله شكرًا.
٩- مساجد منطقة مصلى العيد والاستسقاء - مسجد الغمامة - مسجد أبو بكر الصديق - مسجد علي بن أبي طالب - مسجد عمر بن الخطاب - مسجد عثمان بن عفان	في الجنوب الغربي للمسجد النبوي الشريف قريبًا من باب السلام.	كان النبي ﷺ يصلي في مواقعها صلاة العيد وصلاة الاستسقاء وصلاة الغائب على النجاشي، وكذلك صلى سيدنا أبو بكر العيد في موقع المسجد المسمى باسمه، وسيدنا علي صلى في موقع المسجد المسمى باسمه.

المسجد	الموقع	الأهمية
١٠-مسجد بني دينار أو مسجد المغسلة.	خلف المقر القديم للجوازات بالعنبرية.	كان ﷺ يصلي في مسجد بني دينار الذي عند الغسالين.
١١-مسجد السقيا	داخل سور محطة السكة الحديد في الجهة الجنوبية على يمين المتجه لمكة المكرمة.	من المساجد التي صلى الرسول ﷺ في موقعها.
١٢-مسجد الشيخين.	على يمين النازل من مسجد الشهداء على بُعد ٣٠٠ متر جنوب مسجد المستراح (في منطقة الشيخين.	صلى فيه الرسول ﷺ العصر والمغرب والعشاء وهو خارج لمعركة أحد.
١٣-مسجد المستراح أو مسجد بني حارثة	على يمين القادم من مسجد الشهداء على بُعد ٨٠٠ متر شمالي مسجد الشيخين في منطقة المستراح.	كان من ضمن المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ .
١٤-مسجد الفسح أو مسجد أحد	لاصق بجبل أحد على يمين الذاهب إلى السقيا الذي فيه المهراس تحت الغار الذي يُقال أن النبي ﷺ دخل فيه.	صلى فيه النبي ﷺ بعد انقضاء معركة أحد وصلى قاعدًا من الجراح التي أصابتهﷺ .
١٥-مسجد القبلتين أو مسجد بني سلمة	شمال غربي المدينة المنورة قريبًا من وادي العقيق غربي جبل سلع.	يُقال أن النبي ﷺ أُمر أن يتحول من بيت المقدس إلى الكعبة أثناء صلاته به.

المسجد	الموقع	الأهمية
١٦-مسجد مشربه أم إبراهيم أو البستان الذي وُلدت فيه مارية سيدنا إبراهيم بن سيدنا محمد ﷺ.	شمال مسجد بني قريظة يبعد ٥٠٠ متر عن مستشفى الزهراء وسط المقبرة المسورة.	مكان ولادة سيدنا إبراهيم بن سيدنا محمد ﷺ من مارية القبطية.
١٧-مساجد الفتح الفتح- الأعلى سلمان الفارسي علي بن أبي طالب أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب سعد بن معاذ مسجد الراية	غربي جبل سلع في الساحة المعروفة بساحة المساجد السبعة.	كان يصلي النبي ﷺ في هذه المواقع أثناء غزوة الخندق.
١٨-مسجد الراية أو مسجد ذباب.	على جبل صغير يسمى جبل ذباب بأول طريق العيون على اليسار.	كان يصلي به الرسول ﷺ أثناء حفر الخندق قرب المكان الذي ظهرت فيه معجزة تكسير الصخرة.
١٩-مسجد بني حرام	يقع غرب جبل سلع- ١٠٠ متر خلف المدرسة الثانوية الثامنة للبنات.	في محل دار عبد الله بن حرام الذي وقعت فيه معجزة تكثير الطعام المذكورة في غزوة الخندق.

المسجد	الموقع	الأهمية
٢٠- مسجد الشجرة أو مسجد الميقات أو مسجد ذي الحليفة أو مسجد الإحرام	ميقات أهل المدينة ومن يمر بها- ويقع في منطقة ذي الحليفة أو منطقة آبار علي.	صلى النبي ﷺ بموقع المسجد وكان ميقات الإحرام للمسلمين بالمدينة .

الباب الرابع

معالم وأحداث بالمدينة

سقيفة بني ساعدة

وهي المظلة التي كانت لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج من الأنصار وكانت عند بئر بضاعة، وكانت السقيفة في المدينة المنورة تبنى من قديم الزمان على طريقة أن يبنى جدار غربي، وآخر مثله شرقي، وجدار جنوبي باللبِّن، وتبقى الجهة الشمالية مفتوحة لتكون باردة صيفًا وتسقف بخشب النخيل والجريد والحصي، وبعض السقايف يكون كبيرًا وبعضها صغيرًا.

وسقيفة بني ساعدة لها أهمية خاصة لاعتبارات عدة منها:

١ - أن النبي ﷺ قَدِم إلى السقيفة وجلس فيها وشرب منها الماء فيها.

٢ - كانت بيعة سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ بالخلافة داخل تلك السقيفة.

٣ - كان كثير من الصحابة وخاصة من بني سعدة يجلسون تحت هذه السقيفة.

ومكان هذه السقيفة الآن يقع في الجهة الغربية من التوسعة السعودية للمسجد النبوي الشريف وذلك على بُعد حوالي ٢٠٦ متر في شمال مثلث السلطانية ويوجد مكانها حاليًا بستان في الناحية الشرقية ومحطة للكهرباء في الناحية الغربية.

البقــيع

وهو مقبرة أهل المدينة المنورة منذ القدم، وكان يقع خارج المدينة، أما الآن فقد أصبح في داخلها وذلك لاتساعها، وكان يسمى بـ «بقيع الغرقد»، وكلمة

البقيع تعني المكان الذي فيه أصول الشجر من ضروب شتى. والغرقد اسم شجر شوكي ينبت في هذا المكان بكثرة.

وقد ضُم لهذا المكان لتوسعته ما يسمى ببقيع العمّات وهو المكان المدفون فيه عمّات الرسول ﷺ ، وكذلك ضُم إليه أراضي الزقاق والمثلث بما يوازي حوالي ٥٩٢٩ متر مربع وذلك في عهد المرحوم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز- طيب الله ثراه- وأُحيط بسور خرساني وأُنشئت فيه طرق أسمنتية. وتمت توسعته مرة أخرى في العهد السعودي الميمون بأمر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد- حفظه الله- وذلك بضم مساحات إليه من الجهة الجنوبية والشرقية فأصبح إجمالي مساحته بعد التوسعة الثانية حوالي ١,٧٤,٩٦٢ متر مربع، وأُحيطت المقبرة بسور جميل ارتفاعه ٤ متر وطوله ١٧٢٤ متر.

وقد دُفن بالبقيع نحو عشرة آلاف من الصحابة وعدد كبير من التابعين وأتباعهم، ودُفن فيه جميع زوجات الرسول ما عدا السيدة خديجة والسيدة ميمونة- رضي الله عنهن- وقد دُفنوا بمكة المكرمة، وكذلك دُفن فيه من أولاد النبي ﷺ سيدنا إبراهيم والسيدة فاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب ﷺ ، ودُفن فيه سيدنا عثمان ابن عفان، حيث دُفن رضي الله عنه في بستان له يسمى (حش كوكب) بعد أن منع الثوار دفنه في البقيع، وبعد توسعة البقيع ضُم البستان لمقبرة البقيع من الناحية الشرقية، ودُفن فيه سيدنا عبد الرحمن بن عوف بجانب سيدنا عثمان بن مظعون ﷺ، ويعتبر سيدنا عثمان بن مظعون أول من دفنوه في البقيع من المهاجرين. عن محمد ابن قدامة بن موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «ادفنوا عثمان بن مظعون بالبقيع يكن لنا سلفًا فنعم السلف سلفنا عثمان بن مظعون».

وكذلك دُفن في البقيع سيدنا العباس بن عبد المطلب وأختاه صفية وعاتكة.

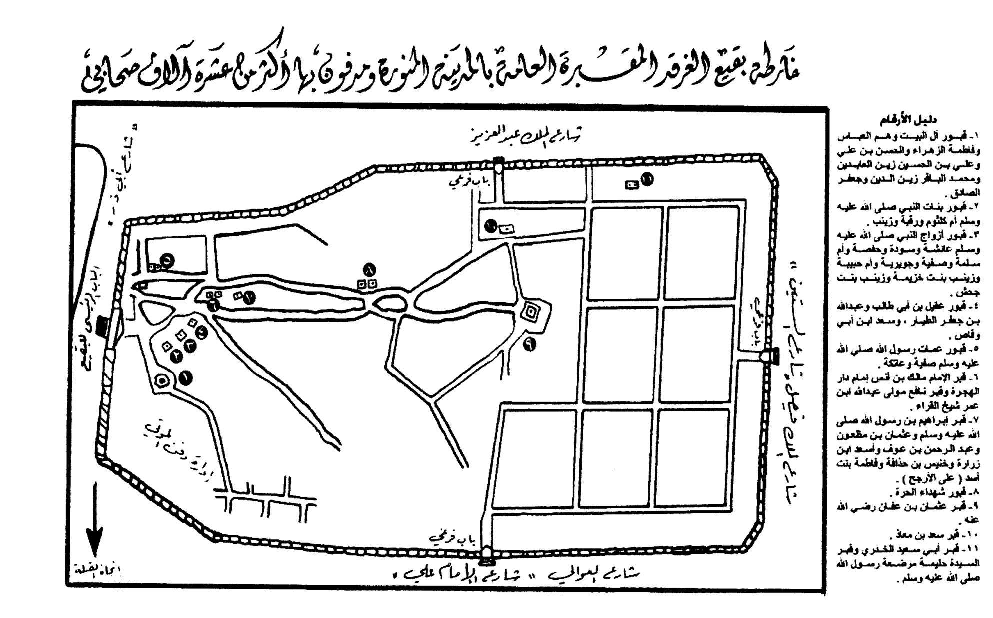
ودُفنت بالبقيع السيدة فاطمة الزهراء وابنها سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب، وسيدنا عقيل بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر الطيار، وعلي زين العابدين بن الحسين، وجعفر الصادق رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المدفونين بالبقيع سيدنا أسعد بن زرارة الذي يعتبر أول صحابي من الأنصار يُدفع بالبقيع، وعن محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال «أول ميت بالمدينة أسعد بن زرارة أبو أمامة ودفنه بالبقيع و لم يكن قبل ذلك صلاة على الجنائز». وعبد الله بن مسعود وسعد بن معاذ وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم أجمعين، ودُفن فيه الإمام مالك بن أنس ونافع (وشهداء الحرة سنة ٦٣ هجرية) ﷺ، وقد أنشئت على القبور في العهود السابقة قبل العهد السعودي الميمون قبابًا وظلت هذه القباب إلى أن قام النجديون بهدمها خوفًا من انتشار البدعة وبقيت جميع القبور بدون قباب وتم ذلك عام ١٩٢٠م.

ولقد قال المستشرق الحاج عبد الله برخارت في كتابه عن جولاته في بلاد العرب: «لقد بلغت المدينة من الغنى برفات القديسين العظماء ما كاد أن يفقد معه كل من هؤلاء جلال العناية بذاته، على حين تكفي بقية من المدفونين بالبقيع لتجعل لأية مدينة إسلامية أعظم الشهرة !!».

* * *

خارطة بقيع الغرقد المقبرة العامة بالمدينة المنورة ومدفون بها أكثر من عشرة آلاف صحابي



دليل الأرقام

١- قبور آل البيت وهم العباس وفاطمة الزهراء والحسن بن علي وعلي بن الحسين زين العابدين ومحمد الباقر زين الدين وجعفر الصادق.

٢- قبور بنات النبي صلى الله عليه وسلم أم كلثوم ورقية وزينب.

٣- قبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وسودة وحفصة وأم سلمة وصفية وجويرية وأم حبيبة وزينب بنت خزيمة وزينب بنت جحش.

٤- قبور عقيل بن أبي طالب وعبدالله بن جعفر الطيار، وسعد ابن أبي وقاص.

٥- قبور عمات رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية وعاتكة.

٦- قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وقبر نافع مولى عبدالله ابن عمر شيخ القراء.

٧- قبر إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وأسعد ابن زرارة وخنيس بن حذافة وفاطمة بنت أسد (على الأرجح).

٨- قبور شهداء الحرة.

٩- قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه.

١٠- قبر سعد بن معاذ.

١١- قبر أبي سعيد الخدري وقبر السيدة حليمة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الدور الأثرية المشهورة بالمدينة المنورة

– دار أبي أيوب الأنصاري :

هذه الدار نزلها رسول الله ﷺ والمسماة بدار أبي أيوب الأنصاري، بناها له تُبع ملك حمير، واسمه «تبان أسعد بن كلكيكرب» وهو من التبابعة بل هو رأسهم وأولهم وزعيمهم وسيدهم وذلك لما مر بالمدينة المنورة وكان معه أربعمائة عالِم متفقين ألا يخرجوا من المدينة المنورة فسألهم تُبع عن سر ذلك الاتفاق، فقالوا: إنا نجد في كتابنا أن نبيًّا اسمه «محمد» أو «أحمد» هذه دار هجرته فنحن نقيم هنا لعلنا نلقاه فنؤمن به نحن أو أولادنا، فأراد تُبع أن يقيم معهم فبنى لكل واحد من العلماء الأربعمائة دارًا واشترى له جارية وزوجها منه ثم أعطى كل واحد منهم مالاً جزيلاً وكتب كتابًا فيه إسلامه جاء فيه ما نصه حرفيًّا:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيرًا له وابن عم

وختمه بالذهب ودفعه (أي أعطاه) إلى كبير العلماء وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ إن أدركه هو أو أولاده أو أولاد أولاده، وبنى للنبي ﷺ دارًا ينزلها إذا قدم المدين المنورة فتداول الدار الملوك من العلماء وأبنائهم إلى أن صارت في نوبة أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عليه النبي ﷺ، وهو من أولاد العلماء الذين تولوا حكم المدينة المنورة، وأهل المدينة المنورة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء، فعلى هذا إنما نزل رسول الله ﷺ في منزله نفسه المملوك له بطريق الهبة أو الهدية من تُبع ملك حمير لا منزل غيره، وإنما كان أبو أيوب الأنصاري حارسًا للدار وحافظًا لها فقط لا غير، فأقام رسول الله ﷺ في منزله حتى ابتنى مسجده ﷺ .

وقد ذكر الإمام السهيلي أن هذه الدار بعد أبي أيوب الأنصاري إلى مولاه «أفلح» وأن أفلح هذا باعها إلى المغيرة بن عبد الرحمن بألف دينار ثم اشتراها الملك شهاب الدين غازي بن الملك العادل أخي نور الدين الشهير وبناها مدرسة سُميت بالمدرسة الشهابية نسبة إليه.

– دار عمر بن الخطاب التي كانت تسمى بـ «دار القضاء»:

هذه الدار كانت تحت المدرسة المحمودية أي تحت جدارها الشمالي بجانب باب الرحمة، وهي عبارة عن سرداب تحت الأرض، وقد زالت المدرسة المحمودية ضمن التوسعة السعودية للمسجد النبوي الشريف وزالت معها الدار المذكورة.

– دار خالد بن الوليد :

تقع هذه الدار بجانب دار أبي بكر الصديق ﷺ وهي الآن بيت السمان– رحمه الله– أو زاوية السمان، وكانت آنذاك ضيقة فاشتكى خالد ضيقها لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ «ارفع البناء في السماء وسل الله السعة».

هذه الدار أُزيلت وأصبحت الآن ضمن الشارع العام الشرقي للحرم الشريف النبوي من جهة باب النساء، وجزء من هذه الدار هو الجزء الخلفي داخل في عمارة حاكم باكستان التي أنشأها له صاحب الجلالة الملك سعود المعظم.

– دار جعفر بن أبي طالب ﷺ :

قال له الرسول ﷺ «أشبهت خَلقي وخُلقي واستشهد في مؤتة» وقال الرسول ﷺ : «رأيت جعفر يطير مع الملائكة في الجنة». ولذا اشتهر بجعفر الطيار، وكان داره مطلة على المسجد من ناحية القبلة وأُدخل منها جزء في المسجد في توسعة سيدنا عمر بن الخطاب، ثم أدخل باقيها بالمسجد في عهد سيدنا عثمان،

وكانت دار العباس تحدها من الغرب.

– دار العباس بن عبد المطلب ﷺ :

عم رسول الله ﷺ ، وكانت له السقاية وعمارة المسجد الحرام، وموقع الدار يبدأ من الأسطوانة الخامسة من المنبر وتمتد إلى الغرب، وقد أُدخلت في توسعة المسجد على ثلاثة أجزاء- جزء في توسعة سيدنا عمر، ثم أُدخل جزء آخر في توسعة سيدنى عثمان، وضُم الجزء الثالث في توسعة عمر بن عبد العزيز.

– دار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

وكانت داره تقع في الجهة الجنوبية للمسجد مما يلي الشرق وكانت فيها الأسطوانية التي كان بلال يؤذن عليها في عهد رسول الله ﷺ. قال البتانوني في الرحلة الحجازية سنة ١٣٢٧هـ : «كانت منازل آل عمر ﷺ إلى جنوب المسجد الحرام ويوجد إلى الآن بستان ملاصق للحرم في اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرمًا له وبه باب من خارجه مكتوب عليه ديار آل عمر». وقد أُزيلت الآن في التوسعة السعودية الأولى ١٩٥٥م- والشباك الحديدي الموجود في الدار القبلي المقابل للواجهة الشريفة في موضع خوخة آل عمر (باب صغير أو فتحة في الجدار) التي كانوا يدخلون منها إلى المسجد.

– دار مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي :

وهو خليفة المسلمين الأموي في نهاية سنة ٦٤هـ وكانت داره في الجنوب الغربي من المسجد مما يلي باب السلام، وتحدها شرقًا دار عبد الله بن عمر، وظلت هذه الدار مقرًا لأمراء المدينة من بعده إلى عصر السلطان قلاوون، وقد أُزيلت أثناء التوسعة السعودية الأولى.

– دار سيدنا عثمان بن عفان ﷺ (الملقب بذي النورين):

كان له ﷺ داران متصلتان ببعضهما في الجهة الشرقية من المسجد مقابل باب جبريل عليه السلام.

الدار الكبرى :

كانت في الجهة الشرقية من المسجد مقابل باب جبريل، ويحدها جنوبًا زقاق الحبشة بينها وبين دار أبي أيوب الأنصاري، وشمالاً زقاق البقيع الذي بين داره ودار أبي بكر الصديق، وشرقًا داره الصغرى، وغربًا مصلى الجنائز، وفي هذه الدار استشهد سيدنا عثمان بعد أن حوصرت داره. والأرجح أنه ﷺ استشهد في الجزء الجنوبي من هذه الدار، وبعد هذا اشترى جزء من هذه الدار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ودُفن فيها هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وظل جزء من الدار يستخدم كمسكن لشيخ الحرم إلى أن أُزيلت في التوسعة السعودية.

الدار الصغرى :

متصلة بالدار الكبرى من جهة الشرق وهي الدار التي تسورها الثوار ودخلوا على سيدنا عثمان في داره الكبرى وقتلوه ﷺ ، وقد أُزيلت هذه الدار ضمن التوسعة السعودية.

– دار سيدنا علي والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما:

كانت شمال بيت السيدة عائشة- رضي الله عنها- وأُدخل جزء منه ضمن الحائز المخمس الذي بناه عمر بن عبد العزيز حول الحجرة الشريفة وبقي الجزء الآخر خارج الحائز المخمس من جهة الشمال.

– دار أبو بكر الصديق :

أول خليفة للمسلمين بعد رسول الله ﷺ وكان له داران :

الدار الأولى :

تقع الدار الأولى في الجهة الشرقية من المسجد مقابل دار عثمان الصغرى وفيها توفي سيدنا أبو بكر ﷺ .

الدار الثانية :

أما الدار الثانية فكانت ملاصقة للمسجد من الجهة الغربية، لها باب من الخارج وخوخة إلى الداخل، وقد أمر الرسول ﷺ أن تُسد كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر، وقد أُدخلت الدار ضمن توسعة عهد سيدنا عمر وفُتح باب حذاء الخوخة وحوفظ على موقع الخوخة في كل التوسعات اللاحقة وهي الآن في محاذاة الفتحة الجنوبية من ضمن الثلاث فتحات الكائنة بباب الصديق الحالي.

– دار خالد بن الوليد (سيف الله المسلول):

وكانت داره في الجهة الشرقية من المسجد وهي الدار التي شكى ضيقها إلى الرسول ﷺ ، فقال النبي ﷺ ارفع في السماء وسل الله السعة وكانت تحدها من الشمال دار عمرو بن العاص ﷺ وقد دخلت ضمن توسعة المسجد في العهد السعودي- قرب باب الملك عبد العزيز حاليًا- وقال د. محمد حسين هيكل (خالد الذي ضاقت الأرض بفتوحه شرقًا وغربًا في فارس وفي بلاد الروم تكون داره بهذا الضيق).

– دار عمرو بن العاص ﷺ :

وهو فاتح مصر والمدفون بالمقطم وداره مطلة على المسجد من الجهة

الشرقية شمال دار خالد بن الوليد ﷺ .

– دار عبد الرحمن بن عوف ﷺ :

وهو أحد العشر المبشرين بالجنة وكانت له دار تقابل أول باب من الجهة الشمالية الشرقية وكانت تسمى دار الضيفان، حيث كان سيدنا عبد الرحمن بن عوف يُنزل بها ضيوف رسول الله ﷺ ، وقد أُدخلت في توسعة المسجد النبوي بعد ذلك.

– دار عبد الله بن مسعود ﷺ والمعروف بـ (ابن أم عبد):

وكانت داره في الجهة الشمالية من المسجد يُقال لها دار القرّاء، وقد دخل جزء منها في المسجد في توسعة عمر بن عبد العزيز، والجزء الآخر في توسعة المهدي.

– دار عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :

وكانت شمال غرب المسجد.

– دار طلحة بن عبد الله ﷺ :

أحد العشر المبشرين بالجنة، وكانت داره في الجهة الغربية من المسجد غرب دار عبد الله بن جعفر.

– دار الزبير بن العوام ﷺ :

وهو أحد العشر المبشرين بالجنة وابن عمة الرسول ﷺ وحواريه، وكانت داره في الجهة الغربية من المسجد غربي دار طلحة بن عبد الله.

– دار سكينة بنت الحسين بن علي ﷺ :

وكانت سيدة نساء عصرها وأظرفهن وأحسنهن أخلاقًا وكانت دارها في

الجهة الغربية من المسجد في الموضع المقابل الآن لباب الملك سعود، وقد دخلت ضمن التوسعة السعودية.

– دار حسان بن ثابت ﷺ شاعر رسول الله ﷺ :

وكان له أطم في الجهة الغربية من المسجد، وأدخل النبي ﷺ أهله في هذا الأطم أثناء غزوة الخندق، وقد أُدخلت ضمن توسعة المسجد.

– دار عمر بن الخطاب ﷺ ثاني الخلفاء الراشدين :

وكانت داره في الجهة الغربية من المسجد وسُميت بدار القضاء؛ لأن سيدنا عمر أمر حفصة وعبد الله ابنيه– رضي الله عنهما– أن يبيعاها عند وفاته لقضاء دين كان عليه ودخلت ضمن التوسعة السعودية في المسجد.

– دار معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية :

وكانت داره في الجهة الغربية من المسجد، وقد أُزيلت ضمن التوسعة.

– دار عمار بن ياسر ﷺ :

وقال لهم الرسول ﷺ (صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، وكانت داره في الزاوية الجنوبية الغربية من المسجد وتقع غرب دار العباس بن عبد المطلب، وقد أُدخلت في التوسعة.

– دار رباح الأسود ﷺ غلام الرسول ﷺ :

وكانت داره في الجهة الغربية من المسجد عند باب السلام، وقد أُدخلت ضمن توسعة المسجد.

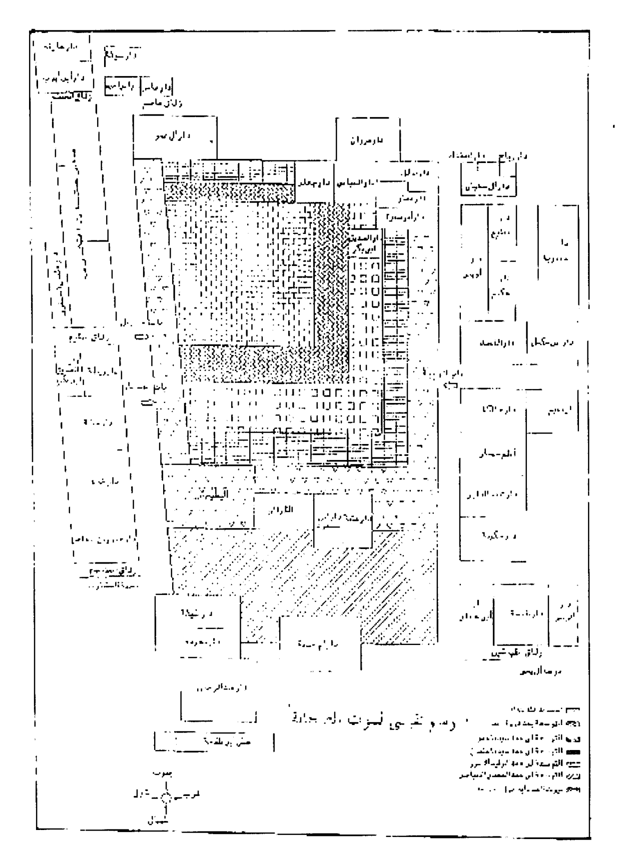
– دار أبو سفيان بن حرب بن أمية ﷺ :

وكانت داره في الجهة الغربية من دار مروان، وقد دخلت ضمن توسعة المسجد.

– **دار التابعة من بني النجار :**

وكانت قريبة من باب السلام بالمسجد النبوي الشريف وأُزيلت عند توسعة المسجد، وهي الدار التي دُفن فيها سيدنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم والد الرسول ﷺ، (وفي أسد الغابة) أن عبد المطلب أرسل إلى المدينة ابنه الزبير شقيق عبد الله فشهد وفاته ودُفن في دار التابعة وهو رجل من بني عدي بن النجار، وقد ورد في السيرة الحلبية أنه ﷺ لما هاجر للمدينة ونظر إلى تلك الدار قال «هنا نزلت أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار)، ومن الواضح أنه بعد التوسعة السعودية الكبرى في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله احتلت مساحة المسجد النبوي الشريف مكان المدينة المنورة على عهد الرسول ﷺ بكاملها، ولذا فقد أُدخلت كافة الدور والآثار الأخرى ضمن التوسعة الكبرى.

* * *



بيوت الصحابة رضي الله عنهم حول المسجد النبوي الشريف

القصور الأثرية المشهورة بالمدينة المنورة

– قصر إسماعيل بن الوليد :

يقع هذا القصر على بئر إهاب بالحرة الغربية.

– قصر بني جديلة :

يقع هذا القصر قرب بئر حاء قرب ميدان باب المجيدي.

– قصر خل أو حصن خل :

يقع هذا القصر أو الحصن بظاهر الحرة غربي وادي بطحان أي غرب المنطقة المعروفة بأم هاني.

– قصر بني يوسف مولى عثمان :

يقع هذا القصر في الشمال الشرقي من البقيع، أي بقيع الغرقد.

– قصر إبراهيم بن هشام :

يقع هذا القصر دون دور بني أمية بن زيد بالناعمة.

– قصر هشام بن عبد الملك أو قصر مسلمة بن عبد الله بن عروة ابن الزبير بن العوام :

هذا القصر يكون على شمالك في ذهابك إلى ذي الحليفة «آبار علي» وهو قائم على جبل مرتفع ويحتوي على غرف كثيرة ومنافع كثيرة مثل دورات المياه ومطبخ وفرن ومسجد وبئر عظيمة وساحة عظيمة داخل القصر تحت السماء لتهوية القصر ومحتوياته، و لم يبق منه الآن إلا أطلال تحدثنا عن تاريخه السابق المجيد، وفي الجانب الشمالي للجبل والقصر المذكور توجد صخرة كبيرة مكتوب عليها بالخط الكوفي ما نصه حرفيًا :

«أنا مسلمة بن عبد الله بن عروة بن الزبير أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، على ذلك أحيا وأموت وأُبعث إن شاء الله».

– قصر عنتر :

يقع هذا القصر بين الجرف وحصن سعد بن أبي وقاص الذي يقع غربي وادي العقيق.

– قصر عروة بن الزبير وبئره :

كان قصر عروة بن الزبير أحسن القصور وأجملها ويحدثنا هو بنفسه عن قصره فيقول:

«إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لما أخذ من بلال بن الحارث ما أخذه من العقيق وقف في موضع بئر عروة بن الزبير التي عليها سقايته وقال: أين المستقطعون فنعم موضع الحفيرة، فاستقطعه ذلك فوات بن جبير الأنصاري ففعل، قال مصعب بن عثمان فقرأت كتاب قطيعته أرض عروة بن الزبير بالعقيق في كتب عروة ما بين حرة الوبرة إلى صفيرة المغيرة بن الأخنس، ويحدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال: لما أقطع عمر العقيق فدنا من موضع قصر عروة وقال: أين المستقطعون اليوم فوالله ما مررت بقطيعة شبه هذه القطيعة فسألها فوات فأقطعها له وكان يُقال لموضعها «خيف حرة الوبرة» فلما كانت ٤١هـ أقطع مروان بن الحكم عبد الله بن عباس بن علقمة ما بين الميل الرابع من المدينة إلى حفيرة أرض المغيرة ابن الأخنس بالعقيق إلى الجبل الأحمر الذي يطلعك على قباء.

قال هشام: فاشترى عروة موضع قصره وأرضه وآباره من عبد الله بن عباس وابتنى وحفر وحجر وضفر وقيل له إنك لست بموضع مدر فقال يأتي الله به

من النقيع فجاء سيل فدخل في مزارعه فكساها من خليج كان خلجه، وكان بناه جنابذ جمع جُنبذ بضم الجيم وهو ما ارتفع واستدار كالقبة.

وقال هشام وكان لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الناحية الأخرى المراجل وقصر أمية والمنيف والآبار التي هناك مع المزارع فاستفتى عبد الله هذا العالم الكبير عبد الله بن عبد الله بن عمرو على عروة وقال له في استفتائه ما نصه: إنه حمل على حق السلطان فهدم عمر بن عبد العزيز جنابذه وضفائره وسد آباره فقدم رجل من آل خالد بن أسعد بن أبي العيص بن أمية من السفر يريد الوليد فسأل عن عروة فأخبره عن قصته فقدم على الوليد فسأله عن عروة وعن حاله فأخبره بما حصل عليه فكتب إلى عمر بن عبد العزيز ما نصه: «ما عروة ممن يتهم فدعه وما استقصى من حق السلطان».

فبعث إليه عمر وقال له كتبت فيه إلى أمير المؤمنين فقال: ما فعلت؟ فقال: اذهب فاصنع ما بدا لك. فقال عروة: «جزعوا من جنابذ بنيتها والله لأبنينه بناء لا يبلغونه إلا بشق الأنفس فبنى قصره هذا البناء وهيل بئاره فقال له ابنه عبد الله يا أبتاه لو تبدلت بئارًا فحفرتها لكان أهون في العزم، فقال لا والله إلا هي بأعيانها وأنشأ عروة يقول:

بنيناهـا فأحسـنـا بناهـا	بحمد الله في خير العقيـق
نراهم ينظرون إليه شـذرا	يلوح لهم على وضح الطريق
فساء الكاشحين وكان غيظا	لعدائي وسر بـه صـديقي
يـراه كـل مرتفـق وسـار	ومعتمر إلى البيـت العتيـق

ويروي لنا مصعب بن عثمان فيقول: لما كتب الوليد إلى عامل المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز في شأن عروة بن الزبير ما كتب مما ذكرناه سابق ولى عروة حفيده عمر بن عبد الله بن عروة بناء قصره فلما كثرت النفقة فيه لقيه عمه يحيى بن عروة فقال يا ابن أخي كم أنفقت؟ قال: كذا وكذا، قال: هذه نفقة كثيرة لو علم بها أبي لاقتصر في بنائه فأخبره بذلك فأخبر عمر جده فقال: لقيك يحيى؟ قال: نعم، قال: إنما أراد أن يعوق على بنائي أنفق ولا تحسب فأنفق ولم يحسب حتى فرغ وحفر آبارًا إحداهن بئر السقاية والثانية بئر تدعى العسيلة والثالثة بئر القصر.

– قصر عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان :

يقع هذا القصر في شرقي جماء تضارع المشرفة على قصر عروة وعلى الوادي بواجهة بئر عروة بن الزبير والجماء المذكورة تسيل على قصر عاصم وعلى بئر عروة، ولا زالت آثار القصر موجودة حتى الآن.

– قصر عنبسة بن عثمان بن عفان :

يقع هذا القصر إلى جانب الجماء بعد أن تجاوز المصعد يريد البطحاء، وهو الذي قال فيه الشاعر :

يـا قصر عنبسة الـذي بالرابـع ... لا زلـت تؤهـل بالحيا المتتابـع
فلقد بنيت على العطاء وبنيت ... تلك القصور على ربا ورفائـع
يـا رب نعمـة ليلـة قـد بتهـا ... بفنائك الحسن المنيف الواسـع

– قصر سعيد بن العاص :

يقع هذا القصر في العرصة الصغرى من العقيق وكان طوله نحو ٣٦ مترًا،

وعرضه ٢٧ مترًا، وارتفاع أطلاله الباقية نحو ٩ أمتار، وسُمك جدرانه ٧٥ سنتيمترًا، وبناؤه بالحجارة المتوسطة الحجم وبالجص، وحجارته غير منحوتة ولا أثر فيها لكتابة، إنما توجد في بعض أروقته ونوافذه نقوش على الجص وزخارف بالطوب المحصص وقد تهدم من ناحيته الجنوبية الشرقية، وتوجد في جنوب القصر «دكة» مندثرة لعلها كانت معدة للجلوس والسمر.

وترى بمقربة منه من الناحية الجنوبية الشرقية سلسلة أكوام يعلوها رمل الوادي الأحمر وهي آثار قد تكون الدور المسماة بـ«القرائن» التي كانت لـ «بني سعيد» على ما رواه الأصفهاني في كتاب الأغاني.

ويقع القصر المذكور في ضاحية المدينة المنورة الشمالية الغربية، وهذا القصر ابتناه سعيد بن العاص بالعرصة الصغرى، وسعيد بن العاص هو أحد أمراء المدينة المنورة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وهو من مشاهير أجداد بني أمية، وقد كان معجبًا بقصره هذا كل الإعجاب؛ ولذا خصصه للنزهة، مما يدلنا على مبلغ عنايته بتشييده.

وروى المؤرخ «البتنوني» في رحلته المسماة بالرحلة الحجازية ما نصه:

«وكان هذا القصر آية في الجمال والفخامة؛ بل كان آية من آيات القرن الأول الهجري وأعجوبة من أعاجيبه، حتى فضله الشاعر على أبواب جيرون «دمشق» التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة ومكان فخامتها.

والشاعر هو أبو قطيفة إذ يقول:

القصر فالنخل فالجماء بينهما ... أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

أما آثار القصر في الوقت الحاضر فهي باقية في الجنوب الشرقي داخل سور

القصر الملكي بسلطانة .

ومع الأسف فإن الأدوار التاريخية الصعبة التي مرت بها المدينة المنورة لم تبق من هذه القصور غير الأطلال، أو مجرد أحجار تدل عليها وهو الغالب في أكثر الأحيان، فسبحان مقلب الأحوال.

* * *

الجبال المشهـورة بالمدينة المنورة

– جبل أحـد :

قال رسول الله ﷺ : «أحد جبل يحبنا ونحبه»، وقال أيضًا: «أحد جبل من جبال الجنة»، وسُميت موقعة أحد المشهورة باسمه، وقال فيه رسول الله ﷺ : «إن جبل أحد هذا لعلى باب من أبواب الجنة» الحديث، وقال أيضًا: «أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» الحديث.

أما سبب تسميته بـ «أحد» فهو توحده عن الجبال التي حوله وانقطاعه عنها، ولون جبل أحد أحمر، كما ذكر مؤلف «مرآة الحرمين» فإننا قد وجدنا فيه هضبات وصخورًا وعروقًا مختلفة الألوان بعضها يميل إلى الزرقة والبعض أسود إثمدي والبعض رمادي اللون والبعض أخضر، وقد لفت نظري بوجه خاص ما لاحظته في بعض عروقه بالطريق الذي صعدنا منه إلى قبة هارون وهو أن بعض تلك العروق إشراقًا وفي بعضها اخضرارًا زاهيًا.

وقد ذكرت فيه قبة هارون وهي مشهورة عند أهل المدينة وهي عبارة عن غرفة لها أربعة جدران مكشوفة أي بدون سقف، وبجانبها الغربي الشمالي صهريج

ماء، وهو ما ذكره الإمام السمهودي في قوله «وفي أعلى جبل أحد بناء اتخذه بعض الفقراء قريبًا، والناس يصعدون إليه».

– جبل سلع أو جبل ثواب :

هو جبل عظيم شامخ في المدينة المنورة خارج باب الشامي ولون أحجاره سوداء بوجه الإجمال، ويُقال إن هذا الجبل يحتوي على مادة الأسمنت ولكن لم تتحقق هذه التجربة بعد، وفي شرقيه موضع يُقال له «دكة جلال» نظمها شخص يسمى بهذا الاسم، وفي سفحه الغربي كهف ومسجد «بني حرام» الذي كان النبي ﷺ يبيت فيه كما تقدم ذلك في المساجد، وفي علو سفحه الجنوبي كتابة كوفية أثرية قديمة، نصها على ما رواه صاحب مرآة الحرمين: «أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يشكوان إلى الله من كل ما يكره، يقبل الله عمر، الله يعامل عمر بالمغفرة»، والله أعلم.

– جبل سليع :

هو الجبل الصغير الذي يقع جنوب «سلع»، وفيه كانت بيوت بني أسلم من المهاجرين في عهد النبي ﷺ، وفوقه اليوم أحد أبراج قلعة باب الشامي، كما كان عليه في القرن التاسع حصن أمير المدينة المنورة من الأشراف، بناه الأمير ابن شيخة في القرن السابع ليتحصن به وليكشف منه ضواحي المدينة المنورة.

ويقول السيد جعفر برزنجي في «نزهة الناظرين» إن هذا الحصن هو القلعة المعروفة عند باب السور المعروف بـ «باب الشامي».

وقال السيد العباسي: إن القلعة المذكورة هي في مكان الحصن وإنها من مبتنيات الدولة العثمانية، ويفصل بين سليع وسلع هضبة بشماله طريق يؤدي إلى

موقع المجزرة «المسلخ» القديمة التي منَّ الله عليها واشترتها وزارة المعارف الجليلة وأقامت عليها مبنى في منتهى الجمال عام ١٣٨٠هـ واتخذته مقرًا للمدرسة الناصرية بالمدينـة.

– جبل عينين أو جبل الرماة :

هو جبل صغير يغلُب على لونه الاحمرار، ويقع جنوب ضريح سيد الشهداء حمزة ﷺ، ويفصل بينهما وادي قناة، وفي ركن الجبل الشرقي مسجد صغير مأثور وهو مكشوف ومبني بالحجارة غير المنحوتة وبالجير ويُعرف بمسجد المصرع، وفي أعلى جبل الرماة هذا بيوت قديمة لبعض أهل المدينة المنورة، وهذا الجبل سمي بجبل الرماة لأن النبي ﷺ وضع خمسين شخصًا من أصحابه عليه في غزوة أحد وهم من أمهر الرماة وأمرهم أن لا يغادروا الجبل سواء انتصر المسلمون أم انهزموا، وهو لا يزال يُعرف بجبل الرماة.

– جبل المستندر :

هو جبل صغير يبلغ ارتفاعه نحوًا من ثلاثة إلى خمسة أمتار وهو بجانب البستان الداودية الذي أنشأه داود باشا عام ١٢٦٥هـ الذي خرج على الدولة العثمانية، كما كان واليًا لها على بغداد وقد عينته بعد ذلك شيخًا للحرم النبوي الشريف فأنشأ هذا البستان الذي يحمل اسمه، كما أنشأ سبيلاً على هذا الجبيل الصغير وإيوانًا له، وهو الآن خلف مستشفى صاحب الجلالة الملك المعظم خارج باب الشامي وخلف إدارة الجمرك، والبناء باق حتى الآن على الجبل المذكور، وقد بُني أمام هذا السبيل والجبل مبنى حديث اتُخذ مقرًا لأحد مراكز الأمن العام بالمدينة.

– جبل عَيْر :

تُقرأ بفتح العين وسكون الياء، ويُقال عاير، وهو جبل مشهور واقع في قبلة المدينة المنورة شرقي العقيق قرب ذي الحليفة، وهو أحد حدود المدينة المنورة التي حرَّم الرسول عليه الصلاة والسلام الصيد بينها وفوقه جبل آخر بنفس الاسم، ويقال له عير الصادر وللأول عير الوارد، وفيها يقول الأحوص:

أقوت رواوة من أسماء فالحمد   فالنعف للسفح من عيرين فالسند

وفي الحديث «أُحد على ركن من أركان الجنة، وعير على ركن من أركان النار». وفي رواية لابن ماجه بإسناد واهٍ «إن أُحد جبل يحبنا ونحبه وهو على ترعة من ترع الجنة، وعير على ترعة من ترع النار»، والله أعلم.

– جبل ثـور :

جبل صغير أحمر اللون يقع خلف جبل أُحد شمال المدينة المنورة، وقد اختلف كثير من العلماء والمؤرخين على وجوده بالمدينة المنورة، وأكد بعضهم عدم وجوده بالمدينة المنورة وقالوا ليس بالمدينة ثور وإنما هو بمكة المكرمة، ولهذا جاء في أكثر روايات البخاري من عير إلى كذا، ولم يبين النهاية وترك بعض الرواة موضع ثور.

أشهر آبار المدينة

١ - **بئر أريس**: وتقع داخل حديقة وعمقها ١٢ مترًا، وفي أسفلها فتحتان يجري منهما الماء إلى قاع البئر، وفتحة ثالثة تصلها بمجرى العين الزرقاء التي يشرب منها أهل المدينة.

وأريس الذي سُميت البئر باسمه رجل من اليهود، ومعناه بلغة أهل الشام الفلاح.

وتسمى بئر الخاتم لأن بها وقع خاتم الرسول ﷺ ، أخرج البخاري في صحيحه من حديث أنس، قال: كان خاتم رسول الله ﷺ في يده، وفي يد أبي بكر بعده، وفي يد عمر بعد أبي بكر، قال: فلما كان عثمان جلس على بئر أريس فأخرج الخاتم فجعل يعبث به فسقط قال: فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان نبرح البئر فلم نجده.

وكان ذلك بعد ست سنوات من خلافته، وثبت عن ابن عمر في صحيح مسلم أنه سقط في يدي معيقيب وهو دوسي من أصحاب الهجرتين، وفي صحيح البخاري حديث طويل فيه أنه ﷺ ذهب إلى بئر أريس فتوضأ منها وجلس على قفها (المرتفع منها) وكشف عن ساقيه وأدلى بهما في البئر وأن أبا هريرة تبعه إليهما وثلثهما أبو بكر، وأتى بعده عمر ثم عثمان فتوضئوا جميعًا منها وجلسوا عليها كما جلس رسول الله ﷺ .

وقد جدد أبو بكر بن أحمد السلامي درجًا لهذه البئر ينزل منه إلى قاعها من يريد الوضوء أو الشرب وذلك في سنة ٧١٤ هجرية.

وماء البئر غزير يسير إلى بركة داخل الحديقة وهو عذب فرات شديد النظافة.

٢ - **بئر الأعواف** : وهي إحدى صدقات الرسول ﷺ .

٣ - **بئر آنا** : وهي التي ضرب الرسول قبته عندها عندما حاصر بني قريظة وشرب منها، وهذه البئر غير معروفة الآن.

٤ - **بئر أنس بن مالك بن النضير**: وتضاف أيضًا لأبيه، وهي التي ورد ذكرها في حديث أنس الصحيح قال: أتانا رسول الله ﷺ في دارنا هذه، فاستقى فحلبنا شاة لنا ثم شربته من بئرنا هذه فأعطيته فشرب وعمر بين يديه وأبو بكر عن يساره وإعرابي عن يمينه فأعطى الأعرابي، وقال: الأيمن فالأيمن، وهذه البئر تُعرف الآن ببئر الحضارم.

٥ - **بئر بضاعة:** في نهاية عمار المدينة من جهة الشمال.

٦ - **بئر بيرحاء:** تقع هذه البئر شمال المدينة، وكان الرسول يستعذب ماءها، وكانت في بستان لأبي طلحة وقفه على أقاربه وبني عمه، كما دل على ذلك حديث البخاري في كتاب الأشربة في (باب استعذاب الماء). روي عن أنس بن مالك أنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب ماله إليه بئر بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد- المسجد قبليها- وكان الرسول ﷺ يدخل ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله؟ إن الله يقول: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وأنا أحب مالي إليَّ بيرحاء وأنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ : «بخ» ذلك مال رابح أو رايح- شك من الراوي- وقد سمعت ما قلت إني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل

يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وفي بني عمه.

٧ – **بئر رومة:** وتوجد شمالي المدينة، وبجوارها حوض وحجرة للاستراحة ومزارع كثيرة، وفي شمالي البئر البركة والعيون التي يحف بها النخيل، وهذه البئر كانت ليهودي فاشتراها منه عثمان بن عفان بماله وتصدَّق بها على عهد الرسولﷺ، ذكر ابن عبد البر إنها كانت ركية (بئرًا) ليهودي يبيع ماءها للمسلمين، فقال رسول الله ﷺ : من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة؟ فأتى عثمان اليهودي فساومه عليها فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى عثمان نصفها باثني عشر ألف درهم، فجعله للمسلمين.

فقال له عثمان: إن شئت جعلت لنصيبي قربين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم.

فقال: بل لك يوم ولي يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى اليهودي ذلك قال: أفسدت عليّ ركيتي فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم، وهذه البئر في أسفل وادي العقيق قريبة من مجتمع الأسيال في براح واسع من الأرض.

٨ – **بئر غرس:** وهي بئر بقباء في شرقي مسجدها على نصف ميل من جهة الشمال، روى ابن حبان في كتاب «الثقات» عن أنس أنه قال: ائتوني بماء من بئر غرس، فإني رأيت رسول الله ﷺ يشرب منها ويتوضأ.

وفي المدينة آبار أخرى مثل بئر البويرة وبئر فاطمة، وكل هذه الآبار جنوبي المدينة، وبئر عروة بوادي العقيق، وكان أهل المدينة فيما سلف يهدون من مياه البئر الأخيرة لأمراء الشام.

هذه هي الآبار التي يعتمد عليها أهل المدينة في سقي أراضيهم ومواشيهم، أما مياه الشرب فيأخذونها من عين الأزرق، أو العين الزرقاء على ما هو مشهور في عرفهم، وهذه العين منشئوها بئر بقباء غربي مسجدها، وتعرف بالجعفرية، أجراها إلى المدينة مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة بأمر منه فسار بها حتى مصلى الأعياد، وقد أقيم عليها بعد قبة هنالك مفتوحة من جانبيها الشمالي والجنوبي حيث في كل جانب منها مدرج في الأرض ينزل منه الماء لأخذ المياه من العين، وبعد أن تخرج العين إلى ظاهر المدينة الشمالي تسير مبحرة فإذا ما كانت بين مسجد السبق وقبر ذي النفس الزكية ابن جعفر الصادق كان لها منهل هنالك، ومنهل آخر شرقي المسجد المذكور على يمين السائر نحو ثنية الوداع التي تسير العين إليها ثم تجاوزها مارة شمال جبل سلع على مقربة من مسجد الراية، ولها هنالك منهل قريب من ظهر الأرض له باب ودرج ثلاث ثم تمر غربي الجبلين اللذين في شرقهما مساجد الفتح (مسجد الفتح ومسجد علي ومسجد سليمان) ثم تسير حتى تصل إلى مجمع مائها المسمى بـ «البركة» حيث الغابة ذات الأشجار الكثيفة والبساتين النضرة والمزارع الطيبة، وهذه العين تبدأ بعيدة المجرى من ظهر الأرض، وكلما سارت نحو الشمال اقتربت من ظاهرها حتى تكون على سطح الأرض عند اقترابها من الغابة التي شرقي مسجد رومة، والمناهل التي قدمنا ذكرها تسمى العيون، وعين الأزرق أو العين الزرقاء.

* * *

أســوار المدينـة المنـورة :

جاء في الروض المعطار أن إسحاق بن محمد الجعدي بنى سور المدينة المنورة عام ٢٦٣هـ وجعل له أربعة أبواب:

(١) باب في المشرق يخرج منه إلى بقيع الغرقد.

(٢) باب في المغرب يخرج منه إلى العقيق وإلى قباء، وداخل هذا الباب في حوزة السور المصلى الذي كان ﷺ يصلي فيه العيد.

(٣) باب ما بين الشمال إلى الغرب.

(٤) باب آخر يخرج منه إلى قبور الشهداء بأُحد.

نقل الإمام السمهودي في الخلاصة عن المجد عن المطيري عن ابن خلكان أن أول من بنى على المدينة المنورة سورًا عضد الدولة بن بويه بعد الستين وثلاثمائة (سنة ٣٦٠هـ(في خلافة الطائع لله بن المطيع لله، ثم تهدم على طول الزمن وتخرب بخراب المدينة المنورة ولم يبق إلا آثاره ورسمه، وقد رأيت آثاره قبلي جبل سلع وظاهر ما رأيت من آثاره أنه كان متصلاً بشفير وادي بطحان من المغرب.

ونقل الإمام السمهودي أيضًا في كتابه ذروة الوفاء أن السلطان نور الدين لما ركب متوجهًا إلى الشام وكان الناس قد كثروا بالمدينة المنورة خارج السور الذي بناه الجواد الأصفهاني حول المسجد فصاح بالسلطان من كان نازلاً خارج السور وطلبوا منه أن يبني عليهم سورًا يحفظ أبناءهم وماشيتهم فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني عام ٥٥٨هـ وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق إلى يومنا هذا، قال السيد الإمام المسهودي: وقد شاهدت ما ذكره على باب البقيع وفيه ذكر التاريخ المذكور.

جاء في «الروض المعطار» بعدما تقدم قوله حرفيًا ما يأتي:

«إن المدينة المنورة في مستوى من الأرض كان عليها سور قديم وهي الآن عليها سور حصين منيع من التراب أي اللبِّن بناه قسيم الدولة المعزي ونقل إليها جملة من الناس ورتب البر إليها، وقال المطري عقب قوله و لم يبق إلا آثاره حتى جدد لها جمال الدين محمد بن أبي المنصور الأصفهاني سورًا محكمًا حول المسجد الشريف على رأس الأربعين وخمسمائة من الهجرة (سنة ٥٤٠هـ(وكان الخطيب بالمدينة المنورة يقول في خطبته: اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي ابن أبي منصور).

أما سور المدينة المنورة، فلم يكن لها في الزمن القديم سور، ومن تأمل ما ذكرناه في الأصل من منازل القبائل من المهاجرين مع منازل قبائل الأنصار علم عظيم سعتها واتصال قراها بعضها البعض؛ ولذا لم تقم الجمعة في قراها مع كثرتهم بها واستيطانهم، وأول من بنى بالمدينة المنورة الشريفة سورًا بعد خراب أطرافها عضد الدولة بن بويه بعد الستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله بن المطيع لله، ثم تهدم على طول الزمان وتخرب بخراب المدينة و لم يبق إلا آثاره ورسمه، قاله المجد اللغوي.

وكذا نقل الأقشهري عن صاحب نور الأقاليم: أن المدينة المنورة عليها سور وأن مصلى العيد من غربي المدينة المنورة داخل الباب انتهى بمنازل جهينة أو غالبها كانت من داخله كما سيأتي في مسجدهم خلاف ما قاله المطري من أن ناحيتهم غربي حصن صاحب المدينة، والسور القديم بينها وبين جبل سلع، قال: وعندها أثر باب للمدينة يعرف بدرب جهينة وما سبق عن المجد نقله عن المطري عن ابن خلكان: قلت وهو مخالف لما في الروض المعطار في أخبار الأقطار من أن

إسحق بن محمد الجعدي بنى سور المدينة المنورة كما تقدم، وذكر أنه لعل المنسوب لابن بويه إنما هو تجديده أو سور غيره.

ثم كثر الناس من خارج السور ووصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٥٧هـ إلى المدينة المنورة بسبب رؤيا رآها، ثم قال إنه لما ركب متوجهًا إلى الشام صاح به من كان نازلاً حول السور كما تقدم ذكره، وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق إلى هذا التاريخ وصورته في الحديد المصفح به الباب ما نصه:

«هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكي بن أقستقر غفر الله له سنة ٥٥٨ هجرية».

وقال البدر بن فرحون إن نور الدين الشهير كمل سور المدينة المنورة وهو سورها الموجود اليوم.

وقال: وأما السور الذي كان داخل المدينة فإنما أحدثه جمال الدين بن أبي منصور وكان وزيرًا لوالد الملك العادل يعني زنكي ثم استوزره بعد زنكي غازي بن زنكي أخا العادل انتهى.

وقد علمت أن المدة متقاربة في عمل السورين.

وفي كتاب شهاب الدين بن أبي شامة قال ابن الأثير: رأيت بالمدينة المنورة إنسانًا يصلي الجمعة فلما فرغ ترَّحم على جمال الدين يعني الجواد فسألناه فقال: يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعو له لأننا كنا في ضر وضيق مع الأعراب لا يتركون لأحدنا ما يواريه فبنى علينا سورًا احتمينا به ممن يريدنا بسوء فكيف لا ندعو له، وكان الخطيب في المدينة المنورة يقول في خطبته:

«اللهم صن حريم من صان حرم نبيك... الخ» كما تقدم فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرًا فكيف وقد أصابت صدقته تخوم الأرض.

وأما عنايته بأهل الحرمين خصوصًا أهل المدينة المنورة فكانت عظيمة، وذكر المراغي أنه جدد في سنة ٧٥٥هـ في عهد الملك الصالح صالح ولد ناصر ابن قلاوون.

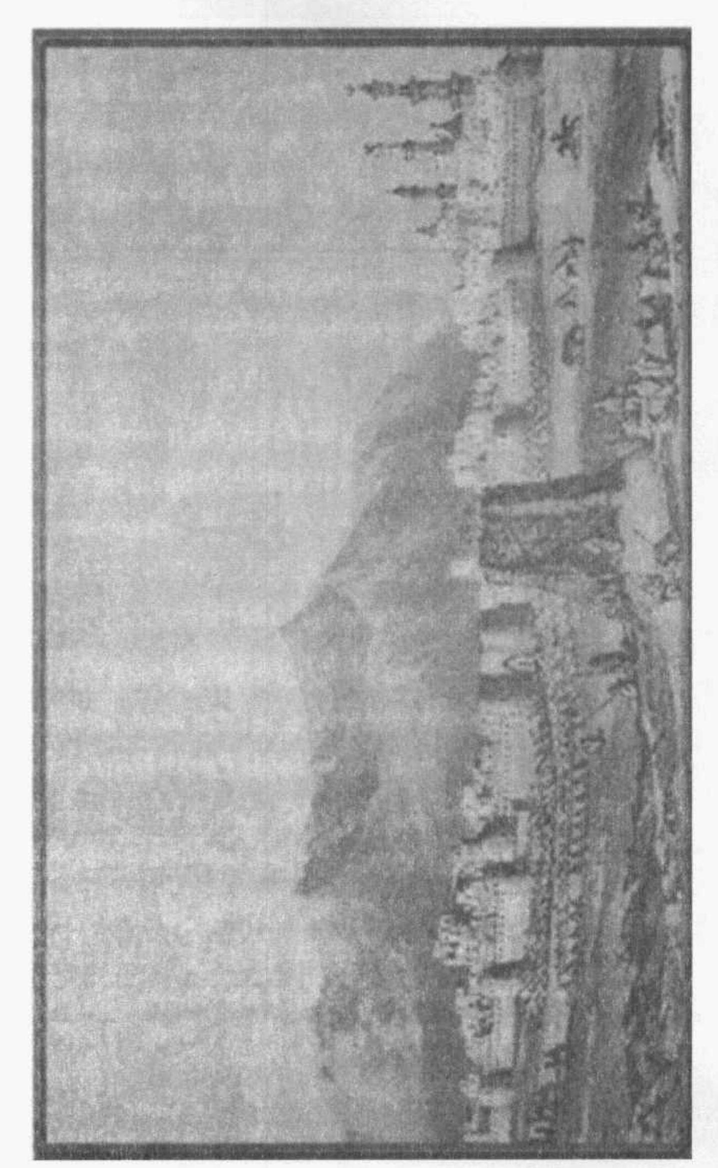
وجدد أشياء منه السلطان الأشرف قايتباي، وذكر البدر بن فرحون أن الأمير سعد بن ثابت بن جماز ابتدأ في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة في عمل الخندق الذي حول السور المذكور ومات و لم يكمله، وأكمله الأمير فضل بن قاسم بن جماز في ولايته بعده.

تعليقات هامة على سور المدينة المنورة :

إن السور المذكور في تواريخ المدينة المنورة والمقام على المدينة نفسها خرب بعد ذلك وبقي مدة حتى كان زمن المرحوم السلطان سليمان بن السلطان سليم في حدود عام ٩٣٩هـ أمر بتجديده وبني على أساس السور القديم في مدة سبع سنين لتعطيل العمارة في خلال المدة المذكورة وكان تمامه عام ٩٤٦هـ، ودائرة السور بذراع العمل (ثلاثة آلاف واثنان وسبعون ذراعًا وقيل هو ما بين الأبراج والتجويف أربعة آلاف ذراع، والمنصرف عليه هو (مائة ألف دينار) وكُتب على بابه الغربي المعروف اليوم بباب المصري ما نصه :

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

* * *



المدينة المنورة و فيها المسجد النبوى لوحة للرسام البريطانى الشهير "ريتشارد بورتون" عام١٨٥٢

الباب الخامس

في المدينة المنورة ..

المجتمع والبيت
سنن وأخلاق وعادات

الزراعـــــة

الزراعة والتجارة: تستغرقان أكثر أعمال الناس في العهد النبوي، وعصر الخلفاء الراشدين. وربما يكون الأنصار أكثر الناس عملاً في الزراعة، وذلك لكونهم كانوا أهل المدينة، ولهم المزارع قبل الهجرة.. فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة: «إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم»، وكلمة المال في المدينة تعني الأرض المزروعة، لأن الزراعة جلُّ مالهم.

ومع ذلك فإن المهاجرين عملوا في الزراعة: فأبو بكر كانت له أرض في العوالي في طرف المدينة المنورة، وكان يسكنها يوم توفي رسول الله ﷺ. وعبد الرحمن بن عوف كانت له مزرعة في الجُرْف، في طرف المدينة الشمالي، والزبير كانت له أرض في «الغابة» بعد ملتقى سيول المدينة في شمال المدينة، وأبو هريرة أصلح أرضًا في الشجرة بذي الحليفة، بالقرب من ميقات أهل المدينة، وكانت لسعيد بن زيد أرض بالشجرة..

وجاء في صحيح مسلم: عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب غنم». فقيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: «أو كلب زرع» فقال ابن عمر: «إن لأبي هريرة زرعًا». أراد ابن عمر بذلك الإشارة إلى تثبيت رواية أبي هريرة وأن سبب حفظه لهذه الزيادة دونه، أنه كان صاحب زرع دونه، ومَنْ كان مشتغلاً بشيء احتاج إلى تعرف أحكامه. والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة بالزيادة المذكورة. وتابعه على ذلك سفيان بن أبي زهير- صحابي جليل. وفي صحيح البخاري: «بابُ المزارعة بالشطر ونحوه» قال قيس بن مسلم

عن أبي جعفر: «ما بالمدينة أهلُ بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع. وزارع عليٌّ وسعدُ ابن مالك وعبد الله بن مسعود وعمر بن عبد العزيز، والقاسم، وعروة، وآل أبي بكر وآل عمر، وآل علي، وابن سيرين..» [الفتح ١١/٥].

وكان بعض أهل المدينة يعجز عن خدمة أرضه لاتساعها، فيكريها، أو يعطيها لمن يزرعها على الشطر، أو الثلث كما مرّ في رواية البخاري السابقة. ويؤيد هذا- أيضًا- ما رواه البخاري عن رافع بن خديج ﷺ : قال: «كُنَّا أكثر أهل المدينة حَقْلاً، وكان أحدنا يكري أرضه، فيقول: هذه القصعةُ لي، وهذه لك، فربما أخرجت ذِهِ، ولم تخرج ذِهِ، فنهاهم النبيّ ﷺ ». وفي حديث البخاري من كتاب «المساقاة» باب: «سكر الأنهار» أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبيّ ﷺ في شِراج- مسيل الماء- الحرّة التي يسقون بها النخل... الحديث.

وبقي التوسعُ الزراعيُّ مستمرًا في الازدياد في زمن الخلفاء الراشدين، فقد جاء في «المدونة» أنه كان بين رجلين من الصحابة خصومة في أرض لهما، فركب عثمان أيام خلافته، وركب معه رجال، فلما ساروا قال له رجلٌ: إن عمر قد قضى فيه، فقال عثمان: ما أنصر في أمر قضى فيه عمرُ، فرجع. وقال ابن رشد: (محمد بن أحمد بن رشد- الجد-، توفي سنة ٥٢٠هـ) في كتابه «البيان والتحصيل» كانت الخصومة بين علي بن أبي طالب، وطلحة، في ضُفير في سدٍ بفجّة من الوادي بين ضيعتيهما فوكل عليٌّ عبد الله بن جعفر، فتنازعا فيه بين يَدَي عثمان، فركب من الغد في المهاجرين والأنصار، ثم رجع لما بلغه أن عمر قضى فيها، فلما أخبر بذلك عبدُ الله بن جعفر عليًّا، قال له: قم الآن إلى طلحة فقل له: إن الضفير لك، فاصنع به ما بدا لك، فأتيته فأخبرتُه فسرَّ بذلك، ثم دعا بردائه ونعليه، وقام

معي، حتى دخلنا على عليّ فرحّب به، وقال: الضفير لك فاصنع به ما بدا لك، فقال: قد قبلتُ، وبي حاجة، فقال علي: ما هي؟ قال طلحة: أُحبُّ أن تقبل الضيعةَ منّي، مع مَنْ فيها من الغلمان والدواب والآلة، قال علي: قد قبلتُ، قال: ففرح طلحة، وتعانقا وتفرقا. [عن التراتيب الإدارية ٢/٤٩]. قال الكتاني: فهذا يدل على أن الحراثة كانت شائعة وبلغ الاهتمام بها إلى درجة الخصومة فيها من مثل عليّ وطلحة، وتوكيل عليّ ابن أخيه عبد الله، وخروج الخليفة في المهاجرين والأنصار للفصل بينهما. وانظر قصة سعيد ابن زيد- أحد العشرة- وخصومته مع أروى بنت أويس، وكان ذلك أيام ولاية مروان بن الحكم على المدينة.

وفي «وفاء الوفا» للمسهودي: أنه كان بالمدينة وما حولها عيون كثيرة تجددت بعد النبيّ ﷺ ، وكان لمعاوية اهتمام بهذا الباب، ولهذا كثرت في أيامه الغلال بأراضي المدينة، ونقل الواقدي: «أنه كان بالمدينة في زمن معاوية صوافي كثيرة، وأن معاوية كان يحرث بالمدينة وأعراضها مئة ألف وسق وخمسين ألف وسق، ويحصد مئة ألف وسق حنطة».

وَقَدْ عُرفت المدينة منذ عهد العماليق بأنها خصبة التربة كثيرة المياه؛ لأنها تقع عند ملتقى ثلاثة أودية- بطحان، وقناة، والعقيق، إذا سالت مياههم، تحسبهم أنهارًا، لدوام المياه فيها أيامًا وهي تجري إلى مصبها.. وعُرفت منذ القديم بزراعة النخيل، وأصنافه المتعددة، وفي أخبار الهجرة النبوية، أُري رسول الله ﷺ أنه سيهاجر إلى أرض ذات نخل (البخاري) فذهب وأهله إلى هَجَر (الإحساء).

التجـــــارة

وأما التجارة: فقد كان عمل الجمع الغفير من المسلمين في المدينة، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ .. ﴾ الآية [الجمعة: ٩-١٠].

قال الزمخشري: وإنما خصَّ البيع من بينها- من بين الأعمال- لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناسُ فيها من قراهم وبواديهم، وينصبّون إلى المصر من كلّ أوْب. وَوَقْتُ هبوطهم واجتماعهم واختصاص الأسواق بهم، إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى، ودنا وقْتُ الظهيرة، وحينئذٍ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضيّ إلى المسجد، قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ ﴾ [الجمعة: ١١]. روى البخاري في سبب نزول الآية عن جابر بن عبد الله قال: بينما نحنُ نصلّي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عيرٌ تحمل طعامًا، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً. فنزلت هذه الآية، [كتاب الجمعة، باب ٣٨]. وفي رواية في «كتاب التفسير» «فثاروا إليها».. فقوله «حتى ما بقي مع النبي إلا اثنا عشر

رجلاً» دليل على انشغال الناس بالتجارة.. ولو كان الهدف من الذهاب إلى العير شراء حاجاتهم الخاصة بالبيت، ما انفضوا إلى التجارة؛ لأن ما أتى إلى السوق فسوف يباعُ فيه ويحصل كل واحدٍ على حاجته في وقتٍ ما... ولكن سرعة انفضاضهم، يظهر أنه لشراء جزء من التجارة، للمتاجرة والبيع والربح.

ذلك أن باب التجارة واسع يرتزق منه الغنيّ والفقير، كلٌّ بقدر ما يملك من المال ... بل إن التجارة كانت باب الرزق لأكثر مَنْ وَفَد على المدينة من غير أهلها، وأقام فيها زمنًا، لمصاحبة رسول الله ﷺ في العهد النبوي، ولمجاورة المسجد بعد وفاته.

ولعلّ المهاجرين أو جلّهم، كان أكثر رزقهم من التجارة: يدلُّ على ذلك الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، يعلل فيه انفراده بكثرة التحديث عن رسول الله ﷺ، مع تأخره في الإسلام- عام خيبر- قال أبو هريرة ﷺ : «إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدّثون عن رسول الله بمثل حديث أبي هريرة ؟ وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْقُ بالأسواق، وكنتُ ألزمُ رسول الله على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا- وكان يشغل إخوتي من الأنصار عَمَلُ أموالهم (بساتينهم)، وكنتُ امرءًا مسكينًا من مساكين الصُّفَّة، أعي حين يَنْسَوْن» [كتاب البيوع، باب ١].

وكان جُلُّ الجِلَّة من الصحابة تجارًا، أذكر منهم: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف...

روى البخاري عن عائشة قالت: لما استخلف أبو بكر الصديق قال: «لقد

علم قومي أنَّ حرفتي لم تكن تعجز عن مؤنة أهلي..». وروى ابن ماجة وغيره «أن أبا بكر خرج تاجرًا إلى بُصْرى في عهد النبيّ ﷺ ».

وروى البخاري في كتاب «البيوع» باب الخروج إلى التجارة «في قصة حديث نبوي خفي على عمر بن الخطاب...» فقال عمر: أخفي عليَّ هذا من أمر رسول الله ﷺ ؟ ألهاني الصفقُ بالأسواق. يعني: الخروج إلى التجارة.

.. وأما عثمان، فشهرتُه في باب التجارة، معروفة في الجاهلية والإسلام، وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب» كان الزبير بن العوام تاجرًا مجدودًا في التجارة وقصّة عبد الرحمن بن عوف مشهورة، حيث قال: «لما قدمنا المدينة، آخى رسول الله بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي... فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع، قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأقطٍ وسمن، قال: ثم تابع الغُدُوّ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صُفْرة، فقال رسول الله: تزوجت؟ قال: نعم، قال: ومَنْ؟ قال: امرأة من الأنصار، قال: كم سُقْتَ، قال: زنة نواةٍ من ذهب، فقال له النبي ﷺ : أَوْلِمْ ولو بشاةٍ». وعَظمت ثروة عبد الرحمن بن عوف من التجارة، حتى قالوا: لقد صولحت امرأتهُ التي طلقها في مرضه من ثلث الثمن بثلاثة وثمانين ألفًا.

.. ويظهر من الأخبار أن الحركة التجارية في أسواق المدينة كانت نشطة لما عرفنا من قصة عبد الرحمن بن عوف وسرعة كسبه المال، مما جعله قادرًا على دَفْع مَهْر زواج.. ويدل على ذلك أيضًا دعوة رسول الله فقراء المسلمين إلى الاحتطاب وبيع الحطب، ليكسب أحدهم قوت يومه فقال ﷺ : «لأنْ يأخذ

أحدكم حَبْله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وَجْهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أَعْطَوْه أو منعوه».

وجاء في ترجمة سعد بن عائذ، من الإصابة، أنه كان يتجّر في القرظ- وهو ورق يُدْبَغُ به- فقيل له: سعد القرظ، وروى البغوي أنه اشتكى إلى النبيّ ﷺ قلّة ذات يده، فأمره بالتجارة، فخرج إلى السوق فاشترى شيئًا من قرظ، فباعه فربح فيه، فذكر ذلك لرسول الله فأمره بلزوم ذلك...

وكانت تجارتهم في السلم، وفي الحرب أيضًا، لما روى ابن ماجة عن خارجة بن زيد قال: «أرأيت رجلاً سأل أبي عن الرجل يغزو ويشتري ويبيع ويتجر في غزوه، فقال له: إنّا كُنّا مع رسول الله بتبوك نشتري ونبيع وهو يرانا ولا ينهانا». وفي سنن أبي داود باب «التجارة» في الغزو أن رجلاً من أصحاب رسول الله قال: لما فتحنا خيبر، أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبي، فجعل الناس يتبايعُون غنائمهم..».

وبالجملة، فإن الذين كانوا يكسبون قوتهم من التجارة كثيرون، منهم مَنْ كان يتجر في ماله، ومنهم مَنْ كان يتجر بمال غيره.. ففي ترجمة «أبي معلق الأنصاري» من «الإصابة» أنه كان تاجرًا يتجر بمالٍ له، ولغيره.

الحِرَفُ والصناعات اليدوية

لم تكن المدينة النبويّة خلاءً من الصناعة والصُّنَّاع الذين يلبّون حاجة المجتمع في ذلك الوقت، قليلة أو كثيرة، ونحن نذكر في هذا السياق أمثلة من الصناعات التي كانت موجودة في العهد النبوي، والمثال الواحد لكل صنعة ليس معناه انفراد مثل هذا المثل، بل وجود هذا المثال، يدل على تعدده، حتى يسدَّ حاجة الناس في ذلك الزمن، وكلما اشتدت الحاجة كثر وجود الصنعة وكثرت الصُّنَّاع...

وأذْكُرُ الآن بعض ما وقعت عليه من الصناعات في كتب الحديث:

- **الخيّاط** : بوّب البخاري «باب الخيّاط» وروى عن أنس بن مالك قال: «إنَّ خيّاطًا دعا رسول الله لطعام صنعه، قال أنس: فذهبتُ مع رسول الله إلى ذلك الطعام، فقرَّب إلى رسول الله خبزًا ومرقًا فيه دُبَّاءٌ وقديدٌ، فرأيتُ النبي ﷺ ، يتتبّع الدُّبَّاء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أُحبُّ الدُّبَّاءَ من يومئذٍ».

قال الشُرَّاح: وفي الحديث جواز الأُجرة على الخياطة ردًّا على مَنْ أبطلها بعلةّ أنها ليست بأعيان مرئية، ولا صفات معلومة، وفي صنعة الخياطة معنى ليس في سائر ما ذكره البخاري من الصناعات؛ لأن هؤلاء الصنّاع إنما يكون منهم الصنعة المحضة، فيما يستصنعه صاحب الحديد والخشب والفضة والذهب، وهي أمور من صنعه يُوقف على حدّها، ولا يختلط بها غيرها، والخياط إنما يخيط الثوب من الأغلب بخيوطه من عنده، فجمع إلى الصنعة الآلة، وإحداهما معناها التجارة، والأخرى الإجارة، وحصة أحدهما لا تتميز من الأخرى، وكذلك هذا في الخرّاز والصبّاغ، إذا كان يغرز بخيوطه، ويصبغ هذا بصبغه على العادة المعتادة فيما بين

الصنّاع.. وكان القياس ألا تصح أجرة الخياط كذلك.. قال العيني: إلا أن النبيّ ﷺ وجدهم على هذه الحال، أول زمن الشريعة فلم يغيرها، إذ لو طولبوا بتغييرها لشقَّ عليهم، فصار بمعزل من موضع القياس، والعمل به ماض صحيح، لما فيه من الإرفاق. قال ابن حجر: وفي الحديث دلالة على أن الخياطة لا تنافي المروءَة. وعن عروة بن الزبير قال: قلتُ لعائشة: ما كان رسول الله يصنع في بيته؟ قالت: «كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعملُ ما تعملُ الرجالُ في بيوتهم». وعن عائشة قالت: «كان رسولُ الله، يعمل عمل البيت، وأكثر ما يعملُ، الخياطة» [الطبقات ١/٣٦٦].

وقال ابن قتيبة في «صناعات الأشراف» من كتاب «المعارف»، وكان عثمان بن طلحة، الذي دفع إليه رسول الله، مفتاح البيت، خيَّاطًا.. وقد سكن عثمان ابن طلحة المدينة، وقيل: استشهد بأجنادين. وقال ابن قتيبة: وكان قيس بن مخرمة، خيّاطًا، وهو من الصحابة.

وذكر في الجاهلية: العوّام، أبو الزبير، قال: وكان خيّاطًا، وهو مكي، ولكن ذلك يدل على وجود حرفة الخياطة في الجاهلية. [المعارف/٥٧٥].

وذكروا من التابعين، مَنْ عمل ثلاث حرف، يتشابه لفظها بدون إعجام: وهو: عيسى بن أبي عيسى، كان كوفيًّا وانتقل إلى المدينة، وكان خيّاطًا، ثم ترك ذلك وصار حنّاطًا، ثم ترك ذلك وصار خبّاطًا، يبيع الخبط.

قال ابن سعد، كان يقول: أنا خبّاط، وحنّاط- يبيع الحنطة- وخيّاط كُلاً قد عالجتُ [تهذيب التهذيب ٨/٢٢٥].

- **النسَّاج** : روى البخاري عن سهل بن سَعْد ﷺ : «أن امرأة جاءت النبيّ

ﷺ ببردةٍ منسوجةٍ فيها حاشيتُها. أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشَّمْلة، قال: نعَمْ. قالت: نسجتُها بيدي، فجئتُ لأكسوكها فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها. فخرج إلينا وإنها إزارُه فقال رجلٌ من القوم: يا رسول الله، اكسنيها، فقال: نَعَمْ فجلس النبي في المجلس، ثم رجع، فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال القومُ: ما أحسنت، سألتها إيّاه، لقد عرفت أنه لا يردُّ فقال الرجل: والله ما سألتُها إلا لتكون كفني يوم أموتُ، قال سهل: فكانت كَفَنَه» [كتاب البيوع، باب: النسَّاج].

وروى الطبراني: أن النبي ﷺ ، أمر أن يُصنَعَ له غيرها فماتَ قبل أن تفرغ.. [الفتح ٣/١٤٤].

وأخرج أبو داود الطيالسي عن سهل بن سعد قال: توفي النبي ﷺ ، وله جبة صوف في الحياكة. وفي كتاب «الإحياء»: «فمات رسول الله وهي في المحاكة».

وذكر ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: كان الزبير بن العوّام، وعمرو ابن العاص، وعامر بن كريز، يعملون الخزّ، وهي نساجة تُنسج من صوف وأَبْرَيْسَم[1]. ويظهر أن في القصة تصحيفًا، فقد ذكر ابن قتيبة الزبير بن العوّام، وعمرو بن العاص، وقال عن كليهما: كان «جزّارًا» من الجزارة بالجيم، يعني بائع اللحم. والخزاز، بالخاء آخرها زاي، تشبه «الجزار» بدون إعجام. وإذا صحّت لهما حرفة، فالأقرب ما ذكره ابن الجوزي. وليس من الغريب أن يكون النسّاج موجودًا في الجاهلية وصدر الإسلام؛ لأن الله تعالى ذكر مادة النسيج في مجال الإنعام، ولو لم تكن ما ذكرها الله؛ لأن القرآن يخاطب العرب بما يعرفون. قال تعالى في

(١) الأبريسم : الحرير. فارسيّة معرّبة.

سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ ۙ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٠].

والأثاث: يَشملُ الكساء، والفراش، وكلاهما يحتاج إلى النسّاج. صحيحٌ أنهم كانوا يجلبون الثياب من الشام واليمن، ولكن حرفة النسيج كانت تسدُّ بعض الحاجة.

- **النَّجَّار:** وصنعة النجارة، قديمةٌ قِدَم الحياة على وجه الأرض، أو أنها كانت في أيام نوح عليه السلام، حيث أوحى الله إليه أن يصنع الفلك وهي من أعقد فنون النجارة.

وقد جاء لفظ «النجّار» مصرّحًا به في الأحاديث النبوية، لما روى البخاري: أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، ألا أَجْعَلُ لك شيئًا تقعُدُ عليه، فإنَّ لي غلامًا نجّارًا، قال: إن شئت.. فعملت له المنبر.. وقد اختلفوا في اسم مَنْ صنعه، فذكروا ثمانية أسماء، كل اسم لنجّار يختلف عن الآخر.. وهذا الاختلاف مع تعدد ذكر الصانع، يدل على كثرة عدد النجّارين في المدينة في العهد النبوي.

ويظهر أن الصنعة كانت متقنة والخشب قوي، لأنهم ذكروا أن المنبر كان له ثلاث درجات، إلى أن زاده مروان بن الحكم في خلافة معاوية فأوصله ست درجات .. قالوا وبقي على ذلك إلى أنْ أُحرق المسجد النبوي سنة ٦٥٤هـ فاحترق، قالوا: فكان إشارة إلى زوال دولة بني العباس إذ انقرضت عقبه بقليل في

فتنة التتر سنة ٦٥٦هـ. وقيل: احترق أول ليلة من رمضان عام ٦٥٤هـ. وكان ذلك من أعظم المصائب على الناس..

- **اللَّحام، أو الجزَّار، أو القصَّاب:** كلها بمعنى واحد، وهو الذي يحترف تقطيع اللحم وبيعه.. وجاء في صحيح البخاري: باب «ما قيل في اللحّام والجزّار» جاء رجل من الأنصارُ يكنى أبا شعيب، فقال لغلام له قصّاب، اجعل لي طعامًا يكفي خمسة من الناس، فإني أريدُ أنْ أدعوَ النبيّ ﷺ ، خامس خمسةٍ.

قال ابن حجر في الفتح: وفيه إجابة الإمام والشريف والكبير دعوة مَنْ دونهم، وأكلهم طعام ذي الحرفة غير الرفيعة كالجزّار، وأن تعاطي مثل هذه الحرفة لا يضع قَدْرَ مَنْ يتوقى منها ما يُكره.

وفي مناقب عمر لابن الجوزي، كان عمر يأتي مجزرة الزبير بن العوام بالبقيع، ولم تكن بالمدينة مجزرة غيرها فيأتي معه بالدرة، فإذا رأى رجلاً اشترى لحمًا يومين متتابعين ضربه بالدرّة.

- **القَيْنُ والحدّاد:** روى ابن عبد البَرّ في ترجمة إبراهيم ابن النبيّ ﷺ من «الاستيعاب» عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ ، وُلِدَ لي الليلةَ غلامٌ، فسميتُه باسم أبي: إبراهيم». قال الزبير: فدفعه إلى أم سيف، امرأة قين بالمدينة، يُقال له: أبو سيف.

وروي عن أنس في قصة وفاة إبراهيم، قال: «فانطلق رسول الله وانطلقت معه، فصادفنا أبا يوسف ينفخ في كيره، وقد امتلأ البيت دخانًا فأسرعتُ في المشي بين يدي رسول الله، حتى انتهيت إلى أبي يوسف فقلتُ: يا أبا يوسف، أمسكْ، جاء رسول الله، فأمسك... الحديث» [١/ على حاشية الإصابة].

– **المصوّر، أو الرسام:** روى البخاري، عن سعيد بن أبي الحسن قال: «كنتُ عند ابن عباس، إذْ أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبّاس، إني إنسان معيشي من صنعة يدي، وإني أصنعُ هذه التصاوير.. فقال ابن عباس: ويحك إنْ أبيتَ إلا أن تصنع، فعليك بهذا الشجر، كلُّ شيء ليس فيه روح» لكن الراوي عن ابن عباس: سعيد، أخو الحسن البصري.. وهو بصري لعله لقي ابن عباس في البصرة.. والرجل السائل من أهل البصرة.. لكن روى البخاري في كتاب «اللباس» باب «نقض الصور» حدثنا أبو زُرعة قال: دخلتُ مع أبي هريرة دارًا بالمدينة، فرأى في أعلاها مصوّرًا يصوّر.. الحديث. وهذا يدل على أن هذا الفنّ كان في المدينة.

وجاء في مسند أحمد عن عليّ ﷺ : «أن النبيّ ﷺ قال: أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنًا إلا كسره، ولا صورة إلا لطخها، أي طمسها.. وفيه: مَنْ عاد إلى صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أُنزل على محمد» [عن الفتح ١٠/٣٨٤].

– **الخوّاص:** وهو الذي يصنع من خوص النخل أدوات: جاء في ترجمة سلمان الفارسي، من «الاستيعاب» دخل قومٌ على سلمان وهو أمير على المدائن وهو يعمل الخوص، فقيل له: تعمل وأنت أمير يجري عليه رزقٌ، فقال: إني أُحبُّ أن آكل من عمل يدي، وذكر أنه تعلم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه.

وقال: كان سلمان يعمل الخوص بيده، فعيش منه، ولا يقبل من أحدٍ شيئًا.. وفي «الإصابة»: «كان سلمان إذا خرج عطاؤه، تصدق به وينسج الخوص ويأكل من كسب يده».

– **الخبّاز، أو صانع الخبز:** ترجم ابن حجر في «الإصابة» لمرداس المعلم،

قال: ذكره أبو زيد الدبوسي في كتاب «الأسرار» بغير سند فقال: مرّ النبيّ ﷺ بمرداس المعلم فقال: «إياك والخبز المرقق، والشرط على كتاب الله تعالى» قال: وهذا لم أقف له على إسناد إلى الآن.

ونحن لا نريد أن نثبت هنا حكمًا شرعيًا، وإنما نريد أن نؤرخ لوجود الخبّاز، فإذا لم يصح أن رسول الله قال لمرداس المعلم ما قال، فقد يصحّ وجود الخبّاز، الذي يحترف الخبازة.

ذلك أن الخُبْز، يعرفه الناس قديمًا، وجاء في سورة يوسف ﴿ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ [يوسف: ٣٦]. وكذلك يعرفُ العربُ الخُبزَ، والخَبْزَ قديمًا، وقد جاء في قصة الحطيئة:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرْملٍ ... ببيداء لم يعرف بها ساكنٌ رسْما
وأفرد في شعب عجوزًا إزاءَها ... ثلاثــة أشبــاح تخالهــم بهمــا
حفاة عُراة ما اغتذوا خُبْزَ ملّةٍ ... ولا عرفوا للبُرّ مُذْ خُلقوا طعما

ونقل ابن منظور قول الراجز:

لا تخبــزا خَبْــزًا وبُسَّــا بَسّــا ... ولا تُطيـــلا بمُنَـــاخٍ حَبْســـا

.. قال: البسُّ: بسُّ السَّويق، وهو لتُّه بالزيت أو الماء، فأمر صاحبيه بلتِّ السويق وترك المقام على خَبْز الخُبْز ومراسه، لأنهم كانوا في سفرٍ لا مُعَرَّج لهم، فحثَّ صاحبيه على عُجالةٍ يتبلّغون بها، ونهاهما عن إطالة المُقَامِ على عجْن الدقيق وخبزه.

وكان الخُبزُ معروفًا منذ العهد النبوي، ولا شكَّ أنهم يعرفونه قبل ذلك.. لما روي، أن رسول الله ﷺ ، أتى أبا أيوب الأنصاري في أول الهجرة، ومعه أبو بكر وعمر.. فأخذ أبو أيوب جديًا فذبحه ثم قال لامرأته: اعْجِني واخْبزي لنا، وأنتِ أعلمُ بالخَبْز، ثم أخذ نصف الجدي فطبخه، وعمد إلى نصف الثاني فشواه، فلما نضج الطعامُ ووُضع بين يدي النبي ﷺ وصاحبيه، أخذ رسول الله قطعةً من الجدي ووضعها في رغيف وقال: يا أبا أيوب، بادر بهذه القطعة إلى فاطمة، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام..

فلما أكلوا وشبعوا قال النبيُّ ﷺ : «خُبزٌ ولحم، وتمرٌ ورطبٌ !!» [صور من حياة الصحابة- لعبد الرحمن باشا» وفي [صحيح البخاري- كتاب الأطعمة- باب٦].

وروي في كتاب «المناقب، باب علامات النبوة» عن أنس بن مالك قال: «قال أبو طلحة- زيد بن سهل الأنصاري- لأمِّ سليم- والدة أنس بن مالك- لقد سمعتُ صوت رسول الله ضعيفًا أعرف فيه الجوع- وذلك أيام حصار الخندق- فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجتْ أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خِمارًا لها، فلفّت الخبز ببعضه، ثم دسّته تحت يدي، ولاثتني ببعضه ثم أرسلتني إلى رسول الله.. وفي القصة: قال رسول الله، هلمي يا أُم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله، فَفُتَّ.. الحديث». وروى البخاري في كتاب «الأطعمة- باب ٢٣» عن أبي هريرة: خرج رسول الله من الدنيا ولم يشبع من الخبز الشعير. وفي باب «الأُدم» من كتاب «الأطعمة»: «دخل رسول الله يومًا بيت عائشة، وعن النار بُرمةٌ تفور، فدعا بالغداة، فأُتي بخُبْزٍ وأُدم من أُدم البيت، فقال: ألم أر لحمًا؟

قالوا: بلى يا رسول الله ولكنه لحم تُصُدِّق به على بريرة (مولاة عائشة) فأهدتْه لنا، فقال: هو صدقةٌ عليها، وهديّةٌ لنا».

وفي باب «الحلوى والعسل» عن أبي هريرة «كنتُ ألزمُ النبيَّ ﷺ لِشبَع بطني، حين لا آكلُ الخمير..» وأظن الخمير الخبز الذي عُجن دقيقه و لم يُخبز حتى يختمـر...

وجاء في حديث الإفك، أن رسول الله سأل بريرة «هل رأيتِ من شيء يريبك، قالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحقّ، إنْ رأيتُ عليها أمرًا أغمِصُه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السنّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكله..» وفي رواية: «ما كنتُ أعيب عليها إلا أني كنتُ أعجن عجيني وآمرها أن تحفظه، فتنام عـنه».

وفي روايةٍ «ما رأيتُ منها مذ كنتُ عندها إلا أني عجنتُ عجينًا لي، فقلت احفظي هذه العجينة حتى اقتبس نارًا لأخبزها، فغفلت، فجاءَت الشاة فأكلتها» [تفسير سورة النور من كتاب التفسير].

والظاهر أنهم كانوا يصنعون الخبز أقراصًا أقراصًا كثيرة، وهذا يقتضي أنهم يخبزونه في تنور، أو على قطعة من الحديد توضع على النار، وليس كل خبزهم خبز الملّة التي توضع داخل النار. وقد يكون منه المرقّق، لما روى البخاري في الباب الثامن من كتاب «الأطعمة» تحت عنوان «الخبز المرقّق..».

عن أنس بن مالك: «ما علمتُ النبي ﷺ أكل على سُكُرّجة قَطُّ ولا خُبِزَ له مُرَقَّقٌ قطُّ..». وكونه لم يخبز لرسول الله، ليس معناه انعدام وجوده في المدينة، فقد يكون موجودًا، يعرفه الناسَ، ولكنه لم تتوفر أسبابه في بيوت رسول الله ﷺ.. وفي

قصة أبي أيوب الأنصاري التي ذكرناها أن رسول الله أخذ قطعة من الجدي ووضعها في رغيف.. وقد يُفهَمُ منه أن قطعة اللحم قد لُفّتْ في الرغيف، وهذا يعني أنه يُسْهُل طِيّه، وهذا لا يكون إلا في الرغيف المبسوط، بسْطًا مقبولاً..

– **النقّاش** : الذي ينقش على المعادن: روى البخاري في كتاب «اللباس» باب: نقش الخاتم: عن أنس بن مالك ﷺ ، أن نبيَّ الله ﷺ أراد أن يكتب إلى رهطٍ من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا عليه خاتم، فاتخذ النبيُّ ﷺ ، خاتمًا من فضةٍ نَقْشُه: محمد رسول الله..

وفي باب: «الخاتم في الخنصر» عن أنس: «صنع النبيُّ ﷺ خاتمًا قال: إنا اتخذنا خاتمًا ونقشنا فيه نقشًا، فلا ينقش عليه أحد» أي: لا ينقش أحدٌ مثله.

وهذه الأحاديث تدلُّ على وجود النقّاش في المدينة، لأنَّ نقش الخاتم لا يكون إلا بيد نقّاش محترف.

ولا يقولنَّ قائل: إنَّ هذا النقّاش من اليهود الذين كانوا يحترفون الصياغة ذلك أنَّ مكاتبة الملوك كانت في هدنة الحديبية، بعد سنة ست من الهجرة، ولم يكن في المدينة يهود آنئذٍ.

ولو كان في المدينة صائغ يهودي، ما رضي أن ينقش على الخاتم «محمد رسول الله» ولو نقشها لآمن بها.

– **الصبّاغ** : الذي يصبغ الثياب. جاء في سنن ابن ماجه في باب «الصناعات من أبواب التجارات» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «أكذب الناس الصبّاغون والصوّاغون». قال في «النهاية» هم صباغو الثياب، وصاغة الحليّ، لأنهم يمطلون بالمواعيد، وربما لأنهم قادرون على الغش، فالصبّاغ

قد يصبغ الثوب بلون لا يثبت، والصائغ قد يغش المعدن. وقيل: المراد: الذين يصبغون الكلام ويصوغونه، فيغيّرونه.

– **الدبّاغ** : الذي يدبغ الجلود: ذكر ابن حجر في ترجمة أم المؤمنين زينب بنت جحش من «الإصابة» أنها كانت امرأة صناع اليدين، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله.

وفي طبقات ابن سعد، عن أسماء بنت عميس قالت: أصبحتُ في اليوم الذي أُصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتى رسول الله وقد هنأتُ– يعني دبغتُ– أربعين إهابًا من أدم وعجنتُ عجيني...

وفي ترجمة «سعد بن عائذ» من الاستيعاب، قيل له: سعد القرظ لأنه كان كلما اتّجر في شيء وضع[1] فيه، فاتّجر في القرظ[2] فربح فيه، فلزم التجارة فيه.

* * *

(١) وُضِعَ: مبني للمجهول، يُقال: وُضع في تجارته: غُبن وخسر فيها.

(٢) القرظ: شجر يُدبغُ به، والواحدة قَرَظه بفتحات.

اللَّهـــو، واللَّعبُ

قال عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يلهو به الرجلُ باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق» [رواه النسائي في كتاب الخيل].

وبوّب البخاري في كتاب الجهاد «باب اللهو بالحراب ونحوها» وذكر حديث لعب الحبشة عند النبيّ بحرابهم.

وخرّج البيهقي عن عبد المطلب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «الهوا والعبوا، فإني أكره أنْ أرى في دينكم غلظة».

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «روّحوا القلوب ساعةً وساعة» قال العَجلوني في «كشف الخفاء»: رواه الديلمي وأبو نعيم والقضاعي، ويشهد له ما في صحيح مسلم وغيره من قوله ﷺ : «يا حنظلة ساعةً وساعة» وفي المناوي، قال أبو الدرداء: «إني لأجمُّ فؤادي ببعض الباطل- أي اللهو الجائز- لأنشط للحق». وقال علي ﷺ : «أجمّوا هذه القلوب، فإنها تملُّ، كما تملُّ الأبدان».

هذه الشواهد تدل بمجموعها على إباحة اللهو واللعب في أشياء لا ينهى عنها الشرع.. فما اللُّعَب، والملاهي التي كانت معروفة فجر الإسلام.

هناك لُعَبٌ للصبيان، وملاه للكبار.. وقد وصلتنا أخبار تسمّي بعض أنواع اللهو، من الأخبار ما هو صحيح ومنها ما هو دون الصحيح، وفي رأينا أن ما صح خبره، كان موجودًا تاريخًا وحدثًا واقعًا، وما لم يصح خبره، قد يكون موجودًا في الواقع، ولكن الضعف يعتريه من ناحية حدوثه من أشخاص الرواية، أقصد أن اللعبة المسماة تكون موجودة في العصر الذي نؤرّخ له، ولكن الشك يأتي من ناحية:

كون فلان الصحابي أو التابعي، لعب هذه اللعبة. فالاختلاف يكون في سند القصة، وليس في وقوع اللعبة. وسوف أذكر فيما يلي بعض اللُّعب التي كان يلهو بها أهل العصر.. ولابدَّ من التنبيه إلى أننا سمينا أنواع اللهو لعبًا؛ لأنه يتحقق منها غرض اللعب، وهو الترويح عن النفس. ومع ذلك فإن اللعب الإسلامية كلها للتدريب والتربية. وقد سمى رسول الله ﷺ الرمي بالقوس، وسياسة الفرس، لهوًا، مع أنهما يؤديان للتدريب على أدوات الحرب. وتزوج جابر بن عبد الله؛ فسأله رسول الله ﷺ : أبكرًا أم ثيبًا؟ قال: قلت: ثيبًا، قال: «فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك» [البخاري ٥٠٧٩]. وفي رواية «وتضاحكها وتضاحكك».

– **اللعب بالبنات** : البنات: جمع بنت، والمقصود الصورة التي تمثّل البنت. والشاهد لهذه اللّعبة، ما رواه البخاري عن عائشة قالت: «كنتُ ألعب بالبنات عند النبيّ ﷺ ، وكان لي صواحب يلعبْن معي، فكان رسول الله ﷺ ، إذا دخل، يتَقَمّعْن (يتغيبن ويختبئن) منه، فيسرّ بْهن إليَّ فيلعبْن معي» [كتاب الأدب- باب ٨١].

قال ابن حجر: استدلّ بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللُّعب من أجل لعب البنات بهنَّ، وخُصَّ ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض ونقله عن الجمهور، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن.

وقال بعض العلماء إنه منسوخ، وقال آخرون إن الباء في قولها «بالبنات» بمعنى «مع» يعني مع البنات الآدميات. ولكن هناك شواهد تعكّر على ما قالوه، منها رواية تقول: «وكنَّ جواري يأتين فيلعبن بها معي» وفي رواية «كنتُ ألعب

بالبنات وهُنّ اللعب».

وأخرج أبو داود والنسائي عن عائشة قالت: قدم رسول الله من غزوة تبوك أو خيبر فهبت ريح فكشفت ناحية السِّتْر عن بنات لي، فقال: ما هذا يا عائشة ؟

فقالت: بناتي. ورأى بينهنَّ فرسًا له جناحان، فقال: ما هذا؟ قلتُ: فرس. قال: وما هذا الذي عليه، قلتُ: جناحان. قال: فرس له جناحان؟ قلتُ: أما سمعت أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه [عن الفتح ١٠/٥٢٧].

ومهما كان الحكم، فإن الروايات تثبت وجود هذه اللعبة في المدينة، وهي من خواص الأطفال، أو البنات دون البلوغ.

– **الأرجوحة**: بوّب أبو داود في سننه «باب في الأُرجوحة» وروى حديث عائشة، قالت: «تزوجني رسول الله ﷺ ، وأنا بنت سبع أو ست، فلما قَدِم المدينة، أتتني نسوةٌ، وأنا على أُرجوحة، فذهبن بي وهيأنني، وصنعنني، فأُتي رسول الله ﷺ فبنى بي وأنا ابنة تسع» [السنن ٢١٢١].

والشاهد «وأنا على أرجوحة» والأرجوحة: خشبة يوضع وسطها على تلّ، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها، ويجلس غلام آخر على الطرف الآخر، فتترجّح الخشبة بهما، ويتحركان، فيميل أحدهما بالآخر. أما الحبل الذي يعلق ويركبه الصبيان فاسمه «الرجّاحة».

– **الدِّرَكْلَة** : بكسر الدال وفتح الراء، وسكون الكاف أو «الدِّرَقْلة» قال ابن منظور في لسان العرب: هي لعبةٌ يلعبُ بها الصبيان، وقيل: هي لعبة للعجم، وقيل: القِرْق: لعبة للصبيان، يخطون في الأرض خطا ويأخذون حصيات يصفّونها. قال ابن أبي الصلت:

أعلاقُ الكواكب مُرْسلاتٌ كخيْل القِرْق غايتها النِّصابُ

.. شبَّه النجوم بهذه الحصيات التي تصفّ. وغايتها النّصاب، أي: المغرب الذي تغرب فيه.

قال أبو إسحق الحربي في «القِرْق» الذي جاء في حديث أبي هريرة: إنه كان ربّما يراهم يلعبون بالقِرْق فلا ينهاهم. قال: القِرْق: بكسر القاف، لعبة يلعب بها أهل الحجاز، وهو خط مربّع، ثم يخط من كل زاوية من الخط الأول إلى الخط الثالث، وبين كل زاويتين خط، فيصير أربعة وعشرين خطًا. وقال أبو إسحق: هو شيء يلعب به، وسُميت الأربعة عشر.

– **السبق بين الخيل**: روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: أجرى رسول الله ﷺ ، ما ضُمّر من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع، وأجرى ما يُضَمَّر من الثنية إلى مسجد بني زُريق. قال ابن عمر: وكنتُ فيمن أجرى.

وفي رواية أخرى: «إن رسول الله سابق بين الخيل التي لم تضمّرْ.. وأن عبد الله بن عمر، كان سابق بها».

قال ابن حجر: وفي الحديث مشروعية المسابقة، وأنه ليس من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو، والانتفاع بها عند الحاجة.

– **اللهو بأدوات الحرب**: روى البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: مرّ النبيُّ ﷺ على نفرٍ من أسلم ينتضلون، فقال النبيُّ ﷺ : «ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان راميًا...» [الحديث ٢٨٩٩]. وقوله: «ينتضلون»، أي: يترامون، والتناضل: الترامي للسبق. ونضل فلانٌ فلانًا إذا غلبه.

وعن أبي هريرة قال: «بينما الحبشةُ يلعبون عند النبيّ ﷺ بحرابهم دخل عمر، فأهوى إلى الحصى، فحصبهم بها، فقال النبيّ ﷺ : دعهم يا عمر.

الأطعمة في المدينة المنورة

– **الدُّبَّاء** : روى البخاري عن أنس: أن خيّاطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: «فذهبتُ معه إلى ذلك الطعام، فقرّب إلى رسول الله ﷺ خبزًا ومرقًا فيه دُبَّاءٌ وقديد فرأيت النبي ﷺ يتتبّعُ الدُّبّاء من حوالي القصعة..».

والدُّبّاء: اليقطين، أو القرع، وربما يكون خاصًا المستدير منه الذي يميل طعمه إلى الحلاوة. ولا زال يُعرف في المدينة بهذا الاسم، وتجود زراعته في أرض المدينة.

– **الأُدْم:** جمع إدام: وجاء في الحديث «ودخل رسول الله ﷺ يومًا بيت عائشة، وعلى النار بُرْمةٌ تفور، فدعا بالغَدَاء، فأُتي بخُبز وأُدْم من أُدم البيت، فقال: ألم أر لحمًا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، ولكنه لحم تُصدِّق به على بريرة، فأهدته لنا، فقال: هو صدقة عليها، وهديّة لنا». والشاهد: الأُدْم: وقد اختلفوا في تفسيره، والجمهور أنه ما يؤكل به الخبز بما يطيبه، سواء أكان مرقًا أم لا. والظاهر أنه يدخل فيه كل ما يسمى اليوم «حواضر البيت» ولو كان غير مطبوخ، كالجبن، والزيتون والزعتر... الخ.

– **الخبز بالسَّمن:** روى البخاري (٥٣٨١): «فأتت أُم سليم بذلك الخبز، فأمر به ففُتَّ، وعصرت عليه أم سُليم عُكَّة– وعاء سمن– لها، فأَدَمَتْه.. فأكلوا حتى شبعوا..».

– **الخُبْزُ** : (أنواعه) أكثر ما عُرف في العهد النبوي خبز الشعير، يصنع أقراصًا.. لما جاء في حديث أنس.. قال أبو طلحة لأُم سليم: «هل عندك من شيء؟

فأخرجت أقراصًا من شعير..» [البخاري ٥٣٨١]. ولكنهم خبزوا الخبز المرقق، أو الرقاق بعد العهد النبوي، لما روى ابن ماجة عن أبي هريرة أنه زار قومه فأتوه برقاق، فبكى، وقال: «ما رأى رسول الله ﷺ هذا بعينه. وفي حديث أنس عن البخاري (٥٣٨٥) ما أكل النبيّ ﷺ خبزًا مرققًا. وفي رواية ولا خُبزَ له ترقّقٌ قَطُّ».

– **الخَزيرة**: جاء في الصحيح أن عِتْبان بن مالك، دعا النبيّ ﷺ إلى بيته، ليصلي فيه فيتخذه مصلى.. قال عتبان: «وحبسناه على خزيرٍ صنعناه..». وحبسناه: أي منعناه من الرجوع عن منزلنا لأجل خزير صنعناه له ليأكل منه.. واختلفوا في تفسير الخزيرة، وبيان أخلاطها:

فقيل: هل ما يُتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة لكنه أرقُّ منها.

وقيل: دقيق يُخلط بشحم.

وقيل: أن يؤخذ اللحم فيقطع صغارًا ويصبُّ عليه ماءٌ كثير، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق. فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة، وقيل: مرق يُصفّى من بلالة النخالة ثم يُطبخ.

وقيل: حساء من دقيق ودسم.

– **الأَقِط** : عن أنس قال: "بنى النبيّ ﷺ بصفيّة، فألقى بالتمر والأقط والسمن». يريد أن هذه وليمة العرس.

والأقط: جُبْن اللّبن المستخرج زُبْدُه.

– **الحَيْس: والحيسة** : جاء في الصحيح أن أمَّ سليم أرادت أن تهدي إلى رسول الله ﷺ عندما كان عروسًا بزينب بنت جحش «فعمدت إلى تمرٍ وسمن وأقط، فاتخذت حيسة في بُرْمة، فأرسلت بها إليه». وجاء الحيس أيضًا في قصة

زواج النبيّ ﷺ بصفيّة، في الطريق بين خيبر والمدينة... وقالوا: وقد يكون الحيس من التمر والسمن والفتيت، أو الدقيق، بدل الأقط.

– **السِّلْقُ والشعير**: عن سهل بن سعد قال: «كانت فينا امرأة، تجعل على الربيعاءَ- جمع ربيع وهو الجدول الصغير- في مزرعة لها سِلْقًا، فكانت إذا كان يومُ الجمعة، تنزع أُصول السِّلْق، فتجعله في قدْر، ثم تجعل عليه قبضةً من شعير تطحنها فتكون أصولُ السِّلْقِ، عَرْقَه- أي يقوم مقام اللحم- وكنا ننصرف من صلاة الجمعة، فنسلّمُ عليها، فتقرّب ذلك الطعام إلينا، فنلْعقه، وكُنَّا نتمنى يوم الجمعة لطعامها ذلك» [البخاري ٩٣٨].

– **التَّلْبينة** : روي عن عائشة، أنها كانت إذا مات الميّتُ من أهلها فاجتمع لذلك النساءُ ثم تفرقْنَ، إلا أهلها وخاصتها، أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت، ثم صُنع ثريد فصُبْتْ التلبينة عليها ثم قالت: كُلْن منها، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «التلبينة مجمّةٌ لفؤاد المريض تَذْهبُ ببعض الحُزْن».

والتلبينة: حَسَاءٌ يُعمل من دقيق أو نخالة، ويجعل فيها عسل، أو لبن، وسُميت تلبينة تشبيهًا لها باللبن في بياضها ورقتها.

– **الثريد** : جاء في الحديث الصحيح: «فَضْلُ عائشة على النساء كفضْل الثريد على سائر الطعام».

والثريد : أن يثرد الخبز، أي يُفتُّ بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم. ومن أمثالهم «الثريد أحدُ اللحمين».

وهو ما يسمى اليوم «الفتُّ» والفتُّ إذا أُطلق، أُريد به الخبز المفتوت في مرق اللحم.

– **القديد** : عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه قال: قلتُ لعائشة: أنهى النبيّ ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟ قالت: «ما فعله إلا في عام جاع الناسُ فيه، فأراد أن يُطعم الغنيّ والفقير وإن كُنّا لنرفعُ الكُراع فنأكله بعد خمس عشرة».. ويأكلونه قديدًا وهو اللحم المملوح المجفف في الشمس...

وفي حديث أنس «رأيت النبيّ ﷺ أُتي بمرقةٍ فيها دبّاءٌ وقديد».

– **القثّاء بالرُّطب**: عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ يأكل الرطب بالقثاء».

– **السويق**: عن سويد بن النعمان، «أنه خرج مع رسول الله عام خيبر، حتى إذا كانوا بالصهباء، فصلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق، فمر به فثرّي، فأكل رسول الله وأكلنا..» [البخاري ٢٠٩]. والسويق: دقيق الشعير أو القمح، يُقلى بالزيت ثم يُجفّف. وقد وصفه أعرابي فقال: عُدَّةُ المسافر وطعام العجلان وبلغة المريض. وقوله «ثُرّي» أي: بلّل بالماء لما لحقه حتى اليبس.

وغزوة السويق: سُميت بذلك؛ لأن المشركين كانوا يحملون السويق، ويخفّفوا منه عند هروبهم.

الأُتْرُجّ : قال ﷺ : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجّة طعمها طيب وريحها طيّب» [رواه الشيخان].

البيض : عن ابن عمر: رفعه «أن نبيًّا من الأنبياء اشتكى إلى الله الضعف فأمره بأكل البيض». ذكره السيوطي في «الطب النبوي» عن البيهقي في شعب الإيمان. قال ابن القيّم: وفي ثبوته نظر.

– **البصل**: روى أبو داود (٣٨٢٩) عن عائشة: «إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ، كان فيه بصل».

– **البطيخ بالرطب**: عن أنس، أن رسول الله ﷺ: «كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره، فأكل الرطب بالبطيخ، وكان أحب الفاكهة إليه» [رواه البخاري والمستدرك و لم يصححه].

وإذا صح الخبر، فيكون المقصود بالبطيخ، البطيخ الأخضر، لأنه يشبه القثّاء. أو المقصود بالبطيخ عجّور الشمام قبل أن يصفرّ ويحلو. وفي بعض أقاليم العرب يسمّون الشمّام الصفر (بطيخ أصفر)، وفي لسان العرب: البطيخ: من اليقطين الذي لا يعلو ولكن يذهب حبالاً على وجه الأرض. وقوله: «من اليقطين» فإن الذي يشبه اليقطين، ثمرًا وورقًا هو الشمام. أما البطيخ فإن ورقه وثمره بعيد الشبه عن اليقطين.

– **البلح بالتمر**: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «كلوا البلح بالتمر، فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر يقول: بقي ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق» [رواه النسائي وابن ماجه].

– **التمر بالخبز**: عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمرة، وقال: هذا إدام هذه» [رواه أبو داود والترمذي].

– **الخلّ** : عن جابر، أن النبي ﷺ ، سأل أهله الإدام، فقالوا: ما عندنا إلا خلّ، فدعا به، وجعل يأكل ويقول: «نعم الإدام الخلّ» [رواه مسلم]. وروى ابن ماجه: «نعم الإدام الخلّ، اللهم بارك في الخلّ، و لم يفتقر بيت فيه الخلّ».

– **الزيت:** وهو زيت الزيتون: وفيه حديث: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة» [رواه الترمذي وابن ماجه].

– **الجُمَّار:** عن ابن عمر قال: «كنت عند النبي ﷺ وهو يأكل جمَّارًا فقال: من الشجر شجرة كالرجل المؤمن، فأردتُ أن أقول هي النخلة فإذا أنا أحْدثُهم، قال: هي النخلة». والجُمّار: قلب النخلة، عند أصول الجريد، يكون أبيض اللون لذيذ الطعم.

– **التمر:** التمر بمفرده، كان غذاء القوم في كثير من أيامهم في العهد النبوي. فعن عائشة: «توفي النبيّ ﷺ حين شبعنا من الأسودين التمر والماء». وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «بيت لا تمر فيه، جياعٌ أهله» [رواه مسلم]. وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «نِعم السحور التمر» [رواه ابن حبان].

– **اللحوم:** أكلوها مطبوخة ومشوية.. وربما كان المطبوخ أكثر، لكثرة بركته وليثردوا فيه. وأكثر لحومهم: من الإبل، والبقر والغنم، وليس الترتيب مقصود.

وأكلوا «الجراد» لما روى البخاري عن ابن أبي أوْفى قال: «غزونا مع النبي ﷺ سبع غزوات، كُنَّا نأكل معه الجراد».

– **والدجاج** : لما روى أبو موسى الأشعري قال: «رأيتُ النبي ﷺ يأكل دجاجًا».

– **والأرنب** : وكانوا يصيدونه، لما روى أحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: «جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله بأرنب قد شواها.. فوضعها بين يديه، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يأكل، وأمر أصحابه أن يأكلوا». وروى أحمد والنسائي وابن ماجه عن

محمد ابن صفوان «أنه صاد أرنبين فذبحهما، فأتى رسول الله ﷺ ، فأمره بأكلهما». وروى البخاري عن أنس قال: «أنفجنا- أثرْنا- أرنبًا ونحن بمرّ شهران، فسعى القوم فلغبوا، فأخذتُها فجئتُ بها إلى أبي طلحة فذبحها فبعث بوركها إلى النبي ﷺ فقبلها»[٥٥٣٥].

– **والضَبُّ** : لما روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: «أُتي النبيّ ﷺ بضبّ مشوي، فأهوى إليه ليأكل، فقيل له: إنه ضبٌّ، فأمسك يده، فقال خالد: أحرامٌ هو؟ قال: لا ولكنه لا يكون بأرض قومي، فأجدني أعافُه، فأكل خالدٌ، ورسول الله ﷺ ينظرُ إليه» [٥٤٠٠].

– **والحوت:** عن جابر قال: بعثنا النبيّ ﷺ ، ثلاثمائة راكب وأميرنا أبو عبيدة نرصُد عيرًا لقريش، فأصابنا جوع شديد.. وألقى البحرُ حُوتاً يقال له العنبر، فأكلنا نصف شهر وادّهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا، قال: فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه فمرَّ المركب تحته.. فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال: «كلوا رزقًا أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم، فأتاه بعضهم بعضوٍ فأكله» [البخاري ٥٤٩٤].

الخِطْبة، والعَقْد؛ وما يتبعهما

(أ) **الخِطْبة** : بكسر الخاء، وفعلها: خطب، يخطُب، من باب نصر. الرجل خاطب، والجمع خُطّاب. والخِطبة: من مقدمات النكاح. بل تسبق عقد النكاح. فهي مرحلة مستقلة، لا يترتب عليها حقوق مالية بين الخاطب والمخطوبة، فموافقة المخطوبة أو وليّها على الخِطْبة، لا يُعَدُّ عقد نكاح.

بدليل الحديث: «نهى النبيُّ ﷺ أن يبيعَ بعضُكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خِطْبة أخيه، حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب».

وفي رواية: «ولا يخطُبُ الرجل على خِطْبة أخيه حتى ينكح أو يترك». ذلك بعد موافقة المخطوبة، أو وليها على الخِطْبة، يعقبها تفتيش عن حال المخطوبة في النواحي التي ترغّب في التزوّج، قبل أن يُعْقَد النكاح، فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أنْ ينظر منها إلى ما يدعو إلى نكاحها، فليفعل».

قال جابر: «فخطبتُ امرأةً من بني سلمة، فكنتُ أختبئ لها، حتى رأيتُ منها بعض ما دعاني إليها» [رواه أبو داود].

وعن المغيرة بن شعبة، أنه خطب امرأة، فقال له رسول الله ﷺ : «أنظرتَ إليها؟ قال: لا، قال: انظر إليها، فإنه أحرى أن يُؤْدم بينكما». أي: أجدر أن يدوم الوفاق بينكما [رواه النسائي]. وروى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور: أن عمر ابن الخطاب، خطب إلى عليّ ابنته أم كلثوم- بنت فاطمة- فذكر له صغرها، فقال: أبعثُ بها إليك، فإنْ رضيتَ فهي امرأتك، فأرسل إليها، فكشف عن ساقها

فقالت: لولا أنك أمير المؤمنين لصككتُ عينيك [عن المغني لابن قدامة ٦/٥٥٤].

وقد يرسلُ الخاطب إلى المخطوبة مَنْ يتعرف على صفاتها الخَلْقية التي لا تُعْرَفُ إلا بالمخالطة، أو بالجوار.. وقد بعث رسول الله ﷺ أُمَّ سليم إلى امرأة فقال: «انظري إلى عرقوبها، وشمّي معاطفها، وفي رواية شمي عوارضها» [رواه أحمد، والحاكم، والبيهقي].

(ب) **عقد النكاح:** ويكون باجتماع الطرفين: الخاطب، ووليّ المخطوبة، والشهود، ويتلفظ الطرفان بألفاظ تدل على الرغبة في النكاح ويسمّى المهر في هذا المجلس.

(ج) **الجهاز** : يؤخذ من الأخبار المرويّة، أن أهل الفتاة يجهزون ابنتهم قبل ذهابها إلى بيت زوجها، ويعدّون لها ملابس خاصة بليلة العرس. فقد روى النسائي عن علي ﷺ قال: «جهّز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة حشوها إذْخر».

فإذا لم تجد العروس ثوبًا جديدًا تلبسه ليلة البناء، استعارت من نساء المدينة، لما روى البخاري، عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: «دخلتُ على عائشة رضي الله عنها، وعليها درْعُ قِطْرٍ- قُطْن- ثمنُ خمسة دراهم فقالت: ارفع بَصَرك إلى جاريتي، انظر إليها، فإنها تُزْهى أنْ تلبسه في البيت، وقد كان لي منهُنَّ درْعٌ على عهد رسول الله ﷺ ، فما كانت امرأة تُقيَّنُ بالمدينة، إلا أرسلتْ إليَّ تستعيره»[١] [كتاب الهبة- باب الاستعارة للعروس عند البناء].

---

(١) قال ابن الجوزي: أرادت عائشة رضي عنها، أنهم كانوا أولاً في حال ضيق وكان الشيء المحتقر عندهم إذ ذاك، عظيم القدر. وفي الحديث: إن رعاية الثياب أمر معمول به مرغب فيه وأنه لا يُعدُّ من الشنع.

(د) **في ليلة الزفاف**: في ليلة الزفاف، تجتمع النسوة في البيت الذي تزفُّ فيه العروس إلى زوجها، وتقوم واحدة منهنَّ بإصلاح شأنها، وتزيينها وربما يغنينَ، وضربن بالدفّ..

وفي قصة السيدة عائشة ما يدل على ذلك، حيث روى البخاري عن عائشة روت: «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنتُ ستّ سنين- أي عقد عليَّ- فقدمنا إلى المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكْت، فتمزَّق شعري فوفى بالوليمة، فأتتني أُمي أم رومان، وإني لفي أُرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت فيّ، فأتيتُها، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذتْ شيئًا من الماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيت فقُلْنَ: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهنَّ فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضُحيً فأسلمنني إليه وأنا يومئذٍ بنتُ تسع سنين».

وذكر الرواة من النساء اللواتي حضرْن الزفاف، أسماءَ بنت يزيد بن السكن، وقالوا هي التي زينتْ عائشة، ورووا عنها قالت: «لما أقعدْنا عائشة ادخليها على رسول الله ﷺ، جاءنا فقرَّب إلينا تمرًا ولبنًا..» [الفتح ٢٢٣/٩]. وبوّب البخاري في كتاب النكاح باب «النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها». وروى عن عائشة أنها زفتْ امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبيُّ الله ﷺ : «يا عائشة، ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو» وفي رواية: «قوم فيهم «غزل» ويقصد من اللهو أو الغزل: الغناء، والضرب على الدّف، لما روى النسائي: «إنه رخّص لنا في اللهو في العرس». ورووا أن رسول الله ﷺ علمهم أن

يقولوا :

أتيناكــم أتيناكـــــم   فحيّانــا وحيّــاكـم
ولولا الذهب الأحمـ   ـر ما حلّت بواديكـم
ولولا الحنطة السمرا   ءُ ما سمنتْ عـذاريكم

.. ويظهرُ أنَّ النساء كُنَّ يحضرْن العُرْس لغرض رؤية العروس، وحضور مشهد الزفاف، كما يفعل الناسُ في أيامنا، وقد يأخذون معهم أطفالهم.. فقد بوّب البخاري باب «ذهاب النساء والصبيان إلى العرس» وروى عن أنس بن مالك قال: «أبصر النبيّ ﷺ نساءً وصبيانًا مُقْبلين من عرس فقام مُمْتنًّا..» أي قام إليهم مسرعًا مشتدًّا فرحًا بهم.

ويحضرُ أيضًا الرجالُ في مجلس خاص، ليلةَ الزفاف، لما روى البخاري عن سهل بن سعد قال: لما أَعرس أبو أسيد الساعدي، دعا النبي ﷺ وأصحابه، فما صنع لهم طعامًا ولا قرّبه إليهم إلا امرأته أُم أُسَيْد».. ومما يدل على أن ذلك ليلة العرس، ما جاء في رواية أخرى: «أنَّ أبا أُسيد الساعدي دعا النبيّ ﷺ لعُرسه، فكانت امرأته خادمهم يومئذٍ، وهي العروس..» [البخاري ٥١٨٣].

وعن أبي سعيد مولى أبي أُسيد قال: «تزوج فحضره عبد الله بن مسعود، وأبو ذرّ، وحُذيفة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فحضرت الصلاة فقدموه وهو مملوك فصلّى بهم ثم قالوا له: إذا دخلتَ على أهلك فصلِّ ركعتين ثم خُذ برأس أهلك فقل: اللهم بارك لي في أهلي، وبارك لأهلي فيّ، وارزقهم منّي، وارزقني منهم، ثم شأنك وشأن أهلك» [المغني لابن قدامة ٦/٥٣٩].

(هـ) **الوليمة**: يظهر من النصوص أن وليمة العرس كانت تكون بعد الزفاف، وربما كانت في اليوم الثاني، أي: في صبيحة العرس. لما روى أنس ابن مالك قال: كنتُ أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل وكان أول ما أُنزل في مُبْتَنَى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش: أصبحَ النبيّ ﷺ بها عروسًا، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي رهْط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث.. الحديث [البخاري ٥١٦٦].

وفي قصة بناءِ النبيّ ﷺ على صفيّة بنت حُيي، قال أنس: «حتى بلغنا سدَّ الشهباء، حلّتْ، فبنى بها رسول الله ﷺ ، ثم صنع حيسًا (طعامًا) في نِطْع صغير، وقال لي: آذنْ مَنْ حولك، فكانت تلك وليمتَه على صفيّة..» [البخاري ٤٢١١/٣].

ويُؤْخذ من مجموع الأقوال في الوليمة أنها ليست بواجبة، أو أنها واجبة لا يقدر عليه الرجل، كَثُر أو قلَّ، ولكن يظهر من بعض الشواهد حرص الرجال على أن تكون الوليمة مشهودة يحضرها جمْع غفير، ويقدم فيها من أحسن الطعام. وقد أخذتُ هذا من قصة الإمام علي ﷺ حيث روي عنه قوله: عندما أردتُ أنْ أبتني بفاطمة، بنت رسول الله ﷺ، واعدْتُ رجلاً صوّاغًا من بني قينقاع أنْ يرتحل معي فنأتي بإذخر، أردتُ أن أبيعه الصوّاغين وأستعين به في وليمة عُرسي..» [البخاري ٣٠٩١]. ويؤخذ من هذا السياق أنه كان يُعِدُّ العُدّة لوليمة كبيرة، مع عُسْره.

.. ولم تذكر كتب اللغة شاهدًا جاهليًّا لوجود «الوليمة» لفظًا ومعنى في الجاهليـة.

– ما يقوله المهنئون بعامّة، للرجل:

قال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف حين أخبره أنه تزوّج: «بارك الله لك».

وقال رسول الله ﷺ حين أخبره أنه تزوج «بارك اللهُ عليك».

وفي رواية أنه ﷺ كان يقول لمن تزوّج: «بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير».

وفي رواية: «اللهم بارك لهم، وبارك عليهم».

– ألفاظ الدعاء والتهنئة في النكاح :

١ – **ما تقوله النسوة للعروس وأهل العروس:** جاء في حديث عائشة: «تزوجني النبي ﷺ ، فأتتني أمي فأدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت تغنين: على الخير والبركة وعلى خير طائر».

٢ – **ما يقوله أهل العروس عند إهداء بنتهم:** جاء في إحدى طرق تزويج عائشة أن أُمها– أم رومان– أجلستها في حجر رسول الله ﷺ ثم قالت: «هؤلاءِ نساؤك يا رسول الله، بارك الله لك فيهم».

يوم الجمعة، عيد أسُبوعيّ

من المتفق عليه أن هذا اليوم كان يسمّى «العروبة» فهل سمّي «الجمعة» أيضًا في الجاهلية؟ هناك أقوال في ذلك، ولكن الذي ترجحه الروايات المسندة، أن هذا الاسم إسلاميّ، والأقوى أنه سمي «الجمعة» لاجتماع الناس فيه، وأن أول مَنْ جعله يومًا لاجتماع المسلمين أهلُ المدينة، ويشهدُ لذلك ما رواه عبد الرزاق بإسنادٍ صحيح عن ابن سيرين قال: «جمّع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ، وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يومًا يجتمعون فيه كلَّ سبعة أيام وللنصارى كذلك فهلمَّ فلنجعل يومًا نجتمع فيه، فنذكر الله تعالى، ونصلي ونشكره فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسد بن زرارة، فصلّى بهم يومئذٍ». ويشهد لهذا الخبر المرسل الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد حسن عن كعب ابن مالك قال: كان أول مَنْ صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أسعد ابن زرارة.

وعليه فإن الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد، ولا يمنع ذلك أن يكون النبيّ ﷺ علمه بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها ولذلك جمّع بهم أول ما قدم المدينـة.

ومن ذلك التاريخ فإن يوم الجمعة أول الأسبوع شرعًا، وقد يسمى الأسبوع كله (جمعة)، وكانوا يسمون الأسبوع سبتًا.

وجاء في الأحاديث والآثار تسمية يوم الجمعة عيدًا، لما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والنسائي والحاكم، وصححه علي بن المديني: «عن زيد بن

أرقم، وسأله معاوية هل شهدت مع رسول الله ﷺ عيدين اجتمعا، قال: نعم، صلى العيد أول النهار ثم رخّص في الجمعة، فقال: مَنْ شاء أن يجمّع، فليجمّع» [عن مسند أحمد ٣٧٢/٤]. وفي [نيل الأوطار ٢٨٢/٣] عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قد اجتمع في يومك هذا عيدان، فمن شاء أجزأه من يوم الجمعة، وإنّا مجمعون». وعن وهب ابن كيسان قال: «اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير..» الحديث. وعن عطاء قال: اجتمع يوم الجمعة ويوم الفطر على عهد ابن الزبير فقال: عيدان اجتمعا في يوم واحد.. الحديث [عن نيل الأوطار ٢٨٢/٣].

وكانوا يخصّون يوم الجمعة بما يكون في يوم الجمعة من لباسٍ حَسَنٍ، وطيب وطعام؛ لما روى أبو داود عن ابن سَلاَم أنه سمعَ النبيَّ ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي «مهنته»». وروى أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «على كلِّ مسلم الغُسْلُ يوم الجمعة ويلبس من صالح ثيابه، وإن كان له طيب مسَّ منه» [عن نيل الأوطار ٢٣٤/٣]. وجاء في قصة أسعد بن زرارة، وكونه أول مَنْ صلّى الجمعة في المدينة قبل الهجرة النبوية أن المسلمين اجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذٍ ركعتين يذكّرهم فسمّوا الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاةً فتغدّوْا وتعشَّوا منها [نيل الأوطار ٢٣١/٣].

وبوّب البخاري في كتاب الجمعة باب قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وأورد فيه حديث سهل بن سعد في قصة المرأة التي كانت تطعمهم بعد الجمعة، وفيه قول سهل: «وكُنَّا نتمنَّى يوم الجمعة لطعامها لذلك». ونقل ابن حجر في الفتح

[٤٢٧/٢] في تفسير الأمر من قوله تعالى: ﴿ فانتشروا.. ﴾ بأنه أمر للإباحة وقيل هو واجب في حقّ مَنْ لا شيء عنده ذلك اليوم، فأُمر بالطلب بأيّ صورة اتفقتْ ليفرح عياله ذلك اليوم، لأنه يوم عيد.

.. وربما كان الناس ينقطعون عن العمل في النصف الأول من النهار، لما جاء في حديث التفاضل بين الساعين إلى صلاة الجمعة.. فمن راح في الساعة الأولى، فكأنما قرّب بدنة.. وإلى الساعة الخامسة، فكأنما قرّب بيضة.. الحديث [البخاري- كتاب الجمعة- باب ٤].

وفيه حثٌّ على الذهاب إلى المسجد قبل الصلاة، هذا مع الحث على الاغتسال قبلها ولبس أحسن الثياب وتخصيص يوم الجمعة بثياب خاصة غير ثياب العمل وهذا يقتضي أن يخرج المسلم من بيته بهيئته النظيفة إلى المسجد.

يـوم العـــيد

روى النسائي بإسناد صحيح عن أنس قال: «قدم النبيُّ ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: قد أبدلكم الله بهما خيرًا منهما يوم الفطر ويوم الأضحى».

فكان يوما العيد يَوْمي فرحٍ وسرور ولعبٍ، يُباح فيهما اللعب والإنشاد، لما روى البخاري عن عائشة– رضي الله عنها– قالت: «دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصارُ يوم بُعاث، قالت وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزاميرُ الشيطان في بيت رسول الله وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ إنَّ لكل قوم عيدًا وهذا عيدُنا». وفي رواية قال رسول الله: ادعهمـا».

وروى البخاريُّ أيضًا عن عائشة: «وكان يوم عيد يلعبُ فيه السودان بالدرق (الترس) والحراب».

ولُبس الثياب الجديدة، أو لُبس الثياب النظيفة، أو أحسن ما عند الإنسان من اللباس، كانت سنةً متّبعة: والأصل في ذلك الاغتسال والتطيب ولبس أحسن الثياب يوم الجمعة، لأنه يوم اجتماع المسلمين، وجاء في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته».

وبوّب البخاري في كتاب العيدين «باب العيدين والتجمل فيه» أي في العيد.

وروى ابن حجر في شرح الباب عن البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن عمر أنه كان يلبس أحسن ثيابه في العيدين.

وكانت صلاةُ العيد تُقام في أرض خلاء، في نواحي مسجد المصلى الذي يسمى اليوم «جامع الغمامة» وإنما أُقيم المسجد في العصور المتأخرة.

ويشهد صلاة العيد- أو يحضر جميع المسلمين، الرجال، والنساء، والصبيان وقد تشهده النساءُ الحيّض أيضًا ولا يصلين. لما روى البخاري في كتاب العيدين عن حفصة بنت سيرين قالت: كُنَّا- في البصرة- نمنع جوارينا أن يخرجْنَ يوم العيد، فجاءَت امرأة فنزلت قصر بني خلف- في البصرة- فأتيتها، فحدثتْ أن زوْج أُختها غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة، فكانت أختُها معه في ست غزوات، فقالت: فكنّا نقوم على المرضى، ونداوي الكَلْمى، فقالت: يا رسول الله، على إحدانا بأس، إن لم يكن لها جلباب أن لا تخرج- أي إلى مشهد العيد- فقال: لتلبسها صاحبتها من جلبابها، فليشهدْن الخير ودعوة المسلمين.

وقال حفصة: فلما قدمتْ أُمُّ عطية، أتيتُها فسألتُها، أسمعتِ في كذا وكذا، قالت: نعم- بأبي- وقلما ذكرت النبي ﷺ إلا قالت: بأبي- قال: ليخرج العواتق ذوات الخدور، أو قال: العواتق وذوات الخدور، ويعتزل الحيّض المصلى- لا يُصلّين العيد، ولِيَشْهدْنَ الخير ودعوة المؤمنين قالت: فقلتُ لها: الحيّض؟ قالت: نعم. أليس الحائض تشهد عرفات، وتشهد كذا وكذا. أقول: وأهل المدينة اليوم يسمون صلاة العيد «المشْهد» فيقول أحدهم للآخر: هل حضرتَ المشهد.. وهم لا يعلمون السبب في ذلك.. وما زال يحضر إلى صلاة العيد الرجال والنساء والصبيان. ويحرص أهل المدينة على حضور «المشهد» حتى تضيق بهم الساحات على رحبها حول المسجد النبويّ، ولكنهم لا يعرفون بجواز حضور المرأة الحائض، فلا يحضره إلا مَنْ تصلّي من النساء، ولكن يحضره الصبيان الصغار، مَنْ صلى منهم ومَنْ لم

يصل.. ولعل هذا موروث من القديم، وإذا صحَّ أن نعدَّ عمل أهل المدينة اليوم حجة، كما فعل الإمام مالك في الموطأ- فإننا ندعّم به، رأي مَنْ قال بوجوب خروج النساء إلى شهود العيدين سواءٌ كنَّ شواب، أم لا، وذوات هيئات- حُسْن وجمال- أم لا.

فقد رأى بعضُ العلماء أن ذلك منسوخ، وأن ذلك كان في أول الإسلام والمسلمون قليل، فأريد التكثير بحضورهنَّ إرهابًا للعدوّ.. وأُجيب عن ذلك بأن الحكمة إظهار شعار الإسلام بالمبالغة في الاجتماع ولتعمّ جميع المسلمين البركة.

المرأة: المكانة، والعمل

(أ) مكانة المرأة في البيت:

اجتمع في المدينة الأنصار، وأكثرهم من الأوس والخزرج، والمهاجرون، وكثرتهم من أهل مكة القرشيين، وكان لكل قومٍ أخلاق وعادات اجتماعية تختلف عن عادات الآخرين، فكان لا بدَّ من التأثّر والتأثير، ثم الاستقرار على خُلُقٍ يجد من القرآن الكريم والسنة النبوية تعضيدًا.. وهذا ما كان في أمر المرأة ومنزلتها الاجتماعية، أو منزلتها في بيت زوجها، بل منزلتها عند زوجها.. ويمثل منزلة المرأة عند أهل مكة، ومنزلتها عند أهل المدينة وما استقرَّ عليه الحال، القصة التالية التي رواها البخاري في مواضع متعددة من صحيحه [٥١٩١، ٥٨٤٣] عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لم أزل حريصًا على أنْ أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حجَّ وحججتُ معه، وعدل- أي مال عن الطريق ليقضي حاجته- وعدلتُ معه بأدواة فتبرّز ثم جاء فسكبتُ عليه منها فتوضأ، فقلتُ له: يا أمير المؤمنين مَنْ المرأتان من أزواج النبيّ ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ قال: وا عجَبًا لك يا ابن عباس: هما عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، قال: «كُنا معشر قريش نغلبُ النساءَ، فلما قدمنا على الأنصار، إذا قومٌ تغلبُهم نساؤهم فطفِق نساؤنا يأخذْن من أدب

نساء الأنصار– وفي رواية أخرى: فلما جاء الإسلام، فذكرهنَّ الله، رَأَيْنَ لهنَّ بذلك علينا حقًّا، من غير أن نُدْخلهُنَّ في شيء من أسرارنا– فصخبَتْ عليَّ امرأتي فراجعتني، فأنكرتُ أن تراجعني، قالت: ولِمَ تُنكِرُ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجعْنه، وإنَّ إحداهنَّ لتهجره اليوم في الليل، فأفزعني ذلك فقلتُ لها: قد خاب مَنْ فعل ذلك منهنّ، ثم جمعتُ ليَّ ثيابي فنزلتُ فدخلتُ على حفصة (ابنته) فقلت لها: أي حفصةُ أتغاضب إحداكُنَّ النبي ﷺ حتى الليل، قالت: نعمْ».

وفي القصة أنَّ جاره الأنصاري طرق عليه الباب وأخبره أن رسول الله اعتزل أزواجه أو طلقهنّ،.. قال عمر: فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجعٌ على رمال– نسيج– حصر، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرِّمالُ بجنْبه، متكئًا على وسادة من أَدَمٍ حشوها ليف، فسلّمتُ عليه ثم قلتُ وأنا قائم: يا رسول الله، طلقْت نساءك؟ فرفع بصره، فقال: لا، فقلت: الله أكبرُ، ثم قلتُ وأنا قائم أتأنس: يا رسول الله لو رأيتنا وكنّا معشر قرش نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة، إذا قوم تغلبهم نساؤهم فيتبسم النبي ﷺ ... الحديث».

قال ابن حجر في الفتح [٢٩١/٩]: وفي الحديث أنَّ شدة الوطءِ على النساء مذموم؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرةِ الأنصارِ في نسائهم وترك سيرة قومه.

(ب) عمـل المرأة :

١ – الأعمال البيتية، وما قد يكون من اختصاص الرجال، مما يتصل بالبيت، وبخاصة في العهد النبوي عندما كان جلُّ الرجال مشغولين بالجهاد، فلم يكن المال موفورًا للاستعانة بالخادم. وقصة أسماء بنت أبي بكر، زوج الزبير بن العوام مثال لما كانت المرأة تقوم به من الأعمال البيتية. حيث روى البخاري عن

أسماء [ح ٥٢٢٤] قالت: «تزوجني الزبير وما له في الأرض مال، ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح وغير فرسه. فكنتُ أعلف فرسه، وأستسقي الماء، وأحرز غَرَبه، وأعجن، ولم أكن أُحْسِن الخبز، وكان يخبزُ لي جاراتٌ لي من الأنصار وكُنَّ نسوةَ صدْقٍ، وكنتُ أنقل النوى من أرض الزبير- التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئتُ يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ، ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ثم قال: إخْ إخْ، ليحملني خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال، وذكرْتُ الزبير وغيْرته- وكان أغْير الناس-، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييتُ، فمضى، فجئتُ الزبير.. (فأخبرته بالقصة) قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس، فكفتني».

قال ابن حجر في [الفتح ٩/٣٢٤]: وكان السبب الحامل على الصبر على ذلك شغل زوجها وأبيها بالجهاد وغيره مما يأمرهم به النبيّ ﷺ ويقيمهم فيه وكانوا لا يتفرغون للقيام بأمور البيت بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم، ولضيق ما بأيديهم على استخدام مَنْ يقوم بذلك عنهم فانحصر الأمرُ في نسائهم فكنَّ يكفينهم مؤنة المنزل ومَنْ فيه، ليتوافروا على ما هم فيه من نصر الإسلام، مع ما ينضم إلى ذلك من العادة المانعة من تسمية ذلك عارًا محضًا.

وقد استدلَّ بهذه القصة على أنَّ على المرأة القيام بجميع ما يحتاج إليه زوجها من الخدمة، وحمله أُناسٌ على أنها تطوعت بذلك ولم يكن لازمًا وقيل: لو لم يكن ذلك العمل لازمًا ما سكت أبوها مثلاً على ذلك مع ما فيه من المشقة عليها، ولا أَقَرَّ النبي ﷺ ذلك.

ومن العمال الشاقة التي كانت تقوم بها المرأة، ولم تذكرها أسماء في قصتها،

طحْن الشعير أو القمح على الرَّحى، لإعداد الدقيق للخبز. وقد شكت فاطمة- رضي الله عنها- من ذلك، لما روي عن علي بن أبي طالب «أن فاطمة- عليها السلام- اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحنه، فبلغها أن رسول الله ﷺ أُتي بسَبْي، فأتته تسأله خادمًا، فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشةُ له، فأتانا، وقد أخذْنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم، فقال: على مكانكما، حتى وجدتُ بَرْد قدمه على صدْري، فقال: ألا أدلّكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه» [رواه البخاري ٣١١٣]. وفي رواية أن رسول الله قال لهما: والله لا أُعطيكم وأدعُ أهل الصفَّة تطوي بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفقُ عليهم، ولكن أبيعهم وأنفقُ عليهم أثمانهم».

ومنهم مَنْ كان يختار الزوجة القادرة على الخدمة وإدارة شئون البيت فيفضلها على غيرها. فعندما قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله، هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك! قال جابر: «هَلَك أبي وترك لي تسع أخوات فكرهتُ أنْ أجمع إليهنّ جارية خرقاء مثلهن، ولكن امرأة تقومُ عليهنّ وتمشطهنّ». وكان جابر قد تزوج امرأة ثيِّبًا، وفضّلها على البكر، لخبرة الأولى في العمل المنزلي. وقد استفادوا من الخبر مشروعية خدمة المرأة زوجها ومن كان منه بسبيل من ولدٍ وأخٍ وعائلةٍ، ولا حرج على الرجل في قصده ذلك من امرأته، وإن كان ذلك لا يجب عليها، لكن يؤخذ منه أن العادة جاريةٌ بذلك. فلذلك لم ينكره النبي ﷺ .

٢ – **التمريض** : روى البخاري عن الرُّبَيِّع بنت معوّذ قالت: «كُنَّا مع النبي ﷺ، نسقي، ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة».

والأمثلة على ذلك كثيرة: ففي السيرة النبوية لابن هشام، في قصة سعد ابن معاذ، لما أصيب يوم الخندق، قال رسول الله ﷺ : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى يعوده من قريب، وكانت رفيدة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ كانت به ضيعة من المسلمين [٢/٢٣٩]. وذكر القصة أيضًا ابن حجر في الإصابة، فضلاً عن الأدب المفرد للبخاري.

وقال ابن سعد: بل هي «كُعيبة بنت سعيد الأسلميّة»، التي كانت تكون في المسجد لها خيمة تداوي المرضى والجرحى، وكان سعد بن معاذ حين رُمي عندها، تداوي جرحه حتى مات.

وفي ترجمة أم أيمن، مولاة النبي ﷺ ، وحاضنته، أنها حضرت غزوة أُحد وكانت تسْقي الماء وتداوي الجرحى، وشهدت خيبر [الإصابة].

وفي ترجمة أم زياد الأشجعية من [الإصابة]، أنها خرجت مع النبي ﷺ في غزوة خيبر سادسة ست نسوة، فبلغ النبي ﷺ ، قالت: فبعث إلينا، فقال: بإذن مَنْ خرجتن، ورأينا في وجهه الغضب، فقلنا: خرجنا ومعنا دواء نداوي الجرحى، ونناول السهام ونسقي السويق.

وفي ترجمة أم سنان الأسلمية قالت: لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، قلتُ: يا رسول الله، أخرج معك أخرز السقاء وأداوي المريض والجرح إن كانت جراح، فقال رسول الله ﷺ: اخرجي على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهنّ من قومك ومن غيرهم فإن شئت فمع قومك، وإن شئت، فمعنا، قلتُ: معك، قال: فكوني مع أُمّ سلمة. وانظر ترجمة أم كبشة القضاعية، وأم روقة الأنصارية، وليلى الغفارية. وألفاظ العموم تدل على الكثر، ففي «العتيبة»

قال مالك: كان النساء يخرجن مع رسول الله ﷺ في غزوه، يسقين الماء ويداوين الجرحى.

٣ – الماشطة : الماشطة هي المرأة التي تحسن مشاطة الشعر، ولكنهم أطلقوها على المرأة التي تزيّن النساء، وتعدّهن في ليلة العرس وهي تقوم بالتزيين العام للمرأة؛ لأن تزيين الشعر وتمشيطه هو أكثر ما يعطي المرأة زينتها، ويؤخذ من أخبار النساء في صدر الإسلام، أن المرأة قامت بهذا العمل للنساء، ففي ترجمة أم رعلة القشيرية من الإصابة، نقل ابن حجر بإسناد واهٍ أن أم رعلة وفدت على رسول الله ﷺ وقالت: «يا رسول الله إني امرأة مقيّنة(١)، أُقَيّنُ النساء وأُزينهنّ لأزواجهنّ، فهل هو حوب فأثبط عنه، فقال لها يا أم رعلة قينيهنّ وزينيهنّ إذا كَسَدْنَ». وفي [فتح الباري ٣/٣١٨]: «وأما قول أم أيمن «أنا قينت عائشة» فمعناه زينتُها».

وفي السيرة النبويّة لابن هشام [٢/٣٣٩] قال ابن إسحق: «ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفيّة بنت حيي بخيبر، أو ببعض الطريق، وكانت التي حملتْها إلى رسول الله ﷺ ومشطتها، وأصلحت من أمرها أُم سُليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، فبات بها رسول الله في قُبّة له..».

وفي ترجمة آمنة بنت عفّان، أخت أمير المؤمنين عثمان، نقل ابن حجر عن ابن الكلبي: أنها كانت في الجاهلية ماشطة...

---

(١) قانت المرأةُ المرأةَ، تقينُها قَيْنًا، وقيّنتْها: أي: زينتها. ومنه قيل للمرأة: مقيِّنة، أي: أنها تزيِّن. قال الجوهري: سميت بذلك لأنها تزين النساء، شبهت بالأمة، لأنها تصلح البيت وتزينه. وفي حديث عائشة: «كان لها درع ما كانت امرأة تقيّنُ في المدينة إلا أرسلت تستعيره. قال: تقيّنُ: أي: تُزَيَّن لزفافها.

- **التجارة، والحِسْبة** : في ترجمة «قَيْلة» الأنمارية، أو الأنصارية: قال ابن حجر في «الإصابة» أخرج حديثها ابن ماجه قالت: قال[١] رسول الله ﷺ عند المروة يحلّ من عمرة له. فقلت: إني امرأة أشتري وأبيع فأستام[٢] أكثر مما أريد ولا أنقص.. الحديث. وفيه «لا تفعلي» ونقل أنها كانت برزة من النساء بآخرة. ترجي ترجمة الحولاء العطارة من الإصابة، بسندٍ واهٍ عن أنس بن مالك قال: كان بالمدينة امرأة عطّارة تسمى «الحولاء بنت تويت»، فجاءَت حتى دخلت على عائشة، فقالت: يا أم المؤمنين إني لأتطيب كلَّ ليلة وأتزين كأني عروس أزفُّ، فأجيء حتى أدخل في لحاف زوجي، أبتغي بذلك مرضاة ربي فيحوّل وجهه عني.. فقالت لها عائشة: لا تبرحي حتى يجيء رسول الله فلما جاء قال: إني لأجد ريح الحولاء، فهل أتتكم وهل ابتعتم منها شيئًا.. الحديث». وذكر ابن حجر «الحولاء» امرأة عثمان ابن مظعون، وقال: يحتمل أن تكون هي العطّارة إن كانت قصتها محفوظة، فإن عثمان بن مظعون كان مشهورًا بالإعراض عن النساء.

وفي ترجمة «مليكة» والدة السائب بن الأقرع قال ابن حجر: كانت تبيع العطر فقال لها النبيُّ ﷺ : ألك حاجة؟ قالت: تدعو لابني.. الحديث.

أقول: وإذا صحت أخبار النساء العطارات، فإنهن يبعن العطر إلى النساء في البيوت، وليس في السوق.. لِما جاء في ترجمة أسماء بنت مخربة- وهي

---

(١) قوله: قالت: قال رسول الله.. لم يذكر ماذا قال رسول الله ﷺ . والظاهر أنه أراد إثبات صحبتها وسماعها من رسول الله، لأنه نقل بعد ذلك قولها: «يحلّ من عمرة له». والأرجح أنَّ (قال): من القيلولة، والقائلة. وهي استراحة منتصف النهار فيقال: قال، يقيل، قيلولة [القاموس المحيط].

(٢) أستامُ : أغالي في ثمن السلعة التي أبيعها.

أم أبي جهل- في «الإصابة» عن الربيّع بنت معوذ قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت مخربة أم أبي جهل، في خلافة عمر بن الخطاب، وكان ابنها عياش بن عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها من اليمن بعطر، فكانت تبيعه إلى الأعطية(١) فقالت لي: أنت بنت قاتل سيده، قلتُ: لا، ولكني بنت قاتل عبده، قالت: حرام عليَّ أن أبيعك من عطري شيئًا، قلتُ: وحرام عليَّ أن أشتري منه شيئًا، فما وجدْتُ لعطرٍ نتنًا غير عطرك...

وأما الحِسْبَة : فشاهدها، ما ذكره ابن عبد البر في ترجمة سمراء بنت نُهيك أنها أدركت النبي ﷺ ، وعُمّرت، وكانت تمرُّ في الأسواق، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها.

وجاء في ترجمة الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدويّة أنها أسلمت قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأُول، وكانت من عُقلاء النساء وفضلاهُنَّ، وكان رسول الله ﷺ يزورُها، ويقيلُ عندها، وكانت اتخذت له فراشًا وإزارًا ينامُ فيه.. وكان عمر بن الخطاب يقدّمها في الرأي ويرعاها ويفضلها وربما ولاها شيئًا من أمر السوق [الإصابة]. ولكن قال ابن العربي في «أحكام القرآن» عند قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ [النمل: ٢٣] «وقد رُوي أن عُمر قدّم امرأة على حِسْبة السوق. ولم يصحّ، فلا تلتفتوا إليه وإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث». ولكن وجّه بعضهم قصة توليتها السوق أنّه في أمرٍ خاص يتعلق بأمور النساء. لأنَّ المرأة لا يتأتّى لها أنْ تبرز إلى المجالس وتخالط الرجال وتفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاةً حَرُمَ النظرُ إليها وكلامُها وإنْ كانت

(١) إلى الأعطية: أي تبيعه بالدَّين إلى حين وقت العطاء الذي يأخذونه من بيت المال.

مُتحالَّة برزه لم يجمعْها والرجال مجلسٌ تزدحمُ فيه معهم.

فتكون خلاصة هذه الفِقرة: إن كانت عملت المرأة في التجارة، في صدر الإسلام، نفترض واحدة من الحالات التالية:

الأولى : أن تشـتري، أو تُشْترى لها البضاعة وتبيعها إلى النساء، وفي هذه الحال، تحمل بضاعتها وتذهب إلى النساء في بيوتهن. فقد جاء في الصحيح عن عائشة أنها أخبرت رسول الله أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فيحتمل أنَّ تاجرة جاءت إلى البيت فاشترت منها.

الثانية : أن تدير تجارتها وهي في بيتها بواسطة العبيد والموالي.

الثالثة : أن يكون ذلك في بداية الهجرة قبل أن يُضرب الحجاب، لما ورد من أسباب إجلاء بني قينقاع عن المدينة. قال ابن هشام: «كان من أمر بني قينقاع أنَّ امرأة من العرب قدمْت بجَلَبٍ لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجَلَسَتْ إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءَتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا... الخ» [٢/٤٨].

وكان حصار بني قينقاع في شوال من السنة الثانية .

الباب السادس

المسجد النبوي الشريف
تاريخه وتوسعته وآثاره

لما قام صلوات الله وسلامه عليه من قباء قاصدًا المدينة المنورة على ناقته، كانت كل قبيلة تعرض عليه النزول عندها فكان يقول لهم: «دعوها فإنها مأمورة»، يقصد بها ناقته المباركة، فلما أتت الناقة موضع مسجده صلوات الله وسلامه عليه بركت وهو عليها، وفي رواية بركت في موضع بيت عائشة الذي قبض فيه ﷺ ، ثم قامت من غير أن تزجر وسارت غير بعيدة ثم بركت تجاه دار أبي أيوب الأنصاري فنزل فيه صلوات الله وسلامه عليه وأقام فيه ما يقرب من سنة، وفي اليوم الثاني لنزوله بدار أبي أيوب الأنصاري عزم على أن يبني مسجده الشريف النبوي عند الموضع الذي بركت فيه ناقته أولاً وكان مربدًا يجفف فيه التمر لسهل ولسهيل، غلامين يتيمين من الأنصار كانا في حجر اسعد بن زرارة فساومهما النبي ﷺ فيه فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما وكان جدارًا ليس له سقف وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنُبشت، وبالنخل والشجر فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يبني فيه مع الصحابة ويقول وهو يعمل معهم: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وكان السبب في عدم قبول الرسول ﷺ العرصة للمسجد الشريف النبوي من سهل وسهيل أنهما كانا دون البلوغ وأن عطاءهما لا يُقبل شرعًا لأنهما كانا تحت الوصاية الشرعية لعدم كمال رجولتهما. وكانت قبلة المسجد الشريف النبوي إلى بيت المقدس في الجهة الشمالية منه، وصلى ﷺ إلى هذه القبلة سبعة عشر شهرًا،

ولما فرغ صلوات الله وسلامه عليه من بناء مسجد الشريف النبوي بنى بعائشة أم المؤمنين- رضي الله عنها- في البيت الذي بناه لها، كما بنى بعده بيتًا لسودة أم المؤمنين، ثم بنى في أوقات مختلفة بيوتًا لباقي الزوجات.

١ - زيادة رسول الله ﷺ :

ثم زاد ﷺ في مسجده الشريف ثلاثة عواميد من جهة الغرب في السنة السابعة من الهجرة الشريفة بعد عودته من غزوة خيبر، فكأنه بعمله هذا قد سنّ لمن بعده الزيادة في المسجد الشريف النبوي إن احتاج الحال لذلك، وقال مشيرًا إلى هذا المعنى: «لو مد مسجدي هذا إلى صنعاء لكان مسجدي».

٢ - زيادة عمر بن الخطاب :

ثم زاد فيه سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- في العام السابع عشر عامودين من جهة الغرب، أما من جهة الشمال فأكثر من عامودين وعمل فيه حصوة غير مسقفة وأنشأ البئر المشهورة بين الناس ببئر زمزم في وسط الحصوة.

٣ - زيادة عثمان بن عفان :

ثم زاد فيه سيدنا عثمان بن عفان ﷺ في العام التاسع والعشرين عامودًا واحدًا من جهة الغرب وأكثر من عامود من جهة القبلة، وأنشأ فيه محرابه المشهور باسمه الآن، وكانت زيادته فيه من جهة القبلة تنتهي عند انتهاء حدود الروضة، ومن جهة الشمال زاد فيه شيئًا قليلاً في الحصوة، وكانت عمارته له بالحجارة والجص والعمد المحشوة بالحديد وتسقيفه بالسياج.

٤ - زيادة الوليد بن عبد الملك :

ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي من جهة الغرب

على يد عامله بالمدينة المنورة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين في العام الثامن والثمانين وأدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين بعد التعويض عنها لهن بما أرضاهن وأقام الدائر المخمس على الحجرة الشريفة من جهة الشمال، وهذه الزيادة هي آخر الزيادات الحاضرة من جهة الغرب ونقش فيه الجدران بالفسيفساء والمرمر وسقفه بالسياج وذهبه.

٥ – زيادة المهدي بن المنصور :

ثم زاد الخليفة المهدي ابن الخليفة المنصور فيه بقية الحصوة كلها وما يحاذيها من المسقف، ومن جهة الغرب حتى غاية مصلى النساء في العهد العثماني، وقد بدأت فيه هذه الزيادات سنة ١٦١هـ وتمت سنة ١٦٥هجرية.

٦ – زيادة السلطان قايتباي :

ثم زاد فيه السلطان قايتباي الأشرف المحمودي شيئًا بسيطًا داخل الحجرة الشريفة لإقامة الدرابزين الأخضر الموجود عليه الآن وذلك لوَضع القبة الزرقاء عليه، وزيادته الآن هي الممر العام في داخل الحجرات، وكان ذلك في عام ٨٨٨ هجرية.

٧ – زيادة السلطان عبد المجيد خان العثماني :

ثم زاد السلطان عبد الحميد خان العثماني القسم المسقف من الجهة الشمالية من حدود المنارة المجيدية إلى حدود المنارة السليمانية وأنشأ فيها الكتاتيب– أي مدارس القرآن الكريم، ثم أنشأ مخزنًا للزيت الذي كان يُضاء به الحرم الشريف النبوي في قناديل تُعد بالمئات متفرقة في أنحاء الحرم الشريف النبوي، وبه تنتهي سائر الزيادات في الحرم الشريف النبوي من الجهة الشمالية في العهد العثماني.

أما من جهة الشرق فقد زاد فيه السلطان عبد المجيد خان العثماني الرواق العظيم الواسع المحتوي على الشبابيك الثلاثة وأنشأ فيه دكة مرتفعة تسمى دكة شيخ الحرم الشريف النبوي، كما أنشأ بابًا يسمى باب جبريل أو باب الجبر أو باب الجنائز.

وعمارة السلطان عبد المجيد خان العثماني هذه بدأت عام ١٢٦٥ هجرية وانتهت في عام ١٢٧٧ هجرية ثم إلى هذه السنوات الثلاث عشرة أُضيفت ثلاث سنوات أخرى للكتابة والزخرفة والنقوش، فتمت عمارة الحرم الشريف النبوي في العهد العثماني سنة ١٢٨٠هجرية، أما الترميمات والتجديدات والتعميرات بدون زيادة أو نقص فكانت تجديد المعتصم، والظاهر بيبرس البندقداري، وتجديد الملك الناصر محمد بن قلاوون وتجديد الأشرف برسباي، وتجديد الظاهر جقمق، وتجديد السلطان سليمـان.

التوسعة السعودية الأولى :

ومنذ عهد السلطان عبد المجيد، ظل المسجد على حاله، حتى عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، الذي رُفع إليه أنه لوحظ وجود تصدع في بعض أجزاء المسجد، وبخاصة في الجهة الشمالية منه.

وفي العام (١٣٦٨هـ(، أذاع جلالته بيانًا على العالم الإسلامي، قال فيه أنه اعتزم بمشيئة الله تعالى تنفيذ مشروع لتوسعة الحرمين الشريفين، بادئًا بالحرم النبوي الشريف.

وقد سبقت التنفيذ دراسات شاملة، ثم بدئ بالمشروع يوم ٥ شوال ١٣٧٠هـ)١٩٥٠م)، وعمل فيه (١٤) مهندسًا، و(٤٠٠) فني، و(١٦٠٠) عامل.

وأنشئ مصنع خاص في منطقة «أبيار علي» لإنتاج الموزاييك الذي استُخدم في المشروع.

ويمكن إيجاز توسعة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، كما يلي:

- بلغت التوسعة السعودية (الأولى) (١٦,٥٠٠) مترًا مربعًا. وهي أكبر توسعة تمت في المسجد النبوي الشريف منذ العام السابع للهجرة، وحتى ما قبل مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.
- أُبقي على مساحة (٤٠٥٦) مترًا مربعًا من العمارة المجيدية، بما في ذلك الحجرة النبوية المطهرة وقبتها الخضراء، ومصلى رسول الله ﷺ ، والمنبر، والحجرة النبوية الشريفة، والأعمدة الأثرية، والمئذنة الرئيسية.
- كانت أبواب المسجد خمسة أبواب (السلام، الرحمة، جبريل، النساء، الصديق) وأُضيفت لها في التوسعة السعودية الأولى، خمسة أبواب أخرى (عبد العزيز، عثمان بن عفان، المجيدي- وسمي كذلك تكريمًا للسلطان عبد المجيد-، عمر ابن الخطاب، الملك).

التوسعة السعودية الثانية :

تمت التوسعة السعودية الثانية للمسجد النبوي الشريف، في عهد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود- يرحمه الله-، وتمثلت في إضافة (٣٥,٠٠٠) متر مربع إلى أرض المسجد، ولم تتناول عمارة المسجد نفسها، بل جهزت تلك المساحة لإقامة مصلى كبير، مظلل، يتسع لعدد من المصلين يماثل عددهم داخل المسجد، ثم أُضيفت مساحة (٥٥٥٠) مترًا مربعًا وظلت كذلك، مما أتاح المجال لاستيعاب أعداد أكبر من المصلين.

التوسعة السعودية الثالثة :

وتمت التوسعة السعودية الثالثة في عهد جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود- يرحمه الله-، وقد أضيفت فيها مساحة (٤٣,٠٠٠) متر مربع، وهي ميدان فسيح مظلل، إلى أرض المسجد الخارجية، ولم تتناول عمارة المسجد.

مشروعات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود :

وانطلاقًا مما وجّه إليه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود اهتمامه، رأى- يحفظه الله- تنفيذ مشروع توسعة كبرى للحرم النبوي الشريف، تُضاعف مساحته عشر مرات، وتسخّر لها الإمكانات الهندسية، والتقنية، لجعل مسجد رسول الله من أوسع وأجمل مساجد العالم، وليكون المسجد منطلقًا لتطوير شامل للمدينة المنورة.

وقد أشرف الملك فهد بنفسه على وضع المخططات والتصاميم، وناقش المسئولين والمهندسين في كافة تفاصيل المشروع، وأدخل عليه تعديلات عديدة، تتفق مع الهدف الذي يعتمل في نفسه.

بل إن الملك فهد اختار بنفسه المواد الخام التي ستستخدم في كسوة أرض المسجد وجدرانه، وزوّد القائمين على المشروع بكثير من الأفكار، بحيث يتحقق لهذا المشروع أقصى ما يمكن تحقيقه مما يليق بمكانة المسجد، وييسر استيعاب عشرة أضعاف مما كان يستوعبه حاليًا من المصلين، مع تزويده بكافة معطيات التقنية الحديثة، في السلالم الكهربائية المتحركة، والإضاءة، ومرافق الخدمات.

ولقد حرص خادم الحرمين الشريفين على زيارة المدينة المنورة، سنويًا، ليتابع بنفسه ما نُفذ من المشروع، والمشروعات التطويرية الأخرى في المدينة المنورة.

وفي ٩ محرم ١٤٠٦هـ، وضع الملك فهد حجر الأساس للمشروع، على بركة الله، وبذلك انطلق التنفيذ وفق جداول زمنية محددة، وبمتابعة من أمير منطقة المدينة المنـورة.

أما الخطوط العريضة للتوسعة الكبرى هذه، فتتمثل في :

- مضاعفة مساحة المسجد من (١٦,٥٠٠) متر مربع إلى (١٦٥,٠٠٠) متر مربع، تشمل المساحة الحالية.
- زيادة عدد المآذن، من أربع (ارتفاع كل منها ٧٢ مترًا)، إلى عشر مآذن، ترتفع الست الجديدة منها إلى (٩٢) مترًا.
- زيادة عدد مداخل الحرم ستة عشر مدخلاً رئيسيًا وأربعة عشر مدخلاً فرعيًا، وستة مداخل للأقبية.
- إنشاء مبنيين للسلالم المتحركة، مساحة كل منهما (٣٧٥) مترًا مربعًا، ويضم كل مبنى مجموعتين من السلالم المتحركة، لتأمين حركة المصلين في أوقات الذروة، أيام الجمع، والعيدين، ومواسم الحج، للصعود إلى سطح الحرم، وبذلك يصبح عدد مباني السلالم المتحركة خمسة مبانٍ.
- إضافة (٦٥) بابًا إلى المسجد، وبذلك يصبح عدد الأبواب (٨١) بابًا.
- جعل ارتفاع الدور السفلي للمسجد (٤,٥) أمتار، وارتفاع الدور العلوي (١٢,٦٠) مترًا، وارتفاع إنشاءات السطح (٤) أمتار.
- تركيب (٣٦) سقفًا متحركًا، وهو نوع جديد من الإنجازات الهندسية، لم يسبق تنفيذه قبلاً في أي مسجد.
- إنشاء منظومة متكاملة للمياه والصرف الصحي، لتصريف مياه الأمطار،

وتأمين مياه زمزم في جميع الأدوار.

- مشروع شبكة إذاعة داخلية، تمتد إلى أنحاء المسجد جميعها بعد التوسعة، ومنظومة لمكافحة الحريق، والإنذار المبكر بالحريق.
- رفع الطاقة الاستيعابية للمسجد من (٢٧,٠٠٠) مصلٍ قبل التوسعة إلى (٢٥٧,٠٠٠) مصلٍ، داخل المسجد نفسه، إضافة إلى ما تستوعبه الساحات الخارجية المحيطة بالمسجد.
- مراعاة الانسجام الكامل بين المبنى الأساسي للمسجد، ومباني التوسعة الجديدة.
- الأخذ في الاعتبار إمكان بناء دور ثان فوق سطح المسجد مستقبلاً، إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- استخدام الزخارف والنقوش الإسلامية في تجميل الجدران والسقوف، وفي أعمال الحديد المشغول.
- استخدام تقنية حديثة، لم يسبق لها مثيل في المساجد، لتكييف المسجد بأكمله بعد التوسعة، وقد خصص الدور تحت الأرضي، لاحتواء معدات التكييف والكهرباء ومرافق الخدمات الأخرى، أما محطة التكييف الرئيسية، فإنها تبعد عن المسجد الشريف سبعة كيلو مترات، وتقوم على مساحة (٧٠,٠٠٠) متر مربع، وقد حُدد موقع المحطة لإبعاد الضوضاء الناجمة عن تشغيلها، والحفاظ على الهدوء والسكون اللذين يتلاءمان مع جو المسجد، ويتيحان للمصلين أداء عباداتهم فيه دون أي إزعاج.
- إنشاء محطة كهربائية مستقلة للمسجد، كُلفت شركة كهرباء المنطقة الغربية

بتنفيذها، وهي بقوة (١١٠) ميجاوات، وتكلفتها (٨٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال.

- استخدام الرخام البارد (المقاوم للحرارة) في كافة أعمال الرخام التي يتطلبها المشروع.
- إنشاء مجموعات متكاملة من الميضآت، وصنابير مياه الشرب، بما يكفي حاجة قاصدي المسجد من الرجال والنساء، في مواقع كل منهم.
- إنشاء مجموعة متكاملة من معدات الإضاءة افنية، من النجف ومصابيح الفلورسنت.

تطوير المساحات المحيطة :

وبطبيعة الحال، فقد أُخذ في الاعتبار تطوير المساحات المحيطة بالحرم النبوي الشريف، في نفس الوقت الذي بدئ فيه بتنفيذ مشروع التوسعة.

وتتناول أعمال تطوير المساحات المحيطة بالمسجد إنشاء مساحات بعرض يتراوح بين (١٠٠) متر و(١٥٠) مترًا، من الجهات الغربية والشمالية والجنوبية، أما في الجهة الشرقية فقد رؤي الإبقاء على الشارع الذي يفصل المسجد عن المباني والبقيع، لتعذر إزالة أي جزء من البقيع.

نحن مسؤولون عنه شخصيًا :

ولعل مما يعطي أوضح فكرة وأقواها، عن مدى اهتمام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، بمشروع توسعة الحرم النبوي الشريف، وما يتعلق به من تطوير لما يحيط به، والمدينة المنورة بوجه الإجمال، أنه- يحفظه الله- وجّه إلى أمير منطقة المدينة المنورة الخطاب التالي الذي يكلف سموه فيه بمتابعة المشروعات التي يجري تنفيذها:

«صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد- أمير منطقة المدينة المنورة

تعلمون سموكم بأن مشروع توسعة الحرم النبوي الشريف وما يتعلق به، نحن المسؤولون عنه شخصيًا، لذا فإننا نفوضكم- شخصيًا- بمتابعة ذلك نيابة عنا، والرفع لنا عما يظهر لكم، وفقكم الله، فأكملوا ما يلزم بموجبه.

«فهد بن عبد العزيز»

توسعة مسجد قباء

لقد كان طبيعيًا، في سياق أعمال التطوير والعمارة والتوسعة، أن يولي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، المساجد التاريخية في منطقة المدينة المنورة، نفس النصيب الذي أولاه لتوسعة مسجد رسول الله ﷺ ، وتطوير المدينة المنورة.

وكان في مقدمة تلك المساجد، مسجد قباء أول مسجد في الإسلام، الذي يلي الحرمين الشريفين في المكانة والأهمية، والذي يوصف بأنه أول مسجد أسس على التقوى.

ولقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقال رسول الله ﷺ : «من تطهر وأحسن الطهور، ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان له كأجر عمرة».

وقد حظي هذا المسجد باهتمام ورعاية الخلفاء والملوك والسلاطين وأمراء

المسلمين، على مرّ التاريخ، ومنهم عمر بن عبد العزيز، وجمال الدين الأصفهاني، والناصر قلاوون، والأشرف برسباي، وكانت آخر عمارة للمسجد قبل عهد الملك عبد العزيز آل سعود، هي عمارة السلطان محمود الثاني وابنه السلطان عبد المجيد.

يقع المسجد على مساحة (٣,٥) كيلو مترات عن وسط المدينة المنورة، ويصله بها طريقان مسفلتان في الاتجاهين.

وقد وجّه خادم الحرمين الشريفين بتنفيذ أكبر توسعة للمسجد في تاريخه، ووضع حجر أساس المشروع يوم الخميس ٨ صفر ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م)، وكانت أهم الأعمال التي تمت فيه كما يلي:

- كانت مساحة المسجد (١٣٣٣) مترًا مربعًا، فأصبحت بعد التوسعة (٦,٠٠٠) متر مربع، أي خمسة أضعاف ما كانت عليه، مع المحافظة على الطابع المعماري التاريخي للمسجد.
- أُقيمت على سطح المسجد (٥٦) قبة متفاوتة الارتفاعات، قطر كل منها (٥,٣٠) أمتار، إلى جانب ست قباب كبيرة قطر كل منها (١٢) مترًا، بارتفاعات تتراوح بين (٢٤,٣٠) مترًا، و(١٨,٣٠) مترًا.
- أصبحت للمسجد أربع مآذن، في كل ركن من أركانه مئذنة، ويبلغ ارتفاع المئذنة الواحدة (٤٢) مترًا.
- فُرشت المساحات المحيطة بالمسجد برخام فوق طبقة خرسانية، وأُعيدت تمديدات الكهرباء والمياه بما يواجه التوسعة الجديدة، وتم تشجير المنطقة المحيطة بالمسجد، لغرض إكساب المسجد لمسة جمالية، ولتوفير ظلال كافية للمصلين خارج المسجد.

- أنشئت للمسجد مكتبة، كما أُنشئت مساكن خاصة بالإمام والمؤذن والخدم والحرس، والمساحة الإجمالية لهذه المنشآت (١٢٤٠) مترًا مربعًا.
- جُهز المسجد بمنظومة للتكييف المركزي تشمل جميع أجزائه.

توسعة مسجد القبلتين

مسجد القبلتين مسجد تاريخي، يتميز بما لم يتوفر لأي مسجد قط، وهو أن رسول الله ﷺ صلى فيه صلاة الظهر، ولما أتم ركعتين، نزل عليه أمر الله تعالى بأن يستقبل المسجد الحرام في الآية ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. فتحول رسول الله ﷺ نحو المسجد الحرام.

وقد أصلح شاهين الجمالي عمارة المسجد عام (٨٩٣هـ (وجدّد عمارته السلطان سليمان العثماني (عام ٩٥٠هـ).

وفي عهد الملك عبد العزيز آل سعود، أمر جلالته- يرحمه الله- بتوسعة المسجد وتجديد عمارته وبناء مئذنة له.

ومع ما يوليه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، من عناية واهتمام ببيوت الله، فقد أمر- يحفظه الله- بتوسعة المسجد، وتجديد عمارته، فأصبحت مساحته (٣٩٢٠) مترًا تقريبًا، وجُعلت له قبتان قطر الواحدة منهما (٧,٨) أمتار، وارتفاعها (١٨,٨) مترًا.

وهذه التوسعة، هي أكبر توسعةٍ تتم على هذا المسجد التاريخي الشريف.

توسعة الفهد الكبرى للمسجد النبوي الشريف

لقد بدأت جذور هذه التوسعة أيام المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز- يرحمه الله- وكان ذلك في آخر سنة ١٣٩٢هـ حيث نزعت الدولة ملكية الدور التي بجوار المسجد النبوي الشريف من الناحية الغربية، وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٩٣هـ ابتدئ في الهدم لنقل الأنقاض، ولم يستغرق ذلك سوى ثلاثة شهور، ورغم عظم المساحة والدور التي تم هدمها إلا أن الفترة من بداية الأمر بالتوسعة إلى نهاية إعداد الأرض ساحة صالحة للصلاة فيها لم تزد على سبعة أشهر، وقد هيئت فيها مظلات مؤقتة للصلاة فيها.

وحين زار خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز المدينة المنورة عام ١٤٠٣هـ وعلم أن مساحة المسجد النبوي الشريف تضيق عن استيعاب المصلين من حجاج وزائرين. أصدر حفظه الله أمره بتوسعة المسجد النبوي الشريف بما يتناسب مع زيادة عدد الوافدين لزيارة الرحاب المقدسة، فكانت مساحة المظلات الغربية ضمن منطقة التوسعة الكبرى.

وفيما يلي بعض المعلومات والبيانات الإحصائية عن هذه التوسعة:

١ - مساحة المسجد القائم بالبناء العثماني

في التوسعة الأولى هي ١٦٥٠٠ متر مربع

٢ - مشروع التوسعة الفهدية الكبرى :

(أ) مساحة البدروم (الدور السفلي) ٧٩٠٠٠ متر مربع

(ب) مساحة الدور الأرضي ٨٢٠٠٠ متر مربع

(ج) مساحة السطح ٦٧٠٠٠ متر مربع

٣ – سعة المسجد بالمصلين :

(أ) المسجد القائم	٢٨٠٠٠ مصل
(ب) مشروع التوسعة بالدور الأرضي	١٣٧٠٠٠ مصل
(ج) مشروع التوسعة بالسطح	٩٠٠٠٠ مصل
(د) مجموع المصلين	٢٥٥٠٠٠ مصل

٤ – عدد المآذن :

(أ) المآذن القائمة بالمسجد في البناء العثماني	٢ مئذنة
(ب) المآذن القائمة بالمسجد في البناء في التوسعة الأولى	٢ مئذنة
(ج) المآذن في التوسعة الكبرى	٦ مئذنة
(د) مجموع المآذن بعد التوسعة	١٠ مئذنة

٥ – المداخل (وتشمل بعضها عددًا من الأبواب):

(أ) المدخل بالمسجد القائم	١١ مدخلاً
(ب) بعد التوسعة ألغيت بعض المداخل لأنها كانت في داخل المسجد ويصبح عدد المداخل	١٦ مدخلاً
(ج) عدد السلالم المؤدية إلى السطح	١٨ سلمًا
(د) عدد الأبواب في هذه المداخل جميعها يصل إلى	٦٥ بابًا
(هـ) مداخل البدروم	٨ مداخل

٦ – **ارتفاع الطابق السفلي للتوسعة (البدروم) صافي**	٤,١٠ أمتار
٧ – **ارتفاع الطابق الأرضي (وينطبق ذلك على المسجد الحالي) صافي**	١٢,٦٠ مترًا

٨ - ارتفاع الطابق العلوي بمنسوب السطح صافي	٤ أمتار
٩ - ارتفاع المئذنة بالتوسعة السعودية الأولى	٧٢ مترًا
١٠- ارتفاع المئذنة بالتوسعة الجديدة	٩٢ مترًا
١١- ارتفاع الهلال بعد ارتفاع المئذنة	٦ أمتار
١٢- ارتفاع المئذنة مع الهلال	٩٨ مترًا
١٣- عدد الأسقف المتحركة بالسقف	٣٦ سقفًا
١٤- عدد نافورات الشرب	٢٢٠ نافورة

آثار الحرم النبوي الشريف

- الأساطين المأثورة :

أما الأساطين المأثورة التي ذكر لها أهل التاريخ فضلاً خاصًا فثمانية :

الأولى : الأسطوانة التي هي علم على مصلاه الشريف، وتُعرف بالمخلقة(١) مكان جذعه الذي كان يخطب- صلى الله عليه وآله وسلم- إليه ويتكئ عليه أمامها في محل كرسي الشمعة، وكان سلمة بن الأكوع(٢) يتحرى الصلاة عندها، فلما قيل له في ذلك، قال: إني رأيت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- (يتحرى الصلاة عندها).

قال مالك: أحب مواضع التنفل في مسجده- صلى الله عليه وآله وسلم- حيث العمود المخلق، وأما الفريضة فأول الصفوف. والوصف بالمخلقة يطلق عليها، وعلى الأسطوانة التي تليها من صفها في المشرق- كما تقدم آنفًا- وعلى أسطوانة عائشة- رضي الله عنها- لكن إذا أُطلقت المخلقة فالمراد هذه التي هي علم على مصلاه الشريف- على الأصح عند أهل التاريخ- وتقدم تقديم هذه الأسطوانة لجهة القبلة، وإدخال بعضها في المحراب النبوي ومكتوب عليها هذه الأسطوانة المخلقة.

---

(١) المخلقة: أي المدهونة بالخلوق وهو ما يتخلق به من الطيب.

(٢) سلمة بن الأكوع: كان شجاعًا، راميًا، محسنًا، خيّرًا، وبايع رسول الله ﷺ ثلاثة مرات في أول الناس وأوسطهم وآخرهم، نزل الربذة، ومات في المدينة وهو ابن ثمانين، وثبت في الصحيحين أن رسول الله قال: خير رجالنا سلمة بن الأكوع.

الثانية : أسطوانة عائشة- رضي الله عنها- وتُعرف: بأسطوانة المهاجرين لأنهم كانوا يجتمعون عندها، وتُعرف في كلام المطري (بالمخلقة أيضًا) تقدم أنه- صلى الله عليه وآله وسلم- صلى إليها المكتوبة بعد تحويل القبلة بضعة عشر يومًا. ثم تقدم إلى مصلاه أي: إلى الأسطوانة- التي تقدم ذكرها آنفًا- وتُعرف بالقرعة، وأسطوانة عائشة للحديث المروي عنها فيها أن في مسجدي لبقعة قيل هذه الأسطوانة لو يعلم الناس ما صلوا فيها إلا أن تطير لهم القرعة، وفي لفظ لو عرفها الناس لاضطربوا[1] عندها بالسهمان[2] فسألوا عائشة. فأبت أن تسميها فأصغى إليها عبد الله بن الزبير فسّارته[3] بشيء. ثم قام فصلى إلى التي يُقال لها أسطوانة عائشة. وقد صلى إليها النبي- صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وابن الزبير، وعامر بن عبد الله يصلون إليها، وفي خبر ابن زبالة: أن الدعاء عندها مستجاب، وهي في الصف الذي خلف الإمام الواقف في محرابه الشريف- صلى الله عليه وآله وسلم- عن جهة يساره أعني الثالثة من المنبر، ومن القبر بإسقاط أسطوانة الصندوق لدخولها في حائز الحجرة الشريفة، والثالثة أيضًا من القبلة متوسط الروضة الشريفة مكتوب عليها هذه أسطوانة عائشة، وفي الكلام على المحراب النبوي أنك إذا جعلت هذه الأسطوانة خلف ظهرك، ومشيت نحو الشام حتى إذا كنت في محاذاة باب جبريل كان ذلك مصلاه- صلى الله عليه وآله وسلم- إلى بيت المقدس قبل تحويل القبـلة.

---

(١) أي يقترعوا على الصلاة إليها.

(٢) أي السهام.

(٣) أي كلمته بصوت منخفض.

أسطوانة التوبة وسبب تسميتها بذلك :

الثالثة : أسطوانة التوبة وفي العيبة وصفها (بالمخلقة) أيضًا، وتُعرف بأبي لبابة لأنه ارتبط إليها أي: إلى جذع كان محلها- لما وقع منه في حلفائه بني قريظة بضع عشرة ليلة حتى كاد لا يسمع، وكاد بصره يذهب، وكانت ابنته تحل رباطه إذا حضرت الصلاة، وإذا أراد أن يذهب لحاجته ثم يأتي فترده في الرباط، وحلف لا يحل نفسه حتى يحله رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فقال النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- أما لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذا فعل ذلك فما أنا الذي أطلقه حتى يتوب الله عليه.

فأنزلت توبته سحرًا(١) في بيت أم سلمة(٢) فحله- صلى الله عليه وآله وسلم- وحلف أن لا يطأ بني قريظة أبدًا، وقال: لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا.

وقيل سبب ارتباطه بها تخلفه في غزوة تبوك. فارتبط إليها سبعًا بين يوم وليلة كما في الدلائل للبيهقي. فإن نظرنا إلى الترجيح فالراجح الأول، وإن نظرنا إلى الجمع فالجمع ممكن، وذلك بأن يقال وقع له ذلك مرتين مرة لما وقع له في بني قريظة، ومرة لتخلفه في غزوة تبوك، قال بعضهم: ويؤيد ذلك أن في بعض

---

(١) أي في آخر الليل.

(٢) أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، القرشية، المخزومية، اسمها هند، وقيل رملة، لُقب أبوها بزاد الركب لشدة جوده وكرمه، كانت زوج ابن عمها أبي سلمة فمات عنها وتزوجها رسول الله ﷺ .

عنوان النجابة في معرفة من مات في المدينة من الصحابة، ص٢٠٥.

الروايات أنه ارتبط بضع عشرة، وفي بعضها ست ليالي، وفي بعضها سبعًا، فيقال ارتبط مرتين مرة بضع عشرة ومرة ست ليالي، والذي قال سبعًا جبر المنكسر، والذين تخلفوا في غزوة تبوك عشرة أوثق منهم أنفسهم سبعة أحدهم أبو لبابة بسواري المسجد، فقال- صلى الله عليه وآله وسلم-: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحابه، تخلفوا عنك... الحديث، وفيه توبة الله عليهم وإطلاقهم.

والآية التي نزلت في التوبة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ الآية [الأنفال: ٢٧]، ونقل عن الاكتفاء أنها ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]. ويجمع بأن الآيتين نزلتا في أبي لبابة فقوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ الآية نزلت في ذنبه، وقوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ نزلت في توبته، وقصة المتخلفين عن غزوة تبوك مشهورة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصلي نوافله إلى هذه الأسطوانة، وينصرف إليها بعد صلاة الصبح، ويعتكف وراءها مما يلي القبلة مستندًا إليها، وقد سبق إليها الضعفاء، والمساكين وأهل الضرر، وضيفان النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- والمؤلفة قلوبهم ومن لا بيت له إلا المسجد فينصرف إليهم النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- من مصلاه من الصبح فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته، ويحدثهم ويحدثونه حتى إذا طلعت الشمس، ولابن ماجة كان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره وراء أسطوانة التوبة وهي الرابعة إلى المنبر، والثانية من القبر الشريف، أي: بعد اسطوانة الصندوق الذي يُوضع فيه الصندوق عند رأسه الشريف، كما حرره السمهودي في (الخلاصة) حيث قال: وهي بين أسطوانة

عائشة- رضي الله عنها- وبين الأسطوانة اللاصقة بشباك الحجرة، وكان فيها محراب من الجص يميزها عن غيرها زال بعد الحريق الثاني قال، وتوهم البدر بن فرحون أنها اللاصقة بالشباك المذكور، فهي التي تلي أسطوانة عائشة من جهة المشرق بلا فاصل مكتوب عليها هذه أسطوانة التوبة وتُعرف بأبي لبابة.

الرابعة : أسطوانة السرير، وعُرفت بأسطوانة السرير، لأنه ورد أنه يوضع له- صلى الله عليه وآله وسلم- سريره بين الأسطوانة التي وجاه القبر[١] من جهة رأسه الشريف، وبين القناديل كان يضطجع عليه- صلى الله عليه وآله وسلم- ولا منافاة بين هذا، وبين ما مر أنه كان يُوضع له سريره مرة عند هذه الأسطوانة، ومرة عند أسطوانة التوبة- أو كان يوضع له السرير عند أسطوانة التوبة- قبل أن يزيد في المسجد من جهة المشرق فلما زاد نقل سريره إلى هذه، وهي الملاصقة بالشباك داخل المقصورة تلي أسطوانة التوبة من جهة المشرق، وهذه الثلاث الأساطين آخذة من جهة المنبر إلى جهة القبر الشريف في صف واحد لا فاصل بينهن سوى نصف أسطوانة لاصقة بالشباك من خارجه مكتوب عليها هذه أسطوانة السرير، وهي من الأساطين التي أحدثت في المسجد زمن الأشرف (قايتباي) عند بناء القبة الكبيرة على الحجرة الشريفة- كما سبق ذلك- وإنما كتب عليها لكونها مقرونة إليها.

الخامسة: أسطوانة المحرس، وتسمى أسطوانة عليّ ﷺ لأنه كان يجلس في صفحتها التي تلي القبر يحرس النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- وهي خلف أسطوانة التوبة- من جهة الشمال- قوله في صفحتها التي تلي القبر بيان لجهة

---

(١) أي تجاه.

جلوسه. فلا يُفهم من ذلك أن الأسطوانة تلي القبر الشريف، بلا فاصل بل بينها وبين حائز الحجرة الشريفة الأسطوانة اللاصقة بالشباك داخل المقصورة. كان- صلى الله عليه وآله وسلم- يخرج منها من بيت عائشة إلى الروضة، وكان أمراء المدينة يصلون عندها. قاله السمهودي.

السادسة: أسطوانة الوفود، وكان- صلى الله عليه وآله وسلم- يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته، وكانت تُعرف بمجلس القلادة، يجلس إليها أسرة الصحابة، وأفاضلهم. قال السمهودي: وفهم الأقشهري أن مجلس القلادة صفة لأسطوانة عليّ، فوصفها به- وهي خلف المحرس- من الشمال. قال السمهودي: بينهما، وبين أسطوانة التوبة مصلى عليّ يريد أسطوانة المحرس، وبينها وبين حائز الحجرة الشريفة الأسطوانة اللاصقة بالشباك داخل المقصورة أيضًا، وأما المقرونة لأنها من خارج الشباك فلا عبرة بها لأنها حادثة كاللتين قبلها.

السابعة: أسطوانة مربعة القبر، ويُقال لها مقام جبريل، وهي في حائز الحجرة الشريفة عند منحرف صفحته الغربية إلى الشمال، وهي في حائز الحجرة الشريفة عند منحرف صفحته الغربية إلى الشمال بينها، وبين أسطوانة الوفود الأسطوانة اللاصقة بالشباك داخل المقصورة. قال السمهودي: ولذا روى ابن عساكر في أسطوانة الوفود إنك إذا عددت الأسطوانة التي فيها مقام جبريل كانت هي الثالثة، وإنما قيل لها أسطوانة مربعة القبر لأنها في ركن المربعة الغربية الشمالية التي بنيت عليها القبة الصغيرة التي على الحجرة الشريفة المحيطة بالقبور المنيفة داخل الحائز المثلث كان عندها باب بيت فاطمة- رضي الله عنها-. قال سليمان: قال لي مسلم فلا تنسى حظك من الصلاة إليها فإنها باب فاطمة- رضي الله عنها-

وكان- صلى الله عليه وآله وسلم- يأتي إليها ويأخذ بعضادتي بابها ويقول: السلام عليكم أهل البيت ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .. ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفي رواية كل يوم فيقول الصلاة الصلاة... الحديث.

قال العلاّمة السمهودي: وقد حرَّم الناس التبرك بها، وبأسطوانة السرير لغلق أبواب الشباك الدائر على الحجرة الشريفة، وكذلك حرم الناس التبرك بمحراب فاطمة، وأسطوانتها التي إليها المحراب المذكور كما تقدم في المحاريب، وقد أنكر العلماء إحداث هذا الشباك ولا سيما لما غلق أبوابها لذلك، والله أعلم.

الثامنة: أسطوانة التهجد، كان- صلى الله عليه وآله وسلم- يخرج حصيرًا كل ليلة إذا انكفت الناس فيطرح له وراء بيت عليّ، ثم يصلي صلاة الليل فلما رأى المصلين بصلاته قد كثروا فأمر بالحصير فطوى، ودخل فلما أصبح جاؤوه فقال: «إني خشيت أن تنزل عليكم صلاة الليل ثم لا تقوون عليها». قال عيسى بن عبد الله: وذلك موضع الأسطوانة التي على طريق باب النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- مما يلي الزور (بالزاي) أي الموضع المزور خلف الحجرة من حائزها. قال عيسى: وحدثني سعيد بن عبد الله بن فضيل قال: مرّ بي محمد بن الحنفية[1]، وأنا أصلي إليها فقال: أراك تلزم هذه الأسطوانة هل جاءك فيها أثر؟ قلت: لا، قال: فإنها كانت مصلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- من الليل.

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو القاسم، المعروف بابن الحنفية، أحد أبطال الإسلام الأشداء.

قال السمهودي: قال ابن النجار: هذه الأسطوانة وراء بيت فاطمة- رضي الله عنها- من جهة الشمال، وفيها محراب إذا توجه المصلي إليه كان يساره إلى باب آل عثمان المعروف اليوم بباب جبريل، قال المطري: وحولها الدار بزين أي الشباك الدائر على الحجرة الشريفة. وقد كتب فيها بالرخام هذا متهجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. قال السمهودي: وقد اتخذ في موضعها بعد الحريق الثاني دعامة عند بناء القبة، واتخذوا فيها محراب. قلت: وقد جدد هذا المحراب في العمارة الحادثة في زماننا وتقدم الكلام عليه في المحاريب وأنه كتبت فيه آية التهجد، وهذه الأسطوانة هي آخر الأساطين التي ذكر لها أهل التاريخ فضلاً خاصًا وإلا فجميع سوار المسجد لها فضل، وصلى إليها كبار الصحابة، فجميع سواريه تستحب الصلاة عندها، إذ لا تخلوا من صلاة كبار الصحابة إليها.

- الروضة المنيفة :

أما حد الروضة المنيفة ففيه أقوال:

الأول : أنها ما سامت الحجرة الشريفة والمنبر المنيف فقط. فتتسع من جهة الحجرة وتضيق من جهة المنبر، وتكون منحرفة الأضلاع، لتقدم المنبر الشريف في جهة القبلة، وتأخر الحجرة الشريفة في جهة الشام فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعاه على قدر امتداد المنبر الشريف النبوي وهي خمسة أشبار حرره السمهودي فتكون صورته هكذا.

الثاني : أنها تعم جميع المسجد الموجود في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي جزم به السمعاني وغيره، ونقله الريمي عن الخطيب بن جملة واستدل له بأشياء غالبها ضعيف مبناه على أن إطلاق الروضة من قبيل المجاز لما في ذلك من

المضاعفة ونحوه. وأحسنها ما نقله عن الخطيب من قوله- صلى الله عليه وآله وسلم «ما بين بيتي» وهو مفرد مضاف يفيد العموم في سائر بيوته صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : أنها تعم جميع المسجد في زمنه وبعده. قال الرساني: أن اسم الروضة يعم مسجده- صلى الله عليه وآله وسلم- كله مع ما زيد فيه.

الرابع : أنها سامت كلاً من طرفي المنبر والحجرة فتشمل ما سامت المنبر من مقدم المسجد من جهة القبلة، وإن لم يسامت الحجرة، وتشمل ما سامت الحجرة من الشمال وإن لم يسامت المنبر، فتكون مربعة وهي الأروقة الثلاثة: رواق المصلى، والرواقان بعده إلا يسيرًا وذلك هو مسقف مقدم المسجد في زمن- صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامس : أنها من حجرته إلى مصلاه لرواية «ما بين حجرتي ومصلاي» على القول بأن المراد مصلى العيد.

هذا حاصل ما ذكروه من الأقوال في تحديد الروضة الشريفة، وعلى كلٍ فالقبر الشريف داخل في حد الروضة الشريفة.

- المحراب النبوي :

والمراد محرابه- صلى الله عليه وآله وسلم- مصلاه الشريف، إذ لم يكن للمسجد الشريف محراب مجوف في عهده صلى الله عليه وآله وسلم، ولا في عهد الخلفاء الراشدين بعده صلى الله عليه وآله وسلم.

وأول من أحدث المحراب المجوف في المسجد النبوي على هذه الصفة عمر ابن عبد العزيز في عمارة الوليد. فقد نقل الجلال السيوطي- رحمه الله- في (أوائله)

عن الواقدي عن محمد بن هلال أن أول من أحدث المحراب المجوف عمر بن عبد العزيز حين بنى المسجد النبوي.

قال السمهودي: واحتاط في أمره، ودعى مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار، والعرب، والموالي، فقال لهم: تعالوا أحضروا بنيان قبلتكم لا تقولوا: غيَّر عمر قبلتنا. فجعل لا ينزع حجرًا إلا وضع مكانه حجرًا أي بنائه لجدار القبلة، والمحراب المذكور وهو في موضع الصندوق الذي كان أمام المصلى الشريف. وزعم الأقشهري في روضته أن مصلى النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- في موضع الصندوق وليس كذلك لأن من المعلوم أن الصندوق المذكور كان له أصل قديم هناك فكيف يكون في موضع المصلى الشريف، ولا ينبه عليه أحد ؟ ولا يذكرون ما يدل على خلافه؟ بل كيف يمكنون من ذلك ويحرمون المسلمين التيمن بمكانه- صلى الله عليه وآله وسلم- مما يكاد يحيله العقل.

موضع الصندوق :

والصندوق المذكور كان فيه مصحف كبير أرسله الحجاج بن يوسف إلى المدينة حين أرسل إلى أمهات القرى بمصاحف فَجُعِل في ذلك الصندوق، ووضع عن يسار الأسطوانة التي عُمِلت علمًا للمصلى.

قال السمهودي: وهي التي تكون محاذية ليمين الواقف في المصلى الشريف من جهة القبلة المسماة: بالمخلقة[1] قال: وأبدل- أي في عمارة الأشرف قايتباي كما تقدم- الصندوق الذي أمام المصلى النبوي، واللوح الذي كان في قبلته بدعامة

---

(١) يعني الأسطوانة المخلقة.

فيها محراب مرخم. فمن تحرى في القيام بمحاذاة هذا المحراب كان المصلى الشريف عن يمينه لما في الإحياء أنه يعني المصلى يجعل عمود المنبر في زمانه حذاء منكبه الأيمن، ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال السمهودي: واستقبال السارية بأن يجعلها تلقاء جهة يمينه. أي أخذ من قوله: وتكون الدائرة بين عينيه- وهذه الدائرة كانت قبل الحريق الأول- وقد ذكر الأئمة للمصلى الشريف علامات أخرى أُزيلت كلها، و لم يبق اليوم منها شيء.

ويؤخذ من سابق كلام السمهودي ولاحقه أن المحراب بُني في محل الصندوق الذي كان أمام المصلى الشريف الذي كان عن يسار الأسطوانة المذكورة، وأنه لما بنوا المحراب في زمنه منعتهم الأسطوانة أن يجعلوا تجويفه في محل مقامه- صلى الله عليه وآله وسلم- فجاء طرفه الغربي في محاذاة مقامه الشريف والأسطوانة المذكورة ليست في محلها الأصلي. فقد ذكر السمهودي تقديمها لجهة القبلة بنحو ذراعين. وقد تقدم أنها كانت على يمين الواقف في المصلى الشريف. لكن لو أعيدت اليوم في محاذاتها إلى الشام تصير في المصلى الشريف فلعله حين قدموها لم يضعوها في محاذاة محلها من جهة القبلة؛ بل زحفوها قليلاً لجهة الشرق، فأدخل بعضها في المحراب، ووضعوها وضعها اليوم.

قال السمهودي: وقد ذرعت ما بين محل المنبر الشريف الأصلي، وبين مقامه- صلى الله عليه وآله وسلم- فكان: أربع عشرة ذراعًا، وشبرًا كما حرره ابن زبالة صاحب مالك وغيره في ذرع ما بين المنبر، والمصلى الشريف، وأن ما بينه وبين الجدار القبلي أي الذي فيه المحراب العثماني (إحدى وعشرون ذراعًا ونصفًا

وربعًا) يرجح قيراطًا أي بإدخال عرض الجدار القبلي الذي كان أمام المصلى الشريف.

– باب جبريل :

«وباب الجنائز أو باب الجبر» وسر تسميته بباب جبريل؛ لأن سيدنا جبريل عليه السلام كان ينزل بالوحي على نبينا صلوات الله وسلامه عليه من جهته، وأيضًا «جاء سيدنا جبريل عليه السلام من جهته إلى النبي الأعظمﷺ بعد الانتهاء من غزوة الخندق العظيمة وقال له: يا رسول الله هل ألقيتم السلاح، فقال له الرسول ﷺ: نعم، فقال جبريل: إننا لم نؤمر بإلقاء السلاح بعد وإن الله ﷻ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم». فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة والقصة طويلة جدًا ولسنا هنا بصددها.

– مقر أهل الصفة :

في عهده المبارك صلوات الله وسلامه عليه، نسميه الآن في عرفنا الحاضر «دكة الأغوات» وهذه الدكة الحالية ثلثاها من جهة القبلة وهي الجهة الجنوبية كان من العهد الشريف النبوي، وثلثها من جهة الشمال من زيادة الوليد بن عبد الملك ابن مروان الخليفة الأموي في زيادته للحرم الشريف النبوي على يد عامله على المدينة المنورة سيدنا عمر بن عبد العزيز، وأهل الصفة هم الذين أنزل الله تبارك وتعالى فيهم على نبينا الأعظم ﷺ قوله جلت قدرته: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهي منقبة عظيمة لهم ووصف لأحوالهم التي يغبطون عليها كل الغبطة، وكان يرأسهم إذ ذاك الصحابي الجليل سيدنا أبو هريرة ﷺ، وكان عدد أهل الصفة سبعمائة رجل في مسجد رسول الله ﷺ ، يصلون صلاة وينتظرون الصلاة الأخرى لا يخرجون إلى تجارة ولا زراعة ولا صناعة، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم».

– المنبر النبـوي :

كان ﷺ يخطب غير مستند إلى شيء، ثم خطب إلى جذع يعتمد عليه إذا طال قيامه، ثم بدا له أن يتخذ منبرًا فاتخذه من الطَّرْفاء (الأثل) ذا درجات ثلاث وكان يقف على الثالثة، فلما خطب أبو بكر نزل درج ثم عمر درجة ثم عليّ درجة يكبر كُلٌّ سلفه، وقام عثمان على الدرجة السفلى ست سنين ثم رقِي حيث كان يرقى رسول الله ﷺ فانتقده الصحابة وهو أوّل من كسا المنبر ثيابًا قبطية، ولما قدم معاوية إلى المدينة عام حج حرك المِنبر وأراد أن يخرج إلى الشام فكسفت الشمس يومئذٍ حتى رؤيت النجوم، فاعتذر معاوية إلى الناس وقال: أردت أنظر إلى ما تحته وخشيت عليه من الأرضة، وزاد فيه مروان عامله على المدينة ست درجات من أسفله وقال: إنما زدت فيه لما كثر الناس فصار المنبر تسع درجات بالمجلس، وكان الخلفاء يقفون على السابعة وهي الأولى من المنبر النبوي، واستمر المنبر على هذا حتى احترق المسجد سنة ٦٥٤هـ فاحترق، ثم جدّد المظفر صاحب اليمن منبرًا له رمانتان من الصندل وضع موضع الأول سنة ٦٥٦هـ، ثم غيّر بمنبر أرسله الظاهر بيبرس، ثم غيّر هذا بمنبر للظاهر برقوق أرسله سنة ٧٩٧هـ، ثم استبدل الأخير بمنبر أرسله المؤيد سنة ٨٢٠هـ، وقد احترق سنة ٨٨٦هـ، فأقام أهل المدينة منبرًا من

الآجر المطلي بالنورة غُيِّر بمنبر من الرخام بعث به الأشرف قايتباي سنة ٨٨٨هـ. ثم نُقل هذا إلى مسجد قباء ووضع مكانه منبر من الرخام أرسله السلطان مراد سنة ٩٩٨هـ، ولا يزال إلى يومنا هذا، ولهذا المنبر اثنتا عشرة درجة، ثلاث منها خارج بابه، وتسع منها داخله، وهو من عجائب الدنيا لا يوجد له مثيل، هذا وقد روى بضعة عشر رجلاً من الصحابة أن الجذع الذي كان يخطب إليه ﷺ حنّ إليه لما فارقه وأن رسول الله ﷺ وضع يده عليه فسكن، والراجح أن ذلك الجذع مدفون بين المنبر ومصلى النبي ﷺ .

– حجرة الرسول ﷺ والمقصورة :

كان لرسول الله ﷺ بيت في الجنوب الشرقي للمسجد يُعرف ببيت عائشة، وكان جنوبيه بيت حفصة يفصله عنه طريق ضيق، وكانت بقية البيوت التي يسكنها أزواجه التسع جنوبي المسجد إلى محاذاة محرابه الآن وشرقيه إلى ما بعد باب النساء، وفي شماليه إلى ما يحاذي منبره ﷺ بين باب الرحمة وباب النساء، ولم يكن ملاصقًا للمسجد منها إلا بيت عائشة رضي الله عنها، وكان له بابان: أحدهما غربي داخل المسجد، والآخر شمالي، وقيل غير ذلك، وكان في كل بيت من بيوت أزواجه حجرة مبنية بالجريد عليه أكسية الشعر، أما البيوت فكانت من اللَّبِن والجريد ولم تكن السقوف مرتفعة بل كانت قصيرة تنال باليد، ولما توفي رسول الله ﷺ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ دُفن بحجرة السيدة عائشة رأسه إلى الغرب ووجهه الشريف نحو القبلة، ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣هـ دُفن إلى جانبه من جهة الشمال رأسه خلف منكب رسول الله ﷺ ، ولما طُعن عمر استأذن عائشة أن يُدفن مع صاحبيه فأذنت له، فلما توفي في ٢٧

ذي الحجة سنة ٣١هـ دُفن في جوارهما شمالي أبي بكر رأسه عند منكبه وبذلك كان بيت عائشة قسمين، قسم به القبور، وقسم كانت تسكنه وبينهما حائط، وكانت تدخل أحيانًا حيث القبر سافرة، فلما دُفن عمر لم تدخله إلا مقنَّعة محافظة على الحجاب في الحياة وفي الممات، فلله هذه الآداب وتلك الأخلاق.

وقد أُعيد بناء الحجرة باللَّبِن في عهد عمر ﷺ ، ولما كانت خلافة الوليد بن عبد الملك أدخل عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بيوت الأزواج في المسجد وأقام بناء حول الحجرة التي بها القبور جعله مخمسًا و لم يجعله مربعًا خشية أن يستقبله الناس كما يستقبلون الكعبة، وقد ذرع السمهودي الحجرة الداخلية فإذا بضلعها الجنوبية من الداخل عشرة أذرع وثلثا ذراع، وضلعها الشمالية أحد عشر ذراعًا و٥/١٢ من الذراع، وطول كل من الضلعين الشرقية والغربية ٥/٨ ٧ أذرع- الذراع ٤٩ سنتيا- وارتفاع الحجرة ١٥ ذراعًا، وطول الضلع الجنوبية من الدائر المخمس ١٥ ذراعًا إلا قليلاً، وطول الشرقية منه ١/٢ ١٢ ذراعًا وطول الغربية ١/٢ ١٦، وطول الضلعين الشرقية والشمالية ١/٢ ١٢، وطول الغربية الشمالية ١٤ ذراعًا، وارتفاع الدائر المخمس من أرض المسجد ثلاثة عشر ذراعًا وثلث، وبين جدر الحجرة والدائر المخمس فضاء واسع من جهة الشمال ونحو ذراع من جهة الشرق والجنوب، ولكنه يضيق إلى شبر تجاه وجهه ﷺ ، أما الجداران الغربيان فليس بينهما فضاء و لم يتغير هذا الوضع إلى يومنا هذا.

وكانت الحجرة مسقوفة بالخشب سمر بعضه فوق بعض وجعل عليه ثوب مشمع، ثم أقام عليها أحمد بن البرهان عبد القوي ناظر قوص، وقيل الملك المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ قبة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها صُنعت من خشب أُقيم

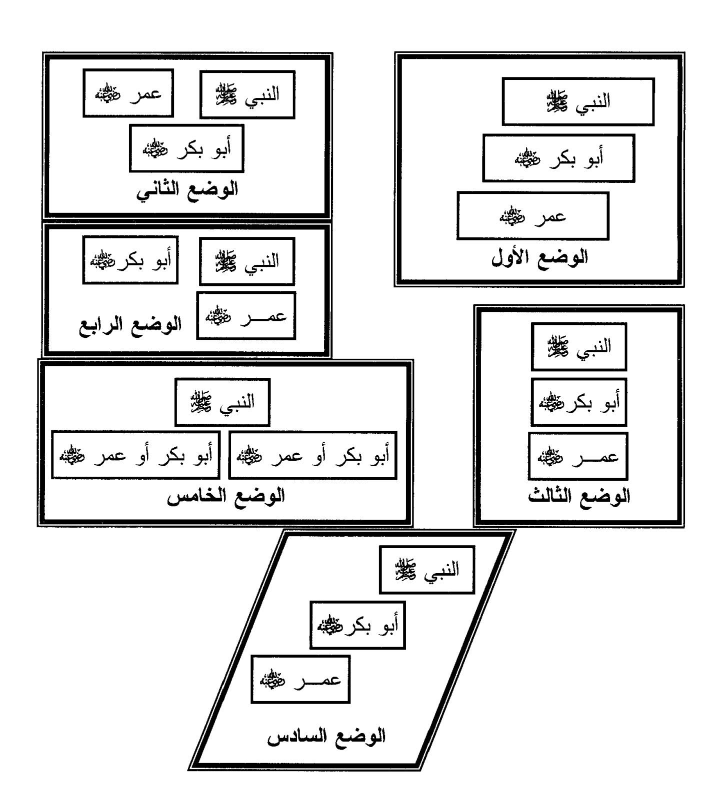
على رءوس الأساطين المحيطة بالحجرة، وسُقفت بألواح منه فوقها ألواح الرصاص منعًا للمطر أن ينزل داخل الحجرة، وهذه القبة مبدؤها من سقف المسجد وهو مواز لسقف حجرة الرسول ﷺ الذي وصفاه والذي احترق في حريق المسجد الأول سنة ٦٥٤هـ. وقد جدّد القبة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. وجدّد ألواح الرصاص الأشرف شعبان سنة ٧٦٥هـ. وكذلك الظاهر جقمق، ولما احترق المسجد للمرة الثانية جدّد الأشرف قايتباي سنة ٨٨٦هـ القبة وجعلها على حائط الحجرة وبناها بالحجر الأسود المنحوت وكملها بالحجر الأبيض وكانت قبل من الخشب، وبلغ ارتفاعها من أرض الحجرة إلى مرتكز هلالها ثمانية عشر ذراعًا وربعًا، وهذه القبة لا يراها الآن من بأرض المسجد لأن الدائر المخمس الذي تسدل عليه الكسوة يمنع من رؤيتها، وقد بنى قايتباي فوق هذه القبة قبة أخرى عظيمة اتخذ لها دعائم وأساطين حول الدائر المخمس، و لم يكد يتم بناؤها حتى تشققت أعاليها فأعيد بناؤها محكمًا بعد أن أخذ لها الجبس الأبيض من مصر وكان ذلك سنة ٨٩٢هـ. وهذه القبة مزينة بالنقوش الجميلة وفيها طراز كُتب في جهته الغربية: أنشأ هذه القبة الشريفة العالية المعترف بالتقصير الراجي عفو ربه القدير قايتباي. وفيها من الشبابيك والطاقات ست وسبعون، وقد حدث بها شقوق في زمن السلطان محمود بن السلطان عبد الحميد فأمر بتجديدها فهدم أعاليها وأُعيد بناؤها متقنًا وذلك سنة ١٢٣٣هـ، ثم أمر بصبغها فصُبغت باللون الأخضر وكان لونها قبل أزرق لون الرصاص الذي عليها ثم صارت تُصبغ باللون نفسه كلما خف سابقه من تأثير الشمس.

وقد حُفر حول الحجرة خندق عميق صُب فيه الرصاص حتى لا يستطيع أحد أن يصل إلى جثة النبي ﷺ، كما حاول بعض النصارى سنة ٥٥٧هـ. في زمن الملك العادل نور الدين الشهيد، ولما فطن لذلك أمر بهذا الحاجر الرصاصي.

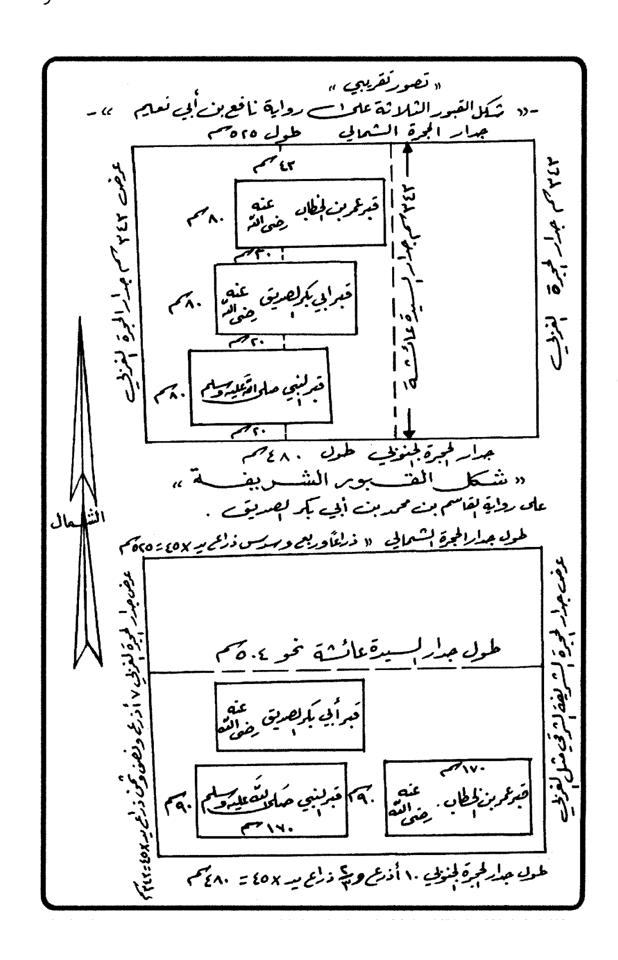
وكان في الجدار القبلي من الخارج تجاه رأسه ﷺ مسمار من فضة وُضع علامة على الرأس فعُوض ذلك بقطعة من الألماس أقل من بيضة الحمام وتحتها قطعة أخرى أكبر منها وكلتاهما مشدود بالذهب والفضة ويطلق عليها الكوكب الدرّي وقد أهداه إلى الحجرة السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان، وتحت هاتين القطعتين حجر من الألماس مرصع بالجواهر الكريمة المشدودة عليه بالذهب والفضة أهداه السلطان مراد ابن السلطان أحمد خان سنة ١٠٤٧هـ. وفي سنة ١١٥٤هـ أُرسلت جواهر أخرى مما غنمها المسلمون من فتح بلغراد فوضعت تحت الأحجار السابقة، وفي سنة ١٢٩١هـ أهدت الملكة العادلة أخت السلطان عبد العزيز ابن السلطان محمود صفيحة من الذهب طولها ثلاث أرباع الذراع في عرض أربعة أصابع كُتب فيها بخط جميل: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وذلك بأحرف ذهبية مثبتة في الصفيحة مرصعة بالألماس البرلنتي ولها سلسلة ذهبية عُلقت بها فوق الكوكب الدرّي.

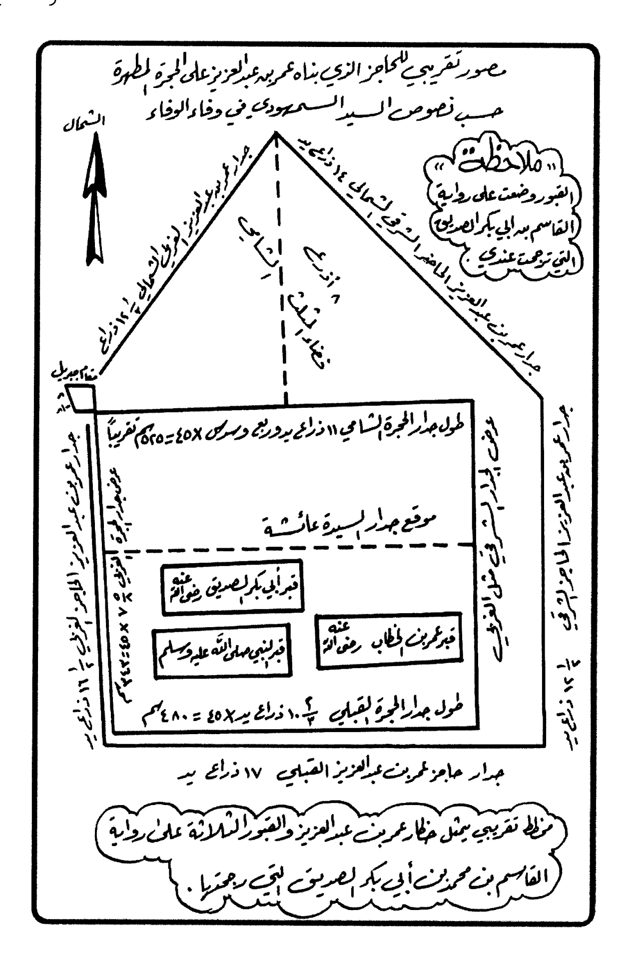
- كيفية القبور الشريفة :

وأخذوا بالصفة المشهورة في كيفية القبور الشريفة من كون رأس أبي بكر ﷺ خلف منكب رسول الله ﷺ ، ورأس عمر خلف منكب أبي بكر ﷺ ، فوضعوا الحصباء لهما كذلك.


النبي ﷺ
أبو بكر ﷺ
عمر ﷺ
الوضع الأول
عمر ﷺ
النبي ﷺ
أبو بكر ﷺ
الوضع الثاني
النبي ﷺ
أبو بكر ﷺ
عمـــر ﷺ
الوضع الثالث
أبو بكر ﷺ
النبي ﷺ
عمـــر ﷺ
الوضع الرابع
النبي ﷺ
أبو بكر أو عمر ﷺ
أبو بكر أو عمر ﷺ
الوضع الخامس
النبي ﷺ
أبو بكر ﷺ
عمـــر ﷺ
الوضع السادس

هذه هي الأوضاع التي ذكرها السمهوديّ، وهي سبع يمكن أن تردّ إلى ست. وأنت تستطيع كما ترى أن تعتبرها ثمانية. على أن الوضع الأول منها هو المأثور. والرواية فيه أن رأس النبيّ ﷺ وضعت إلى ناحية الغرب، وأن رأس أبي بكر وضعت إزاء منكبي النبيّ ﷺ ، وأن رأس عمر وضعت إزاء منكبي أبي بكر. وهذا الخلاف على وضع أبي بكر وعمر من النبي ﷺ يقع مثله على بناء الحجرة حين شادها عمر بن عبد العزيز.


« تصور تقريبي »
-« شكل القبور الثلاثة على رواية نافع بن أبي نعيم »-
جدار الحجرة الشمالي طول ٥٢٥ سم
٤٢ سم
قبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٨٠ سم
٣٠ سم
قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٨٠ سم
٢٠ سم
قبر النبي صلى الله عليه وسلم
٨٠ سم
٢٠ سم
جدار الحجرة الجنوبي طول ٤٨٠ سم
« شكل القبور الشريفة »
على رواية القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق .
الشمال
طول جدار الحجرة الشمالي « ذراعًا وربع وسدس ذراع يد ٤٥x=٥٢٥ سم
طول جدار السيدة عائشة نحو ٥٠٤ سم
قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه
١٧٠ سم
قبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٩٠ سم
قبر النبي صلى الله عليه وسلم
٩٠ سم
١٦٠ سم
طول جدار الحجرة الجنوبي ١٠ أذرع و ٢/٣ ذراع يد ٤٥x = ٤٨٠ سم


مصور تقريبي للحاجز الذي بناه عمر بن عبد العزيز على الحجرة المطهرة
حسب نصوص السيد السمهودي في وفاء الوفاء
الشمال
« ملاحظة »
القبور وضعت على رواية
القاسم بن أبي بكر الصديق
التي ترجحت عندي
مقام جبريل
طول جدار الحجرة الشامي ١١ ذراع يد وربع وسدس ٤٥X = ٥٢٥سم تقريباً
موقع جدار السيدة عائشة
قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه
قبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه
قبر النبي صلى الله عليه وسلم
طول جدار الحجرة القبلي ١٠ ⅔ ذراع يد ٤٥X = ٤٨٠سم
جدار حاجز عمر بن عبد العزيز القبلي ١٧ ذراع يد
مخطط تقريبي يمثل حظار عمر بن عبد العزيز والقبور الثلاثة على رواية
القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق التي رجحتها .

الباب السابع

تكوين التجمعات الإسلامية
قبل الهجرة

حين نقرأ السيرة النبوية يسبق إلى ظننا أن رسول الله ﷺ لم يتصل بيثرب إلا في السنوات الثلاث التي تلت وفاة عمه وزوجه، وأن من يتأمل مجرى الحوادث يجد رسول الله ﷺ لم يأل جهدًا في البلاغ ودعوة القبائل العربية التي كانت تؤم مكة في موسم الحج ولا شك أنه كان يدعو القبائل التي لها حلف لقريش أو قرابة في النسب، فالمفهوم وفاقًا لقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] أن يدعو قومه، ثم قريشًا جميعًا، ثم مضر، ثم ربيعة، ثم يتجه إلى قبائل اليمن، ثم الناس أجمعين، ومن أظهر ما رأينا انتقاله بالدعوة من مكة إلى الطائف، وثقيف مضربة كما يعلن ذلك بنوها، ولكن الله أراد لهذه الدعوة أن تظهر وتبهر وتقهر في يثرب، وقد بدأ الاتصال فرديًا ثم في جماعة قليلة، ثم في جماعات، فقد روى الرواة أن رسول الله لقي سويد بن صامت- أحد بني عمرو بن عوف- حين جاء حاجًا معتمرًا فعرض عليه الإسلام، فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. قال: وما معك؟ قال: مجلة لقمان- يريد لقمان الحكيم-، قال الرسول ﷺ : اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فقال: إن هذا الكلام حسن، معي أفضل منه؛ قرآن أنزله الله عليّ هدى ونور، وتلا عليه ما تيسر، فأظهر ارتياحه لما سمع، ثم انصرف عنه وقَدِم يثرب فلم يلبث أن قتلته الخزرج وهو مسلم، وكان قتله يوم (بعاث).

ويذكرون أن أنس بن رافع قَدِم مكة ليعقد حلفًا مع قريش لحرب الأوس، فدعاه النبي إلى خير مما جاء من أجله، فأبى.

أريد أن أقول إن الدعوة الإسلامية لم تكن خافية على أهل يثرب، ولكن حكمة الله اقتضت- أيضًا- أن تتأخر الدعوة إليهم حتى تفرض نفسها على الأسماع، والأفئدة والعقول؛ وحتى يؤمن من يؤمن على بينة، فقد عجزت قريش أن تقوم لها بالبرهان، وعمدت إلى امتشاق الحسام، ويثرب في واقع الأمر مهيأة لتلك الدعوة، ومنذورة لها كما نقول اليوم، ففي تاريخها أن (تُبعًا) ملك اليمن غزاها، ولم يستطع فتحها في أيام طويلة، وحرب مضنية، وكان أهلها يقرونه[1] مساء حين يتوقف القتال. قالوا: فخرج إليه حبران من اليهود أطلعاه على علمهما أن يثرب ستكون مهاجر نبيّ يخرج من مكة، وأنك لا تدخلها، فأمر تُبع جيشه بالرحيل أخذًا بنصيحة الحبرين.

وأقرب من هذا ما يذكروه من أن ابني قيلة (الأوس والخزرج) كان يسكن معهم اليهود في يثرب، وكانت تقوم بين الفريقين عداوات وحروب، فكان اليهود يقولون لهم: إن نبيًّا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم، فلما التقى رسول الله ﷺ بالرهط من بني الخزرج- وكانوا ستة على أشهر الأقوال- في موسم الحج. قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟ قالوا: بلى. فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا منه، وأخذوا عنه، قال بعضهم لبعض: تعلمن والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه إلى ما دعا إليه، وصدقوه، وقبلوا الإسلام لهم دينًا، وأخبروه بالعداوة التي بين قومهم «وعسى الله أن يجمعهم بك، وستدعوهم إلى الذي أجبناك إليه، فإن

(١) يقدمون له الطعام.

يجمعهم الله عليه فلا أحد أعز منك»، ولم يبخل التاريخ عليهم، فذكر أسماءهم وهم :

(١) أسعد بن زرارة

(٢) عوف بن الحارث «ابن عفراء»

(٣) رافع بن مالك

(٤) قطبة بن عامر

(٥) عقبة بن عامر بن نابي

(٦) جابر بن عبد الله بن رئاب

فلما قدموا يثرب على قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، فأقبلوا عليه حتى فشا بينهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لصاحب الرسالة.

ودار الزمان دورته، وإذا نحن مع اثني عشر رجلاً من يثرب بعد عام، عشرة من الخزرج واثنين من الأوس، منهم من التقى به من العام الماضي، ومنهم من يلقاه لأول مرة، والأوسيان أحدهما حليف وهو أبو الهيثم بن التيهان من (بَلِيّ) والآخر عويم بن ساعدة، أسلموا، وبايعوه- وهي بيعة العقبة الأولى ويسمونها (بيعة النساء)- «على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف»، قال الرسول ﷺ لهم: «فإن وفيتم فلكم الجنة»، ولم يكن من بنودها القتال، ورجعوا إلى يثرب يملأ قلوبهم الإيمان، فرحين بما آتاهم الله من هداية، فكانوا يجتمعون ويتذاكرون أمر رسول الله وهدايتهم به، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا

رجلاً مقرئًا يقرئنا القرآن فبعث إليهم صحابيًا صدق إيمانه وحسُن بيانه (مصعب بن عمير) أول سفير في الإسلام، أدى مهمته، وأرضى الله ورسوله، وأسلم على يديه كثير، وجم غفير، وممن أسلم على يديه سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير سيد الأوس، وبذلك انتشر الإسلام انتشارًا عظيمًا، ولم يبق من بيوت الأنصار غير مسلم إلا بني أوس ابن حارثة وقف بهم عن الإسلام شاعرهم أبو قيس بن الأسلت. وهكذا انتقلت الدعوة إلى أرض يجود فيها النبات ويترعرع.

بيعة الحرب أو بيعة العقبة الأخيرة

وجاء العام الثالث لأول لقاء مع بني يثرب، وقد أخذ بناء الإسلام يرتفع من تقرير العقيدة وتمكينها، والاتجاه بالعبادة إلى الله الذي منَّ علينا بنعمة الإسلام، وحين يستقر الإسلام في حاضرته ستتم أركانه من صوم وزكاة وحج، وهانحن أولاء بصدد تقرير الجهاد، وهذا ما تم في بيعة العقبة الثانية، وقد كانت فاتحة في عهد جديد، أُحيطت بكل ما يمكنها من النجاح من السرية والتخطيط، فالذين خرجوا من يثرب في موسم الحج، وكانوا- على أشهر الروايات- سبعين رجلاً وامرأتين، مشى بعضهم إلى بعض قبل الرحيل يتواعدون السير إلى مكة، وموافاة رسول الله ﷺ ، لم يطلعوا أحدًا غير مسلم على أمرهم فساروا في جموع الحجاج من الأوس والخزرج وكانوا خمسمائة، وكان المسلمون بينهم يتناقشون حينًا أمور دينهم في حذر، فلا يفطن بهم أحد، كالذي حدث من البراء بن معرور، فإنه أبى أن يصلي إلى بيت المقدس- وكانت القبلة يومئذٍ- وصلى شطر المسجد الحرام، وأصحابه يقولون له: إن نبينا يصلي إلى الشام.

ولما بلغوا مكة أخذ كعب بن مالك والبراء بن معرور يسألان عن رسول الله ﷺ وكانا لا يعرفانه. قال كعب: فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه ؟ قلنا : لا، قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ قلنا: نعم، قال: إذا دخلتما المسجد فهو الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد فسلمنا ثم جلسنا، قال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء ابن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال كعب: فو الله لا أنسى قول نبينا: «الشاعر»؟ قال العباس: نعم. وقصّ البراء ما حدث من صلاته نحو الكعبة، ومخالفة أصحابه إياه. فقال الرسول: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها، ثم صلى نحو الشام.

وأدى هؤلاء السبعون رجلاً والمرأتان أعمال الحج، والتقوا برسول الله فواعدهم منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرِجل، وسكن الليل أن يوافوه بالشِعب الأيمن بأسفل العقبة. وأمرهم ألا ينبهوا نائمًا، ولا ينتظروا غائبًا.. ولم يخرجوا إليه جميعًا، بل أتوه فرادى يخفون خفة القطا إلى أعشاشها، فوافوا رسول الله ﷺ وقد سبقهم إلى مجتمعهم، معه عمه العباس، ليس أحد غيره، وهذا نهاية في الكتمان، لم يصحب أبا بكر ولا حمزة ولا عمر، فقد يكون في صحبة العباس ما يبعد عنه هواجس قريش وتجسسها، فالعباس لا يزال على دين قومه، ومن جهة أخرى له رغبة في شهود تلك البيعة ليستوثق لابن أخيه، وقد ظهر ما نواه أثناء الاجتماع، فلما تتام المجلس وشاعت السكينة فيه، كان أول من تكلم العباس، قال: يا معشر الخزرج- يريد الأوس والخزرج- إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس إلى عشيرته، يمنعه والله منا من كان على

قوله، ومن لم يكن على قوله للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم، وائتمروا بينكم، ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه. قالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك، ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله، فتلا القرآن، ورغّب في الإسلام. ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم. عند ذلك أخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[١] يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر. فاعترض القول- والبراء يتكلم- أبو الهيثم بن التيهان. فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس- يعني اليهود- حبالاً[٢]، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم رسول الله ثم قال: بلِ الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. قال العباس بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتل أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما قد دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قال عاصم بن عمر بن قتادة : والله ما قال العباس

(١) ثيابنا.
(٢) عهودًا.

ذلك إلا ليشد العقد لرسول الله ﷺ .

ثم أقبلوا على مبايعته واحدًا واحدًا، ولما انتهوا من بيعتهم الميمونة قال رسول الله ﷺ : إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيبًا فلا يجدن أحد منكم في نفسه أن يؤخذ غيره، فإنما يختار لي جبريل. فلما تخيّرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي. قالوا: نعم وبايعوه. قال أحدهم: يا رسول الله والذي بعثكم بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا. فقال الرسول: إنا لم نؤمر بذلك. ثم قال: انفضوا إلي رحالكم، فتفرقوا حسب خطتهم.

وما دار في هذا الاجتماع يدل على النية الصادقة، والرغبة الأكيدة في نصرة دين الله، والذّب عن رسول الله، ويدل على التفكير السديد، والخطة المحكمة التي حاطت الاجتماع بعوامل النجاح، ويدل أخيرًا على اتجاه الرسول الكريم، فهو على عهده، لا ينطق عن الهوى، بل هو يفعل ما يؤمر به من ربه؛ ولذا لم يجب داعي الحرب، إنما هو يريد الهداية، وأن يقبل الناس على الإسلام، ولا يلجأ إلى السيف إلا مضطرًا وبأمر من ربه.

هل كان في العقبة جواسيس؟ إن الرواة يذكرون أن الشيطان صاح بأعلى صوت سُمع: يا أهل الأخاشب، هل لكم في محمد والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ؟

ويخيل إليّ أن الأمر كان حدسًا وتخمينًا من قريش، فلابد أنهم عرفوا صلة ما بين محمد وأهل يثرب، ولذلك غدت جلة من قريش في صباح ليلة العقبة إلى شِعب الأنصار حتى دخلوه، فأخذوا يظهرون التودد إليهم، ويقولون لهم: بلغنا

يا معشر الخزرج أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا، فانبعث المشركون من الخزرج يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا، وجعل عبد الله بن أُبي- رأس المنافقين فيما بعد- يقول: هذا باطل، وما كان قومي ليفتاتوا عليّ بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني؛ فقد كان يعد نفسه ليكون ملك يثرب.

ورحل القوم، وتأكدت قريش أن بيعة العقبة حدثت، وأن بني قيلة بايعوا محمدًا على حربهم، فانطلقون يطيرون وراءهم يملأ قلوبهم الحقد والخوف، ولم يقع في أيدهم إلا سعد بن عبادة (من النقباء) فأوثقوه، وأخذوه إلى مكة يضربونه، ويشدون شعره- وكان ذا جمة- ولم يخلصه من أيديهم إلا المطعم بن عدي، والحارث ابن أمية؛ ليدٍ له عندهما حين كانا يمران على يثرب متجرين.

الهجرة (أوائل ربيع الأول سنة ١٣ من البعثة- سبتمبر سنة ٦٢٢م)

كانت بيعة العقبة الثانية أول تدبير عملي من جانب المسلمين في سبيل الدفاع عن النفس أذن الرسول ﷺ بعدها لأصحابه في الخروج إلى يثرب من منتصف ذي الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة ليلحقوا بإخوانهم المسلمين فيها ويتخذوها لهم دارًا. فأخذوا يتسللون إليها من مكة أرسالاً، وقد استمرت هذه الحركة شهرين تقريبًا فكانت أغرب رحلة وأقساها. رجال حملوا أولادهم ونساءهم إلى مصير مجهول وخلّفوا أموالهم ودورهم بمكة فرارًا بدينهم أن يفتنوا فيه حتى لم يبق بمكة من المسلمين إلا الرسول ﷺ وأبو بكر وعليّ وصهيب الرومي وزيد بن حارثة والمستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

وكان أثر ذلك سيئًا عند قريش وقدروا أن الرسول ﷺ سيلحق بهم في مستقرهم الجديد فخشوا عاقبة ذلك وبلغ من خوفهم من النتيجة المنتظرة أن ائتمروا في شأنه بدار الندوة، وترددت الآراء بين سجن الرسول ﷺ أو طرده من مكة، فلم يرضهم ذلك، فعرض أبو جهل (عمرو بن هشام) قتله قال: والله إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل واحد منهم سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعًا فيرضى بنو هاشم بالدية فنعطيها لهم، فاستهوى هذا الرأي هؤلاء المؤتمرين المتآمرين فوافقوا عليه. يقول الله تعالى في هذا: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأحكمت قريش مؤامرتها وشرعت في تنفيذها فانتخبت من كل قبيلة شابًا جلدًا وسلحتهم بأمضى السيوف وطلبوا إليهم أن يحيطوا ببيته فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد يقتلونه بها، وأوحى الله إلى نبيه بما بيّته قومه وأمره بالهجرة تلك الليلة إلى يثرب.

وكان الرسول ﷺ يتوقع هذه الهجرة فأعد لها عدتها وأحكم خطتها وأحسن تدبيرها بما يضمن له السلامة ويفوّت على خصومه تحقيق أغراضهم، ويدل لذلك شراء أبي بكر لراحلتين قبل الهجرة بشهور وإعدادهما بالطعام والراحة لهذه الرحلة المنتظرة واستئجاره (عبد الله بن أريقط) ليكون دليلاً للرسول ﷺ في طريق الهجرة.

فلما عرف الرسول بمؤامرة قريش الكبرى التي أعدوها لقتله اتخذ إجراءات سريعة لكنها دقيقة محكمة لمواجهة الموقف، ولا شك أنها كانت نتيجة تفكير وترتيب سابق، منها أنه اختار (أبا بكر) رفيقًا له في هذه الرحلة الخطرة. عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية. حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ : أخرج عني من عندك، قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: إن الله أذن لي في الخروج والهجرة، قالت: فقال: أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة، قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذٍ يبكي». وما كان بكاء أبي بكر إلا لإحساسه وإدراكه لمدى النعمة التي أسبغها الله عليه بتشريفه بصحبة الرسول الكريم في هذه الرحلة الخطرة الفاصلة التي يتوقف عليها مصير الإسلام والمسلمين.

ومن الإجراءات السريعة الدقيقة المحكمة التي اتخذها الرسول في هذا اليوم العصيب أمره لعلي بن أبي طالب بالمبيت في فراشه نيابة عنه حتى يغدر بالمحاصرين ويحبسهم في أماكنهم أطول مدة ممكنة مما يسهل على الرسول عملية الخروج من مكة ويعطيه فرصة للبُعد عنها مسافة معقولة قبل أن تجد قريش في مطاردته

والبحث عنه عندما تفشل في تنفيذ مؤامرة قتله وتكشف نجاته وخروجه من مكة وكلّف عليًّا كذلك بأن يتخلف أيامًا في مكة حتى يرد ودائع الناس عنده.

ومن التدبير المُحكم تكليف أبي بكر ﷺ ابنه (عبد الله) بأن يندس بين القرشيين نهارًا يتسمع منهم ما يقولون في شأن الرسول وصاحبه ثم يوافيهما بما سمع ليلاً في ملجئهما بغار ثور، وكلّف ابنته (أسماء) حمل الطعام إليهما ليلاً، كذلك أمر راعي غنمه بأن يرعاها على مقربة من غار ثور ويمر بها ليلاً عليهما ليأخذا حاجتهما من ألبانها ثم يعفي بها على آثار (عبد الله وأسماء) حتى لا يترك مجالاً لقريش لمعرفة مكانهما، إجراءات كما قلت سريعة لكنها محكمة دقيقة مما يوحي بأنها كانت وليدة تفكير سابق يدل له اختيار غار ثور الواقع جنوب مكة على طريق اليمن ملجأ حتى تنكسر حدة قريش في البحث عنهما ولا شك أن الذي يبحث عن مسافر إلى المدينة لا يتجه فكره ولا بحثه إلى طريق اليمن.

إن هذا الإعداد المتقن أخذ بأسباب الحيطة ثم يأتي من قبله ومن بعده التفويض إلى الله والاتكال عليه والثقة في نصره، فالرسول رغم ثقته التي لا تتزعزع في الله وفي حفظه له وإيمانه بأن الله يدافع عن الذين آمنوا لم يهمل جانب الإعداد المادي والحيطة اللازمة لاجتناب ما يبيته له الخصوم والاستعداد للطوارئ، ولنا في الرسول ﷺ أسوة وهو لنا قدوة فلنعلم أن العمل والإعداد والتدبير والحيطة لا ينافي التوكل على الله.

وفي الليلة التي بيتت قريش فيها قتل النبي اجتمع الشبان الذين انتدبوهم لتنفيذ المؤامرة حول بيت الرسول مسلحين وباتوا يحرسون البيت وينظرون من فرج الباب فيجدون عليًّا مسجى في فراش الرسول فيظنونه محمدًا وينتظرون خروجه

ليقتلوه كما بيّتوا، وخرج رسول الله في غفلة منهم ليلاً وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس: ٩]، وانطلق إلى بيت أبي بكر وخرجا معًا من باب سري فيه واتجها مسرعين صوب الجنوب إلى غار ثور فلما وصلاه دخله أبو بكر قبل الرسول ليستبرئه فلما اطمأن إلى صلاحيته للإقامة وخلوه من الآفات دخله ﷺ فأقاما بداخله ثلاثة أيام قبل أن يبدؤوا رحلة الهجرة.

أما المحاصرون لبيت الرسول فقد ظلوا في موقفهم حتى أصبح الصباح وتكشفت لهم الأمور على حقيقتها، واكتشفوا أنهم باتوا يحرسون عليًّا، وأن الرسول ﷺ قد فاتهم، فجن جنونهم وخرجت مكة كلها تبحث عن الرسول ﷺ وصاحبه، واتجه رجالها في كل صوب يتقدمهم قصاصو الأثر. وقد بلغت بعض فرق المطاردة باب غار ثور ولو نظر أحدهم تحت قدمه لرأى من بداخله، وبلغ الخوف بأبي بكر ﷺ مبلغًا عظيمًا فقال للرسول ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فقال ﷺ : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» وحماهما الله وحفظهما وأعمى عنهما عيون المطاردين ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وسارت الأمور كما رسم الرسول وصاحبه وأقاما في الغار أيامًا ثلاثة يوافيهما فيها عبد الله وأسماء والراعي كلٌّ يؤدي ما كُلف به. واجتهدت قريش في البحث ورصدت جائزة كبيرة مغرية لمن يعود بالرسول وصاحبه أحياءً أو أمواتًا، فانتشر طلاب الثروة في كل اتجاه وسألوا كل وافد على

مكة لكنهم لم يصلوا إلى شيء فخفت حدة الطلب وأخذ اليأس يتسرب إلى نفوسهم. فلما بلغت هذه الأخبار رسول الله وصاحبه خرجا من الغار بعد ثلاث ليال ووفاهما الدليل بالنجائب وتزودا للرحلة الطويلة الخطرة بما حملته (أسماء) على عادتها، ولما لم تجد ما تعلق به الزاد في الرحل شقت نطاقها نصفين تمنطقت بأحدهما وعلقت الزاد بالآخر فسُميت (ذات النطاقين).

واتجه هذا الركب القليل العدد غربًا حتى قرب من ساحل البحر الأحمر ثم انعرج شمالاً حتى تجاوز منطقة مكة ثم اتجه شرقًا بشمال سالكًا الطريق الوعر المقفر الذي يصل إلى المدينة. وقد آثر الدليل (عبد الله بن أريقط) هذا الطريق رغم طوله ووعورته وقلة مائه وندرة المسافرين عليه؛ لأن فرص السلامة فيه أكثر ولبُعده عن متناول يد المطاردين. وسار الركب يحدوه الأمل في الله وفي النجاة وينتابه الخوف من الوقوع في يد الأعداء، وواصل السير مُجدًا تحت شمس محرقة وجو رهيب يحاول أن يطوي ٥٢٠ ميلاً هي طول هذا الطريق. ولقد صادفتهما في هذه الرحلة آلام ومشقات كثيرة أشهرها إدراك (سراقة بن مالك) لهما ببعض الطريق، فقد عرف (سراقة) من بعض القوافل الطريق الذي سلكه الرسول وصاحبه فخرج بفرسه خلسة ليردهما ويفوز بالجائزة وحده. وأجهد فرسه في الجري حتى لا يفوته الركب فلما أدركه ورآه ظن أنهما أصبحا في قبضته واستخفه الفرح فلكز فرسه ولم يبال بما نالها من جهد حتى سقطت وأسقطته فلم يعقه ذلك بل عاود الركوب وألح عليها في الجري حتى سقطت مرة أخرى أشد من الأولى وألقته من فوقها بعنف، فوقع في نفسه أن الله مانع رسوله وحافظه، فانصرفت نفسه عما خرج من أجله حتى لقد عرض على الرسول الزاد لكن الرسول طلب إليه أن يرد عنهما

أمثاله من المطاردين فتعهد بذلك ووفى بما تعهد به. وتذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وعد «سراقة» في هذا الموقف بسواري كسرى وكتب له (أبو بكر) بذلك كتابًا وشاء الله أن يُسلّم سراقة وأن يدرك عصر (عمر) عصر الفتوح الإسلامية في بلاد الفرس وأن يغنم المسلمون بعد فتح المدائن عاصمة الفرس كنوز كسرى. فلما أُرسلت إلى المدينة ورأى (عمر) سواري كسرى ضمن الغنائم استدعى (سراقة) وألبسه السوارين ووفى بوعد رسول الله ﷺ الذي كان وعده إياه وقال (الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن مالك أعرابيًّا من بني مدلج).

وظل الخوف يحيط بأبي بكر ﷺ طول الرحلة، كان خوفه على الرسالة وصاحب الرسالة لا على نفسه، ففي مستدرك الحاكم عن عمر ﷺ أن الرسول ﷺ فطن إلى أبي بكر في هذه الرحلة فرآه يمشي مرة عن يمينه وأخرى عن يساره ويمشي ساعة بين يديه وأخرى خلفه، فسأله في ذلك، فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك، وأذكر الكمين فأمشي مرة عن يمينك وأخرى عن شمالك، فأنا إن أهلك فإنما أنا فرد هلك، وإن تهلك يا رسول الله فقد هلكت أمة. فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني، قال: نعم والذي بعثك بالحق.

ثمانية أيام أو اثنا عشر يومًا استغرقتها هذه الرحلة سارت بطيئة متثاقلة تتنازع هذا الركب فيها عوامل الخوف وعوامل الرجاء ويواجه من وعثاء السفر ووحشة الطريق ما ينوء بمثله الأبطال (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) حتى وصلوا إلى قباء ضاحية يثرب يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول تحوطهما عناية الله ورعايته.

هذه الرحلة كانت مفترق الطرق في سير الدعوة الإسلامية وفاتحة خير على الإسلام والمسلمين وذات أثر بالغ في التاريخ. عرف لها المسلمون فضلها وقدورها قدرها واتخذوها مبدأ لتاريخهم.

وترامت أخبار هجرة الرسول إلى يثرب، وكان المهاجرون قد استبطأوا رسول الله في القدوم عليهم، فهم يغدون مع الأنصار كل يوم إلى ظهر (حر العصبة) يتحينون قدومه أول النهار، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم، في جوانحهم شوق وفي قلوبهم حنين.

وفي الثاني عشر ربيع الأول جلسوا كما كانوا يجلسون، فلما أحرقتهم الشمس عادوا إلى بيوتهم مشتاقين متطلعين، وإذا رجل من اليهود- على أطم له- يصيح في صوت يرج الفضاء، ويهز الأرجاء: «يا بني قيلة هذا صاحبكم قد جاء». جملة واحدة فعلت ما لا تفعله خطب البلغاء، دفعت المهاجرين والأنصار دفعًا، أخلت المنازل من أهلها، الرجال والنساء والشبان، الولائد والصبيان، وناهيك من فرحة لا توصف وبهجة لا تُقدر، إنما هي انطلاقة واحدة، وصيحة واحدة: رسول الله. رسول الله، وتغنت الولائد والصبيان يستقبلون محمدًا رسول الله ﷺ :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

والبعيران يتهاديان، ونور من صاحب الرسالة يعم كل مكان.

قال عبد الله بن سلام (يهودي حسُن إسلامه): لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما رأيت وجه رسول الله ﷺ إذا

وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول ما سمعته يتكلم به: أيها الناس افشوا السلام، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. فما أجمل ما يدعو إليه من الصلات الإنسانية والدعوة إلى السلام والمحبة.

ثم نزل رسول الله بقباء في بني عمرو بن عوف، فمكث عندهم مبشرًا ونذيرًا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس. فلما كان يوم الجمعة ركب ناقته القصواء متجهًا إلى داخل المدينة حين متع النهار، واحتشد المسلمون حوله مدججين بالسلاح مستبشرين بأيام العلا والفلاح، معهم رسولهم، وعناية الله ترعاهم، وسار وساروا معه، حتى حانت صلاة الجمعة فنزل، وصلى بهم في بني سالم ابن عوف أول جمعة أقيمت في الإسلام، ويحسُن أن نذكر خطبة الجمعة، ففيها منهج الخطب فيما تلا من الأيام.

قال ﷺ : «الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، ولا أعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقُرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيدًا. وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصي به المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله؛ فحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرًا في

عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول ﷻ: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا، ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإن تقوى الله يوقى مقته، ويوقى عقوبته، ويوقى سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب، ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله؛ قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيا عن بينة، ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس؛ ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. والله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم».

وتدور الخطبة على تقوى الله وأثر التقوى في الآجل والعاجل، وحذر من غضب الله، وجعل إصلاح ما بينه وبين العبد أولى من العياذ بالعباد ودعاهم إلى الإحسان جزاءً وفاقًا على إحسان الله إليهم بنعمة الإسلام، ولم ينههم عن الدنيا، فقد دعاهم إلى الأخذ بنصيب منها، ولما كان الإيمان هو ما يقصده ويؤكده دعا إليه كثيرًا في الخطبة، ودعا إلى العلم في زمن انقطع فيه النظر إليه.

ومنهج الخطبة- كما رأينا- حمد الله والاستعاذة به واستغفاره والصلاة على

رسوله الذي جاء على فترة من الرسل، ثم بعد ذلك موضوع الخطبة «تقوى الله» ثم الاستشهاد بالآيات القرآنية، وهي معالم تراها اليوم في خطب الجمعة.

وعباراتها متصلة متماسكة، أسلوب جديد في اللغة العربية لم يعهد فيما قبل، والألفاظ واضحة بعيدة عن ألفاظ الأعراب والمتكلفين.

ولما انتهت الصلاة ركب ناقته إلى مكان أراده الله ليكون مركز إشعاع، ومنزل وحي، ودعوة إيمان، وموطن إصلاح، ومنارة حاضرة الإسلام، وأرخى لها الزمام، فجعلت لا تمر بدار من دور الأنصار إلا دعاه أهلها للنزول عندهم يقولون: هلم يا رسول إليه، إلى العدد والعدة والمنعة، فيقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى انتهت إلى موضع لبني النجار (جعله مسجده) فبركت على بابه، فلما بركت لم ينزل عنها، ثم التفت خلفها، ثم رجعت إلى مكانها الأول، فبركت فيه ووضعت جرانها عليه، والمسلمون ينظرون ويؤمنون.

حُلت المشكلة- إن صح التعبير- وجاء أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، فحط رحله، وأدخله منزله، قال الرسول: المرء مع رحله، فأرضى الأنصار بقوله.

أهم حوادث الهجرة

(١) السنة الأولى من الهجرة فيها :

١ - قدوم النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

٢ - إنشاء مسجد قباء العظيم.

٣ - إنشاء مسجد النبي الأعظم ﷺ .

(٢) السنة الثانية من الهجرة فيها :

١ - حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ظهر يوم الثلاثاء نصف شعبان.

٢ - فرض الصوم.

٣ - وقعت غزوة بدر يوم الجمعة في ١٧ رمضان.

٤ - توفيت السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ .

٥ - دخل رسول الله ﷺ بأم المؤمنين عائشة في شوال.

٦ - دخل علي بن أبي طالب بالسيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

٧ - توفي عثمان بن مظعون القرشي الذي قبّله رسوله الله وهو ميت، وكان يزوره رسول الله بعد موته، ودفن ابنه إبراهيم إلى جانبه، وكان عثمان هذا ممن حرَّم الخمر على نفسه قبل نزول تحريمها.

(٣) السنة الثالثة من الهجرة فيها :

١ - ولد الحسن بن علي بن أبي طالب في نصف رمضان.

٢ - بعد خمسين ليلة من مولد الحسن علقت فاطمة أي حملت بالحسين.

٣ - في رمضان دخل رسول الله بحفصة.

٤ - ودخل بزينب بنت جحش.

٥ - ودخل بزينب بنت خزيمة العامرية أم المساكين وعاشت عنده ثلاثة أشهر وتوفيت.

٦ - تزوج عثمان بن عفان بأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ .

٧ - نزل تحريم الخمر.

٨ - وقعت غزوة أُحُد يوم السبت ٧ شوال.

٩ - قتل حمزة عم رسول الله ﷺ في غزوة أُحُد.

(٤) السنة الرابعة من الهجرة فيها :

١ - سرية بئر معونة في صفر.

٢ - غزوة بني النضير في ربيع الأول.

٣ - غزوة ذات الرقاع على بعض الأقوال.

٤ - غزوة الخندق عند بعض المؤرخين.

٥ - نزول التيمم.

٦ - قصة الإفـك.

٧ - براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٥) السنة الخامسة من الهجرة فيها :

١ - صلاة الخوف على بعض الأقوال.

٢ - غزوة دومة الجنـدل.

٣ - غزوة ذات الرقاع على بعض الأقوال.

٤ - غزوة الخندق على بعض الأقوال.

٥ - غزوة بني قريظـة.

٦ - وفاة سعد بن معاذ سيد الأوس وهو الذي اهتز لموته عرش الرحمن.

(٦) السنة السادسة من الهجرة فيها :

١ - بيعة الرضوان.

٢ - غزوة بني المصطلق على بعض الأقوال.

٣ - فرض الحـج.

٤ - كسوف الشمس.

٥ - نزول حكم الطهارة.

(٧) السنة السابعة من الهجرة فيها :

١ - غزوة خيبر وفتحها في صفر.

٢ - تزوج رسول الله بصفية.

٣ - تزوج رسول الله بميمونة.

٤ - تزوج رسول الله بأم حبيبة.

٥ - وصول مارية القبطية.

٦ - إسلام أبي هـريرة.

٧ - عمـرة القضـاء.

(٨) السنة الثامنة من الهجرة فيها :

١ - غزوة مـؤتة.

٢ - فتح مكة المكرمة في رمضان.

٣ - غزوة حنين في شوال.

٤ - حصار الطائف ونصب النبي ﷺ عليهم المنجنيق ثم رحل عنها من غير فتح وأسلم أهلها في العام القابل.

٥ - غزوة ذات السلاسل.

٦ - وُلد إبراهيم ابن الرسول ﷺ .

٧ - توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ .

(٩) السنة التاسعة من الهجرة فيها :

١ - غزوة تبوك في رجب.

٢ - حج أبو بكر بالناس.

٣ - مات النجاشي في رجب.

٤ - توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ .

٥ - مات عبد الله بن أُبي سلول رأس المنافقين في ذي القعدة.

٦ - قُتل ملك الفرس وملّكوا عليهم بعده امرأة اسمها (بورب) وهي التي قال فيها النبي ﷺ : «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

(١٠) السنة العاشرة من الهجرة فيها :

١ - حجة الوداع ولم يحج ﷺ بعد الهجرة سواها.

٢ - توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ وهو ابن سنة ونصف.

٣ - ظهر الأسود العنسي وكان له شيطان يخبره بالمغيبات فأضل الله به كثيرًا من الناس، وكان بين ظهوره وقتله نحو أربعة أشهر.

٤ - كثرت الوفود فيها على رسول الله ﷺ .

(١١) السنة الحادية عشرة من الهجرة فيها :

١ - توفي النبي الأعظم ﷺ في وسط نهار يوم الاثنين في شهر ربيع الأول.

٢ - توفيت فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أبيها سيدنا رسول الله ﷺ بستة أشهر.

٣ - وتوفيت أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ وأمه بعد أمه ومنزلتها من النبي ﷺ ومنزلة زوجها وبنتها لا توصف ولا تُكيف، وخرجت مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسًّا على رأسها فرفعته فإذا دلو برشاء أبيض معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها.

الهجـرة والدولة الجديدة

يحلو للمستشرقين من الغرب والشرق على السواء- والمغرضين من الكُتَّاب والمؤرخين ضد الإسلام- أن يصوروا هجرة الرسول ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم على أنها (فرار) وهرب من مكان إلى آخر، حماية للنفس وأمنًا على استمرار الحياة..

ربما يكون هذا مفهوم الهجرة بالنسبة لفرد يريد أن يضمن لنفسه حياة مادية أفضل، أو يخلق لنفسه جوًا من الثقة والاطمئنان أكثر من الجو الذي يعيش فيه. وربما يكون مفهومها كذلك بالنسبة لجملة من الأفراد على شاكلته. ولكن الهجرة بالنسبة لصاحب رسالة وصاحب دعوة في سبيلها لإصلاح البشرية ودفعها إلى الصراط السوي.. لا تكون من أجل الذات ووقايتها الأضرار المادية، أو من أجل حصولها على متع أفضل وإنما تكون من أجل الرسالة نفسها، ومن أجل تمكين دعوتها من أن تأخذ طريقها إلى التحقق في تحويل المجتمع الإنساني القائم على العبث والفساد والاعتداء والظلم.. إلى مجتمع إنساني في مستوى رفيع، لا يخلد إلى الأرض ولا ينجذب نحو الهوى والغايات الدنيئة..

وتلك كانت الغاية من هجرته عليه الصلاة والسلام وهجرة أصحابه: قبله، ومعه، وبعده.. من مكة أو من غيرها إلى يثرب. هاجروا إلى الله ورسوله، ولم يهاجروا إلى دنيا يصيبونها أو متعة يستمتعون بها. والهجرة إلى الله ورسوله هي الهجرة في سبيل الرسالة وفي سبيل الحفاظ على القيم العليا والدعوة إليها. وهي الهجرة الخالدة في تاريخ الإنسانية، والهجرة التي يجازى عليها الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة معًا. إذ ترتبت عليها عدة نتائج تكون نظامًا لمجتمع إنساني سليم:

قام ليبقى، ويزداد قوة في تماسكه، ترتب عليها:

أن نقلت المسلمين من قلة في العدد إلى كثرة فيه. إذ انضم إلى مسلمي مكة وهم من يُعرفون بالمهاجرين: نصراؤهم وحلفاؤهم من أهل يثرب، وهم من أُطلق عليهم اسم الأنصار. كما أُضيف إلى الفريقين معًا: من دخل تباعًا في دين الله: من بعد الهجرة إلى فتح مكة، وهم كثيرون. ونقلتهم من ضعف إلى قوة: كانوا آحادًا متناثرين في مكة وفي الحبشة وفي أماكن أخرى، فأصبحوا في يثرب مئات وآلافًا مجتمعين ومترابطين على كلمة الله، وليس على اعتداء على أحد، ولا على ظلم أو اضطهاد لإنسان. ثم نقلتهم من أفراد ليس لهم كيان المجتمع.. إلى مجتمع له نظام حكم، وسياسة ودولة لأفراده، ومع غيره من المجتمعات المعادية أو المقاتلة أو المسالمة.

وأن حملت المسلمين على مباشرة الدفاع عن النفس: فدخلوا الحرب، وذهبوا إلى ميدان القتال، ومروا بتجربة الهزيمة والنصر. وتخلف منهم من تخلف عن القتال حبًا في الذات وطمعًا في سلامة النفس، أو رغبة في عون الأعداء، وكان منهم المؤمنون صدقًا، والمنافقون في إيمانهم.

يصور القرآن الكريم تجربة الهزيمة التي مروا بها في (أُحُد) بقوله: «ولقد صدقكم الله وعده (بالنصر) إذ تحسونهم بإذنه (أي تستأصلونهم عند الالتقاء بأمر الله) حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم (باستهدافكم الغنائم في القتال دون الدفاع عن الإيمان بالله وحده والحفاظ عليه) من بعد ما أراكم ما تحبون (من النصر على الأعداء في أولى مرحلتي القتال مع المشركين) منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة (وهكذا فشلكم في المحافظة على وحدة الهدف قسمكم إلى طائفتين:

واحدة تريد متع الحياة الدنيا ممثلة هذه المتع الآن في الغنائم من الأعداء، وأخرى تريد الإيمان وتمكين رسالة الله في الأرض، وبذلك تنتظر جزاءها في الآخرة) ثم صرفكم عنهم ليبتليكم (وأدى تفرقكم وانقسامكم من أجل الهدف في قتال: (أُحُد) إلى هزيمتكم. ولم يقصد بها انتهاء مجتمعكم ولا فناؤه، وإنما قصد منها التجربة والاختبار للوقوف على أسباب الهزيمة، لكي تتلافى مستقبلاً في الاشتراك مع الأعداء.. قصد منها الابتداء)».. كما يصور دعاة الهزيمة المترددين في إيمانهم في هذا اللقاء في (أُحُد) فيما يستطرد في ذكره من موقعتها بقوله: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٥٤-١٥٥].

ويصور من جانب آخر تجربة النصر في موقعة (بدر) فرغم قلة عدد المسلمين في مواجهة المشركين المكيين، ورغم ضعف موقعهم في المعركة بالنسبة لموقع أعدائهم.. رغم هذا وذاك كان النصر للمؤمنين، لأنهم وضعوا قيم الرسالة والدعوة إليها في الاعتبار الأول، قبل حياتهم أنفسهم. ولذا كان نصر الله لهم. يقول الله

تعالى في الحديث عن هذا النصر، رغم ظروف عدم التكافؤ الواضح في القوة العددية، وفي المواقع الاستراتيجية: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: ٤١] (أي ما خصصنا به رسول الله والمسلمين من النصر يوم [بدر]) يوم التقى الجمعان (جمع المؤمنين وجميع المشركين فيها) والله على كل شيء قدير. إذ أنتم بالعدوة الدنيا (أي عندما يكون المؤمنون بشط الوادي القريب وقد كانت الأرض فيه رخوة تسوخ فيها الأرجل، ويشق السير عليها. ومن شأن ذلك أن يضعف من تحركاتهم في القتال ضد أعدائهم) وهم بالعدوة القصوى (أي والأعداء بالشط البعيد للوادي وهو أكثر صلاحية للحركة) والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد (أي أن لقاءكم يوم أعدائكم في [بدر] جاء طبقًا لمشيئة الله وحده، ولم يكن أثر ترتيب بينكم وبين أعدائكم. لأنكم لو عرفتم حقيقة أمرهم في قوة العدد والعدة لتهيبتم منهم، وربما يئستم من الظفر عليهم) ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة، (وإنما جاءت إرادة الله باللقاء بينكم وبين الأعداء في [بدر] للفصل فصلاً واضحًا بين قوة الإيمان وأثره، وقوة الشرك والإلحاد ونهايته، ولبيان: أن الإيمان لابد أن يستمر أثره ويمتد بقاؤه فهو الرافد للحياة، بينما يزول الكفر لا محالة وينتهي مصيره حتمًا، فهو مصدر الموت والفناء)».

وأن حملت المسلمين- قبل أن يستكملوا قوتهم للرجوع إلى البيت العتيق بمكة- على المرونة في الأخذ والعطاء في سياسة الأعداء، حتى ولو كان على حساب أمر يهمهم أو ضرورة من ضرورات حياتهم. ففي نهاية السنة السادسة من الهجرة في شهر ذي القعدة (مارس ٦٢٨م) طلب الرسول عليه السلام من أصحابه وهم بالمدينة أن يعدوا أنفسهم للعمرة معه في مكة، كما يعدونها للتضحية في سبيل ذلك. فقد نزل عليه وحي الله في قوله في سورة الفتح: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧].. ودعا مع المهاجرين والأنصار من أصحابه: بعض الأعراب ليكونوا سندًا لهم في مواجهة قريش، لو تعرض لهم المحاربون فيها. ولكنهم تخلفوا ونزل في هؤلاء الأعراب قوله سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [الفتح:١١]. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا (أي قدرتم أن لن يعود ومعه المهاجرون إلى موطنهم في مكة طول بقية حياتهم) وظننتم ظن السوء (أي وقدرتم كذلك أنهم سيهزمون ويولون الأدبار، إن بقيت فيهم بقية من حياة عندما يواجههم كفار مكة) وكنتم قومًا بورًا (أي وكنتم قومًا فاسدين

هالكين بتصرفاتكم).

وكان كثيرون من المكيين- عندما علموا بقدومه عليه الصلاة والسلام ومن معه من صحابته عليهم رضوان الله- يرغبون في عدم مقاومة دخوله. غير أن فريق المحاربين منهم لم تزل له قوة ولم يزل على المعارضة في الدخول. وعندما وصل إليه عليه السلام نبأ هذه المعارضة استقر وصحبه في الحديبية في مكان ليس ببعيد عن مكة حيث ابتدأ يتفاوض مع المكيين. وحين لم تصل المفاوضة إلى نتيجة، أرسل عثمان بن عفان إلى مكة في حماية أسرته فيها له، كممثل له. وعندما لم يعد وأُشيع أنه قُتل اجتمع عليه السلام مع صحابته تحت شجرة هناك سرًا وبايعهم على نصرته لإتمام العمرة. وفي هذه المبايعة جاء قول القرآن الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]. ولكن وصل بعد ذلك عدد من المكيين يعرض الصلح عليه ويعاهده على :

١ - أن يرجع الرسول عليه السلام والمؤمنون معه هذا العام (السادس من الهجرة) من حيث أتوا، وأن يعودوا للعمرة في العام القادم.

٢ - وأن يدخلوا مكة غير حاملين سلاحًا.

٣ - وأن لا يأخذوا أيًّا ممن تبعهم من أهل مكة، إن أراد أن يرحل معهم.

٤ - وأن لا يمكثوا بمكة أكثر من ثلاثة أيام.

٥ - وأن يتركوا من يتخلّف من المسلمين معهم بمكة، إن أراد أن يبقى بها.

٦ - وعلى أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنوات، يأمن الناس فيها بعضهم بعضًا.

وعارض في هذه الشروط كثير من الصحابة، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب. لأنها شروط تدل على عدم التكافؤ بين الطرفين، وعلى أن جانب المسلمين هو الجانب الضعيف. ولكن رغم ذلك أمر الرسول عليه السلام بقبولها؛ لأنها تتضمن الاعتراف به وبجماعته. وهو أمر كان المسلمون في حاجة إليه. لأنه سيمهد الطريق الآن للكثير من القبائل العربية، عدا قريش، ولكثير من أفرادها أيضًا، للدخول في الإسلام: في غير خوف ورغب ممن هم سدنة البيت الحرام حتى هذه اللحظة، وهم قريش.

نعم، لم تعترف معاهدة الصلح من جانب القرشيين المكيين بالرسول عليه السلام على أنه رسول، ولكنها اعترفت بكيانهم الذاتي والسياسي. وذلك له مدلوله في العلاقات بين الجماعات.

وفي العام القادم، وهو العام السابع الهجري (٦٢٩م) أدى عليه السلام وصحابته العمرة. ودخل في الإسلام أثناء إقامته بمكة كثيرون من القبائل، كما دخل عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد. وهنا زادت قوة المسلمين نوعًا وكمًا. وأصبحوا على استعداد لأن يحموا أنفسهم، ودينهم، وحلفاءهم في شبه الجزيرة. ومع تزايد قوتهم بقوا على الوفاء بالعهد الذي وقعوه مع مشركي مكة، وبالأخص على أن توضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات.

ولكن فريق المحاربين من المكيين وهم أئمة الكفر ساند قبيلة بكر ضد خزاعة التي تعتبر حليفة الرسول عليه السلام. وهنا اعتبر تصرف هذا الفريق نكثًا للعهد في صلح الحديبية. وبنكثهم إياهم أصبح المسلمون في حل من عدم الوفاء به. وجاء تعبير القرآن الكريم عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَـٰنَهُم مِّنۢ

بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢] (وهم هؤلاء المحاربون وسماهم أئمة الكفر لإصرارهم وعنتهم في المعارضة طوال هذه المدة) أنهم لا أيمان لهم، لعلهم يهتدون. ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

وبنكث المشركين لعهد الصلح في الحديبية، أصبح الطريق مفتوحًا أمام المسلمين، لا قيود فيه. وبازدياد قوتهم المادية والمعنوية أصبحت لهم استطاعة على إنهاء كل صيحة لعدو تواجههم. وترتيبًا على ذلك ترأس الرسول عليه السلام في شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة (ديسمبر ٦٢٩م) جيش المسلمين المكوّن من المهاجرين والأنصار، والأعراب، قاصدًا به إلى مكة. وقد أثار قدوم المسلمين ذعرًا وقلقًا بين المكيين الذين أصبحوا في وضع تقل فيه رغبتهم في الحرب يومًا بعد يوم. وعندما اقترب جيش المسلمين من مكة التقى أبو سفيان في وفد كان فيه بعض الخزاعيين بالرسول عليه السلام وأعلن الطاعة له، وحصل منه على وعد بالعفو عن جميع القرشيين الذين يلقون سلاحهم ويعلنون بذلك عدم معارضتهم. ثم كان الفتح المبين لمكة، واستعادتها لا لأنها موطن المهاجرين من المسلمين فقط، ولكن لأنها كانت الموطن الأول للدعوة الإسلامية قبل ذلك.. من أجل البيت العتيق: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران: ٩٦].. وبذلك تصحح رسالته عليه السلام رسالة إبراهيم التي شوهتها الوثنية المادية المكية في عهودها المختلفة، وتعود بها إلى التوحيد، وتعيد الحج كفريضة من فرائض

الله تستهدف التكتل وقوة الترابط فيما بين المؤمنين على أساس من طاعة الله جل شأنه: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج:٢٦، ٢٧].

وهكذا: تضمنت سنوات الهجرة أصلاً ومبدأ في سياسة الأعداء، هو أصل التدرج والأخذ بمبدأ تعدد المراحل في تحقيق الهدف. إذ لم يكن من الحكمة في السياسة أن يقدم المسلمون من المدينة للقاء الكفار بمكة وهم غير متفوقين عليهم عددًا وعدة تفوقًا ظاهرًا، وليس لهم أتباع فيما يضمنون على الأقل عدم معارضتهم، إن لم يضمنوا مؤازرتهم. نعم، لاقوهم ببدر وهم قلة وانتصروا عليهم. ولكن الفرق بين خروج المسلمين من المدينة إلى بدر، وقدومهم من المدينة إلى مكة للقاء الكفار.. يستتبع فرقًا آخر في الإعداد المادي والاجتماعي والسياسي. وإذًا المرونة في سياسة الأعداء قبل إتمام الإعداد للقضاء عليهم ضرورة في الحفاظ على كيان الأمة، ولاتخاذ الفرصة المناسبة قبل الكلمة الأخيرة.

وإن دفعت بالمسلمين- بعد تفوقهم في القوة- إلى التزام الموقف المتعين الذي لا محيص عنه من وجهة النظر إلى سلامة الأمة وبقائها عزيزة متماسكة. فالمسلمون الذين عارضوا صلح الحديبية.. عارضوه؛ لأنهم كانوا يرون: أنه ترك للمشركين المادين المكيين، الكلمة يملونها عليهم. والإسلام لا يكون عزيز الجانب، والدعوة الإسلامية لا يكون طريقها مفتوحًا إلا إذا كانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، أي إلا إذا كان المؤمنون هم أصحاب الكلمة الأخيرة وليس أعداؤهم.

من أجل ذلك كان الأمر بفتح مكة. ومن أجل ذلك أيضًا كان فتح مكة بعد أن تم هو الفيصل في تاريخ الإسلام بين ذلة المسلمين وعزتهم، وبين ضعفهم وقوتهم. وأصبح الشعار هو: كلمة الله هي العليا.

جاء الوحي تقريبًا في شهر شوال من السنة التاسعة من الهجرة- بعد فتح مكة في رمضان من هذه السنة- بإعلان انتهاء عهد الحديبية مع المشركين، على أن يعطوا مهلة أربعة أشهر يكونون فيها أحرارًا: يدبرون فيها أمرهم ويفكرون في التوبة والرجوع إلى الله وحده: «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (أي أن الله ورسوله قد برئا- أيها المسلمون- مما عاهدتهم عليه المشركين، وإذًا أنتم في حل الآن من اتخاذ موقف آخر نحوهم، غير الأمان الذي أُعطي لهم، كما جاء في معاهدة الصلح بالحديبية). فسيحوا في الأرض أربعة أشهر (أي وأنتم أيها المشركون لكم الحرية في الحركة وفي تدبير الأمر مدة أربعة أشهر منذ الإعلان بانتهاء المعاهدة) واعلموا أنكم غير معجزي الله، وأن الله مخزي الكافرين (على أن تعلموا: أنكم- أيها المشركون- لو بقيتم على كفركم ولم تعودوا إلى دائرة الإيمان بالله وحده، وآثرتم الاستمرار في عداء الدعوة إلى الله.. لا تستطيعون أن تنالوا من دين الله؛ لأن الله جلت قدرته لا يُغلب أبدًا، وقد وعد المؤمنين بالنصر، كما وعد الكافرين بالخزي والعار».

وطلب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعلن انتهاء العهد في موسم الحج إذاعة له على نطاق أوسع. فقرأه عليّ ﷺ على حجيج بيت الله الحرام في شهر ذي الحجة من السنة التاسعة نفسها. وجاء القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ

مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة: ٣].

وموقف المؤمنين الآن إزاء المشركين بعد إلغاء المعاهدة: أنهم إذا تابوا وعادوا إلى الله وحده كانوا إخوانًا لهم في الإيمان بالله، وإن تولوا وأعرضوا كان القتال والاعتقال، والأسر، جزاء من نقض العهد وظاهر عليهم أحدًا من الأعداء. وجاء تعبير القرآن عن هذا الموقف في قوله: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة : ٣-٥] .

ويعتبر هذا الموقف الذي يطلبه القرآن الآن من المسلمين إزاء المشركين بعد فتح مكة، وإعلان إلغاء معاهدة الحديبية كتصفية للوضع المكي بين المسلمين والمشركين. والموقف الذي يعتبر مبدأً عامًا يحدد علاقة المشركين الماديين، وكذلك علاقة أهل الكتاب من جانب، بالمسلمين من جانب آخر هو الذي تقصه الآية الكريمة في سورة التوبة نفسها بعد الآيات السابقة في قول الله تعالى: «قاتلوا :

١ - الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله (وهم الماديون الملحدون أو المشركون حتى يؤمنوا: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»).

٢ - ولا يدينون دين الحق (أي وقاتلوا الذين لا يدينون دين الحق) من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

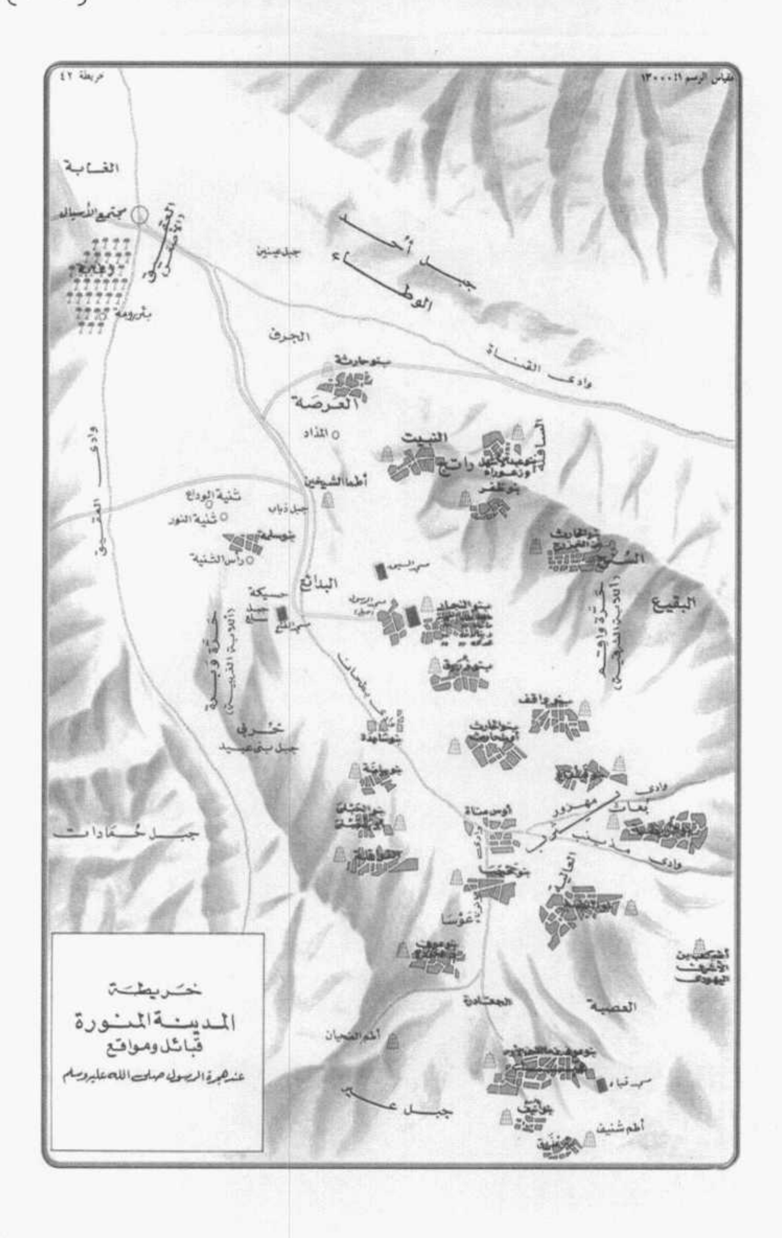
.. فلا يُقبل من المشركين أو الماديين الملحدين في أي عهد سوى الرجوع إلى الإيمان بالله وحده، بينما يقبل من أهل الكتاب الاستسلام. أي لا يخلص هؤلاء وأولئكم من قتال المسلمين إياهم سوى الإيمان بالله من جانب الماديين، وسوى الاستسلام من جانب أهل الكتاب. وقد طوت الآية الغاية من قتال الماديين المشركين، اكتفاء بما جاء في آيات أخرى، كما لم تعد الأمر بقتال أهل الكتاب اكتفاء بما صرحت به في أولها: «قاتلوا»..

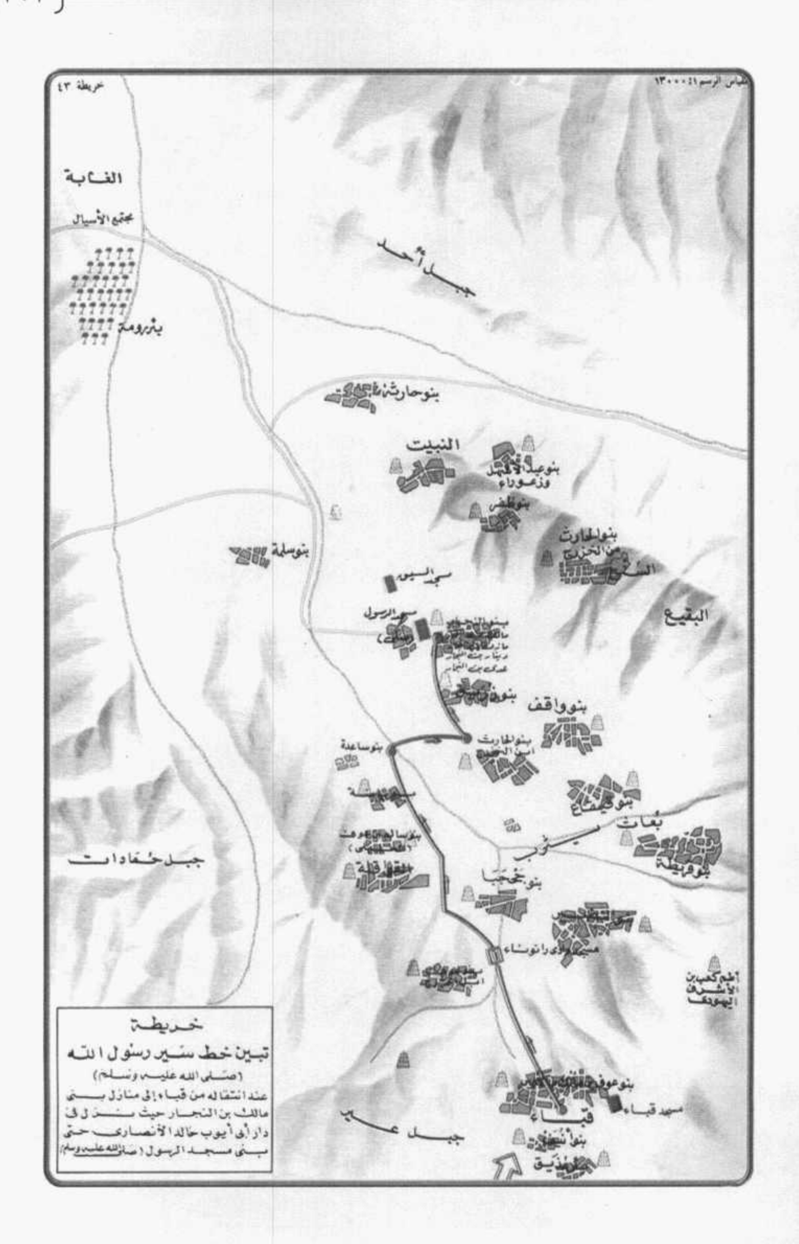
ولأهمية أحداث الهجرة وأثر هذه الأحداث على المجتمع الإسلامي في قيامه، وقوته، وعزته، وعلى الدعوة الإسلامية في سيادتها وخروجها من شبه الجزيرة إلى كافة أرجاء العالم.. قرر عمر بن الخطاب ﷺ - في السنة السابعة عشرة منها- جعل الهجرة بداية لتاريخ جديد، هو تاريخ الأمة الإسلامية. وبذلك تستكمل عناصر الشخصية المستقلة لها، كما أن أحداثها التي ارتبطت بأشهر معينة في سنواتها ستكون مصدر ذكرى للمسلمين، يستلهمون منها طريقهم في السياسة، وفي الوصول إلى القوة والمنعة، وقبل ذلك إلى الترابط والتساند فيما بينهم.. يعرفون للإيمان بالله أثره النافذ في النجاح، ويقفون على الوسيلة التي تضمن الحماية والنمو له، ويتعلمون.. كيف ينتقلون من الضعف إلى القوة، وكيف يأخذون

أنفسهم بالتدرج مع أعدائهم أن رأوهم أشد منهم قوة وبأسًا، وكيف يصرون على موقفهم الخاص بهم إن هم أصبحوا ذوي استطاعة مادية وذوي مستوى اجتماعي وسياسي يتيح للآخرين أن يفهموا أهدافهم في غير لبس.

ولم يشأ عمر بن الخطاب ﷺ أن يؤرخ بتاريخ ميلاد الرسول محمد بن عبد الله عليه السلام- وهو حبيب الله وحبيب المؤمنين جميعًا- لأنه تاريخ شخصي مهما كان له من سمو المنزلة، وليس تاريخ (موضوع).. تاريخ الدعوة إلى الحق الذي هو هداية الله للناس جميعًا. والدعوة إلى الحق هي دعوة إلى مبادئ وليست ألى أشخاص. والوثنية في نشأتها هي تحول عن المبادئ إلى أشخاص، ارتبطت بهذه المبادئ ارتباطًا وثيقًا: إما لنشاط هؤلاء الأشخاص في سبيلها، أو لصدفة في اتصالها بهــم..

فالبقاء على دعوة الحق جلية واضحة، وعلى وحدة الله في ألوهيته خالصة صافية.. جعل عمر بن الخطاب ﷺ تاريخ الأمة الإسلامية من هجرة رسولها الأكرم عليه السلام من مكة إلى المدينة لحماية دين الله وأمان الدعوة إليها، وليس من ميلاده هو عليه الصلاة والسلام.


خريطة ٤٢
مقياس الرسم ١٣٠٠٠:١
الغابة
مجتمع الأسيال
بئر رومة
جبل عينين
جبل أحد
الوطاء
الجرف
وادي القناة
بنو حارثة
العرصة
المذاد
النبيت
راتج
بنو ظفر
أطما الشيخين
ثنية الوداع
ثنية النور
جبل ذباب
بنو سلمة
رأس الثنية
البدائع
حسيكة
جبل سلع
البقيع
بنو واقف
جبل حمادات
العصبة
جبل عير
خريطة
المدينة المنورة
قبائل ومواقع
عند هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم


خريطة ٤٣
الغابة
مجتمع الأسيال
جبل أحد
بئر رومة
بنو حارثة
النبيت
بنو سلمة
بنو ظفر
البقيع
بنو واقف
بنو ساعدة
بنو قينقاع
بعاث
بنو قريظة
جبل حمادات
أطم كعب بن الأشرف اليهودي
مسجد قباء
قباء
جبل عير
خريطة
تبين خط سير رسول الله
(صلى الله عليه وسلم)
عند انتقاله من قباء إلى منازل بني
مالك بن النجار حيث نزل في
دار أبي أيوب خالد الأنصاري حتى
بنى مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الباب الثامن

الأسس الفكرية
لدولة المدينة المنورة

بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة، أصبح في المدينة طوائف ثلاث هم المهاجرون الذين جاءوا من مكة، والأنصار من الأوس والخزرج الذين أسلموا من سكانها الأصليين وأخيرًا اليهود.

فكان على الرسول ﷺ أن يكوّن من هذه الطوائف المختلفة مجتمعًا سليمًا من المسلمين في أسرة جديدة تحل محل الأوس والخزرج وبني عبد مناف وبني هاشم وغيرهم هي الأسرة الإسلامية التي ينتمي إليها المسلمون في المدينة أيًّا كانت قبائلهم، وأيًّا كانت ديارهم، ثم يربط هذه الأسرة الإسلامية بغير المسلمين من الجماعات التي تعيش معهم مكونًا الدولة الإسلامية التي تسودها روح الإسلام، ويتعاون أعضاؤها- أيًّا كانت ديانتهم- فيما يحقق الخير للجميع، فسلك الرسول ﷺ لتحقيق هذه الغاية في سبيل صهر هذه الجماعات القبلية في مجتمع إسلامي واحد في الخطوات التالية :

أولاً : العقيدة الإسلامية :

لا شك أن الرسول ﷺ حين بعثه الله تعالى برسالة الإسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلما بدأ ينشر دعوته سرًا ثم جهرًا التف حوله كثير من الذين اعتنقوا الدين الجديد حيث وجدوا فيه أنه الدين الحق، وأن الله هو خالقهم، وأنه لا يستحق العبادة والخضوع لسواه تعالى، ولهذا يحذرهم من الاستعانة بغيره لأن هذا سوف يؤدي بهم إلى الخسران المبين، وجعلهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض وما بينهما ليستجلوا حقيقة الدعوة الإسلامية وإثبات

عقيدتها التي من أبرزها بيان حقيقة الخلق والخالق وتأكيد عقيدة التوحيد والتذكير بيوم البعث والحساب وأن الأمر مرجعه كله لله الواحد القهار.

لقد كانت العقيدة الإسلامية- كما أعتقد- هي الأساس الأول الذي مكّن من قيام دولة المدينة وذلك لأن الدين الجديد بما جاء فيه وحّد المؤمنين وجعلهم صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص وجعل فكرهم خالصًا لله وحده وعدم الإشراك به حيث إن الدين هو الاعتقاد في وجود موجود أعلى والسلوك بناء على هذا الاعتقاد... فاتضح لنا بذلك ما سُمي بالوحدة الفكرية التي نتجت عن اعتناق الدين الجديد بمبادئه السمحة، ونتيجة أثر هذا الدين الجديد ما نراه من تطبيقات عملية في قيام الدولة الإسلامية ليكون الأساس الثاني لها هو بناء المسجد وما يليه بعد ذلك من أسس أخرى لقيام هذه الدولة الإسلامية الأولى في عهد الرسول ﷺ .

إن روح الدين التي تتجه إلى الإيمان بالوحدة الإلهية انطوت على معنى عميق هو ضرورة قيام الجماعة الإسلامية التي تعبد الله الواحد على أساس من الوحدة الفعلية والاتحاد التام بين عناصر الأمة الإسلامية التي هي أمة واحدة بتكافلها وتضامنها كالبناء العضوي التي تتآزر فيه الأفعال وتتكامل مثل الجسد وأعضائه.

ولهذا فإن عقيدة التوحيد الإسلامي كانت ذا تأثير كبير في قيام الأمة الإسلامية وتحديد كيانها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي على أساس من محبة الله وإشاعة العدل بين الناس.

ومن ثم نجد الدين الإسلامي بأركانه الخمسة له دلالات سياسية تدعم الأمة الإسلامية ابتداءً بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فإننا نجد أن

المعنى السياسي لها يكمن في معنى كبير إذ تجتمع الأمة الإسلامية على هدف واحد وسياسة واحدة تنتج منها وحدة الفكر والمبادئ والغايات، وبذلك تكون الأمة الإسلامية أمة متجانسة في العقيدة متفاهمة عن طريق الدين متحدة في أصوله مما يجعل هذه الأمة الإسلامية أمة واحدة ذات هدف واحد وهو تحقيق العدل للفرد والمجتمع وإيجاد التوازن بينهما.

ثانيًا : بناء المسجـــد :

أول جامعة إسلامية :

كان العرف السائد بين القبائل العربية قبل تشييد مسجد الرسول عليه السلام بالمدينة أن لكل قبيلة ناديها الذي تجتمع فيه للسمر وتبادل الآراء فيما بينهم من أمورهم العامة والخاصة، ثم أصبح المسجد الذي شيّده الرسول عليه السلام هو المكان الذي يباشر فيه المسلمون الصلوات الخمس وصلاة الجمعة والعيدين، كما أصبح المسجد المكان الذي يتعلم فيه المسلمون شئون دينهم، ويتلو عليهم الرسول ما يُوحى إليه، وينظر فيما شجر بينهم من خصومات ويحكم فيها وفق ما أنزله الله ﷻ، كما كانت تُعقد أيضًا بالمسجد الألوية للجيوش ويستقبل فيها الرسول الوفود، بالإضافة إلى ما كان يتم فيه من صفقات البيع والشراء، وإقامة الحفلات الدينية.

ومن هنا يعتبر المسجد النبوي عاملاً هامًا في التوحيد بين المسلمين ودعامة أساسية في ترابط المجتمع الإسلامي الجديد في قصر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأصبح مسجد الرسول في المدينة المنورة يمثل القلب النابض للمدينة وما حولها بكل ما يمثله التعبير من معاني روحية تذكِر المسمين بأيام الجهاد في

الدور الأول للإسلام والهجرة النبوية الشريفة والمثل الصادق في شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

وتتحدث النصوص التاريخية بأن الرسول ﷺ شارك في بناء مسجده بالمدينة «ليرغّب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه»، وكانوا يرددون خلال البناء، وقد أخذهم الحماس وغمرت التقوى والإيمان قلوبهم: لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة... فكانت مشاركة النبي ﷺ مع كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار والعمل في بناء مسجده دافعًا وحافزًا قويًا لكي يتبع المسلمون سنة رسولهم الكريم في الاهتمام بإقامة المساجد والإكثار منها.

ونلاحظ أن هذا المسجد لم يبق على هذه الصورة البسيطة التي بدأ بها على يدي الرسول ﷺ وصحابته، ولكن تناولته يد التعمير والتجديد والتوسعة على امتداد العصور والأزمنة منذ عهد أبي بكر ومن جاء بعده من الخلفاء حتى أصبح من أكبر وأعمر مساجد الدنيا كما سبق وأوضحنا ذلك في الباب السادس.

ويمكن أن نلحظ من اهتمام الرسول ﷺ ببناء مسجده دوافع أخرى غير السبب الديني المعروف، فكان- عليه الصلاة والسلام- رجل دولة من الطراز الأول، بعيد النظر، بصيرًا ومتفهمًا لكل ما يهم أمر المسلمين ومستقبل دولتهم الجديدة، فأراد أن يستكمل بالإسراع بإقامة المسجد أسس ومقومات هذه الدولة الصغيرة الناشئة ومظاهر سيادة سلطته التنفيذية أمام القوى الخارجية التي كانت تتربص بدولته، فجعله المقر الرسمي الذي يلتقي فيه بكبار الصحابة وأهل الرأي من المهاجرين والأنصار؛ بل ومن المسلمين عامة، يشاورهم ويباحثهم في أمور الدين

والدنيا، فاتخذ له مجلسًا في «أسطوان التوبة» بجوار السارية التي شد فيها أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسي نفسه قبل أن ينزل الله تعالى توبته المعروفة مع يهود بني قريظة، فكان إذا صلى الصبح، انصرف– عليه الصلاة والسلام– إلى هذا المكان وقد سبقه إليه المساكين والضعفاء والمؤلفة قلوبهم وأهل الصفة وغيرهم ممن لا مبيت لهم إلا في المسجد، وقد تحلقوا في هذا الأسطوان، فيتخذ النبي ﷺ مجلسه بينهم، يعلمهم ويفقههم في الدين ويتلو عليهم ما أنزل الله ﷻ عليه من ليلته ويحدثهم ويحدثونه، حتى إذا جاء أشراف القوم وسادتهم وأهل الطول والغنى لم يجدوا في المجلس متسعًا لهم، فشكوا أمرهم للنبي ﷺ وقالوا: نحن سادة قومك وأشرافهم فلو أدنيتنا منك إذا جئنا؟ فهدته ﷺ السماء أن لا يفعل ولا يستجيب لهؤلاء الذين ما زالوا تسيطر على نفوسهم نعرة الجاهلية والتسامي على الناس بالمال والحياة، ويستولي على عقولهم التنافر بالأحساب والأنساب، ونزل جبريل الأمين على نبي الإسلام ورسول العالمين بقول المولى جل شأنه ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

كذلك كان المهاجرون من قريش يجتمعون في مكان آخر بالمسجد عرف «بأسطوان القرعة» الذي سُمي أيضًا «أسطوان عائشة» يصلون إليه ويتخذون فيه مجلسهم حتى اشتهر بـ «مجلس المهاجرين» وقد استمر هذا «المجلس» حتى أيام عمر بن الخطاب ﷺ، فكان يلتقي بهم ويجلس إليهم في هذا المكان، يحدثهم في شئون الدولة وما يختص بأخبار الفتح وسيّر الحرب ونتائج المعارك، كما كان يشاورهم فيما أُشكل عليه من أمور الرعية، فذكرت النصوص أنه بعد أن تم للمسلمين فتح

بلاد الفرس لقي عمر ﷺ كبار المهاجرين في مجلسهم هذا وقال: ما أدري كيف أصنع بالمجوس، فوثب إليه عبد الرحمن بن عوف وأجابه قائلاً: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: سنوا بهم سنة أهل الكتاب، فكان في ذلك القول وشهادة هذا الصحابي الجليل ما جعل الخليفة يأخذ منهم الجزية. كذلك جعل الرسول ﷺ في مسجده مكانًا معينًا عُرف بـ (أسطوان الوفود) يلقى فيه وفود القبائل العربية وغيرهم من السفراء والمبعوثين إليه لأي أمر من الأمور، كطلب العهد أو تجديده، أو تقديم الجزية وأموال الصدقة وغيرها من الأموال المستحقة لبيت مال المسلمين، أو للدخول في الدين الجديد وإعلان الطاعة والولاء للسلطة المركزية في المدينة المنورة، إلى غير ذلك مما يتعلق بأمور الدولة وسياستها، كما كان- عليه الصلاة والسلام- يلقى في نفس أسطوان كبار الصحابة وأفاضلهم يبحث معهم ويحدثهم ويشاورهم في كل ما يعن له من أمور المسلمين ومصالح دولتهم.

وقد ساعد على استكمال هذا الدور القيادي لمسجد المدينة وتأكيده أثره في الحياة العامة للمجتمع الإسلامي، أن النبي ﷺ بنى مساكنه فطبقه به من جهاته الثلاث: الجنوبية والشمالية والشرقية، دون الغربية- ربما لعدم وجود فسحة من الأراضي الفضاء في هذا الجانب، وجعل أبوابها مفضية إليه، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج من أي دار منها إلى المسجد مباشرة. كذلك كان دار ابنته السيدة فاطمة- رضي الله عنها- وزوجها علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- مجاورة لمسكن السيدة عائشة- رضي الله عنها- وجعل في الجدار الذي يفصل بينهما كوة، فكان النبي ﷺ إذا قام إلى المخرج اطلع من هذه الكوة إلى ابنته ليعلم خبرها وأحوالها ويطمئن عليها.

وبعد أن استقر الحال بالمهاجرين في موطنهم الجديد، وذهبت عنهم الوحشة والغربة، واجتمع الشمل، وباعوا واشتروا واكتسبوا المال، وعز الإسلام، أقطعهم الرسول ﷺ الدور والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخر المسجد، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحوش المعروف به، وجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد، وأقطع الزبير بن العوام بقيعًا واسعًا، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره، ولأبي بكر موضع داره عند المسجد، كذلك أقطع عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد وغيرهم من المهاجرين القطائع لبناء مساكنهم الجديدة حول مسجده، فما كان من عفائن الأرض وهبها لهم، وما كان من الخطط المسكونة العامرة كان رجال الأنصار يهبونها له ليقطعها من يشاء من المهاجرين، ويُذكر أن أول من وهب للنبي ﷺ خططه ومنازله هو أبو عبد الله حارثة بن النعمان بن نقع النجار الأنصاري الذي كان من فضلاء الصحابة وكرمائهم، وكانت منازله قرب المسجد وحوله، فكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً، نزل له عن دار من دوره حتى صارت منازله كلها للنبي ﷺ وأزواجه، لذلك كله أصبح مسجد المدينة على اتصال وثيق ومباشر بما حوله من منازل الرسول ﷺ ودور الصحابة من كبار المهاجرين وأوائلهم ومن الأنصار أيضًا، فكان قلب المدينة النابض بالحياة ومركز خدمة المجتمع الإسلامي، مجمع أهل الرأي والشورى، ومحور أنشطة الدولة ومصالحها المتعددة، فقال عنه (ابن تيمية) العالم والفقيه المعروف، أن النبي ﷺ أسسه على التقوى، وكان فيه «الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمور دينهم ودنياهم».

ثالثاً : الإخـــــاء :

أ – الإخاء الخاص بين الأوس والخزرج :

كان من النتائج العاجلة لإسلام الأوس والخزرج وهجرة الرسول إليهم تآخيهم في الإسلام وتناسيهم ما كان بينهم من عداوة وأحقاد وحروب وأيام قاسية في الجاهلية. فقد اشتدت العداوة بينهما قبيل الهجرة حتى لا يكاد يصدق أحد أن يتناسوها فأزال إسلامهم ذلك كله وقضى عليه وأصبحوا بنعمة الله إخوانًا يتنافسون في اكتساب مرضاة الرسول الكريم ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣] ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] هذه الأخوة التي غاظت اليهود فحاولوا القضاء عليها. ذلك أن (شاس بن قيس) وهو شيخ يهودي طاعن في السن شديد الكراهية للإسلام والمسلمين مرّ على جماعة من الأنصار منهم الأوسيون والخزرجيون وقد جمعهم مجلس واحد على المحبة والأخوة فغاظه ما رأى من ألفتهم ومحبتهم وجماعتهم في ظل الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: لقد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملئوهم بها من قرار، ثم أمر فتى يهوديًا أن يجلس معهم ويُذكرهم بيوم بعاث وما كان قبله وأن ينشدهم بعض ما قالوا فيه من الأشعار ففعل واستطاع أن يوقظ الفتنة التي أخمدها الإسلام، فقد سار وراءه شباب الحيين في الإنشاد وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين (الأوس

والخزرج) على الركب فتقاولا حتى قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعًا وقالوا: قد فعلنا موعدكم الظاهرة، وتنادوا السلاح السلاح وأسرعوا إلى المكان الذي اتعدوا. وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخف إليهم مسرعًا فيمن معه من الصحابة حتى جاءهم وهم موشكون على القتال فقال: (يا معشر المسلمين: الله الله. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف بين قلوبكم) وما زال بهم حتى بكوا وعانق بعضهم بعضًا وانصرفوا مع رسول الله إخوة كما كانوا، بعد أن علموا أنها نزغة شيطان وتدبير يهودي، وأنزل الله في شأن شاس اليهودي: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩]، ثم خاطب المتخاصمين من المسلمين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١]، وهكذا فشلت هذه المؤامرة الدنيئة التي دبرها اليهود وعاد الأنصار أكثر تضامنًا وإخاءً في ظل الإسلام وهداية الرسول.

ب - الإخاء العام بين المهاجرين والأنصار :

آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ليؤنس غُربة المهاجرين ويخفف عنهم مفارقة الأهل والوطن وليشد بعضهم أزر بعض، فزادت تلك المؤاخاة علاقتهما قوةً وأحكامًا، ووطدت صلات المودة والأخوة بين الأوس والخزرج من ناحية أخرى، وهكذا توحدت تلك القوى الثلاث وانصهرت في بوتقة الإسلام فصارت قوة متماسكة تشعر بشعور واحد وتعمل لغاية واحدة هي نشر الإسلام وإعلاء شأنه.

إخاء كان أقوى من أخوة النسب يتوارثون به وظل ذلك سائدًا إلى موقعة بدر حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥] فألغي التوارث بعقد الأخوة وعاد إلى ذوي الرحم.

وقد أظهر الأنصار روحًا فريدة في سموها تجاه هذه الأخوة آثروا إخوانهم المهاجرين على أنفسهم وقاسموهم أموالهم فمدحهم القرآن الكريم لهذا الموقف النبيل ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]، ونافسهم المهاجرون في هذا السمو و لم يستمرئوا أن يكونوا عالة على الأنصار بل سعوا وضربوا في الأرض تجارًا وزراعًا وعمالاً حتى أغناهم الله من فضله. روى البخاري: «أنهم لما قَدِموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبد الرحمن:

بارك الله لك في أهلك ومالك. أين سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو»، وإعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن، ولا شك أن تلك السماحة وهذا النبل لمسة من لمسات الإسلام في نفس كل منهما.

بهذا الإخاء القوي المتين ألّف الله بين قلوب الجميع وبث روح المحبة فيهم فحلت الوحدة الدينية محل العصبية القبلية وأصبحوا نواة للمجتمع الإسلامي المترابط الذي يعبد إلهًا واحدًا ويدين بدين واحد هو الإسلام، ويسير في الحياة وفق شريعته، فقضى بذلك على الحروب والغارات وعلى المنازعات والمشاحنات. مجتمع تحققت فيه المساواة «كلكم لآدم وآدم من تراب» وأصبح التفاضل بين أفراده بالعمل لا بالنسب ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] و «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى» فقضى الإسلام بهذه المبادئ على حمية الجاهلية.

رابعاً : المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين :

جعل الدين الإسلامي توحيد الله أساسًا قويمًا يمكن أن يتعاون في ظله اتباع الديانات السماوية المختلفة كما في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤]... وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ

ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

في ضوء هذه الآيات المباركة، عقد الرسول ﷺ أول معاهدة بين المسلمين وبين اليهود- وهم أصحاب كتاب- في المدينة. والناظر إلى هذه المعاهدة يجد فيها براعة وحنكة الرسول ﷺ في رسم سياسته وتدبيره للأمور، فتراه يبسط يد المودة والأخوة لليهود، ويتفق معهم على التضامن والتعاون حتى تكون المدينة كلها صفًا واحدًا، وقوة واحدة، وحتى لا يطمع في المدينة طامع وينال منها عدو.

وقد عُرفت هذه المعاهدة باسم «الصحيفة» وقد كتبها رسول الله ﷺ قبل موقعة بدر، وقبل أن ينصرم العام الأول من الهجرة.

ولأهمية هذه الصحيفة، حيث إنها تصور لنا ما كانت عليه أحوال المجتمع في المدينة قبل الرسول، وإلى أي حد قد تغيرت هذه النظم القديمة والأسس التي قام عليها المجتمع الجاهلي في المدينة بعد كتابة هذه الوثيقة.

وفيما يلي النص :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ - أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ - المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون[2] بينهم وهم يفدون

---

(١) أي الحالة التي كانوا عليها عند ظهور الإسلام .

(٢) يأخذون الديات ويعطونها لأهل القتيل أي يكونون ما كانوا عليه من إعطاء الديات وأخذها .

عانيهم[١] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ – وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم[٢] الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ – وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ – وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ – وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ – وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠– وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١– وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢– (أ) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل[٤].

---

(١) أسيرهم .

(٢) دياتهم .

(٣) مثقلاً بالدين كثير العيال .

(٤) دية .

(ب) وألا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[١]، ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

١٥- وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧- وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء أو عدل بينهم.

١٨- وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

١٩- وأن المؤمنين يبيء[٢] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠- (أ) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.

(ب) وأن لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١- وأنه من اعتبط[٣] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود[٤] به، إلا أن يرضى ولي

---

(١) أي طلب عطية .

(٢) يكف ويمنع .

(٣) قتل بدون سبب يستدعي ذلك .

(٤) قصاص في القتل .

المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة و لايحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢- وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وأن من نصره، أو أواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف[١] ولا عدل[٢].

٢٣- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى محمد.

٢٤- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧- وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨- وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩- وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠- وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١- وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٢- وأن جفنة بطن من تلعبة كأنفسهم.

٣٣- وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم.

٣٤- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

---

(١) توبة .

(٢) فداء .

٣٥- وأن بطانة[1] يهود كأنفسهم.

٣٦ - (أ) وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

(ب) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر[2] هذا.

٣٧- (أ) وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

(ب) وأنه لم يأثم امرؤ بحليفة، وأن النصر للمظلوم.

٣٨- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٣٩- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١- وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخلف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٣- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

٤٤- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٤٥- (أ) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه

---

(١) خاصة اليهود .

(٢) بمعنى يرضى به .

ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

(ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٦- وأن من يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٧- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، من قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ .

تحليل دستور المدينة :

اعتبرت هذه الصحيفة أولى الوثائق النبوية في المدينة، وأيضًا كانت بمثابة أول دستور إسلامي في المدينة، يقرر بوضوح تام مبادئ المسئولية السياسية والاجتماعية نعرضها فيما يلي:

١ – إن جميع المؤمنين والمسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة، حيث أصبح الإسلام هو الرابطة الوحيدة بينهم، والتي حلت محل الرابطة القبلية والعصبية، ومن ثم صار المسلمون في المدينة يشكلون هذه الأمة دون النظر إلى قبائلهم أو أصولهم لأنهم أمة واحدة من دون الناس كما جاء بالمادة رقم (١) من هذه الوثيقة النبوية.

٢ – الإبقاء على بعض الأعراف القديمة التي لا تتعارض مع تعاليم الدين

الجديد وكان يتعامل على أساسها العرب قبل الإسلام، فقد نصت المادة (٣) وما بعدها من مواد حتى المادة (١١) على بعض وظائف القبيلة ومنها الضمان القبلي داخل كل قبيلة أو طائفة من المهاجرين والأنصار، فأصبحت القبيلة مسئولة مسئولية تامة عن أفرادها في سرائها وضرائها تؤكده هذه النصوص في المواد المذكورة آنفًا (من ٣ إلى ١١): «... فهم على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم المعروف والقسط بين المؤمنين». «ويتعاقلون معاقلهم الأولى»، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

نجد من خلال هذه النصوص أن الإسلام أبقى بعض وظائف القبيلة التي تحمل معاني الخير والتعاون والبر، ويلغي أو يعدل ما كان فاسدًا، أو متعارضًا مع مبادئه الأساسية.

٣ - اعتبار مشركي المدينة ويهودها من مواطني الدولة الإسلامية، ومن ثم أصبح عنصر الإقليم «المدينة» هو الذي يعطي الحق في المواطنة، أي في عضوية المجتمع الجديد، بعد أن كان هذا الحق يقوم بين القبائل على أساس صلتها أو انحدارها من أصل مشترك، كما كان في الجاهلية وهذا ما نراه في المادة (٢٠): «بأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن»، وأيضًا المادة (٢٥): «وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم، أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته».

من هذه النصوص نرى بوضوح أن الشعب في دولة الرسول ﷺ يتكون من المؤمنين والمشركين ويهودها ولم يكن قاصرًا على المؤمنين فقط لهم حقوق وواجبات واحدة التزموا بها جميعًا.

٤ – مسئولية الدولة الإسلامية الأولى مسئولية كاملة عن مواطنيها كافة بعد أن انصهرت القبلية والعصبية في بوتقة الأمة الإسلامية الجديدة وتسامي أعضاؤها عن اتخاذ مبدأ العصبية مقررًا وحدة في العلاقات بينهم.

وبذلك صارت الدولة الإسلامية مسئولة عن مواطنيها كافة كما نرى في النصوص الآتية:

مادة (١٢): «وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل». وأيضًا المادة (١٣): «وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من يعنى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم».

٥ – تأكيد مبدأ المساواة، وقد أشارت إليه هذه الوثيقة في نصوصها التالية:

مادة (١٥): «وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس».

مادة (١٧): «وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم».

مادة (١٩): «وأن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال من دماءهم في سبيل الله».

مادة (٤٥)- (أ): «وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

مادة (٤٥)- (ب): «على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم».

٦ - عدم إقرار الظلم وهذا ما نراه في نصوص المواد التالية:

مادة (١٣): «وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من يعنى منهم أو ابتغى دسيعة، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم».

مادة (١٥): «وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس».

مادة (١٦): «وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم».

مادة (٣٦ب): «وأنه لا ينحجن على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا».

مادة (٤٧): «وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ .

وبالنظر إلى نصوص هذه المواد السابقة التي أكدت المساواة وعدم إقرار الظلم في هذه الوثيقة النبوية الشريفة، نجدها في نصوص قرآنية وأحاديث نبوية عديدة.

٧ - جواز الانضمام إلى المعاهدة، وهنا نرى هذه الوثيقة النبوية الشريفة تنفرد بهذا المبدأ الذي يعتبرها بحق أول وثيقة في التاريخ تقرر مبدأ جواز انضمام أطراف جديدة إلى المعاهدات بعد توقيعها، فقد نصت المادة الأولى منها على أن نصوص هذه الصحيفة منطبقة على أطرافها الأصلية ومن تبعهم فهي تقول: «هذا

كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و (أهل)، يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم».

فضلاً على المادة (١٦) نذكر ذلك أيضًا: «وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم».

٨ – تقرير حرية العبادة في مجتمع المدينة ويؤكده نص المادة (٢٥):

«وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته».

٩ – تنظيم حق الأخذ بالثأر تفاديًا للحرب في المجتمع الإسلامي الجديد، بأن تحول إلى مبدأ القصاص والعقاب في يد الجماعة التي لها حق التأديب فقط دون الفرد، وأصبح تفويض الجماعة في حق التأديب بدلاً من الفرد، انتقالاً حاسمًا له دلالته في المجتمع الإسلامي الجديد، حث انتقلت العقوبة على المستوى الفردي في المجتمع الجاهلي إلى العقوبة على المستوى الجماعي الممثل في دولة المدينة الإسلامية الأولى، وهذا ما توضحه المادة (٢١): «وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)[1] وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه».

وإذا أمعنا النظر في المادة (١٤) من دستور المدينة نجدها تخرج الاعتداء على المشرك من دائرة المطالبة بالثأر، وأصبحت هذه المسألة في هذه الحالة مجرد إجازة بقتل أعداء المجتمع الإسلامي الجديد.. وهي التي تنص على الآتي:

«ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن» حيث أن

(١) العقل هنا معناه الدية.

دين الدولة الجديد هو الإسلام، وهو لا يرى التعايش مع أهل الكفر، فدارهم دار حرب إلا أن يدخلوا في الإسلام، ويستثنى من هذا أهل الذمة من اليهود والنصارى أي من أصحاب الكتب السماوية، فهم يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون وتكفل لهم حرية العبادة ويعاملون معاملة المسلمين في الحقوق والواجبات.

١٠- كما حددت الوثيقة مبدأً جديدًا هو أن العقوبة لمرتكبها فقط، ويوضح هذا نص المادة (٣٧ب): «وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم».

١١- عدم إبرام صلح منفرد مع الأعداء وأكدته المادة (١٧): «وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم».

وهذا يعني إلزام المسلمين بالتضامن والجماعية في حالتي الحرب والسلم.

١٢- منع إيواء المجرمين، فقد نصت المادة (٢٢): وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل».

١٣- أعطت هذه الصحيفة حق إجارة أي شخص غريب ما عدا قريش ومن نصرها. وهذا ما نراه في المادة (٤١): «وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها».

فضلاً على أن المادة (٢٠) على المشرك أن يمتنع عن إجارة مال قريش وأهلها ولا يقف حائلاً دونه على أي مؤمن، ونصها كالآتي:

«وأنه لا يجّير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دون على مؤمن».

كما بينت هذه الوثيقة حرمة الجوار فلا يجوز إعطاء الجوار إلا لأهل قوم أو

بإذنهم فلا يجير الجار مستجيرًا إلا بإذن مجيره كنص المادة (٤١): «وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها».

وأوجبت الوثيقة حفظ الجار كالنفس تمامًا من الضرر والآثام كما جاء في المادة (٤٠): «وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم».

ومن هذا يتضح لنا أن هذا الدستور حدد شروط إجازة الإجارة أو منعها وحماية الجار كالنفس تمامًا ليسود مجتمع المدينة العلاقات السليمة وفقًا لهذه المبادئ المتفق عليها.

١٤- نظمت الوثيقة عملية دفع نفقات الحروب لجميع مواطني المدينة من مؤمنين ويهود فلابد من إسهامهم في نفقات هذه الحروب ما داموا فيها محاربين وهذا ما تؤكده المادة (٢٤): «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين».

وكان لليهود مقابل اشتراكهم في الحروب مع المؤمنين نصيبًا في المغانم.

١٥- وتأتي هذه الصحيفة بشيء له أهميته السياسية فقد حدد النبي معالم المدينة وحدودها وجعل لها حرمة بأن جعل لها مواضع معروفة محددة، وقد ذكر المطري في تأريخ المدينة «أن رسول الله ﷺ أرسل بعض أصحابه وأمرهم أن يبنوا أعلامًا على حدود حرم المدينة من جميع الجهات» حتى يحرم ما في المدينة ما يحرم بمكة.

وجاء نص المادة (٣٩): «وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة».

وبهذا النص تحدد أول حدود لدولة المدينة الإسلامية الأولى.

١٦- رئيس الدولة هو محمد النبي ورسول الله ﷺ . أكدته الصحيفة في المادة (٢٣)، والمادة (٤٢). وبذلك أصبحت السلطة السياسية في يد الرسول ﷺ

إلى جانب سلطته الدينية. وهذا تطبيقًا لروح الإسلام ومبادئه حيث إن الحاكم المسلم رأس الجماعة الإسلامية يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية.

والمادة (٢٣) تنص: «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد». وأيضًا المادة (٤٢) تنص: «وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبر».

وواضح من هذين النصين تأكيد هيمنة السلطة الدينية على المدينة التي تفصل في الخلافات منعًا لقيام الاضطرابات من جرّاء تعدد السلطات، وفي نفس الوقت تأكيد ضمني برئاسة الرسول ﷺ على الدولة سياسيًا.

وبذلك اعتبرت هذه الصحيفة وثيقة سياسية واجتماعية هامة، عُرفت بدستور المدينة، وقد صيغت هذه الصحيفة صياغة بالغة الدقة، وشملت نصوصها- مع ذلك- أغلب ما كانت تحتاج إليه الدولة الناشئة في تنظيم حياتها الاجتماعية، وشئونها السياسية.

وبعد أن قمنا بتحليل هذه الصحيفة- دستور المدينة- يمكننا أن نستخلص النتائج التالية:

١ - رئيس الدولة الإسلامية الأولى هو الرسول ﷺ ، حيث صارت له السلطة والسيادة في المدينة سواء كانت سلطة دينية أم سلطة سياسية، فاجتمعت في يده السلطتين الدينية والسياسية أو الروحية والزمنية.

٢ - تأكيد حرمة المدينة بأن تميزت بأن لها حدودًا معينة.

٣ - جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة، وبذلك

حل مبدأ الأخوة الإسلامية في المدينة، محل مبدأ العصبية القبلية في الجاهلية.

٤ – تنظيم مبدأ القصاص والعقاب بتفويض الجماعة في حق التأديب بدلاً من الفرد، وبذلك انتقلت العقوبة الفردية في المجتمع الجاهلي إلى العقوبة على مستوى الجماعة الممثلة في دولة المدينة. وبذلك قضت على الحروب الداخلية والاضطرابات.

٥ – التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية في حالتي الحرب والسلم، ليس فيما بينهم فقط بل مع حلفائهم أيضًا، وبذلك أصبحت للجماعة من حيث كونها جماعة ذات شخصية دينية وسياسية حقوقًا على الأفراد لتأمين سلامة المجتمع الجديد.

٦ – الإبقاء على الأعراف الحميدة الموجودة في النظام القبلي الجاهلي كمسئولية القبيلة عن أفرادها في السراء والضراء، وأيضًا حق إجارة أي شخص غريب ما عدا قريش ومن نصرها.

٧ – تقرير حرية العبادة لغير المسلمين، وفتح الطريق للراغبين في الإسلام.

ومن هنا يتبين لنا أهمية الصحيفة من الناحية الاجتماعية ومن الناحية السياسية أيضًا، فقد حددت العلاقات بين أفراد المجتمع الجديد من مسلمين ويهود وغيرهم، وأنها تتفق مع منطق الحوادث في المدينة، وهذه الصحيفة بحق تعتبر أول دستور للمدينة وضعه رسول الله ﷺ .

خامسًا : القبلة رمز الوحدة الدينية والسياسية للمسلمين:

كان الرسول ﷺ يتطلع شوقًا إلى نزول الوحي عليه بالتوجه إلى بيت الله الحرام؛ لأنه كان في مكة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس في صلاته وظل

الرسول ﷺ يصلي قِبَل بيت المقدس حتى تحول عنها إلى الكعبة في السنة الثانية للهجرة.. حين أمره الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وجاءت هذه الآية الكريمة لتحسم مجادلة اليهود والنصارى والمنافقين. فكان اليهود يقولون أنهم علموا محمدًا ﷺ قبلته ولولاهم ما دري إلى أين يتجه... بينما النصارى تقول ما بال محمد يدعي ملة إبراهيم ويخالف كعبته، وأيضًا يخالفهم دينهم ويتبع بيت المقدس.

ولكل شريعة قبلتها، وكان اختيار الكعبة جاء مطابقًا لفلسفة الإسلام التي تقضي بخلق روابط بين المسلمين، فلو لم يحدد، واتجه كل مسلم حيث يريد لضاعت الرابطة التي يحرص عليها الإسلام، وأيضًا تحويل القبلة امتحان للنفوس ومدى عمق إيمانهم، وبذلك يظهر المنافقون منهم، فيتطهر المجتمع الإسلامي الجديد منهم.

سادسًا : مشروعية القتال في الإسلام :

بعد الهجرة وتكوين الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة واعتناق أهلها الإسلام وازدياد قوة المسلمين شرع الله القتال فأباحه للمسلمين؛ بل أوجبه عليهم في بعض الحالات وجوبًا وحث عليه وبيّن فضل المقاتلين في سبيل الله وجزاء المستشهدين منهم بما يدفع إليه المسلم دفعًا.

وقد ذهب كثير من المستشرقين تحت ستار البحث العلمي النزيه إلى الطعن في الإسلام ونبيه بما أثاروه حول هذا الموضوع فقالوا: إن الإسلام دين حرب وقتال. دين يدعو إلى الغزو ويحبب في الجهاد ليرغم الناس على الدخول فيه بقوة السلاح وشدة البطش، فهو بهذا دين قام على حد السيف وأسنة الرماح، وقارنوا بينه وبين المسيحية في هذه الناحية، وذهبوا إلى أن المسيحية خير منه لأنها دين يدعو إلى التسامح المطلق ويمقت القتال بكل وسائله ودواعيه، ويستندون إلى ما جاء في الإنجيل (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر)، وذلك كذب وافتراء فلم ينتشر الإسلام بالسيف أبدًا، ولم يكن القتال فيه لإرغام الناس على اعتناقه؛ لأن النصوص الصريحة في القرآن الكريم تعارض هذا الزعم بشدة وترده ردًا أكيدًا ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا ﴾ [البقرة: ٨٣)]، ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وتؤيد الحقائق التاريخية هذا الاتجاه، فقد انتشر الإسلام في مواطن لم تصلها جيوش المسلمين أبدًا مثل إندونيسيا وشرق آسيا وشرق أفريقيا ووسطها وغربها.

القتال غريزة فطرية في الناس

يقرر علماء النفس أن الإنسان مجموعة من الغرائز، وأن القتال إحداها وهو غريزة خلقها الله فيه للدفاع لأنها وليدة غريزة الخوف، لكنها قد تطورت مظاهرها فانقلبت من الدفاع إلى الهجوم والاعتداء لما لم تجد ما يكبحها من دين أو قانون.

وسبب هذا التطور أن الإنسان يتطلع دائمًا إلى الكمال والسبق والفوز والغلب، وكثيرًا ما يتبع ذلك الحسد والبغضاء لمن يتفوق عليه، ومن هذا التدافع والتقاء الرغبات حول هدف واحد كان التنازع والقتال قديمًا وحديثًا، وكان الاعتداء غريزة فطرية في الإنسان فكان لابد له أن يبغي أو يفسد في الأرض ويسفك الدماء ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقد ظهرت آثار هذه الغريزة بأجلى معانيها من أول ما عمرت الأرض بأبناء آدم رغم قلة عددهم وشدة اتصالهم فاقتتل قابيل وهابيل لما تُقبل قربان أحدهما دون أخيه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

ولم تختلف هذه الغريزة قط في الإنسان أفرادًا وأممًا، فلم يخل عصر من معتد ومعتدى عليه وقاتل ومقتول. ولم تنقطع الحروب بين الأمم من فجر التاريخ إلى اليوم لأوهى الأسباب استجابة لداعي الغريزة الفطرية في الإنسان.

وإن من يتتبع قصص الأنبياء عليهم السلام يجد أنها صورة مكررة لكفاح مرير بين الحق والباطل والخير والشر يتمثل في النزاع بين النبي والمؤمنين به وبين أعدائه من الكفار، ولولا أن الله قد أحاط الأنبياء بعنايته ورعايته وأمدهم بروح منه لهلكوا جميعًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨]، يقول الله تعالى في شأن نوح عليه السلام: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]، وفي ثمود ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [النحل: ١١٣]، وفي قوم لوط ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٠]، وفي قوم فرعون ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦].

ومظهر التسامح والمحبة والسلام في المسيحيين الأُول لم يكن مصدره تعاليم المسيحية بقدر ما كان نتيجة لحكم البيئة والظروف، ففي الإنجيل (ما جئت لألقي على الأرض سلامًا بل سيفًا).

أما العرب في الجاهلية فقد كانوا أسوأ مثَل في الأمم التي أكلتها الحروب وأفنتها الغارات لأتفه الأسباب، وكم قضت حروبهم على قبائل بأسرها كقبيلتي

(طسم وجديس) وبهذا العرض السريع يتبين لنا مدى استجابة الناس على اختلاف زمانهم ومكانهم لداعي تلك الغريزة الفطرية فيهم غريزة القتال، وظلت الحال على ذلك حتى جاء الإسلام.

الإسـلام دين الفطـرة

شرع الله الإسلام لتكميل استعداد البشر الفطري للرقي في العلم والحكمة ومعرفة الله سبحانه ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، لذلك لم تشتمل تعاليمه على ما ينافي الغرائز الفطرية أو يصدمها ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء: ٦٦]، يعني لو كتب الله عليهم ما ينافي غرائزهم كقتل النفس والخروج من الوطن لعصى الكثير منهم ولم يطع إلا أصحاب العقائد القوية الراسخة، فلم يكتب الله على المسلمين شيئًا من ذلك كما كتبه على بني إسرائيل مثلاً، بل جعل الإسلام دين الفطرة السليمة، لذلك كان من أهم ما عني به تعديل الفطرة التي انحرف بها الناس وتقويم الغرائز التي اعوجت فيها وتوجيهها الوجهة السليمة التي تدفعها إلى الخير دون الشر، وإلى العمران بدل الخراب، وتخرج بها من الظلمات إلى النور.

ولما كان القتال إحدى الغرائز القوية في الإنسان فقد عالجه الإسلام ضمن هذا النطاق العام فجعله مقصورًا على الدفاع دون الهجوم والاعتداء، ورسم له حدودًا روعيت فيه الحرمات الإنسانية تمام الرعاية، ونظمه أسمى تنظيم، وأنزله

المنزلة التي خُلق من أجلها، وجعله حارس حدوده وسياج دولته، وحدد له أسبابًا ثلاثة هي :

(١) دفع العدوان.
(٢) قطع الفتنة.
(٣) حماية الدعوة.

١ – دفع العدوان :

معناه الدفاع عن النفس ضد المعتدي، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فما هو هذا العدوان الذي فرض الله على المسلمين رده ودفعه ؟

لما بُعث الرسول ﷺ أخذ يدعو أهل مكة والوافدين عليها إلى الدين الجديد دين التوحيد الخالص، ففزعت قريش وهالها الأمر إذ كانت ترى في الإسلام خطرًا يهدد كيانها المادي والأدبي، وذلك أن الكعبة كانت مركز عبادة الأصنام ومحج العرب فكانت بذلك مورد ثروة ومناط فخر القرشيين ومجدهم وعظمتهم على سائر العرب لصلتهم بالبيت وقيامهم على خدمة الحجيج وسقايتهم ورفادتهم، فإذا انتصر الإسلام وحطم الأصنام وعبادة الأصنام فقد حطم سلطان قريش المادي والأدبي، لذلك عظم عليهم الأمر فزاد عنادهم وفجورهم في خصومة الإسلام ورسول الإسلام فعملوا للقضاء على الدعوة الإسلامية باضطهاد صاحبها ومن اتبعه وآمن برسالته وسلكوا في ذلك طرقًا شتى.

منها اضطهاد المستضعفين من المسلمين ومن لا عصبة لهم ولا منعة من قومه مثل: (بلال بن رباح) و(عبد الله بن مسعود) و(خباب بن الأرت) و(عمار بن

ياسر) وأمثالهم. كانوا يجرون (بلالاً) على بطحاء مكة إذا اشتد لهيبها ويضعون الصخرة العظيمة التي تتقد نارًا من شد حر الظهيرة في مكة على صدره يحاولون بذلك فتنته عن دينه ويمنعونه الطعام والشراب، فما يزيده ذلك إلا إيمانًا وتثبيتًا يؤكده قوله وهو تحت العذاب «أحد أحد»، وظل ذلك شأنه حتى اشتراه (أبو بكر) وأعتقده واستنقذه من هول العذاب.

وضُرب (عبد الله بن مسعود) في حرم الله الآمن المقدس حتى أُغمي عليه من شدة ما لقي جزاء جرأته على رفع صوته بالقرآن على مسمع من المشركين.

وتتمثل القسوة والوحشية فيما صُب على آل ياسر من عذاب أودى بياسر وبزوجه سمية، وألجأ (عمارًا) على صدق أيمانه وثبات يقينه وقوة عقيدته إلى أن يقول للمشركين في الرسول وفي آلهتهم ما يحبون حتى ينجو بنفسه من الهلاك، فلما فعلها أتى النبي ﷺ وهو يبكي فقال له: ما وراءك يا عمار؟ قال: شر يا رسول الله وقصّ عليه الأمر، فقال له ﷺ : كيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئنًا بالأيمان، فقال: يا عمار إن عادوا فعُد، فنزل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وألجأ عدوان قريش (خباب بن الأرت) وهو المؤمن القوي الأيمان إلى أن يطلب من الرسول ضارعًا أن يدعو الله في رفع هذا الظلم عن المسلمين، جاء (خباب) مرة إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقال: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد رسول الله ﷺ محمرًا وجهه فقال: «أنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ويوضع المنشار على فِرق رأسه فيُشق، ما يصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير

الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

ولم يقتصر عدوان قريش على المستضعفين من المسلمين بل تطاولوا على ذوي المكانة فيهم والعصبية القوية.

ضربوا (أبا بكر) لما تعرض للدفاع عن رسول الله عندما حاول بعض القرشيين إيذاءه قائلاً لهم (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) فاشتغلوا بضرب (أبي بكر) عما هموا به مع الرسول فأشبعوه ضربًا ولكمًا وشدًا وجذبًا حتى دمي وجهه وقطعت إحدى صفيرتيه وحُمل على بيته بعدما أُغمي عليه.

وبلغ الإيذاء مداه حينما امتد إلى شخص الرسول الكريم على هيبته ومكانته ورغم الحماية التي أحاطه بها بنو هاشم. طرحوا عليه رحم شاة مذبوحة وهو يصلي وألقوها في قدره ونثروا التراب على رأسه.

ولم ينجح اضطهاد قريش للمسلمين في تحقيق هدفه بل زادهم تمسكًا بدينهم والتفافًا حول نبيهم فسلكت قريش طرقًا أخرى لم تنجح كذلك. استغلت صلة الرحم واتخذته سلاحًا لفتنة (سعد بن أبي وقاص) عن دينه وهددته أمه بالانتحار إن لم يترك الإسلام فأبى، وقال لها: يا أم والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء فلما رأت منه الجد انصرفت عن عزمها فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

واستخدمت قريش مع الرسول نفسه سلاح الرشوة وأوفدت إليه زعيمًا

من زعمائها هو (عتبة بن ربيعة) يعرض عليه المال والمُلك والسلطان ليترك دعوته فلم ينجح وفل هذا السلاح، فحاولوا فتنته ﷺ بإرهاب حُماته والمدافعين عنه كعمه أبي طالب فصمد (أبو طالب) وصمد الرسول واستمر في دعوته، ولم يتركوا تهمة إلا ألصقوها بالرسول، اتهموه ﷺ بالجنون ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، ورموه بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤]، وسخروا من المسلمين في غدوهم ورواحهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

ولما اشتد ضغط المشركين على المسلمين أذن الرسول لفريق منهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا إليها في السنتين الخامسة والسادسة للبعثة وحاولت قريش ردهم فرفض النجاشي، وهكذا نرى صورًا لا تنتهي ترسم عدوان قريش والمشركين وهم كثرة على الفئة المؤمنة الصادقة الصابرة وهم قلة عدوان لا يقره دين ولا قانون ولا عُرف، إنها حرب شنها الشرك ممثلاً في أهل مكة على التوحيد والإسلام ممثلاً في الرسول وصحبه حرب استُعملت فيها كل الأسلحة المعروفة حتى شملت الحرب الاقتصادية التي تلجأ إليها الدول المتحاربة في عصرنا.

فقد حصرت قريش النبي وصحبه في شِعب أبي طالب ثلاث سنين دأبًا وحرمت على الناس أن يبيعوا لهم شيئًا أو يبتاعوا منهم شيئًا وحرمت عليهم الأصهار أخذًا وإعطاءً وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، وقد وقف

المسلمون وبنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى جوار الرسول في هذه المحنة فلم يخذلوه أو يسلموه وذاقوا معه مرارة الجوع وألم العري حتى أكلوا ورق الشجر، وكان صراخ أبناء المحاصرين يُسمع خارج الشِعب من شدة ما يجدون من جوع، تلك صور من العدوان الذي شنته قريش على الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه في مكة خلال ثلاثة عشر عامًا. عدوان اضطر معه الرسول والمسلمون إلى الهجرة من بلدهم مكة إلى المدينة وخلّفوا فيها أبناءهم وأهلهم وأموالهم وجلوا عنها إلى بلد لم يطأها أكثرهم من قبل وإلى مصير لا يعلمه إلا علام الغيوب، فعلوا ذلك فرارًا بدينهم.

ذلك هو العدوان الذي فرض الله على المسلمين الجهاد لرده ودفعه ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، فحالة الحرب التي أعلنتها قريش والمشركون جميعًا على النبي ﷺ والمسلمين معه من بدء الدعوة كانت قائمة لم تفتر متصلة لم تقطعها هدنة أو ينهها صلح حتى كان صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، فلما أعز الله عباده المهاجرين بإخوانهم الأنصار أذن لهم بقتال المشركين وأمرهم برد عدوانهم ففعلوا وقاتلوا عن أمر الله.

فالغزوات والسرايا التي قام بها الرسول والمسلمون في عهده كانت كلها للدفاع لا للهجوم فإن بدا في بعض تلك الغزوات أن المسلمين هم الذين تصدوا للمشركين وأنهم هم الذين خرجوا يعترضون طريقهم ويسدون عليهم المسالك ويبدءونهم بقتال كما حدث في غزوة بدر، فليس ذلك منهم اعتداء وإنما هو امتداد

لحالة الحرب التي شنتها قريش في مكة من بدء الدعوة، هو حلقة من سلسلة حروب بينهم وبين المشركين بدأها المشركون بالاعتداء الأول عليهم بمكة، وفي القرآن الكريم: ﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣]، فالدفاع لا يُشترط أن يكون في كل معركة وكل حركة فلو لم يبدأ المشركون المسلمين في كل واقعة باعتداء لكان اعتداؤهم الأول بإيذاء الرسول والمسلمين وإخراجهم إياهم من مكة كافيًا في اعتبارهم معتدين دائمًا.

٢ - قطع الفتنة :

السبب الثاني من أسباب القتال في الإسلام هو رد الفتنة وقطع دابرها، فما معنى كلمة الفتنة التي ورد ذكرها في القرآن كثيرًا والتي جعل إضفاؤها غاية للقتال الذي أمر به الإسلام وأوجبه على المسلمين في قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وفي قوله جل شأنه: ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤].

الفتنـة : هي أن يتعسف الطغاة والمتجبرون ويشتدوا في اضطهاد المؤمنين ومصادرة حريتهم الدينية حتى يضطروهم إلى ترك دينهم الذي اعتنقوه عن أيمان واطمئنان ويردوهم إلى الشرك الذي تركوه وعافته نفوسهم.

وقطع الفتنة : إيجاد حالة من الاستقرار والاطمئنان يتمتع فيها الناس بحرية دينية كاملة حتى لا يستطيع أحد أن يفتن أحدًا عن دينه أو يرده عن رأيه بالقوة (وحق؛ بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصده عن سبيل الله أن يقاتل في سبيل الله حتى لا يُفتن حتى ينصر دين الله، فالدفاع عن الرأي واجب) فإذا لجأ الخصوم إلى المنطق وجب ردهم بالمنطق، وإذا لجأوا إلى القوة المسلحة وجب دفعها بالقوة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً (وذلك أن كرامة الإنسان تتلخص في كلمة واحدة: عقيدته، فالعقيدة عند من يقدر معنى الإنسانية أثمن من المال ومن الجاه ومن السلطات ومن الحياة نفسها).

وقد فتنت قريش بتسلطها وجبروتها المسلمين عن دينهم بشتى الوسائل ومختلف أنواع الفتن، صبوا عليهم العذاب ألوانًا– كما مر بك عند الكلام على رد العدوان– وتلك فتنة لا قِبَل لأحد بها حتى اضطروهم إلى الهجرة.

على أن فتنة المشركين للمسلمين لم تنقطع بالهجرة إلى المدينة إذ بقي من المسلمين بمكة نفر لم يستطع الهجرة مع النبي وهؤلاء ظلوا يصلون نار الفتنة من المشركين ألوانًا شدادًا أقسى مما عاناه المسلمون قبل الهجرة، وأولئك هم المستضعفون الذين قال الله فيهم للمسلمين ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا

مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥]، وأوضح مثل لهؤلاء المستضعفين (أبو جندل بن سهيل بن عمرو) الذي حبسه أبوه بمكة تحت العذاب فلم يستطع الهجرة إلى إخوانه بالمدينة، فلما كانت السنة السادسة للهجرة وقد اتجه النبي والمسلمون معه صوب مكة للعمرة وحالت قريش بينهم وبينها فعسكر المسلمون بالحديبية قريبًا من مكة وجرت المفاوضات بينهم وبين قريش وانتهت بصلح الحديبية، وكان من شروطه (إن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا من أصحاب محمد لم يردوه عليه) وبعد توقيع الصلح أقبل (أبو جندل) يرسف في قيوده حتى أشرف على المسلمين يريد أن يحتمي بهم، فلما رآه أبوه ضرب وجهه وجذبه ليرده إلى مكة فصاح (أبو جندل) يا معشر المسلمين أ أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني!! فأجابه الرسول الكريم (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم) وعاد (سهيل) بابنه إلى مكة واهتز المسلمون لذلك هزة عنيفة.

تلك هي الفتنة التي أمر الله نبيه والمسلمين أن يحاربوا مشعليها حتى يصبح كل إنسان حرًا في اعتناق الدين الذي يرتضيه وتهديه إليه فطرته السليمة وحتى يكون الناس أحرارًا في الدين، فتقرير الحرية الدينية هي الطريق الوحيد لإحقاق الحق وإبطال الباطل، إذ البقاء دائمًا للأصلح ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ صدق الله العظيم [الرعد: ١٧].

٣ – حماية الدعوة :

السبب الثالث من أسباب القتال في الإسلام هو حماية الدعوة والدعاة، ذلك أن الرسالة المحمدية عامة للناس جميعًا من يوم مبعثه ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وليست كرسالة الرسل قبله محدودة بزمان أو مكان أو لقوم مخصوصين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فالنبي ﷺ وخلفاؤه من بعده والمسلمون جميعًا مكلفون بنشر الدعوة الإسلامية. وإبلاغها إلى من لم تبلغه وإرسال الدعاة إلى كل ناحية على أي وضع وبأي طريق تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومهمة هؤلاء الدعاة تبليغ الرسالة وشرح الإسلام للناس، ثم للناس بعد ذلك مطلق الحرية في اعتناقه أو تركه ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإذا اعترض سبيل الدعاة معترض أو منعوا من أداء رسالتهم أو اعتدى عليهم معتدٍّ؛ فذلك هو الصد عن سبيل الله ومحاولة إطفاء نور الإسلام الذي أوجب الإسلام الجهاد على المسلمين لمنعه وتمهيد الطريق أمام الدعاة ليؤدوا رسالتهم مطمئنين لا يرهبون سيفًا ولا يخافون قتلاً.

وقد حارب النبي ﷺ في سبيل حماية الدعوة والدعاة كل من وقف في طريقهم أو اعتدى على رسله الذين أوفدهم للتبشير بالإسلام أو حمّلهم كتبه

للملوك والرؤساء والأمراء في مختلف الجهات. حارب من قتل دعاته في (الرجيع) التي قتل فيها أربعة من خيار الصحابة رضوان الله عليهم، ثم قتل بعدهم في مكة صحابيان آخران هم بقية وفدهم إلى قبائل عضل والقارة خرجوا إليهم ليقرؤهم القرآن ويفقهوهم في الدين فغدروا بهم وقتلوهم، ولم ينس مصرع دعاته في (بئر معونة) الذين أرسلهم إلى نجد لدعوة أهلها إلى الإسلام وكانوا سبعين من القرّاء فغدر بهم (عامر بن الطفيل) رأس الكفر في المنطقة واستأصلهم جميعًا، وقد وجد رسول الله لمصرعهم أشد الوجد وبلغ من حزنه أنه ظل شهرًا كاملاً يدعو الله في صلاة الفجر لينتقم لهم ممن قتلهم.

ولما قُتل مبعوث الرسول وحامل كتابه إلى أمير (بصرى) كان لمقتله وقع شديد على المسلمين فعزموا على تأديب الغساسنة ووضع حد ثابت لعلاقاتهم المستقبلة بالروم وصنائعهم أساسها حرية الدعوة وتأمين الدعاة، فكانت غزوة (مؤتة) المشهورة في التاريخ الإسلامي.

تلك هي الدوافع الثلاثة للقتال في الإسلام: رد العدوان، وقطع الفتنة، وحماية الدعوة، وهي التي من أجلها فرض الله القتال على المسلمين وكانت أساسًا لحروب الرسول ﷺ وخلفائه من بعده، فكل حرب لم ترتكز في قيامها على أحد هذه الأسباب الثلاثة ليست من الإسلام، فليس من الإسلام في شيء كل حرب قامت لإكراه الناس على اعتناقه، وليس من الإسلام في شيء كل حرب قامت لسيادة عنصر أو تغليب جنس، وليس من الإسلام في شيء كل حرب قامت للحصول على المغنم؛ بل الغاية الوحيدة للقتال في الإسلام هي إعلاء كلمة الله.

ومن هذا العرض وحصر أسباب القتال في الدوافع الثلاثة يتضح بطلان ما افتراه المبطلون المغرضون من المستشرقين من أن القتال في الإسلام كان لإكراه الناس على اعتناقه؛ بل إن من المُسلَّم به أن الإسلام لم يُحمل للناس على ظبا السيوف، و لم يكره المسلمون أحدًا على اعتناق دينهم بالقوة والإرهاب، وإنما كان طريقهم دائمًا هو الدعوة الرفيقة والموعظة الحسنة واستنهاض العقول بالحجة والبرهان، فمن دخل في دينهم كان منهم له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن لم يعتنقه وآثر السلامة فُرضت عليه الجزية كدليل على خضوعه وإذعانه وتمهيدًا لاعتناقه الإسلام فعساه مع الزمان أن يشرح الله للإسلام صدره، فإن غلبت عليه شقوته فإن ابنه سينشأ في الوسط الإسلامي فيكون أطوع لهذا الدين من أبيه، فمن لم يقبل الدعوة ولا الجزية وجب قتاله وليس ذلك اعتداء بل هو درء لخطر لا شك في وقوعه وتأمين للدعـوة.

ومما يؤيد أن الإسلام لم ينتشر بالسيف انتشاره في بلاد لم تصلها جيوش المسلمين كإندونيسيا وشرق آسيا وشرق إفريقيا ووسطها وغربها، وإنما كان انتشاره بفضل سماحته وسهولة مأخذه وقوة تعاليمه وإشباعه للعقول والقلوب جميعًا.

وفي هذا أبلغ رد على أولئك المضللين الذين يزعمون أن النبي عليه السلام أكره الناس على الدخول في الإسلام وحملهم على قبول دعوته بحد السيف.

والإسلام يدعو إلى السلام ولكنه يرفض الخضوع والاستسلام ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقد ادعى المستشرقون أن روح المسيحية تنكر القتال كلية وأن روح الإسلام تبيحه، ولكن تاريخ المسيحية وتاريخ الإسلام أمامنا شاهد عدل على كذب دعواهم فمنذ قيام المسيحية خضب المسيحيون الأرض بالدماء، خضبها الروم وخضبتها أمم أوروبا. وليس المسلمون هم الذين أوقدوا نيران الحروب الصليبية إنما المسيحيون هم الذين أشعلوا نيرانها وأججوا لهيبها مئات السنين، وفي كل حملة من الحملات الحربية الظالمة التي وجهها الغرب المسيحي إلى الشرق الإسلامي كان البابوات خلفاء المسيح في الأرض هم الذين يدعون إلى هذه الحملات ويحرضون عليها ويمنحونها البركة، فهل كان هؤلاء البابوات يجهلون أن المسيحية تنكر الحرب وتكرهها أم أنهم كانوا يعلمون ذلك ولكنهم انساقوا وراء الأهواء والمطامع الشخصية.

إن الحروب وُجدت على ظهر الأرض منذ وُجد الإنسان فهي ظاهرة اجتماعية منذ القِدم ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ولكن الإسلام هذّب فكرة الحرب وحصرها في أضيق نطاق فلم يبحها إلا دفاعًا عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي ودعا إلى رعاية الحرمات الإنسانية ونهى عن الانتقام والمثلة.

سابعاً : إبرام المعاهدات وإنفاذ السفارات

ونجد دولة المدينة التي عقدت المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها أو التي اختارت طريق السلم إزاء دعوتها، وسنعرض لهذه المعاهدات في موضعها في

الفصول التالية مما دعم مركزها السياسي في الداخل.

واستطاعت هذه الدولة الإسلامية الأولى أن تنفذ السفارات إلى العالم الخارجي، فوضعت بذلك أساسًا للعلاقات الدولية حين تكون طرفًا فيها، ويتضح ذلك فيما بعد عند تناولنا للدبلوماسية الإسلامية في عهد الرسول ﷺ .

ثامناً : وضع النظام الاقتصادي الإسلامي

وأيضًا من الأسس التي قامت عليها دولة المدينة في عهد الرسول هو إرساء الأسس الاقتصادية للإسلام التي ترمي إلى أن تخلف بين المسلمين جوًا من الحب والتعاون والإيثار، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع المسلمين والمواطنين في الدولة الجديدة، وسنعرض لهذا النظام الاقتصادي الإسلامي بشيء من التفصيل إن شاء الله.

الباب التاسع

السياسة الداخلية
لدولة المدينة المنورة

تاريــخ الوزارة

متى ظهرت الوزارة في البلاد الإسلامية ؟

يقول فريق من المؤلفين، كصاحب «التراتيب الإدارية»، أن الوزارة ظهرت في عهد النبي، وهم يحتجون لهذا الرأي بحديث جاء فيه: «وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر»..، وقد يرتبون على هذا الحديث نتائج عجيبة.. كقولهم: «لا شك أن رسالة النبي، لأهل الأرض، على وجه التكليف والأمر والنهي، وأما رسالته إلى أهل السماء، فهي رسالة شرف، وعلى كل حال، فأهل السماء في مملكة غير مملكته... ومن ذلك يؤخذ أنه ينبغي للملك أن يكون له وزراء في غير مملكته ليوافوا دولتهم بما ليس عندهم من العلوم والأرزاق..».

ويرجع مؤلفون آخرون القول بأن الوزارة ظهرت مع الخلافة، فكان عمر وزير أبي بكر وعثمان وعلي وزيري عمر وعلي ثم مروان بن الحكم وزيري عثمان، وعمرو بن العاص وزياد وغيرهما وزراء معاوية، وهكذا..

أما أكثر المؤلفين، فيتفقون على أن الوزارة لم تظهر إلا في العهد العباسي، وقد يزعم بعضهم أن العرب إنما قلدوا ملوك الفرس من آل ساسان، وأخذوا عنهم، في ترتيب الوزارة كل شيء. ولعل من الخير أن نقرر بأن الوزارة مرحلة طبيعية في تطور الدولة، وأن الدول العربية قد وصلت إليها، كما وصلت دول كثيرة غيرها، في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك أن الملك أو رئيس الدولة، لا يستطيع أن يقوم وحده بأمور السياسة والإدارة كلها، فلابد له من الاستعانة برجال آخرين، يؤازرونه ويشاركونه، ويتسمون بأسماء مختلفة، حتى إذا عظم شأن أحدهم واستبد

ببعض الأمور وأكرمه الملك وعاد برأيه ونصحه واختصه بمجلسه، لحظ الناس منزلته، ولقبوه بالألقاب التي تميزه ومنها الوزارة، ثم جاء من بعده، فطلب لنفسه مثل هذه المنزلة وهذه الحظوة، وهكذا يفعل خلفه أيضًا حتى يكون ذلك من جملة التقاليد والقواعد المقررة.

فإذا كان هذا أصل نشأة الوزارة- أي اختصاص موظف ما بالملك واستبداده ببعض الأمور- فإن الوزارة قديمة جدًا في العالم، ظهرت قبل ملوك ساسان الفرس، ومن أقدم الوزراء، النبي يوسف بن يعقوب، الذي كان بمنزلة وزير عند (فرعون) مصر، يدير له شؤون «التموين»، وينصح له، وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصته، بأروع أسلوب، ومما جاء فيه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٦].

جاءت كلمة «وزير» في القرآن، واستعملت العرب هذه الكلمة في صدر الإسلام، فإن الرسول- إذا صح الحديث السابق المنسوب إليه- قد لقّب أبا بكر وعمر بلقب الوزارة، ولما خطب أبو بكر الأنصار في اجتماع السقيفة، قال لهم: «نحن الأمراء، وأنتم الوزراء»، وكان غير واحد من الأمراء الأمويين يخاطب أو يُوصف بلقب وزير.. فالكلمة قديمة؛ ما في ذلك شك. ولكنها إنما تعني المشير والمؤزر، ولم تعن الموظف المخصوص، الذي ولاه الخليفة إدارة الدولة على النحو

الذي نذكر تفاصيله وأحواله فيما بعد، إلا في زمان العباسيين، ولو أن الأمويين امتد ملكهم لظهرت الوزارة عندهم، فإن بعض أمرائهم وكُتّابهم كانوا يشبهون في سلطانهم الوزراء، وعبد الحميد الكاتب، لو عاش الخليفة مروان وكان له محبًا وبعبقريته معجبًا لكان وزيرًا، له من السلطان ما لوزراء بني العباس.

قال ابن طباطبا: «الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجج والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمي الوزير وزيرًا، وكان قبل كل ذلك يسمى كاتبًا أو مشيرًا».

حكومة النبي ﷺ

متى بدأ النبي تنظيماته الإدارية ؟

لم يبدع محمد ﷺ نظامًا إداريًا كاملاً، ولكنه أبدع ما هو أعظم من ذلك: أوجد أمة، ومتى وُجدت الأمة وأخلاقها، وُجدت الإدارة وأساليبها.

كانت العرب قبائل، فجعلها: «دولة» !

كانت تعبد أصنامًا كثيرة، فحطم أصنامها ودعاها إلى عبادة إله واحد.

كانت لها لهجات مختلفة، فقرّب لهجاتها بهذا القرآن، الذي وجد فيه العرب مثلها الأعلى.

كانت لها أعراف مختلفة، فراح ينسخ هذه الأعراف ويصححها شيئًا بعد شيء، حتى اجتمعت العرب على أعراف واحدة أو متقاربة.

كانت العرب يحارب بعضها بعضًا، بأسها بينها، فجمعها، وصرف فضل قواها إلى جهاد العدو الخارجي.

كانت العرب تدين لرؤساء مختلفين فأخضعهم لرئاسة واحدة، جعلتهم أسرة واحدة كبيرة، وهذه الأسرة الواحدة الكبيرة لا حدود لها، أو لها حدود... هي حدود الدنيا العربية، ثم حدود الدنيا المسلمة.

عاش محمد ﷺ في مكة بعد البعثة، نحو من ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الدين الجديد فلا يستجيب لدعوته من سكان مكة إلا نفر قليل جدًا، ومن العبث أن نتكلم على إدارة النبي في هذه السنوات... فهو لم يكن يملك من إدارة مكة لا كثيرًا ولا قليلاً؛ بل هو لم يكن يعني بهذه الإدارة، لانشغاله عنها بمسائل العقيدة والأخلاق.

فمتى بدأ العهد الذي نستطيع أن نتحدث فيه عن «حكومة محمد» ؟

قد يُظن أن تاريخ هذه الحكومة، هو تاريخ الهجرة، يوم هجر النبي مكة ونزل المدينة، فأحسن أهلها لقاءه وسلموه الرئاسة عليهم، وكانوا في مقدمة من جاهد معه.

والواقع أن النبي كان في المدينة رئيسًا مدنيًا مثلما هو رئيس ديني، ولكن هذه الرئاسة المدنية التي وحدت المدنيين تحت لوائه ونفخت فيهم روحًا جديدة لم تستتبع تغييرًا محسوسًا في جهاز المدينة الإداري، وحتى الزكاة، لم تجب من الناس بأسلوب منتظم، وإنما ترك أمرها لدينهم وشرفهم فمن أداها فإنما يؤديها طائعًا مختارًا، ومن منعها فحسابه عند الله !

لا نستطيع أن نتحدث عن إدارة جديدة أنشأها النبي في المدينة خلال إقامته الأولى فيها، أو قد نستطيع أن نتحدث عن نوع واحد من الإدارة، وهو إدارة الجيوش الغازية وما يستتبع ذلك من بحث في حقوق الحرب والسلم، وفي قسمة الفيء، وفي معاملة الأسرى.

لقد زعم فريق من المؤلفين أن «التنظيمات» الإدارية، بدأت في المدينة، من يوم سمى النبي ﷺ الولاة، وكان أول والٍ سماه على المدينة سعد بن عبادة. ولكننا تتبعنا أحوال هؤلاء الولاة فوجدنا عملهم قاصرًا على النيابة عن الرسول مدة غيابه عن المدينة في الغزوات وكانوا يقومون بالإمامة في الصلوات ولا نعرف لهم من الأعمال والمآثر أكثر من ذلك.

الظن الراجح هو أن إدارة محمد ﷺ إنما بدأت بعد فتحه مكة واتساع رقعة البلاد التي يسيطر عليها، وكان ذلك قبل وفاته بسنتين فقط.

* * *

لم تكد تمضي سنة على وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى شرع في كتابة الصحيفة المشهورة التي عُرفت بـ «دستور المدينة» وقد بيّنا ذلك في حينه. ولم يكتف النبي بذلك؛ بل وجد أن الأمر يتطلب- بعد أن أصبح للمسلمين دولة بالمدينة- تنظيمًا وجهازًا إداريًا.

ولعلنا نستطيع أن نعطي الآن فكرة واضحة عن سياسة الرسول ﷺ الداخلية والخارجية في المدينة مما يؤكد أن الإسلام نظم شئون الحياة من الناحيتين الدينية والدنيوية معًا.

وسنتكلم في هذا الفصل عن السياسة الداخلية في المدينة في عصر النبوة بينما نرجئ الكلام عن السياسة الخارجية في الفصل الذي يليه إن شاء الله.

بعد أن أصبحت المدينة مستقر دعوة الرسول عليه السلام، ومركز التحول في تنظيمه السياسي والاجتماعي، حيث أُتيح للجماعة الإسلامية أن تنتقل- مجاراة لتطور الحوادث- من مرحلة المبادئ إلى مرحلة التطبيق.. مما جعل الحياة الجديدة في المدينة تتطلب كثيرًا من التنظيمات والتشريعات، حيث إن جو المدينة أكثر ملاءمة للتشريع، ولإظهار النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية في شكل جديد، مما حمل المستشرق «جب» على التصريح بالحقيقة التاريخية التالية: «إن تصور محمد ﷺ لرسالته لم يعتره تحول ولا انقلاب، وإنما ظهرت الحركة الإسلامية في المدينة بصورة جديدة من الناحية الشكلية، يوم نشأ في يثرب مجتمع قائم بذاته منظم على قواعد أساسية تحت قيادة رئيس واحد».

ونجد الرسول ﷺ قد وضع النواة الأولى للنظام الإداري في الإسلام وذلك عندما بعث إلى القبائل المختلفة التي دخلت الإسلام من يقرئها القرآن، ولما هاجر إلى المدينة وضع نظام الدولة الإسلامية، وكان ينيب عنه عمالاً على القبائل وعلى المدن، وكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وكذا على كل قبيلة كبيرة عامل من قِبَله عليه السلام.

وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الإمامة في الصلاة وجمع الصدقات، إذ لم يكن هناك خراج، ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال أية سلطة سياسية، وأيضًا عندما يخرج النبي للغزو ينيب عنه بالمدينة أحد أصحابه لإمامة الناس في الصلاة، كما كان ينيب عنه أحيانًا قائدًا يقود سرية من السرايا، وكان الرسول عليه السلام يتخير

عماله ممن اشتهروا بالصلاح والتقوى والعلم والتفقه في الدين.

وكان الرسول ﷺ يستخدم المسجد مكانًا للعبادة، بل كان يستخدمه أيضًا مركزًا للحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية، كما كان يستقبل في المسجد أيضًا السفراء والوفود من الدول، فكان المسجد بمثابة مبنى الحكومة النبوية بالإضافة إلى وظيفته الدينية الأساسية.

مما سبق نعتقد أن اللبنة الأولى للتنظيم الإداري في الإسلام، أرساها الرسول ﷺ عندما كان يرسل إلى القبائل من يفقهها في دينها ويعلمها القرآن الكريم وأحكامه، وكانت تغلب على هذا التنظيم الإداري في أول عهده الصيغة الدينية، ثم اتسع هذا التنظيم الإداري يوم بدأ الرسول ﷺ ينيب عنه بعض عماله في بعض المدن والقبائل الكبيرة في كل من الحجاز أو اليمن.

ونرى أيضًا أن النبي ﷺ قد عرف الديوان من حيث الوظيفة لا من حيث التسمية، رغم الشواهد الكثيرة التي تؤكد معرفة النبي ﷺ للديوان من حيث تسميته ووظيفته معًا، وذلك لأن كلمة الديوان كلمة فارسية، عرفها العرب في الجاهلية لاتصالهم بالفرس، مما يقطع بمعرفة المسلمين الأوائل للديوان، ولا سيما منهم البعض من مسلمي الفرس وقتئذ، وقصة سلمان الفارسي معروفة عندما استشاره النبي في إحدى المعارك، فأشار إليه بحفر خندق كما يعمل الفرس، وعمل النبي ﷺ بمشورته وعُرفت بغزوة الخندق.

ودليل آخر على وجود الديوان في عهد النبي ﷺ هو أنه عليه السلام كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وإنما كان يستعين بالكُتَّاب من أصحابه في كتابة الوحي وفي غير هذا من أموره المختلفة، وكان هؤلاء الكُتَّاب يعملون متطوعين بغير أجر،

بينما الديوان في عهد عمر، قد اتسعت دائرة أعماله لكبر الدولة وأصبح كتابه منقطعين له ويأخذون أجرًا. وما ديوان عمر إلا تطوير للديوان النبوي الذي بدأه الرسول ﷺ.

ويؤكد هذا الرأي ما يقوله القلقشندي عن ديوان الإنشاء: «إنه أول ديوان وضع في الإسلام وكان قد تم وضعه في عهد النبي ﷺ ».

أما ديوان الجيش فقال عنه الإمام البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: «قال النبي ﷺ : «اكتبوا إلى من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل»... ويقول ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يخلون رجل وامرأة إلا ومعها محرم، فقام رجل فقال: يا رسول الله اكتتبت في غزوة كذا وكذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجة..».

ويُفهم من هذا أن النبي ﷺ كان يكتب الناس الذين يخرجون للغزوات.

أما بيت المال وهو ما يقابل ديوان الخراج، فيؤكد وجوده الوظائف التي خصصها رسول الله ﷺ لبعض أصحابه ليتولوا أمر تحصيل الجزية وجمع الصدقات والخوص والخراج والغنيمة وكانت هذه كلها بمثابة موارد للدولة الإسلامية الأولى وكانوا يعرفون باسم الضريبة التي يتولى كل منهم تحصيلها، فمنهم صاحب المغانم، وصاحب الخوص، وصاحب الصدقات، وصاحب الجزية وغيره.

بعد أن دللنا على معرفة العرب والنبي ﷺ للديوان رغم كونها فارسية وتعني مجتمع الصحف ودفتر يُكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء.

كما تعني اسم الموضع الذي يجلس فيه الكُتّاب... نسوق دليلاً آخر وهو أنه بعد وفاة النبي جاء بعض رؤساء قريش ليأخذوا ما كان يعطيه الرسول ﷺ لهم

من أبي بكر، فلما علم عمر مزق الخط، وقال: إن رسول الله ﷺ كان يعطيكم ليؤلفكم على الإسلام فأما اليوم فقد عز الله دينه فانصرفوا.

وهذا يدل على أن الناس في عهد الرسول ﷺ كانوا يأخذون العطاء بالضبط والتقييد، فيدل ذلك على وقوع التدوين في عهد النبي ﷺ، وجعل قوائم بأسماء من ينالهم العطاء، وهذا هو الديوان بعينه.

من هذا العرض نخلص إلى أن الرسول ﷺ هو الحاكم الفعلي في دولة المدينة، يجمع بين يديه كل من السلطتين الدينية والزمنية، فهو رأس الحكومة في دولة المدينة، يعاونه عدد من الصحابة عُرفوا بكُتّاب النبي ﷺ ويتراوح عددهم ما بين أربعة عشر كاتبًا وثمانية وأربعين كاتبًا.. ومعنى هذا أن الرسول ﷺ قد كوّن له فريقًا من الكُتّاب يعاونونه في تنظيم شئون المدينة يمثلون الوظائف القيادية في عهد الرسول ﷺ مستكملاً الهيكل التنظيمي العام لدولة المدينة في الصورة الآتية:

أولاً : كُتَّاب الوحي :

وهم المتخصصون في كتابة القرآن الكريم، ومنهم عليّ بن أبي طالب وعثمان ابن عفان وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت.

ثانيًا : كُتَّاب الدولة :

وهم الفئة التي تخصصت في كتابة الأمور المتعلقة بدولة المدينة وشئونها... ومنهم من يقوم بدور المستشار للنبي ﷺ، وكان منهم:

١ – الوزير :

وكان أبو بكر وعمر بمثابة الوزيرين للنبي ﷺ ، وقد قال الرسول ﷺ : «من ولى مسلم عملاً فأراد به خيرًا جعل له وزيرًا صالحًا فإن نسي ذكره، وإن ذكره أعانه».

وقال الرسول ﷺ في نفس المعنى: «إذا أراد بالأمر خيرًا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره، وإن ذكره أعانه، وإن أراد الله به غير ذلك جعل له الله وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكره لم يعنه» وأضله في الصحيح.

ويذكر ابن خلدون أن العرب الذين عرفوا دول العجم قبل الإسلام كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي ﷺ ، وكان العرب لم تعرف الوزير في المدينة وإنما علمها منهم من خالط العجم.

هذا وقد ذكر القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ [طه:٢٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥].

ومن هذا نخلص إلى أن أبا بكر وعمر قد عملا مستشارين للنبي ﷺ، كما قال ابن المسيب: «كان أبو بكر مع النبي ﷺ وكان الوزير يشاروه في جميع أموره». وقال أيضًا القاضي أبو بكر بن العربي في (أحكام القرآن): «أن أبا بكر وعمر وزيرا النبي ﷺ من أهل الأرض».

٢ – كاتب الملوك والمترجم :

وكان يتولى أمر الكتابة إلى الملوك زيد بن ثابت، كما كان يقوم بالترجمة أيضًا حيث كان يعرف الفارسية والقبطية والحبشية والسريانية وتعلم أخيرًا العبرية.. كما كان يتولى كتابة الرسائل للملوك وغيرهم عبد الله بن الأرقم وكان قد بلغ من ثقة النبي به في هذا الشأن أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك رأسًا.

٣ – كاتب المعاهدات :

هو علي بن أبي طالب ﷺ .

٤ – كاتب حوائج النبي :

المغيرة بن شعبة.

٥ – كاتب المداينات وسائر العقود بين الناس :

ويقوم بها عبد الله بن الأرقم، والعلاء بن عقبة، والحصين بن نمير.. ونعتقد أن هذا العمل بمثابة تسجيل وتوثيق العقود في الشهر العقاري في عصرنا هذا.

٦ – صاحب التوقيعات إلى الملوك :

هو شرحبيل بن حسنة الذي كان يكتب التوقيعات إلى الملوك، ونعتقد أن هذا العمل هو ما يؤديه في يومنا رئيس ديوان أي حاكم سواء كان الحكم ملكيًّا أم جمهوريًا.

٧ – نائب الكاتب :

إذا غاب أحد كُتّاب الدولة خلفه في الكتابة حنظلة الكاتب؛ لأنه خليفة كل كاتب من كُتّاب النبي ﷺ ، فغلب عليه اسم الكاتب.

من هذا العرض لبعض الوظائف القيادية ومن قام عليها من أصحاب رسول الله ﷺ كالكتابة إلى الملوك والترجمة والمعاهدات والحوائج والمداينات والعقود والتوقيعات يمكن القول بأن هذه الوظائف تمثل ديوان الإنشاء أو بلغة العصر السكرتارية التي تعاون الرسول ﷺ .

٨ - كاتب المغانم :

وكان يقوم بكتابة المغانم وتقييدها معيقيب بن أبي فاطمة وعبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف.

٩ - كاتب خرص النخل :

وهو من خراج الأرض المزروعة وكان يقوم بكتابته وجمعه حذيفة بن اليمان وعبد الله بن رواحة.

١٠ - كاتب الصدقات :

ويتولى كتابة الصدقات كل من الزبير بن العوام وجهم بن الصلت.

١١- كاتب الجزية :

معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح كانا يتوليان كتابة الجزية.

١٢- كاتب العشار :

هو الذي يقوم بأخذ عُشر الأرض المزروعة ويقوم بها حرب بن عبد الله عمر الثقفي.

وبنظرة فاحصة واحدة إلى المغانم وخرص النخل والصدقات والجزية والعشار بالإضافة إلى الزكاة نجدها كلها مكونة لبيت المال أو ما درج على معرفته بديوان الخراج.

١٣- شعراء وخطباء النبي :

وكان شعراء المسلمين هم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب ابن مالك.

أما خطباء المسلمين فهم ثابت بن قيس بن شمس وأبو بكر وعلي بن أبي طالب ويقول النبي ﷺ : «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم».

وهنا نجد دور الكلمة لا يقل أهمية عن السلاح وهذا ما نراه في عصرنا من دور أجهزة الإعلام في شحذ الهمم وتكوين الرأي العام.

١٤- قادة جيش النبي :

(أ) صاحب السلاح: هو الذي يرسله النبي لجمع السلاح وكان يتولى هذه المهمة سعيد بن زيد.

(ب) المستنفر: وهو الداعية إلى الجيش ويحث المسلمين عليه، وكان بديل ابن أم الأحرم هو المستنفر للجيش النبوي.

(ج) صاحب اللواء: وكان كل من أبي بكر وعمر وعلي والزبير وسعد بن معاذ ومصعب بن عمير صاحب لواء.

(د) أمير السرية: والسرية مجموعة من الأفراد عددها عشرة أفراد وكان يقوم على كل سرية أمير يُعرف بأمير السرية، أمثال عبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص.

(هـ (صاحب العريش في الجيش: كان كل من أبي بكر يوم بدر وسعد بن معاذ وسموا بالعُرفاء لأن بهم تُعرف أحوال الجيش.

(ز) أمير الرماة والبيادقة: والبيادقة تعني المشاة، وكان أميرها كل من أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد.

(ط) اللواء: عبارة عن راية سوداء فيها هلال أبيض، وكان اللواء أحيانًا أبيض اللون أو أصفر. وقد عُقدت لسعد بن مالك الأزدي.

أما راية النبي ﷺ ، فقد عُرفت بالعقاب وهي من صوف أسود مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

- وأول راية عُقدت في الإسلام كانت لعبد الله بن جحش.

- وإذا تتبعنا قيادة الرسول العسكرية بمختلف أنواعها من صاحب السلاح إلى المستنفر وصاحب اللواء وأمير السرية وصاحب العريش وأمير الرماة والبيادقة ثم الراية، فنجد صورة متكاملة لديوان الجند في عصر النبوة الذي كان يشرف عليه النبي ﷺ ويعاونه الصحابة فيما وكل إليهم من أعمال في الناحية الحربية، وسنتعرض للغزوات والفتوحات النبوية في فصل السياسة الخارجية إن شاء الله.

١٥- سفراء النبي :

والسفارة النبوية هي بلغة العصر الدبلوماسية وكان يقوم بها دحية الكلبي وشجاع بن وهب، والمهاجرون أبي أمية، وعمرو بن العاص، والعلاء بن الحضرمي، وحاطب بن أبي بلتعة، وسنعرض للدبلوماسية الإسلامية بشيء من التفصيل فيما بعد إن شاء الله في فصل السياسة الخارجية.

١٦- عمال الأمصار :

كان الرسول ﷺ يتخذ عماله من صالحي أهله وأولي دينه وأولي علمه، ويختارهم في الأغلب من المرموقين في العرب، ليوقروا في الصدور ويحسنون العمل فيما يتولون، وهم يقابلون في يومنا هذا ما يُعرف باسم المحافظين أو رؤساء المدن والقرى.

وكان النبي ﷺ ينيب عمالاً على القبائل من بين أعضائها، أو يرسل أحد الصحابة عاملاً على أحد المدن.

وكان النبي ﷺ يستوفي الحساب على عماله، فيحاسبهم على المستخرج والمصروف، كما جاء في الصحيحين عن أبي حميد الساعدي، فقد أخرج مسلم عن أبي حميد الساعدي قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد على صدقات بني سليم يدعى ابن اللبتية، فلما جاء حاسبه فقال: هذا ما لكم وهذا هدية فقال رسول الله عليه السلام: فهل جلست في بيت أبيك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا، ثم خطب رسول الله ﷺ قائلاً: «إني أستعمل الرجل منكم على العمل فيأتيني فيقول هذا مالكم وهذا هدية أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا. والله لا يأخذ منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله عز وجل...».

وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الإمامة في الصلاة وتعليم القرآن وجمع الصدقات والزكاة والخرص. ومن أشهرهم حذيفة بن اليمان عامل اليمن، وعتاب بن أسيد عامل مكة الذي تقاضي أول راتب في الإسلام بأن خصص له النبي كل يوم درهمًا.

١٧- القضاء والإفتاء :

لما عقد الرسول المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين من اليهود والمشركين وضح لنا كيف يفصل الرسول ﷺ في الخصومات: «وأنه ما كان بين أهل الصحيفة من حدث أو استئجار يخاف فسادًا فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ ».

وكان يتولى النبي ﷺ بنفسه أمر القضاء ويقول: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ فلعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما سمعت، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئًا فإنما أخذ قطعًا من نار».

ويقول الرسول ﷺ أيضًا: «أُمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر».

ويقول أيضًا: «البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر».

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية، عهد الرسول ﷺ لبعض الصحابة ومن ولاهم أمر القبائل أو المدن أمر القضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، كما أذن للبعض الآخر من الصحابة بالفتيا بالإضافة إلى القضاء، ومن أشهرهم أبو بكر وعمر وعلي وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمر والسيدة عائشة.

١٨- المظالم :

وهي مرتبة أعلى من مرتبة القضاء العادي وأكثر شبهًا من المحاكم الاستئنافية الإدارية أو مجلس الدولة في أيامنا هذه- فعندما لا يرضى أحد بحكم قاض فيلجأ إلى النبي ﷺ ليعرض عليه الأمر لينصفه من حكم قضاته أو عماله.

١٩- الحسبة :

هذه الوظيفة مناطها محاربة الغش في السلع المتداولة في الأسواق في عهد النبي ﷺ في أن يقوم المحتسب بالرقابة في الأسواق. وتولاها سعيد بن العاص بعد فتح مكة، كما ولي عمر بن الخطاب على سوق المدينة.

ونعتقد أن أعمال المحتسب تقابل في الدولة الحديثة عدة وزارات ومصالح متعددة، منها ما تقوم به شرطة البلدية في المدن، وما تقوم به وزارة التموين والتجارة والصناعة والاقتصاد، وأيضًا ما تقوم به وزارة الصحة من التفتيش على الأغذية، ومنها ما تقوم به شرطة الآداب، حماية للأخلاق وكل ذلك في نطاق قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢٠- الشرطة :

وكان صاحب الشرطة هو قيس بن سعد بن عبادة ثم سعيد بن أبي وقاص الذي عُرف بصاحب العسس، وكان يقوم بحراسة النبي ﷺ حتى نزلت الآية الكريمة ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فاستغنى النبي عن الحراسة.

٢١- التعليم :

كان التعليم من المهام الأساسية للرسول ﷺ ، فقد قال عليه السلام: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، «اطلب العلم من المهد إلى اللحد».

قال السهيلي: «كان من الأسارى يوم بدر، من يكتب ولا يملك الجزية، فيقبل منه النبي أن يُعلِّم عشرة غلمان الكتابة ثم يخلي سبيله، ويومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار».

وكان يقوم بتعليم القرآن كل من عبادة بن الصامت ومصعب بن عمير وأبان ابن سعيد بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح. وكان يقوم بتعليم الكتابة كل من عبد الله ابن سعيد بن العاص وزيد بن ثابت.

وكانت أول معلمة في الإسلام هي الشفاء أم سليمان بن أبي حتمه، قال لها الرسول ﷺ : «علمي حفصة رقية النحلة والكتابة» وذلك عندما دخل عليه السلام

والشفاء عند حفصة قال: «ألا تعلمين هذه رقية النحلة كما علمتها الكتابة».

وهذا يؤكد أهمية التعليم في عصر النبي ﷺ ، كما يدل على أن تعليم النساء الكتابة والقراءة غير مكروه كما أوضحه حديث الرسول السابق.

٢٢- الطب والتمريض والعلم :

عرف العرب الطب في الجاهلية، وأشهر أطبائهم ابن خديم والحارث بن كلدة. وكان الحارث بن كلدة قد برع في تشخيص الداء ووصف الدواء وسُمي بطبيب العرب، وقد وُلد قبل الإسلام وامتد عمره حتى توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان النبي ﷺ يشير على من به علة أن يأتي الحارث فيتطبب عنده.

وكان النبي ﷺ يسمح باستخدام النساء في الحروب والغزوات ليتولين أمر الجرحى، وأشهر ممرضة أيام عصر النبوة هي رفيدة وأختها كعيبة بنت سعيد الأسلمية... وبعدهما ليلى الغفارية وأم أيمن وأم عمارة الأنصارية.

وهذا يؤكد لنا أنه قد وجد الطب والتمريض في العصر النبوي. وكان النبي ﷺ يرشد الناس بأن يأخذوا ممن تميز من أصحابه بفضيلته.

ويقول عبد الحي الكتاني: إن عليّ بن أبي طالب هو أول من وضع علم النحو، قبل أبي الأسود الدؤلي وأن الصحابة تكلموا في علم الكلام قبل الإمام الأشعري.

هذه هي الملامح الأساسية في الهيكل العام لدولة المدينة بالإضافة إلى وظائف أخرى نذكر منها المؤذن وضارب الرقابة ومضحك النبي ويدعى عبد الله الملقب بالخمار.. وكان أبو عبيدة بن الجراح هو أمين الأمة؛ كقول النبي ﷺ : «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة هو أبو عبيدة بن الجراح».

ولقد ترتب على قيام الحكومة النبوية في المدينة آثار بعيدة المدى في الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب. فجاء الإسلام وقضى على الوثنية، ودعى إلى عبادة إله واحد هو رب العالمين، وأصبحت بلاد العرب من الناحية السياسية مهيأة لقبول الإسلام بعد أن طحنتها الحروب، وخضوعها لحكم الأجانب، ووجدت الأمان والاستقرار في دعوة محمد ﷺ الذي وضع منذ هجرته إلى المدينة النواة الأولى للحكومة الإسلامية في نظام كامل يشمل الدين والدولة معًا في شكل جديد يمثله النظام الاجتماعي والنظام الاقتصادي والنظام الحربي في الإسلام.

وسنعرض بشيء من التفصيل لكل من هذه الأنظمة:

أولاً : النظام الاجتماعي في دولة المدينة :

وكانت لتعاليم الإسلام أثرها في البناء الاجتماعي للمسلمين حيث نقل الفرد من السيف إلى المسالمة، ومن القوة إلى القانون، ومن الثأر إلى القصاص، ومن الإباحية إلى الطهر، ومن النهب إلى الأمانة، ومن الحياة القبلية إلى المسئولية الشخصية، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن امتهان المرأة إلى إجلالها، ومن نظام الطبقات إلى المساواة.

والرسول ﷺ منذ اللحظة الأولى من رسالته، وجه كل عنايته إلى إيجاد النظام الاجتماعي السليم- مسترشدًا بهدي السماء- الذي يعشق المثل العليا، عاملاً على تحقيقها في إطار من التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع الإسلامي حتى ينعم الجميع بالأمن والرفاهية.

وكانت أهم الآثار الاجتماعية التي ترتبت على قيام الحكومة النبوية في المدينة هي تحطيم الفوارق الطبيعية، والتدرج في محاربة الرق، وإعلاء شأن المرأة، وإلغاء المسكرات.

وقد طفق الرسول ﷺ بأقواله وأعماله، يقضي على التمييز العنصري ويهدم قواعد الكبرياء بين الناس بإرساء قاعدة جوهرية تكون معيار المفاضلة بين الإنسان وأخيه الإنسان متمثلة في التقوى. ومن ثم فليس لأحد أن يتميز على أحد بعرقه أو جنسه أو لونه، فالجميع سواسية كأسنان المشط، وجهر بذلك الرسول ﷺ قائلاً: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى».

من هذه القاعدة الأساسية المبنية على المساواة بين الناس أجمعين ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى، انطلق الرسول ﷺ في تحريم تجارة الرقيق، وعمل على تحريرهم مقرًا لكل إنسان- بوصفه إنسانًا- حق الحرية، محرمًا استرقاق الحر دون سبب مشروع غالبًا ما يكون بعد الأسر في الحروب... وقد هيأت هذه الخطوات المتدرجة الضمير البشري لإلغاء الرق.

وانسجامًا من التعاليم الإسلامية التي تكرم الإنسان، أقر الإسلام للمرأة بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية وجعلها مساوية للرجل في المجال الديني والإنساني والاجتماعي، وبلغ من تكريمها ما لم يبلغه تشريع اجتماعي في القديم ولا في الحديث... وسيتضح ذلك عند تناولنا لدور الأسرة في حياة المجتمع الإسلامي.

واتسم التنظيم الاجتماعي في الإسلام بأسلوب خاص، ونسق معين هو أسلوب التدرج في كل إصلاح أتمه الرسول ﷺ أو أمره الله تعالى بإتمامه، وخير مثال لذلك هو طريقة منع المسكرات التي كان تناولها عادة متأصلة مستحكمة من عادات الجاهلية.

وعالج الإسلام مسألة إدمان المسكرات أولاً بالحكمة والموعظة الحسنة، فآثر أول الأمر أن يقر ببعض منافع الخمر إلى جانب مضارها، موجهًا الأنظار إلى غلبة

الإثم على النفع، ويقول تعالى في ذلك: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]- ثم تلي ذلك الخطوة الثانية بأن منع الإسلام المسلمين من الصلاة وهم سكارى في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]. وبعد أن ضيّق الإسلام على المسلمين فرص السكر، نجده يحرم هذه الآفة تحريمًا حاسمًا في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

بينما ذكر الله تعالى المؤمنين في قوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

مما عرضناه يمكن أن نستخلص أن الإرادة مناط المسئولية للفرد والمجتمع، فلابد في الإسلام من ضبط الإرادة لتستقل في تحديد مسئولياتها الاجتماعية، فعنها ينشأ الضمير الواعي الذي يرسم السبل الواضحة لمن أراد لنفسه الهدى كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٩]، وكما قال الرسول ﷺ : «لا تكونوا أمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا».

ولهذا نجد عبادات الإسلام المفروضة على المؤمن بمعانيها الاجتماعية التي تعوِّد النفوس الخير وتوطنها على أحسن الأعمال والأخلاق هي التي تعين الإرادة على الضبط، وذلك ففي الصلاة ضبط للوقت يصرف الإرادة عن الاشتغال باللهو والعبث. وفي الصيام تحكم شهوات الطعام وغرائز الجنس. وفي الزكاة ضبط لشهوة المال وتذكير بحق الفقير على المجتمع. وفي الحج تحمل لمشاق السفر ورغبة في التطهير من الدنس والآثام. فلا غرو إذا كانت الإرادة هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان ومناط المسئولية للفرد والمجتمع في نظر الإسلام، أي إنها إرادة، عاقلة حكيمة لها رؤية وقدرة على التمييز وهي عكس الإرادة الغريزية التي لا تميز.

وهكذا تدرج الإسلام في النظام الاجتماعي والإصلاح الأخلاقي والتربوي بما يكفل لمجتمعه الاستقرار، وحصنه من عوامل الفساد التي تعتري أي مجتمع آخر.

بعد هذا التحليل للنظام الاجتماعي في دولة المدينة في عصر النبوة، ينبغي لنا أن نعطي فكرة عامة سريعة عن حياة الأسرة المسلمة، ونظام الزواج والطلاق

والميراث موضحين من خلالها أهمية ومكانة المرأة المسلمة في المجتمع، حتى تبدو الصورة كاملة للحياة الاجتماعية في الإسلام.

١ – الأسـرة :

إن أي بناء اجتماعي سليم لا يمكن أن يُقام ويُشيّد بغير الحياة العائلية الثابتة. وكما نعلم أن الأسرة هي النواة الطبيعية للمجتمع فكان الاهتمام الذي حظت به الأسرة المسلمة اهتمامًا كبيرًا في المجتمع الإسلامي. ولذا عني الإسلام بتربية الفرد والمرأة تربية تجعل كل منهما يحافظ على ترابط الأسرة بالمحبة والتعاون والمودة عند زواجهما. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وقد حرص الإسلام على تكوين الأسرة بأن رغّب الإنسان في الزواج حيث يحقق الهدف باستمرار الحياة وحب البقاء وذلك عن طريق إنجاب الأولاد.

وقال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦].. وقال تعالى أيضًا: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقال النبي ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، وصدقة جارية، وولد صالح يدعو له».

وبالأسرة يبدأ الرجل يتحمل مسئولياته، ويقع عليه العبء الأكبر، ومن خلال الأسرة يتدرب جميع أفرادها على تحمل المسئوليات والتبعات تجاه نفسه وبيته ثم مجتمعه ووطنه حتى يشعر بقيمة الحياة والعمل على عدم إهدارها، بل يسعى لتحقيق الهدف الأسمى من وجوده في هذه الدنيا بإرضاء الله بالعمل الصالح الذي يفيده، ويفيد مجتمعه وبالتالي وطنه الأكبر.

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: «إن كلمة الأسرة في الإسلام أوسع مدى من الأسرة في القوانين الأخرى، لأن الأسرة المسلمة تشمل الزوجين والأولاد الذين هم ثمرة الزواج، وفروعهم، كما تشمل الأصول من الآباء والأمهات وفروعهم، بمعنى أن الأسرة تشمل جميع الأقارب سواء منهم الأدنون وغير الأدنين، كما أوجدت الأسرة حيثما سارت حقوقًا وأثبتت واجبات، وتتفاوت مراتب هذه الحقوق بمقدار قربها من الشخص وبعدها عنه».

وجاءت الآية الكريمة خير تعبير عن حياة الفرد والأسرة في الإسلام في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ويحرص الإسلام على معاملة الوالدين معاملة حسنة، فيربي الأبناء على طاعتهما، فتصبح الأسرة سعيدة فيها الاستقرار النفسي والاجتماعي فيقول تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].. ويقول تعالى أيضًا: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وأكد الإسلام على مصاحبة الوالدين في الدنيا معروفًا وإطاعتهما دائمًا ما عدا الشرك بالله؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

وإذا تكلم الإسلام عن حقوق الوالدين في الأسرة، نجده يفرض عليهما واجبات تجاه أولادهم. فعندما يُولد الطفل تثبت له ثلاثة ولايات، أولها ولاية التربية الأولى وهي الفترة التي لا يستطيع أن يقوم فيها الطفل بسد حاجاته والتي تعرف بمرحلة الحضانة، أما الثانية فهي الولاية على النفس التي تقرر الحفظ والصيانة والتعليم، أما الأخيرة فهي الولاية على المال وتعني تدبير شئون مال الطفل إذا كان له مال.

من هذا المفهوم الإسلامي للأسرة نجدها أسرة متحابة متعاونة حيث يتربى فيها الإنسان تربية إسلامية أصولها مستمدة من القرآن والسنة مما يجعلها نواة صالحة لمجتمع إسلامي سليم.

٢ - الزواج :

الزواج في الأسرة عقد يرتبط به الرجل بزوجته برباط مقدس في حب ومودة وحنان؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

ومتى تم الزواج أمسى ميثاقًا قويًا، ليس من السهل الفكاك منه كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

كما يقضي الإسلام بضرورة الاختيار في الزواج، وإنه حق يشترك فيه الفتى والفتاة، وأهل الفتاة، ورضاء هؤلاء الثلاثة ضروري لإتمام الزواج، ذلك هو التفكير الإسلامي في الاختيار، وإذا استبد أي جانب من هذه الجوانب الثلاثة أوقفه الإسلام ليأخذ كل حقه، وقد قال الرسول ﷺ: «لا تزوج الأيم حتى تُستأمر، ولا البكر حتى تُستأذن»، وقال: «الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها وإذنها في صمتها».

ومن ثم كان الزواج هو أساس العلاقة السليمة بين الرجل والمرأة في الإسلام، وكل العلاقات ما عدا الزواج حرام تستوجب أشد العقاب كما في قوله

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

ولذلك حث النبي ﷺ على الزواج فيقول: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وحقًا أباح الإسلام تعدد الزوجات ولكن بوضع شرطين صريحين أحدهما: العدل والآخر القدرة على الإنفاق كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النساء: ٣].

وتعدد الزوجات في حالات عقم الزوجة أو إصابتها بمرض مزمن ومعد يُستحال معه المعاشرة الزوجية، أو يكون الزوج كثير الترحال وليس في وسعه أن يصحب زوجته وأولاده في سفره، فيتزوج زوجة شرعية بدلاً من أن يخادن خليلة أو بغيا، ليعترف له المجتمع بأولاده الشرعيين بدلاً من أن يكونوا أولاد سفاح.

وحرصًا من الإسلام على استمرار الحياة الزوجية واستقرار الأسرة نفسيًا واجتماعيًا، فلم يسمح بشبح الطلاق يخيم على الأسرة وأن يفصم عُرى الزوجية بكلمة واحدة؛ بل أفسح الإسلام للمطلق المجال لمراجعة نفسه وتصحيح موقفه كقوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال الرسول ﷺ : «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق».. وقال عليه السلام أيضًا: «ما حلف بالطلاق مؤمن، وما استُحلف به إلا منافق».. وقال أيضًا: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات».

بهذا المفهوم الإسلامي للزواج قد صان الأسرة وأفرادها من التشرد وأعطى كل فرد فيها حقه وعرفه ما عليه من واجبات ليكون مواطنًا صالحًا في المجتمع الإسلامي.

٣ - الميراث :

اتجه الإسلام إلى وضع قواعد ثابتة لنظام التوريث لأفراد الأسرة جميعًا وأقاربهم بعد أن كان لا يورث إلا الرجل فقط دون المرأة في العصر الجاهلي، ويقول عمر بن الخطاب: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم».

نظر الإسلام إلى التركات بأن جعل التوريث إجباريًا بالنسبة للمورث، وليس للوارث أن يرفض ميراثه، لأنه من المقررات الشرعية ألا يدخل شيء في ملك الإنسان جبرًا عنه غير الميراث. ويتم توزيع ثلثي التركة أن يوص بالثلث أو توزيعها كلها إن لم يوص. وجعل الملكية في نطاق أسرة المورث، بل توزع في دائرتها وذلك حماية من الضياع والتشرد.

وتوزيع الميراث ليس في درجة واحدة من الاستحقاق؛ بل بعضها أولى من البعض في الترتيب والمقدار تبعًا للتوزيع العادل الذي رسمه القرآن الكريم وبيّنه في القواعد الثلاث الآتية :

١ – يعطى الميراث للأقرب إلى المتوفى الذي يعتبر امتدادًا في الوجود لشخص المتوفى من غير تفرقة بين صغير وكبير، وذلك كان أكثر الأسرة حظًا في الميراث الأولاد ومن ينتسبون إليه، لا ينفرد به فريق منهم دون فريق بغير مقدار القُـرب.

٢ – يعطى الميراث للأكثر احتياجًا، فكلما كانت الحاجة أشد كان العطاء أكثر؛ ولعل ذلك هو السر في أن نصيب الأولاد كان أكثر من نصيب الأبوين. وأيضًا قاعدة الأكثر احتياجًا هي التي جعلت للذكر ضعف الأنثى، لأن التكليفات المالية التي تُطالب بها المرأة دون التكليفات المالية التي يُطالب بها الرجل.

٣ – توزيع الميراث يتجه إلى التوزيع دون التجميع، فيتم توزيعه بين عدد من الورثة بمقدار قربها وقوتها منعًا لتجميع الميراث في جانب واحد.

ويتضح لنا من توزيع الميراث على ذلك النحو بأنه قسمة الله تعالى العادلة وتوزيعه الحكيم وقد بيّنه تعالى لكيلاً يضل الناس، وإن ضلوا فعن بيّنة وسلطان من الحق فتعظم التبعة على مخالف التعاليم الإسلامية في الميراث، وقد جاءت النصوص القرآنية مؤيدة لذلك وهي :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا

خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ [النساء: ٧-١١].

وقال تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٧٦].

حقوق المرأة في الإسلام

كانت المرأة قبل الإسلام منحطة الكرامة، فهي في نظر البعض ليست بإنسان، وفي نظر الآخرين ليست في طهر الحيوان !! وهانت على قومها بنتًا وأختًا وزوجةً وأمًّا..

وجاء الإسلام ليُغيِّر الصورة بالتمام، فرفعها من ضعة، وأمنها من خوف، وأحياها من موت، بل وأوجدها من عدم وأعطاها فوق ما كانت تحلم أو تتصور، ورد إليها كل حق ضاع، بعد أن كانت من سقط المتاع.

لقد حسم نزاع العالم ولجاجة بشأن حقيقتها، بما قرره في قضيتها، بكل الحسم والجزم، إذ يقرر أنها والرجل من أصل واحد فلا تميز ولا تحيز، ولا تفاخر ولا تناحر: ﴿ يَا يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [النساء: ١].

وبذا قرر الخالق ﷻ أن المرأة والرجل من أصل واحد في الخلقة، وبذا تغيّرت النظرة كلية إليها، وأحست هي المساواة بالرجل بما أعطاها الإسلام الذي أزال عنها كل عار ورفع عنها كل غبار ومنحها من حقوق، ومنع عنها من عقوق.

لقد قبح القرآن نظرة الجاهلية إلى المرأة، وحرم كل تقليد فاسد، وضيّق على الرق كل رافد، ورفع المرأة مكانا عليًّا، وكرمها وعظمها ولم تكن شيئًا، ونورد

فيما يلي بعض ما أعطى الإسلام للمرأة على سبيل المثال لا الحصر... ليقف عند حدودهم كل الحاقدين على الإسلام، والمارقين عنه، والجاهلين به، والعادين عليه، والمخدوعين عن نوره ببريق كاذب.. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

١ - وأد البنات :

وقد كانت تلك الجريمة الإنسانية النكراء سمة المجتمع الجاهلي كله خشية عار أو إملاق، وجاء الإسلام فحرمها وجرمها، وأوعد فاعليها بسوء المصير، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، فكتب بذلك للأنثى الحياة.. بل أعز حياة.

٢ - الزواج من امرأة الأب :

لقد كان الابن في الجاهلية مع ما يرثه عن أبيه من المال والمتاع كان يرث عنه زوجته التي هي في مقام أمه، وكان له حق التصرف فيها كمتاع، كما كان له أن يعضلها عن الزواج، وله في الوقت ذاته أن يتزوجها هو، وجاء الإسلام فحرَّم ذلك الزواج وسماه زواج المقت، حيث قال القرآن: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٢].

٣ – الاتجار بأعراض الجواري :

ووقف بعض العرب من جواريهم وقفة مخزية، وقفوها ضد طبيعة الأشياء. فالأنثى التي هي مظنة الانزلاق والإغراء وإيقاع الرجال في حبائل جريمة الزنا تمتنع وتتحصن في وقت يكرهها وليها الرجل- الذي هو بطبيعته مصدر الغيرة والحفاظ- على البغاء طمعًا في مال فهو يتجر في عرضها لمتاع دنيا وينزل القرآن ممجدًا موقف هؤلاء الجواري منددًا بموقف أوليائهن هؤلاء في وقت واحد حيث يقول: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النور: ٣٣]. وليس النهي عن الإكراه مقصورًا على إرادة التحصين من الأنثى كما هو ظاهر أسلوب الشرط وإنما المقصود من الأسلوب إذ جاء على هذا النحو تسجيل ما كان عليه القوم، فتيات تمتنعن ورجال يكرهونهن لقاء مال أو عرض زائل.

٤ – منع المرأة من الميراث :

لقد ظلت عادة منع المرأة من الميراث حتى جاء الإسلام؛ بل عرفنا قبلاً أنها كانت تورث عند بعض الأمم كما يورث المتاع والماشية، وجاء الإسلام وذهبت امرأة سعد بن الربيع إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقالت: يا رسول الله: هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما شهيدًا معك في يوم أُحُد فأخذ عمهما ماله و لم يدع لهما شيئًا، وهما لا تتزوجان إلا ولهما مال. فقال عليه الصلاة والسلام: «يقضي الله في ذلك». فنزلت آية الميراث ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١]، فأرسل رسول الله إلى عمهما فقال: أعط

ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك «فكان هذا أول ميراث في الإسلام. ومع أن توريث البنت كان ثورة عارمة ضد النفوس البشرية التي ورثت منع البنت من الميراث فإن الإسلام قد قرره في قوة فأنصف بذلك المرأة إنصافًا لم يكن معروفًا ولا مألوفًا.

وإذا كان مثيرو الغبار المرضي بمعاداة الإسلام يلقون بسؤالهم الخبيث ولماذا كان نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر و لم تسو به؟ فأهون من سؤالهم الجواب أن الأنثى تأخذ نصف الرجل وقد أعفاها الإسلام من كل الأعباء بينما ألقاها كلها عليه، فهي إن أخذت خمسين فإنها تدخرها لأنها ليست ملزمة بالإنفاق قط، وهو إن أخذ مائة فإنه ينفقها عليها وعلى أولادها، والأنثى منذ الطفولة في كنف رجل ينفق عليها هو الأب، وبزواجها تدخل في كنف رجل ينفق عليها هو الزوج.

٥ - الرق :

جاء الإسلام ونظام الرق دعامة من دعائم الحياة الاقتصادية، وتعتمد عليه في معظم دول العالم جميع فروع الإنتاج، إذ كان بمثابة بخار الآلة الاقتصادية في تلك العصور، والإسلام الذي كان من بين أسسه التدرج في التشريع لم يغفل حين نظر باشمئزاز إلى وجود ظاهرة الرق بين البشر ما يترتب على منعه طفرة واحدة وإنما عالجه علاج حكيم خبير.

لقد أقره الإسلام بادئ ذي بدء لكن في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج دون إحداث أدنى هزة في المجتمع الإنساني؛ بل ودون أن يشعر أحد بتغيير في مجرى الحياة، وسلك في سبيل ذلك مسلكين:

أحدهما : تضييق روافد الرق التي كانت تمد الرق وتغذيه، وقد كانت هذه الروافد كثيرة أهمها ثمانية فألغاها جميعها ما عدا رافدين اثنين فقط هما:

أ – رق الوراثة، ب – رق الحرب.

ثانيهما: توسيع المنافذ التي تؤدي إلى العتق والتحرر بالكفارات وغيرها. وبذا قضى على الرق في أقصر وقت وعاد الناس جميعهم أحرارًا كيوم ولدتهم أمهاتهم.

وإذا علمنا أن أغلب الرقيق كان من الإناث حينها فإننا ندرك قدر ما قدم الإسلام لها في مجال التحرر الإنساني.

ويكفي أن نعلم من اهتمام القرآن بالمرأة أنه عرض لشئونها بإسهاب في أكثر من عشر سور فيه، منها سورة البقرة والمائدة والنور والأحزاب والمجادلة والممتحنة والتحريم، وعرض لها في سورتين عُرفت إحداهما بسوءة النساء الكبرى وهي سورة النساء، وعُرفت الثانية بسورة النساء الصغرى وهي سورة الطلاق.

لقد جعل الإسلام المرأة شريكة الرجل، وجعل كليهما لباس الآخر ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وجعلها للرجل سكنًا، وفي سبيل نظرة الإسلام لوحدة الإنسان سوى بين الرجل والمرأة في الجوانب الروحية والمادية، كلاهما له روح.. وكلاهما يعبد الله.. كلاهما يملك من الحياة ما شاء الله له أن يمتلك.

ولقد أشار إلى الوحدة الإنسانية نبي الإنسانية في خطبة الوداع حينما قرر فيها وحدة الأصل الإنساني حيث قال: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب».

كما سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وضمن لكل منهما الحرية الطبيعية بغض النظر عن جنسه، وساوى بينهما في التكاليف الدينية والواجبات الدنيوية؛ فالجميع سواء في التكليف والمسئولية والأوامر والنواهي، وفي الحدود والتعزير، في الحساب والعقاب، وفي الوعد والوعيد، وفي التوبة والأعذار، وغير ذلك مما ورد تفصيله في القرآن والسنة، ففي القرآن: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ ﴾ [النور: ٢]، ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٣٨].

ومسئولية المرأة الدينية لا تقل عن مسئولية أخيها الرجل، وكل مسئول عن عمله هو بقطع النظر عن عمل زوجه ووضعه، ثم إنها مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بنفسها وبيتها وعبادتها ومسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالإحسان في العمل والدعوة إلى الفضيلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس ذلك قاصرًا أمره على الرجل فقط؛ فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

كما ساوى الإسلام بين المرأة والرجل أمام القانون وفي الوظائف العامة والعطاء والضرائب والجهاد في حالة التعبئة العامة أو الزحف العام.

وساوى كذلك بينهما في القصاص فتُقتل المرأة بالرجل والرجل بالمرأة ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ووصف الإيمان مشترك بين الذكر والأنثى باتفاق علماء التشريع، وعليه يشمل الخطاب الذكر والأنثى.

٦ – **قوامة الرجل على المرأة :**

لقد قرر القرآن المماثلة بين الزوجين في الحقوق والواجبات كقاعدة، وفيها قرر على الرجل مسئولية الهيمنة والقوامة وجعله المكلف بحق المرأة فيما يصل بها إلى الخير ويدفع بها عن الشر فقال: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهذه الدرجة ليست درجة السلطان أو القهر، وإنما هي درجة الرياضة البيتية الناشئة عن عهد الزوجية وضرورة الاجتماع وهي درجة القوامة التي تزيد في مسئوليته عن مسئوليتها فهي ترجع في شأنها وشأن أبنائها إليه.

وقد ذكر الله العلة في القوامة له إذ قال: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذا ليس تفضيل جنس على جنس، وإنما هو تفضيل بحكم الخلقة والطبيعة والاستعداد وكلٌ ميسر لما خُلق له، وحكم القرآن بتفضيل الرجل على المرأة هو الحكم المبين من تاريخ بني آدم منذ كانوا قبل نشوء الحضارات والشرائع العامة وبعد نشوئها؛ فطبيعة الرجل وفطرته في ممارسة الحياة وعقله وقوته وحمايته تختلف عن طبيعة الأنثى التي فُطرت على الضعف حملاً وإرضاعًا وحضانة وحيضًا ونفاسًا

ورقة وانفعالاً وتنزلاً إلى مدارج الطفولة التي تعالجها.

والرجل حامي المرأة زوجًا بعد أن كان حاميها أبًا وأخًا، ثم هو أبو الأولاد وإليه ينتسبون وهو المسئول عن نفقتهم جميعًا، وهو صاحب المسكن، وعليه إعداده فكان طبيعيًا أن تكون له القوامة.

وبالاختصار فإن ذلك ليس نظرية تُناقش ولكنه واقع مقرر.

وإذا كان الإسلام قد قرر قيام البيت على أساس من العدل والمساواة والشورى بين الزوجين والتعاطف والحب والمودة والرحمة، كما كفل للزوجة الحرية الكاملة في مالها وفي رأيها وكمال شخصيتها وفي حرية دينها، ولم يجعل للزوج حق التدخل في ذلك كله، فلا تمتد هيمنته وقوامته إلى شيء من ذلك، فماذا يخيف المتطيرين والجاهلين بأصول الدين من قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣٤]، وإني لأستأذن هؤلاء فأسألهم: ألم تفهموا شيئًا من قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

إن الرجل قد انعقدت له بحكم الفطرة والواقع رئاسة البيت بحقه، كما انعقدت له رياسة الحرب والجيش بحقه، وانعقدت له زعامة الإصلاح الاجتماعي والانقلابات التاريخية ورياسة الدولة العليا بحقه، وذلك كله هو الثمرة الطبيعية لما تجمع فيه من مواريث الخبرة وسعة التجارب ومواهب الكفاح والقوة، والتمرس بشئون المجتمع على مدى القرون والأجيال.

* * *

القضاء في الإســلام

القضاء في عهد رسول الله ﷺ :

من هذا العهد النبوي نشهد مولد القضاء الإسلامي، ورفع قواعده، وإقامة أركانه: من شرع حكيم يحكم به، وتصور سليم للكون والإنسان والحياة يدعم هذا القضاء، وتحديد للمسئولية، وجعلها فردية، وإقامة لرقابة الله في قلوب الناس حاكمين ومحكومين، مدعين أو مدعى عليهم، إلى غير ذلك مما يحقق العدل والنصفة والإخاء بين العبـاد.

مبعث الرسول ﷺ :

لما بُعث رسول الله ﷺ في مكة، قام يدعو الناس إلى دين الله تعالى والإيمان به سبحانه، وتوحيده بالعبادة والطاعة، ونبذ الشرك والأصنام، وتنزيه العقل عن لوثات الوثنية والضلالات. ثم أذن له بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها، وكثر الداخلون في دين الله، وانتشرت دعوة الإسلام، وتزايد نموها وقبـولها.

رسول الله ﷺ قاضيًا :

وكما كان رسول الله ﷺ مأمورًا بالدعوة إلى الله وتبليغ الأحكام، كان مأمورًا أيضًا بالحكم والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من اختلاف وتنازع. وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ذلك، منها قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله

سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فقام رسول الله ﷺ بأمر ربه، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويبين لهم ما يحل وما يحرم، ويفصل في خصوماتهم إلى جانب قيامه بتبليغ الشرائع والأحكام، فكان ﷺ الإمام والقاضي والمفتي والرسول المُبلغ عن الله تعالى، ورفع إليه كثير من الأمور المتنازع فيها، فقضى فيها بما أنزل الله إليه في كتابه، وبما هداه إليه من الحكمة، وبما وهبه من رأي ونظر سديد حكيم، كما أفتى فيما استفتي فيه.

والحكمة في تولي النبي ﷺ القضاء بنفسه ظاهرة، وهي أن العدل أساس العمران، ولا ارتقاء ولا رجاء لتأليف أمة وتعاضدها وتكوين وحدتها إلا بالعدل والأمن على الحقوق، لهذا كان عليه الصلاة والسلام يتولى القضاء بنفسه تأليفًا لهم، وتدريبًا على إقامة العدل، وتنبيهًا لهم أن يكونوا قوامين بالقسط، وأن يلي قضاءهم من يكون أفضلهم وأنزههم وأعلمهم.

نهج رسول الله ﷺ في القضاء :

ونجمل فيما يلي أهم ما عمل به رسول الله ﷺ ، أو أقره من طرق الإثبات في القضاء، وهي: الإقرار، البينة، اليمين، القسامة، القيافة، القرينة، القرعة، ونحوها، وكان الأول: البينة على المدعي واليمين على من أنكر.

وكان يترافع إليه المتخاصمان فيسمع كلام كل منهما، ثم يقضي على نحو ما يسمع، اعتمادًا على ظاهر البينة، ودلائل الإثبات أو النفي، فكان يحكم بالظاهر وكان قضاؤه ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه شيء اجتهادًا منه، ويشهد لذلك قوله

تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥]. كما يشهد له من السنة المطهرة حديث أم سلمة– رضي الله عنها– الذي تقدم بتمامه، وفيه قوله ﷺ : «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بر، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل عليَّ فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادقًا، فأقضي له، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا ظلمًا بقوله فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

أقضية النبي ﷺ :

وخلال السنوات العشر الكريمة التي عاشها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، صدرت عنه أقضية غير قليلة في الوقائع التي ترافع الناس فيها إليه، وقد أفردت تلك الأقضية النبوية بالتأليف من كثير من العلماء جزاهم الله خيرًا. ونكتفي بذكر نموذج واحد منها لضيق المقام.

نموذج من أقضية الرسول ﷺ :

روى مسلم في «صحيحه» في كتاب الحدود ١١: ١٨٧ عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها: أن قريشًا أهمهم شأن المخزومية، التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم بها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله، فأُتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي– وقت اجتماع الناس بعد العصر– قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطعت يدها.

قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ .

وإن ما تضمنه هذا الحديث الشريف من القضاء النبوي الكريم، ومن بيان المبدأ الإسلامي العادل السامي العظيم، وهو المساواة بين الناس ضعيفهم وقويهم، وشريفهم ومشروفهم: لتعجز البشرية أن تأتي في قضائها بمثله في غير ظل الإسلام، وليس هو حادثة فريدة في بابها؛ بل إن له أمثالاً وأمثالاً في أقضية الرسول الكريم، وأقضية أصحابه، وأقضية قضاة العدل من علماء الإسلام.

أشهر القضاة في عهد الرسول ﷺ :

وقد استقضى رسول الله ﷺ في حياته الشريفة طائفة من أصحابه سادة هذه الأمة وعلمائها، فقاموا بالقضاء في حضرته، وقاموا به بعيدين عنه حيث وجههم إليه من بلدان الإسلام الجديد.

ومن الذين قضوا بحضرته: عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني، وحذيفة بن اليمان، وعمر بن الخطاب، ومعقل بن يسار ﷺ ، ويضيق المقام عن ذكر أخبارهم الدالة على ذلك.

وقد كان هذا الاستقضاء من رسول الله ﷺ لهم في حضرته الشريفة بمنزلة التمرين العملي على النهوض بأداء القضاء على وجهه، وليشهدهم عليه الصلاة والسلام وهم يفصلون في الخصومات بين الناس- بعد أن شهدوه ﷺ يفصل فيها

مرات ومرات– فيسددهم إن أخطأوا، ويقرهم إذا أصابوا، فكان ذلك تمرينًا واختبارًا لهم في آن واحد.

ومن الذين قضوا بعيدين عن حضرته الشريفة عليه الصلاة والسلام: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وعتاب بن أسيد، وعمرو بن حزم الأنصاري، وأبو موسى الأشعري ﷺ، ولا يتسع المجال لذكر نماذج من أقضيتهم.

خصائص القضاء في الإسلام ومزاياه :

إن القضاء في الإسلام يقوم على أسس قويمة متينة، ويتميز بخصائص فريدة بارزة، ونجمل عماد تلك الخصائص والمزايا فيما يلي:

١ – الإيمان بالله تعالى :

الذي يجعل من القاضي رقيبًا على نفسه، في حكمه على القريب والبعيد، والعدو والصديق، فينتفي من حكمه الجور والتحيز والمداهنة، ويسلم له العدل والمساواة والنصفة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وهكذا يتضح لنا كيف أن الإيمان بالله، واستشعار المسئولية بين يديه ينبعث عنه العدل والإنصاف. وهذا الأساس– الإيمان بالله– يفتقده كل قانون وضعي، مهما تحرى به العدل والإحكام. ومن خلال هذه الخاصة أيضًا يتبين لنا متانة القضاء في الإسلام، وأنه مقام منيع محصن من تدخل ذوي النفوذ والجاه والقوة فيه، لأنه ينبعث من عقيدة الإيمان لا من تولية السلطان.

٢ - الله سبحانه هو الحاكم وحده :

قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فلا حاكمية إلا لله وحده، والرسول ﷺ مبين لحكم الله، حاكم بقول الله وشرعه، كذلك الحكام بعد رسول الله ﷺ إنما هم فيما يقضون به نواب عن الله، ومنفذون لأحكامه لا غير. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

٣ - الشريعة التي يحتكم إليها هذا القضاء :

شريعة عادلة كاملة محكمة، كيف لا وهي شريعة خالق الخلق وأحكم الحاكمين، وقد أكملها للناس وأنزلها خاتمة الشرائع السماوية وأتم بها نعمته وفضله على جميع العباد، وجمع لهم فيها خير الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وقد

كفلت هذه الشريعة بكمالها وتمامها للناس كل حاجاتهم، وأغنتهم عن كل تشريع آخر، فأي حكم بخلافها هو خروج عن العدل، ووقوع في الحيف الذي لا تسلم منه الأحكام والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، فيشملها الضعف والهوى والقصور الإنساني، وطبيعي أن يتأتى عن ذلك الظلم والاضطراب والفساد.

أين شرع الناس من شرع الذي   خلق الدنيا وسوى العالمين ؟

٤ – العـدل :

لقد تميز قضاء الإسلام فيما تميز به عن غيره بإقامته العدل بين الناس، دون تفريق بين أبيض وأسود، وملك وسوقة، وصغير وكبير، وغني وفقير، وشريف وحقير، فالناس في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب.

وقد فرض الإسلام العدل في الحكم مع العدو والصديق، والبعيد والقريب، وآيات القرآن الكريم الناطقة بذلك كثيرة. قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

٥ – المســاواة :

ونريد بها إلغاء ما تعارف عليه الناس من التمييز بين الشريف والوضيع في الحكم، بسبب الشرف والضعة، دون نظر إلى حق المحق وباطل المبطل منهما.

فالإسلام أقام التسوية بين أصناف الناس جميعًا أمام الحق والقضاء، مهما تباينت منازلهم وألوانهم وأجناسهم وبلدانهم وألسنتهم وأديانهم.

وعلى هذا الأساس قام القضاء في الإسلام، وبه تميز، فكان غُرة في جبين القضاء الإنساني أبد الدهر.

٦ – الشمول لأنواع الحقوق وشؤون الحياة :

القضاء في الإسلام قائم على شريعة الإسلام بطبيعة الحال، ونحن نعلم أن شريعة الإسلام كاملة، ومن كمالها تناولها شؤون الحياة كافة، قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال أيضًا: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

والقضاء الإسلامي يتناول- فيما يتناوله- شؤون الأموال والأعراض والدماء وسائر الحقوق، وهو يشمل نظام البيوت، ونظام الحكم، والتعامل بالأموال، والعقود مهما تنوعت، وشؤون الحرب والسلم.. والتحكيم وغيرها، فكل ما يتنازع الناس فيه من شؤون الدنيا داخل في قضاء الإسلام.

٧ – وحدة القضاء :

ومما تقدم يتبيّن لنا مزية هامة لها أثرها الخطير في النفوس والأفكار، وهي: وحدة القضاء الإسلامي، فالإنسان في ظل قضاء الإسلام ليس هو أمام قضاء متعدد النزعات، مختلف الجهات، متباين المصادر، تتضارب مصالح الناس عنده، وتذهب حقوقهم بسبب اختلاف قواعده وحلوله للمشكلات والوقائع والخلافات، بل ليس أمام ذلك الإنسان إلا قضاء واحد شامل متكامل متجانس بفروعه المتعددة واختصاصاته المتنوعة.

٨ – **اقتصاره على مصالح الدنيا دون تدخله في الأمور العبادية :**

والمسائل الاجتهادية الخلافية، والوقائع الأخروية. فإن الشمول الذي تميّز به إنما هو من الأمور المتنازع فيها من مصالح الدنيا، أما ما عداها من الأمور التي ذكرناها فإنها لا تدخل في نطاق القضاء وحكم الحاكم أصلاً، كما لا تدخل فيه خوالج النفوس ونيات الناس ما لم تتمثل في أعمال.

قال الإمام القرافي في كتابه (الإحكام في تمييز الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضي والإمام) ص٢٣: والحكم إنما يكون فيما يقع فيه التنازع لمصالح الدنيا، أما مسائل الاجتهادات في العبادات ونحوها فلا يدخلها حكم أصلاً.

فليس لحاكم أن يحكم بأن هذه الصلاة صحيحة أو باطلة، ولا أن هذا الماء دون القلتين فيكون نجسًا، فيحرم بعد ذلك استعماله، بل ما يقال في ذلك إنما هو فتيا، إن كانت مذهب السامع عمل بها، وإلا فله تركها والعمل بمذهبه. ولا يلزم شيء من أحكام العبادات ونحوها من لا يعتقده، بل يتبع مذهبه في نفسه، ولا يلزمه قول ذلك القائل بحكم الحاكم به.

٩ – **اعتماده على الوازع الإيماني القلبي :**

ولئن كان من حكمة القضاء في الإسلام أن يتولى الفصل في القضايا المتعلقة بمعاملات الناس ومصالحهم الدنيوية، ودون قضايا العبادات والأخرويات كما ذكرنا، فإن من مزاياه أيضًا اعتماده على الوازع الإيماني القلبي في نفوس المتخاصمين حتى لو ضلل القضاء، فإنه يبقى الحرام حرامًا ولو حكم القاضي بحله اعتمادًا منه على البينة الواضحة.

وهذا الوازع الإيماني المتولد عن عقيدة الإسلام، يعتلج في قلب الخصم حتى يجعله يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل، ولو سانده القضاء في الظاهر، عن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: قال سيدنا رسول الله ﷺ لرجلين من الأنصار، اختصما إليه في مواريث بينهما قد درست معالمها، ليس عندهما بينة إلا دعواهما، قال لهما: (إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولم ينزل عليّ فيه شيء، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل عليّ فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا ظلمًا بقوله فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها سطاما في عنقه يوم القيامة، فليأخذها أو ليدعها. فبكى الرجلان جميعًا لما سمعا ذلك، وقال كل واحد منهما: يا رسول الله حقي هذا الذي أطلب لأخي، فقال رسول الله ﷺ : أما إذا قلتما هذا فاذهبا واقتسما، ثم توخيا الحق، فاجتهدا في قسم الأرض شطرين، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه) [رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه] وجمع بين رواياتهم.

١٠- استقلاله ونزاهته :

القضاء في الإسلام سلطة عليا ذات كيان رفيع، مستقلة في ذاتها، بمعنى أنه لا سلطان عليها لأمير أو خطير في أن يتدخل في أحكامها، ذلك أن القاضي نائب عن الله ﷻ، وهو مسئول بين يديه، فهو- وإن قامت الحكومة بتوليته منصب القضاء- هو بواقع الأمر نائب عن الله، لا يحكم إلا بما أنزل الله، وأرشد إليه رسوله ﷺ ولا يكون أحد من رجال الدولة حتى أكبر كبير فيها في منجاة من أن يقضي

عليه إذا اقتضى العدل ذلك، شأنه كشأن عامة الرعية أمام القضاء.

قال الإمام الكاساني الفقيه الحنفي في كتابه العظيم (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) ٧: ١٦: «إن القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه، بل بولاية المسلمين وفي حقوقهم، وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم» فلذا إذا مات الخليفة أو خلع لا تنعزل قضاته. وقد صح أن نصرانيًا ادعى على هارون الرشيد دعوى، فسمعها القاضي أبو يوسف، مع أنه مولى من قِبَل الرشيد، فالقاضي يقبل الدعوى على السلطان أو له لإحقاق الحق.

وسنرى فيما بعد كيف قضى شُريح على أمير المؤمنين سيدنا علي ﷺ، وكان خصمه يهوديًا، كما قضى أبو يوسف على الخليفة هارون الرشيد، وكان خصمه نصرانيًا، وكما قضى محمد بن عمران الطلحي قاضي أبي جعفر المنصور عليه في خصومته مع الحمالين الجمالين، إنه الإسلام.

ومن أدل الوقائع التي تعبِّر عن هذا المعنى العظيم، الذي تميّز به قضاء الإسلام: ما وقع للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى فقد جاء إليه رجل من أصحابه وأهل الدالة عليه، يستعديه على رجل غشه، فقال له صلاح الدين: ما عسى أن أصنع لك؟ وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضي لك أو عليك[1].

ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذًا لحكم الشرع وتابعًا له، كالشحنة وهو صاحب الشرطة، أي رئيسها وأن القضاة مستقلون بالحكم، لا سلطان لأحد عليهم.

---

(١) ذكره الشيخ رشيد رضا في «الوحي المحمدي» من طبعته الثالثة، ص٢٤٢.

فهذه الواقعة، والوقائع التي أشرنا إليها، وغيرها كثير، كلها تمثل لنا استقلال القضاء ونزاهته في هذا الدين الحنيف، وذلك هو الطابع العام لقضاء الإسلام.

١١- عمومه وعالميته :

مما هو معلوم أن رسول الله ﷺ أُرسل للناس كافة، وأن هذه الشريعة مُخاطب بها كل بني آدم، وأن كل إنسان منهم مدعو للدخول فيها والانضواء تحت ظلها. وقد قرر الإسلام الحنيف أن الناس جميعًا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وديارهم.. نوع واحد، ومن أصل واحد: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ﴾ [الحجرات: ١٣]، «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح».

ولدى استقراء أحكام هذه الشريعة الإسلامية الغرّاء- التي هي مرجع القضاء- نجدها لا تفرق بين مشرقي ومغربي، وصيني وعربي، وأبيض وزنجي.. وهذا كله يدلنا على عالمية هذا القضاء الإسلامي، وعلى عمومه للبشر قاطبة. فهو القضاء الوحيد الذي يمكن أن يحتكم إليه كل فرد من ألوان البشر، لاطمئنانه أنه أمام قاض عالمي النظر والتصور، أمام قضاء سّن أحكامه الباري سبحانه وتعالى لعباده كافة. وهو القائل في كتابه الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١]، والقائل سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. ولنقايس بين هذا في الإسلام، وبين ما عليه الكثير من الأمم التي تدعي الحضارة والرُقي اليوم،

مثل أمريكا وجنوب أفريقيا، وما يقوم بهما من المآسي المُرّة من جراء التفرقة بين لون ولون، وعنصر وعنصر، مما تتجدد أنباؤه على أسماع العالم كل يوم.

١٢ – كماله وخلوده :

لقد تبدى لنا من كل ما سبق أن هذا القضاء متكامل الوجود. مستجمع لشرائط إحقاق الحق، مستوف– على الوجه الأمثل– لكل ما يتعلق بالحاكم والمحكوم وشريعة التحاكم وأصول التقاضي وسائر ما يتصل بالقضاء.

وجدير بمثل هذا القضاء الكامل أن يكون بلسمًا للناس في كل عصر وجيل، يصلح بينهم، ويقوم أودهم، ويرد شاردهم إلى جادة الحق والصواب المستقيم، فهو خالد خلود شريعة الإسلام، باقٍ ما بقيت السماوات والأرض.

ثانيًا : النظام الاقتصادي في دولة المدينة :

بعد أن تحدثنا عن النظام الاجتماعي في الإسلام، نرى بالضرورة أن نعرج إلى النظام الاقتصادي في دولة المدينة في عهد رسول الله ﷺ لنعرف أوجه الأنشطة الاقتصادية المتمثلة في الزراعة والتجارة والصناعة والنقود ووحدات الوزن والقياس.

١ – الزراعة :

اهتم العرب في أيام الجاهلية بالزراعة والرعي وكان الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الزراعة قائلاً: «ما من مؤمن يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة».. وقوله أيضًا عليه السلام: «من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجره عليها».. وقد حمل هذا المؤمنين على الاعتناء بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها.

٢ – التجارة :

عني الرسول ﷺ بالدعوة إلى الاشتغال بالتجارة عنايته بالدعوة إلى الزراعة. وقد عمل الرسول ﷺ نفسه في التجارة. ومن الواضح أن الجانب الاقتصادي منظم في القرآن الكريم تنظيمًا دقيقًا كما في قوله تعالى:﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. وبهذا نرى الإسلام يشجع التجارة الخالية من الربا، كما يشيد برؤوس الأموال ما دامت حلالاً. كما يدعو الله تعالى إلى القرض الحسن في قوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

كما نظّم الإسلام تسهيل سداد الديون وكيفية كتابتها في الصكوك والعقود مخافة الوقوع في الظلم من غير قصد ومنعًا للضرر والضرار في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].. ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

كما نجد القرآن الكريم يحث المسلمين على الهجرة والسفر من بلد إلى آخر طلبًا للرزق، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠].

كما اشتغل في التجارة معظم الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعثمان الذي كان يعمل أيضًا بزازًا.. كما كان يوجد مهنة الصراف الذي يبيع الذهب والفضة وأيضًا بائع السلاح والرماح وهو نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، وتطلب هذا من النبي إنشاء جهاز لمراقبة الأسواق منعًا للغش، وأول من عينه في سوق المدينة عمر، وفي سوق مكة سعيد بن العاص بعد الفتح في مكة.. وعُرف هذا الجهاز باسم الحسبة.

٣ – الصناعة :

والعمل في الإسلام ليس مقصورًا على تنفيذ أحكام الشريعة، بل يشمل جميع أصناف وأنواع العمل الدنيوي، وجميع ضروب الصناعة والتصنيع، فلا يبخس أجر أحد ولو طلب الدنيا وزينتها بل لابد أن يوفى إليه عمله كاملاً غير منقوص كما قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥].. كذلك نجد كثيرًا من آيات القرآن الكريم تدعو إلى العمل كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].. وقوله تعالى: ﴿ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣].. وقوله تعالى أيضًا: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ

سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].. ثم جعل الإسلام للعمل درجات ورتب الأجر على قدر العمل كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٩].. وأيضًا أشاد الإسلام بالعمل اليدوي كقوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٥].

ويقول الرسول ﷺ : «اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه».. ويقول عليه السلام أيضًا: «من بات كالاً من عمل يده بات مغفورًا له».. ومن أقواله عليه السلام: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».. «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

ولقد كانت لهذه التعاليم الإسلامية في مفهوم العمل أثرها الواضح في نفوس المسلمين فأقبلوا على أنواع الصناعات يتقنونها محاولين التفوق على غيرهم من الشعوب ولا عجب أن يهتم المسلمون الأوائل في عصر النبوة بصناعة الأسلحة والآلات العسكرية كالسيوف والرماح والنبال والدروع والمغافر، لأن حروبهم المتوالية مع المشركين- ابتداء من غزوة بدر الكبرى- كانت تفرض عليهم منافسة القرشيين في الصناعات العسكرية.

ويؤكد معرفة المسلمين صناعة الأسلحة تكرار لفظ الأسلحة أربع مرات في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ

أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٠٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وتعلَّم المسلمون وضع المنجنيق، وأن النبي عليه السلام أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق... كما صنع المسلمون أيضًا في عصر النبي من الخشب المغطى بالجلد دبابة سموها «الضبر» يكمنون فيها ليتقوا النبال الموجهة إليهم من الحصون.

هذا بالإضافة إلى الصناعات الأخرى التي عرفها المسلمون في عصر النبوة والعرب أنفسهم قبل الإسلام كصناعات الأزياء والحلي وأثاث المنازل من أسرة ونمارق وبسط وزرابي وجفان وقدور وأكواب وأباريق وصحاف وموائد تؤكدها الآيات الآتية:

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣١].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف: ٧١].. ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٤].. ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤].. ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ [الإنسان: ١٥].. ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١].. ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ [الواقعة: ١٥].. ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: ٨٠].. ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢].. ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية:١٣-١٦].

من هذه الآيات البينات نستدل على معرفة العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام أنواع الصناعات المختلفة؛ لأن الله تعالى يستشهد بأمثلة محسوسة في القرآن الكريم مماثلة لما يعرفه العرب بل تفوق عما يعملونه ويستخدمونه في الجاهلية، وهذا مما يؤكده ما رواه النبي ﷺ عن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٤ – النقود ووحدات الوزن والقياس :

لا ريب أن العرب قد عرفوا الدرهم والدينار، وكانت معاملاتهم تتم عن طريق هذه العملات بالإضافة إلى تعاملهم بالذهب والفضة. ولما جاء الإسلام أقر النبي هذه العمـلات.

ومما يؤكد أن العرب يعرفون هذه العملات ما جاء ذكره في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فلا يُعقل أن القرآن الكريم والنبي ﷺ يوجهان حديثًا إلى العرب عن شيء يجهلونه جهلاً تامًا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].. وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠]... ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف: ٥٣]... ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١].. وهذه أدلة واضحة تؤكد معرفة العرب للدرهم والدينار والذهب والفضة.

أما الأحاديث النبوية التي تدل دلالة قاطعة على معرفة النبي والمسلمين لهذه العملات فهي كثيرة نذكر منها:

«تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة: إن أعطي منها رضي وإن لم يعط لم يرض».. «منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مديها ودينارها ومنعت

مصر أردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأتم».

ودليل آخر نسوقه لمعرفة العرب الذهب والفضة، فعند فرض الزكاة وتحديد نصابه- وكما نعلم أن الزكاة ركن اجتماعي هام- ذكر الذهب والفضة لتقدير المبالغ التي تجب فيها الزكاة. وعُرف كل من النقدين- الذهب والفضة- باسم الورق. وقد قال تعالى: ﴿ .. فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩].

من هذا يتضح أن العملة المتداولة في الجاهلية والعصر النبوي هي الدينار وذلك نتيجة التبادل التجاري الكبير بين العرب وبلاد الشام والعراق ومصر. وكانت ترد الدنانير إلى العرب من الدولة البيزنطية، وأما الدراهم فكانت ترد إليها من بلاد الفرس غالبًا ومن اليمن أحيانًا، ومن ثم كان الدينار الرومي ذهبيًا، والدرهم الفارسي من الفضة.

وكان العرب يتعاملون بهذه النقود وزنًا لا عددًا فكأنها غير مضروبة وكانوا يسمون غير المضروب تبرًا تفرقة بينه وبين العملة المتداولة المستعملة... كما كان للعرب أوزان خاصة بهم، وفي هذا يقول البلاذري: «كانت لقريش أوزان في الجاهلية، فدخل الإسلام فأقرت على ما كان عليه. كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهمًا، وتزن الذهب بوزن تسميه دينارًا. فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير. وكان لهم وزن الشعيرة- وهو واحد من ستين من وزن الدراهم. وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهمًا، والنش وزن عشرين درهمًا، وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم، فكانوا يتبايعون بالتبر على هذه

الأوزان. فلما قدم النبي ﷺ مكة أقرهم على ذلك»... ويؤكد هذا أيضًا قول النبي ﷺ : «المكيال مكيال المدينة والميزان ميزان مكة».. ومن المعروف أن الإسلام حدد نصاب الزكاة بعشرين مثقالاً من الذهب، وجعل في كل عشرين نصف مثقال، كما حدد نصاب الزكاة بمئتي درهم أو خمس أواقي من الفضة، وجعل في كل مئتي درهم خمسة دراهم. ولا شك أن العرب يعرفون منذ عصره ﷺ قدر كل من الدرهم والدينار، فلا يُعقل أن يكلفوا بأمر شرعي له علاقة بأحدهما من غير تحديد وتبيان بقيمته. ويقول ابن خلدون مؤكدًا هذا ويقرر أن المثقال هو الدينار.

أما وحدات المكاييل كما ذكرها الحديث الشريف فهي القفيز والمدى والأردب بالإضافة إلى المكوك والصاع... وكذلك وحدات الأطوال القفيز والجريب وغيرها.

ثالثًا : النظام المالي في دولة المدينة :

إن النظام المالي في دولة المدينة واضح المعالم وأكثر مبادئه مستمدة من القرآن الكريم وقد بيّنها وأوضحها الرسول ﷺ ، وجرى بها العمل في العصر النبوي منذ هجرة الرسول إلى المدينة عام ٦٢٢ ميلادية حيث أرسى قواعد وأسس الدولة الإسلامية الأولى في المدينة.

ولقد ترك المهاجرون معظم أموالهم وأملاكهم في مكة، ونتيجة التآخي بين المهاجرين والأنصار اشتغل بعضهم في الزراعة والبعض في التجارة، ولكنهم ما لبثوا أن دعوا إلى الجهاد، حتى كادت الغنائم تشكل في البداية أكثر مواردهم، وحتى الرسول ﷺ الذي كان يمثل شخصية الدولة المعنوية وجد في هذه الغنائم المصدر

الأول لمالية الدولة والتي نظمها طبقًا لمبادئ السماء التي أتى بها القرآن الكريم والتي عمل بمقتضاها النظام المالي في دولة المدينة.

الإيـرادات ومصارفهـا :

ومن ثم كانت أهم إيرادات الدولة النبوية هي الزكاة والخراج والجزية والغنيمة والفيء وفيها جميعًا معنى الضريبة، بيد أن بعضها ضريبة عن الأرض وبعضها الآخر ضريبة عن أشياء أخرى سنعرض لها خلال تناولنا لكل منها.

كانت واردات الدولة الإسلامية في عهد النبي ﷺ، تتألف من العناصر التالية:

أولاً : الزكاة، وهي الضريبة الوحيدة التي تستوفى من المسلمين.

ثانياً : الفيء، وهو ما يؤخذ من غير المسلمين صلحًا.

ثالثاً : الغنيمة، وهي ما يؤخذ من غير المسلمين حربًا.

أ - الزكـاة :

الزكاة، أو الصدقة، أول ضريبة فرضها النبي ﷺ ، ولم تكن لها في مكة قواعد مقررة، لا في تقديرها ولا في جبايتها، وكان المسلمون يدفعون إليه ما يجودون به ليستعمله في إصلاح حال الفقراء منهم وتدبير أمورهم، فلما انتقل النبي إلى المدينة وأسس فيها حكومة، أقام نظام الزكاة على أسلوب محكم.

حكمة الزكـاة :

الزكاة مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي والأخوة في العقيدة، تؤخذ من الذي يملك كثيرًا، لتعطى إلى الذي يملك قليلاً أو لا يملك شيئًا، ولعل وصية الرسول إلى معاذ حين بعثه على اليمن أجمع الكلام لخصائص الزكاة، قال له:

«إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله

تعالى، فإذا عرفوا الله تعالى، فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

من هذه الوصية نتبين :

أولاً : أن الزكاة تؤخذ من الأغنياء.

ثانياً : تؤخذ من عفو الأموال.

ثالثاً : تؤخذ في لين وإنصاف.

أحكام الزكاة ومقاديرها :

كان النبي يأخذ الزكاة من الأموال التالية :

١ –الماشية : كالإبل والبقر والغنم

فالإبل إذا لم تبلغ خمسًا لا يؤخذ من صاحبها شيء، وإذا كانت بين خمس وخمس وعشرين، يؤخذ عن كل خمس منها شاة واحدة. أما إذا تجاوزت خمسًا وعشرين ولم تبلغ خمسًا وسبعين ففيها ناقة واحدة، تختلف سنها باختلاف عدد الإبل؛ كلما ازدادوا وجب أن تكون سنها أكبر، ثم يزيد العدد.

وأما البقر، فلا يؤخذ منها شيء إلا إذا بلغت ثلاثين، ثم يكون في كل ثلاثين بقرة بنت ستة أشهر، وتسمى «تبيعًا»، وفي كل أربعين سنة.

وأما الغنم، فيؤخذ منها متى بلغت أربعين إلى مائة وعشرين شاة، ثم يكون في كل مائة منها شاة واحدة. وأغلب الظن أن الغنم التي كان يجبي منها النبي ﷺ الزكاة هي السائمة التي كانت ترعى الكلأ النابت نبت الطبيعة، لا التي يعلفها أصحابها.

٢ – الثمار والحبوب والخضروات :

كان النبي ﷺ يأخذ من المزروعات التي تسقيها الأنهار أو الأمطار العُشر، وأما المزروعات التي يسقيها أصحابها بأيديهم أو بوسائل أخرى ففيها نصف العُشر.

والواقع أن النخيل كان يؤلف المورد الأكبر للزكاة المفروضة على الأشجار والزروع.

وأما بقية الحبوب والبقول فكانت كالزرع، في الأغلب، لحاجة الأسر فلا يؤخذ منها شيء.

٣ – الفضة والذهب وما في حكمهما من المعادن :

فيها ربع العُشر، وكان من الصعب معرفة ما عند الإنسان منها، فذلك متروك لدينه، يخرج عنها من الزكاة ما يريد.

٤ – الركـاز :

الركاز هو الكنز الدفين، الذي اكتشفه رجل ما، فيجب فيه الخمس. أما الخيل والرقيق فقد أسقط النبي الزكاة عنهما.

ب – الفـيء :

الفيء، هو المال الذي يصالح عليه المسلمون أعداءهم، وهو على ثلاثة أنواع:

١ – **مال الهدنة**، الذي يُفرض على الأعداء المصالحين جملة واحدة.

٢ – **الجزية**، وهي ضريبة سنوية على الأعناق، تؤخذ من أهل الكتاب– أهل الذمة– مقابل تعهد المسلمين لهم بحمايتهم والكف عنهم وتؤخذ عن كل رجل حر عاقل، أما مقدارها فما كان يتجاوز في أكثر الحالات دينارًا

واحدًا على الشخص الواحد.

٣ – **الخراج**، وهو ضريبة تستوفى من الأرضين التي أقر عليها أصحابها من غير المسلمين وليس بين أيدينا وثيقة ثابتة تبين لنا حال هذه الضريبة في عهد النبي ﷺ، والرأي الصحيح هو أنها تبدلت كثيرًا في اسمها ومعناها وأسلوب جبايتها، وأن كلمة الخراج إذا استُعملت في زمن النبي فإنما كانت تعني الجزية.

ج – الغنائم :

الغنائم هي ما يغنمه المسلمون من أعدائهم في الحرب، من أموال منقولة وغير منقولة وأسارى من الرجال وسبيًا من النساء والأطفال.

أما الأسارى، فكان الرسول يمن عليهم أحيانًا، ويأخذ الفداء منهم أحيانًا، ولم يرو لنا التاريخ سوى حوادث قليلة جدًا لا تكاد تُذكر أمر فيها النبي بقتل أسير إما لإمعانه في إيذاء المسلمين والتسميع بدينهم أو لنكثه العهد وعودته إلى القتال بعد العفو عنه.

وإذا افتدى الأسير نفسه بمال، كان هذا المال من جملة الغنائم.

وأما السبي، فيسترق، ويجوز افتداؤه بمال أو برجال (طريقة تبادل الأسرى) ولا يجوز قتله.

وأما الأموال، ولا سيما الأموال المنقولة، فكانت تؤلف العنصر البارز في الغنائم.

نفقات الزكاة :

الخزينة، في زماننا، تجبى إليها الأموال من كل مصدر، ثم تخرج منها لتُصرف في كل وجه، فهي تمثل «وحدة» تضيع فيها خصائص كل ضريبة.

أما في زمن النبي، فكان لكل ضريبة صندوق خاص، وكانت كل ضريبة تُنفق في أوجه مخصوصة.

كان النبي ينفق أموال الزكاة برأيه، ثم نزل القرآن بتخصيص إنفاقها في جهات ثمان: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .. ﴾ [التوبة: ٦٠].

هل كان يوزع على كل فئة منهم الثمن، بالغًا ما بلغ مقداره، وبالغًا ما بلغ عددهم، ولو كانوا من القلة بحيث يصيب أحدهم مالاً ضخمًا ؟!

لا نملك في هذا الشأن تفاصيل حاسمة. ولكن الرأي الراجح هو أن الفقير ما كان يأخذ من المال أكثر من نصاب الزكاة، والعامل أجر المثل، والمقاتل حاجته المعهودة، وهكذا... فإذا فاض عن فئة شيء، أُنفق في الفئات التي تليها.

وكانت قواعد اللامركزية المالية مرعية، بوجه عام، فما يجبى في منطقة معينة، يُنفق على أهلها، ولا يُنقل من زكاة بلد إلى عاصمة المسلمين إلا ما يفيض عن حاجتها.

وإليك كلمة موجزة عن كل واحد من مستحقي الزكاة :

١ ، ٢– **الفقراء والمساكين**: اختُلف في تعريف كل من الفقير والمسكين، فقيل الفقير هو من لا يملك شيئًا، والمسكين هو الذي يملك شيئًا قليلاً. وقيل العكس، وقيل هما سواء. وقيل (الفقراء الزمنى الذين لا حرفة لهم وأهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعًا، والمساكين السؤال ممن له حرفة تقع موقعًا ولا تغنيه وعياله...). هؤلاء جميعًا يأخذون من الزكاة ما يجعلهم في أدنى مراتب الغنى.

٣ – **العاملون عليها**: هم الموظفون الذين يعملون في تحصيل الزكاة، وكانت أجورهم تُدفع إليهم من موارد الزكاة نفسها.

٤ – **المؤلفة قلوبهم**: وهم حديثو عهد بالإسلام، كان يرى النبي تألفهم ليجدوا في التبشير بالدين الجديد ويتبعهم قومهم. ومن الذين أعطاهم النبي من سهم المؤلفة قلوبهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية والأقرع بن حابس وغيرهم. وقد أبطل عمر هذه العادة بعد أن قوي الإسلام ولم يعد محتاجًا إلى من يتألف قلوبهم !

٥ – **الرقاب** : يُقصد بها العبيد، فقد كان في بيت المال سهم مخصوص لتحرير العبيد من الرق، وإنها لخدمة جليلة يؤديها الإسلام للرقيق ولقضية الحرية.

٦ – **الغارمون**: أي المدينون، وهم صنفان: (صنف منهم استدانوا في مصالح أنفسهم فيدفع إليهم مع الفقر دون الغنى ما يقضون به ديونهم وصنف منهم استدانوا في مصالح المسلمين فيدفع لهم مع الفقر والغنى قدر ديونهم من غير فضل).

٧ – **سبيل الله**: أي الغزاة، يعطون ما يكفيهم على حسب المألوف.

٨ – **ابن السبيل** : أي المسافر المنقطع في بلد ما، يعطى ما يعينه على العودة إلى بلده وأهله.

نفقـات الفـيء :

كان الفيء يُقسم إلى خمسة أجزاء، أربعة أجزاء تُنفق في مصالح المسلمين، والجزء الخامس يقسم إلى خمسة أسهم ويُنفق على الوجه الذي جاء في القرآن الكريم: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الحشر: ٧].

كان الرسول في حياته يأخذ سهمًا من الفيء ينفقه في مصالح المسلمين وفي مصلحته الخاصة، فلما توفي اختُلف في سهمه، هل يورث أم لا ؟ والرأي الذي طُبق عمليًا هو عدم التوريث، واختُلف بعد ذلك في الجهة التي يُنفق فيها هذا السهم، فرأوا إنفاقه في مصالح المسلمين.

أما سهم ذوي القربى، فاختُلف فيه كثيرًا، وقيل سقط بوفاة النبي.

وسهم اليتامى، للأطفال من الذكور والإناث الذين توفي آباؤهم، يأخذونه ما داموا صغارًا لم يبلغوا.

وسهم المساكين، هو هنا لمساكين الفيء، لا لمساكين الزكاة مثلاً، وسهم ابن السبيل، لابن السبيل من الفيء أيضًا.

أما أربعة الأخماس الباقية من الفيء ففيها، كما يقول الماوردي، قولان:

أحدهما : أنها للجيش خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم لتكون معدة لأرزاقهم.

والقول الثاني: أنها تُصرف في المصالح التي منها أرزاق الجيش وما لا غنى للمسلمين عنه.

ولا يجوز أن يُصرف الفيء في أهل الصدقات ولا تُصرف الصدقات في أهل الفـيء.

وأهل الصدقة من لا هجرة له وليس من المقاتلة عن المسلمين ولا عن حُماة البيضـة.

وأهل الفيء هم ذو الهجرة الذّابون عن البيضة والمانعون عن الحريم والمجاهدون للعدو.

نفقـات الغنائم :

كانت الغنائم في الجاهلية، توزع بين رئيس القبيلة الغازية وأفرادها وفقًا لتقاليد موروثة. ولعل أبرز هذه التقاليد ما لخصه هذا البيت من الشعر :

لك المرباع منها والصفـايا
وحكمك والنشيطة والفضـول

« فالمرباع ربع الغنيمة، والصفي ما يصطفيه الرئيس لنفسه مما يستحسن، والنشيطة ما يقع في أيدي المقاتلين قبل الموقعة، والفضول ما يفضل عن القسمة ».

أما في الإسلام، فقد ابتدأ الرسول في أول غزواته، بتوزيع الغنائم برأيه واجتهاده.

ثم نزلت الآية : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ

ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

فاتبع النبي في تقسيم الغنائم الطريقة التالية :

- كان يبدأ بإعطاء أسلوب القتيل، أي ما عليه من ثياب وسلاح لقاتله.
- ثم يأخذ خُمس الغنائم، فيقسمها على نحو ما جاء في الآية.
- أما الأخماس الأربعة الباقية، فيقسمها بين من شهد الموقعة.

الباب العاشر

السياسية الخارجية
لدولة المدينة

جهاد الرسول في سبيل الدعوة

عقب هجرة الرسول الكريم إلى يثرب، اشتد عدوان أهل مكة على المسلمين الذين بقوا فيها ولم يجدوا سبيلاً للحاق بإخوانهم المهاجرين، وأخذ طغيانهم عليهم يزداد يومًا بعد يوم. وعند ذلك أذن الله للمؤمنين بالجهاد، وأمر المهاجرين والأنصار أن يهبوا لإغاثة إخوانهم في مكة.. قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١].

وإذا كانت قريش ومن يعاونها من العرب لم تكتف بخروج الرسول وصحابته من وطنهم ولجوئهم إلى بلد بعيد عنهم وهو «يثرب» أو المدينة، بل صممت على أن تطارده وتعمل ما وسعها للقضاء عليه خوفًا من أن يقوى شأنه، ويعود إليهم ويقهرهم، فإن الرسول وصحابته لم يكونوا ليسكنوا أو يستقروا في مقرهم الجديد، وقد أُجبروا على ترك وطنهم، ومفارقة أهليهم وأحبائهم، والتضحية بدورهم وأموالهم ومصالحهم.. لقد كانوا دائمي التفكير في مكة التي ولدوا وتربوا وشبوا فيها، وأحبوها.. كما يحب كل إنسان منا بلده ومدارج صباه ورفاق شبابه وعمله، وكان النبي ﷺ يعلم بخبرة القائد البصير أن أهل مكة لن يتركوه.

ومن أجل ذلك بدا بعد فترة استقر فيها يرسل العيون والسرايا المكونة من عدد قليل من أصحابه ليقتربوا من مكة، ويعلموا شئونها.. كما بدأ يفكر في الضغط على قريش من ناحية تجارتها الذاهبة إلى الشام والعائدة، وكانت تمر قريبًا من المدينة، ويفكر أيضًا في أن يستولي على شيء من هذه التجارة كجزء مما فقده المهاجرون وتركوه بمكة واستولى عليه المشركون، وكتعويض لما ضاع عليهم.. وقد كثر المسلمون واشتد بأسهم عما كانوا في مكة، وكانوا في مكة قليلين ضعافًا، فكان لابد لهم من الصبر وعدم مقابلة القوة بالقوة، وإلا أفناهم عدوهم وقضى عليهم.

أما الآن، وفي المدينة، فقد تغيّر الحال، وأصبح من الممكن لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، بل ذهبت منهم سرية إلى مشارف مكة وقتلت مشركًا وعادت بما غنمت.. مما كان يُنذر بأن الصدام لابد منه.

ونزل القرآن الكريم يأذن للمسلمين بالقتال دفاعًا عن أنفسهم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ثم نزلت الآيات تحث المسلمين وتأمرهم بقتال من يعتدي عليهم ويقاتلهم، وتأمر بالجهاد بالنفس والمال دفاعًا عن الإسلام، وعن حرمات المسلمين.

الحـروب النبـوية :

والحروب النبوية تتمثل في الغزوات والسرايا، وهي حروب دفاعية، أما الرد على مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون. وهي في حقيقة أمرها تمثل أيضًا مرحلة

من مراحل الدعوة الإسلامية في عصر النبي ﷺ ، وليست تعبيرًا عن الحكم الذي استقر على أساسه الجهاد في الإسلام.

وقد اشترك الرسول في سبع وعشرين غزوة، وقاتل في تسع منها، وأنه أرسل ما يقرب من ستين سرية. وسنكتفي هنا بالغزوات والسرايا ذات الأثر في سير الإسلام وتقدم دعوته وانتشارها في داخل الجزيرة العربية وخارجها.

غزوة بدر الكبرى

كانت معركة بدر الكبرى، خاتمة عهد ابتدأ بمظاهرات أو مناوشات عسكرية امتدت نحو سنة كاملة وفاتحة عهد نضال عسكري حقيقي بين قريش والمسلمين، وكان الحجاز ميدانًا له، وانتهى بفتح هذا القُطر وخضوعه خضوعًا كاملاً للدولة الإسلامية الجديدة.

وبيان ما وقع أن أخبارًا وصلت إلى المدينة، بقرب رجوع قافلة قريش من الشام، وهي القافلة التي خرج المسلمون للقائها في العشيرة فوصلوا بعد سفرها، فندب النبي ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها» فخرجوا يوم الاثنين ٨ رمضان وعددهم ٣١٣ رجلاً منهم ٧٠ مهاجرًا والباقون من الأنصار، وهي أول مرة يشترك فيها هؤلاء مع المهاجرين في الحملات فقد وقفوا في أول الأمر على الحياد.

ولم يكتم النبي ارتياحه، إلى كثرة عدد جيشه حينما عرضه، وإلى اشتراك الأنصار فيه، ولا يخفى أنه أول مرة يوفق المسلمون فيها إلى جمع مثل هذا العدد وهو ليس بقليل بنسبة حالتهم يومئذ.

وتخلف في المدينة ثلاثة من المهاجرين فقط بأمره وهم عثمان بن عفان وقد ظل عند زوجته المريضة، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد وقد انتدبا ليتجسسا خبر القافلة ويرقبا سيرها.

وكان الجيش الإسلامي يملك ٧٠ بعيرًا فقط وفرسين وتولى قيادة ساقة المسلمين قيس بن أبي حفصة الأنصاري، وعقد النبي ﷺ ثلاث رايات: راية للمهاجرين وكانت مع علي بن أبي طالب ورايتين للأنصار.

وعرف أبو سفيان وكان يرأس قافلة قريش حين دنا من الحجاز- وكان يتجسس الأخبار ويسأل الركبان- بما يعده له المسلمون، فأرسل رسولاً إلى مكة وأمره أن يأتيها ويستنفر أهلها للدفاع عن قافلتهم فلا تسقط في أيدي المسلمين، فأدى هذا رسالته فقامت مكة وقعدت لهذا النبأ العظيم وتجهز صناديدها للحرب وخرجوا وعدتهم نحو ألف مقاتل، منهم ٦٠٠ دراع، ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع، و٧٠٠ بعير، وسلكوا طريق بدر للقاء المسلمين وقد وثقوا من قوتهم واطمأنوا إلى كثرتهم.

وجاءت الأخبار للمسلمين بخروج أهل مكة لقتالهم فاستشار النبي أصحابه فيما يفعل وهل يصمد لقتالهم؟ أم يرصد القافلة؟ أم يعود إلى المدينة؟ فخطب خطباء المهاجرين في الحملة وقالوا له: «إنا معك. وإنك لو سرت إلى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه» وخطب سعد بن معاذ باسم الأنصار وقال له: «قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا على بركة الله» فسره ذلك منهم وارتاح إليه

وقرر المضي في تنفيذ الخطة التي رسمها.

وشعر أبو سفيان بالخطر حينما اقترب من بدر فغيّر وجهة سيره وبدلاً من أن يسلك طريق القوافل المعتاد، سلك طريق البحر فبلغ مكة آمنًا و لم يمسه سوء. فأرسل من فوره رسولاً إلى قريش وكانت تنزل في ذي الجحفة قرب بدر يبلغها خبر وصوله ويقول «ارجعوا إلى بلدكم فقد خرجتم لإنقاذ قافلتكم ومتاعكم وقد نجاها الله».

وأصر أبو جهل على مواصلة التقدم وورود بدر والنزول فيها ما داموا قد خرجوا وخالفه الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفًا لبني زهرة فقال لقومه إنما خرجتم للدفاع عن أموالكم وأصحابكم الذين في القافلة وما داموا قد نجوا فلا حاجة لكم في قتال المسلمين، فانفصلوا عن قريش وعادوا إلى مكة وواصل الباقون تقدمهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر خلف العقنقل. وسبقهم المسلمون فنزلوا في مراكز منيعة واستولوا على آبار الماء وأحسنوا تعبئة قواهم وتنظيمها. ومما يستحق الذكر في هذا المقام ما رواه ابن هشام وخلاصته أن الحباب بن المنذر ابن الجموح جاء إلى الرسول ﷺ بعد وصول المسلمين إلى بدر وبعد ما عبأهم بذاته طبقًا لخطة رسمها وقال له: أرأيت يا رسول الله هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فإني أعرف غزارة مائه فننزل به ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

ولم يتردد الرسول ﷺ في الأخذ بهذا الرأي الصائب فنهض وسار وتبعه المسلمون حتى أتى أقرب ماء من المكان الذي نزل المشركون فيه فنزله وبنى حوضًا للماء كما أشار الحباب وملأه، ثم قذفوا بالآنية في البئر وغوروه وأقاموا حامية منهم للدفاع عن الحوض وصد المشركين ووصل المكيون في الغداة، وكان المسلمون قد تأهبوا للقائهم وأعدوا عدتهم للكفاح والنضال.

وظهرت في صفوف قريش قبل أن ينشب القتال فكرة تقول بالكف عن الحرب وكان زعيم القائلين بهذا الرأي عتبة بن ربيعة وهو من كبار الأمويين فقد خطب في أصحابه ودعاهم إلى الرجوع وترك المسلمين وشأنهم وقال لهم «خلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك لا يضركم».

وعارض أبو جهل وأنصاره في الأخذ بهذا الرأي وقاوموه أشد مقاومة ورموا دعاته بالخور والجبن وقال «والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد» فانقاد الناس إليه، واتبعوا رأيه.

ورتب المسلمون صفوفهم وتأهبوا للنضال، وخرج الأسود المخزومي يقصد الحوض ليرده فضربه حمزة بن عبد المطلب وكان واقفًا عنده لحمايته فجرحه في رجله فعاد إلى اقتحامه فقتله فكان أول قتيل في بدر.

وبرز عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فأسرع فتية من الأنصار للقائهم فقالوا لهم ما لنا بكم حاجة إنما نريد قومنا فخرج إليهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث فبارز عبيدة عتبة وحمزة شيبة وعليّ الوليد فقتل عليّ صاحبه ومثله حمزة وانضما إلى عبيدة وقد جرح في المعركة فأجهزوا على عتبة.

وغادر النبي ﷺ مقره، وكان يقيم في عريش مرتفع بناه له سعد بن معاذ زعيم الأنصار، ومعه أبو بكر لحمايته والدفاع عنه حينما انتهت المبارزة، وجال بين صفوف المسلمين وقال لهم إن دنا القوم منكم فانضحوهم واستبقوا نبالكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم. وأمرهم بأن لا يحملوا حتى يأمرهم.

ونشبت المعركة على الإثر، وحمل القرشيون على المسلمون فصمدوا لهم وقاتلوهم أصدق قتال وكان رسول الله ﷺ يطوف بين رجاله ويحثهم على الثبات ولم يطل الأمر حتى دارت الدائرة على قريش فتضعضعت ثم انهزمت وولت الأدبار وفاز المسلمون فوزًا عظيمًا وفقد أعداؤهم في هذه المعركة عددًا غير قليل من أعلامهم ووجوههم فعدا عن الثلاثة الأولين شيبة وابنه وأخيه قتل أبو جهل أعدى أعداء المسلمين وقتل أيضًا أُمية بن خلف الجمحي قالوا وبلغ عدد قتلاهم يومئذ ٧٠ وأسروا منهم أيضًا ٧٠ أسيرًا وغنموا أسلابهم وأموالهم وهي كثيرة وقتل من المسلمين ثمانية.

وكان بين الأسرى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأبو العاص بن الربيع صهره وعقيل بن أبي طالب شقيق عليّ وعدد من مشاهير قريش بينهم النضر بن الحارث العبدري وعقبة بن أبي معيط بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس وكانا من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وقد حاول الأخير قتله خنقًا في مكة وأنقذه أبو بكر من يده فقتلا بأمره دون بقية الأسرى وهم في طريقهم إلى المدينة.

واستشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فيما يفعله بالأسرى فأشار الأول باستبقائهم وأخذ الفداء منهم وقال له «أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء فيكون ما أخذناه منهم قوة

لنا على الكفار وعسى الله أن يديهم بك فيكونوا لنا عضدا».

ورأى عمر بن الخطاب قتلهم وطلب أن يمكن من قريب له منهم فيضرب عنقه، ويضرب عليّ عنق أخيه، ويضرب حمزة عنق العباس حتى يعلم أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين. ولم ينقل المؤرخون رأيًا لعلي. ورأى عبد الله بن رواحة الأنصاري إحراقهم بالنار في واد كثير الحطب. ورجح المصطفى ﷺ رأي أبي بكر وأخذ به وأمر بالأسرى فوزعوا في بيوت المسلمين. وكان أبو وداعة الحارث أولى من فدى منهم، فداه ابنه بأربعة آلاف درهم وتتابع بعد ذلك وصول المال، وكان الفداء يتفاوت بين ألف وألفين وثلاثة وأربعة آلاف درهم طبقًا لحالة الأسير المادية والاجتماعية.

صدى انتصار بدر

كان لانتصار المسلمين في بدر صدى بعيد الغور لا في المدينة ولا في مكة وحدهما بل في جميع أنحاء الحجاز، فقد طار خبره وتحدث الناس بأمره.

ويمكن وصف النتائج العاجلة التي انتهجها بما يأتي:

١ - وطد سلطان المسلمين في المدينة ومكّن لهم فيها وزاد في هيبتهم ومكانتهم.

٢ - كان مصدر يُمن وبركة لهم فقد خفف عنهم ما تقاضوه من فداء الأسرى وما غنموه من غنائم بعض ما كانوا يجدونه من ضائقة شديدة، كما شدد عزائمهم وضاعف قواهم المادية ما أخذوه من سلاح وابل وما كانوا يملكون سلاحًا كافيًا من قبل.

٣ - ساعدهم على نشر التعليم في عاصمتهم الجديدة، فتعلم كثيرون من

أطفالهم القراءة والكتابة على يد الأسرى من قريش، وكان عدد الذين يقرأون ويكتبون في المدينة قليلاً.

٤ – زادهم وثوقًا برسالة رسولهم واعتقادًا بصحة نبوته، ولا سيما بعد ما رسخ في أذهانهم أنه لم ينصر إلا بتأييد السماء ونزول الملائكة لمساعدته واشتراكها في القتال لتأييده. ومن تؤيده السماء وترضى عنه فهو مؤيد منصور.

٥ – زاد في حقد قريش على المسلمين ونقمتها عليهم فانصرفت لإعداد حملة قوية تزحف عليهم للمطالبة بثأرها فاكتتب تجارها وأغنياؤها بمبالغ كبيرة لشراء أسلحة وتجنيد جيش كبير، ونذر أبو سفيان على نفسه أن لا يقرب النساء حتى يثأر من المسلمين.

٦ – أنشأ أحقادًا وأضغانًا في صدور طائفة من اليثربيين، عرفوا في التاريخ الإسلامي بالمنافقين فقد كبر على زعيمهم عبد الله بن أُبي ما بلغه المسلمون من انتصار وبُعد صيت، فأخذ يكيد لهم ويعمل على مقاومتهم من وراء ستار، ويقال إنه كان يطمع أن ينادى به أميرًا على الأوس والخزرج، فلما قدم النبي ﷺ إلى المدينة وانتقلت إليه زعامتها، خاب أمله.

هذا بعض ما يرد على ذهن الباحث وهو يحاول سرد النتائج المادية والأدبية العاجلة التي أنتجها انتصار المسلمين العظيم في بدر، فهو وإن لم يك حاسمًا ولم يقض على قوى قريش ولم يحملها على الخضوع والاستسلام فإنه كان فاتحة طيبة للمسلمين الذين ما كانت قواهم المادية لتذكر في جانب قوات قريش الكبرى،

وما كانت ثروتهم لتذكر في جانب ثروتها كما أن عدد المحاربين منهم ما كان ليذكر في جانب عدد المحاربين منها ومن حلفائها.

ومما يجعل لهذا النصر أهمية خاصة في نظر كل من يدرس التاريخ الإسلامي ويماشي حوادثه وقوعه في زمن كان المسلمون فيه أقلية ضئيلة لا تذكر في جانب الأكثرية القوية المعتزة بعددها وعددها وثروتها وتجارتها وحسبها ونسبها، وقد عد هذا الانتصار برهانًا ساطعًا على تأثير القوى الروحية التي بشّر محمد ﷺ بها ودعا إلى الإيمان بها فلولاها ولولا مساعدتها لما انتصر المسلمون على أعدائهم ولما تغلبوا عليهم.

بقي علينا أن نسرد العوامل المادية التي ضمنت للمسلمين فوزهم وانتصارهم في بدر رغم التباين المشهود في القوى والعدد والعدد فنقول:

١ - إن في مقدمة هذه العوامل تعبئة المسلمين تعبئة حسنة في بدر، ويعود الفضل في ذلك إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري وكان عارفًا بجغرافية المكان ومواقعه، ولم يتردد النبي ﷺ في الأخذ برأيه حينما أشار عليه بترك الأماكن التي نزلوها، وللتعبئة مقام عظيم في فن الحرب وتأثير كبير.

٢ - مكنت التعبئة الجديدة التي أشار بها الحباب المسلمين من السيطرة على آبار الماء فكانوا يقاتلون والماء موفور لهم، ممنوع على أعدائهم، ومتى ذكر القارئ أن معركة بدر قد دارت في ١٧ رمضان وهو ما يعادل شهر يوليو من تلك السنة، ويشتد الحر كثيرًا بالحجاز في هذا الوقت ولا سيما في صحاريه وترتفع الحرارة إلى ما فوق الخمسين، أدرك المزايا العظيمة التي يمتاز بها جيش يملك حاجته من الماء ويمنع عنه خصمه، وإذا قيل لنا إن المكيين معتادون على حر

الحجاز وقيظه نقول إنهم غير معتادين على قلة الماء وفقده، وخصوصًا في وسط الصحراء في يوم عبوس قمطرير كيومهم في بدر.

٣ – ما أجمع عليه الرواة من هبوب زوبعة رملية شديدة في إبان المعركة زادت في حراجة موقف قريش وصعوبته، فقد كان الغبار يملأ وجوههم وأنوفهم وعيونهم فلا يكادون يبصرون ما أمامهم أي إنهم كانوا في وضع معاكس لهبوب الريح بخلاف وضع المسلمين فكان على أفضل ما يُرام.

٤ – فوز المبارزين المسلمين في أول المعركة على خصومهم وقتلهم إياهم وهم ذوو مكانة رفيعة في قومهم.

٥ – وحدة الرأي بين المسلمين والتفاهم حول قائدهم وانقيادهم إليه بعكس المكيين فقد ظهر الخلاف في صفوفهم قبل المعركة، ومن يقابل بين خُطب الصحابة وكيف أجمع زعماؤهم على القول للنبي ﷺ بأنه لو سار إلى برك الغماد لساروا معه ولو قاتل الجن والإنس لقاتلوا معه، برجوع الأخنس بن شريق ببني زهرة من الجحفة (منطقة بدر) ويقدر بعضهم الذين رجعوا معه بمئة ويجعلهم آخرون ٣٠٠ أي نحو ثلث جيش قريش، وهو عدد لا يُستهان به، يرى الفرق كبيرًا فقد أبى هؤلاء قتال المسلمين بعد ما علموا بوصول القافلة سالمة إلى مكة يضاف إلى ذلك ما حدث بين عتبة بن ربيعة وكان يمثل عددًا كبيرًا في الجيش وبين أبي جهل وإلحاح الأول بالرجوع والانسحاب وعدم قتال المسلمين، وقوله حينما قام فيهم خطيبًا «والله يا معشر قريش ما تصنعون شيئًا حينما تلقون محمدًا وأصحابه، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ويقول قد قتل

ابن عمي أو ابن خالي أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابه غيركم فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدموا منه ما تريدون، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم» ومعارضة أبي جهل له، وكان يمثل الفريق المتطرف في الجيش ويقول بوجوب قتال المسلمين واستئصالهم لئلا تعيرهم العرب، وكانت النتيجة اشتراك عتبة في المعركة وقتله وابنه وأخيه وقتل أبي جهل نفسه في ذاك اليوم.

٦ - استهانة قريش بأمر المسلمين واستصغارها لأمرهم واستصحابها الخمور اعتقادًا من رجالها بأنهم ذاهبون «لنزهة عسكرية» ومما يؤثر عن أبي جهل قوله حينما أرسل إليه أبو سفيان يدعوه للرجوع إلى مكة لأن القافلة وصلت سليمة «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا».

قابل هذا كله بوصف الحالة الأدبية والروحية التي كان عليها المسلمون قبل المعركة وإكثار النبي ﷺ من الصلاة والدعاء وقوله «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلا تُعبد في الأرض» وطوافه بين أصحابه وقوله لهم «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» وقوله «سيهزم الجمع ويولون الدبر» ترى الفرق كبيرًا جدًا بين حالة المسلمين وحالة خصومهم وتسلم بأنه لابد من انتصار هؤلاء وفوزهم مهما كثر عدد أعدائهم لأنهم كانوا يقاتلون عن عقيدة

وإيمان بعكس أولئك الذين لم تكن تجمعهم سوى جامعة الانتقام من المسلمين والرغبة في القضاء عليهم.

٧ – اعتقاد المسلمين أنهم يخوضون معركة يتوقف على انتصارهم فيها فوزهم ونجاحهم وكيد أعدائهم وإذلالهم.

٨ – اعتقاد المسلمين أن الذين يُقتلون منهم يذهبون إلى الجنة وينزلون أرفع المنازل وأرقاها، ولم يكن ذلك شائعًا بين قريش وما كانت تؤمن بالبعث.

فهذه الاعتبارات الجوهرية وبعضها مادي وبعضها معنوي أثرت في سير القتال ورجحت كفة المسلمين وكانوا يمتازون على أعدائهم بجودة مواقعهم وحُسن تعبئتهم وتضامن رجالهم واتحاد كلمتهم والتحام صفوفهم ووفرة الماء لديهم واعتقادهم بأن قتلاهم في الجنة وقتلى أعدائهم في النار وصدق عزيمتهم وإيمانهم، علاوة على ما كان المهاجرون المكيون– وهم نخبة جيش بدر وعمدته– يجدونه على قريش وشدة شوقهم إلى الانتقام منها لسوء صنيعها معهم فقد اضطهدتهم ثلاث عشرة سنة ولم تدخر وسعًا في تعذيبهم والتنكيل بهم.

ولا نشك في أن انتصار بدر كان من العوامل الكبرى في توطيد قدم الإسلام ورسوخ قواعده، وانتشاره في بادية الحجاز.

ويجب أن لا نغفل شأن المعدات الحربية التي غنمها المسلمون في بدر فقد ساعدتهم على تسليح جيشهم وتوسيع نطاقه توسيعًا نسبيًا كما أن ما قبضوه باسم فداء الأسرى وقدره عشرون ألف درهم ونيف– وهو مبلغ لا يُستهان به بالنسبة لمن كان في حالتهم تلك– ساعد على تحسين حالتهم المادية.

وبالجملة فقد كان انتصارهم في ذاك اليوم من أعظم الانتصارات في تاريخهم

العسكري وهو لا يقل خطورة في نظرنا عن فتح مكة.

وكما اعتبرنا يوم دخول النبي ﷺ إلى المدينة يوم إنشاء الدولة الإسلامية الجديدة فإننا نعتبر يوم بدر فاتحة استيلاء المسلمين على الحجاز ومقدمة له، فلولاه لما رسخت قواعد دولتهم ولما دان الحجاز وخضع لسلطانهم.

قريش تطالب بثأرها

لم يسجل تاريخ قريش منذ تغلبها على قضاعة وبسطها نفوذها على مكة وواديها، وقد تم ذلك على يد قصي جدها ومؤسس مجدها، إنها نكبت بمثل النكبة التي حلت بها في يوم بدر، فقتل سبعين من رجالها، وأُسر ٧٠ مثلهم من الحوادث الخطيرة في جزيرة العرب، ويكون عدد القتلى قليلاً في الغالب بينهم لأنهم يضنون بالنفس يبذلونها في أمور عادية، ويكتفون في الغالب بغارات يغيرونها فإذا فازوا بالحصول على ما يريدونه أو بعضه فهو المقصود وإلا عادوا أدراجهم. ويتبدل الموقف إذا كانوا مصممين على الاستقتال والاستماتة؛ ففي هذه الحالة وحدها يأتون بذراريهم ونسائهم لتضرم في صدورهم نار الحماسة ولتشجعهم على الثبات، وقد فعل القرشيون ذلك في يومين على ما نذكر: يوم أُحُد في الجاهلية ويوم اليرموك في الإسلام وهم على كل حال لا يفعلونه إلا في الموقف الحرج، ومن يدرس تاريخ حرب الفجار وقد امتدت سنوات بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان من هوازن يتبين أنه لم يُقتل من الفريقين مثل هذا العدد مع أنهم خاضوا معارك كثيرة في أوقات مختلفة.

وعظم المصاب على قريش وقامت النائحات في بيوتها ومنازلها، ويقول المؤرخون الثقاة أن النكبة شملت بيوت مكة وأسرها الكبيرة فلم يسلم منها أحد،

ونظم الشعراء المراثي وقام الندابون يندبون القتلى ويحثون على المطالبة بثأرهم والانتقام من قاتليهم وتلك عادات العرب وتقاليدها.

وفي شهر ذي الحجة وهو الشهر الرابع لمعركة بدر (وكانت في شهر رمضان) شاع في المدينة أن أبا سفيان بن حرب غادر مكة يقود ٢٠٠ راكب من قريش فسلك النجدية، وهو طريق قديم لا يسلكه سوى عرب تلك الجهات في الوقت الحاضر، وظل يتقدم حتى نزل في جبل يُقال له نيب على مسافة ١٥ كيلو مترًا من المدينة ثم خرج في الليل حتى أتى بني النضير– وينزلون غربي المدينة– فطرق باب حيي بن أخطب وهو من كبارهم فأبى أن يفتح له فقصد أطمة سلام بن مشكم سيد القوم فدخل عليه وقضى عنده ليلته.

وبديهي أن أبا سفيان لم يطرق ديار بني النضير، ولم يجتمع بزعمائهم، ويجب أن يلاحظ بأن قدومه كان في شهر ذي الحجة أي بعد شهرين من غزوة بني قينقاع وطردهم من المدينة ولا نشك أنه أثر أثرًا عميقًا في جيرانهم وابناء عمومتهم ومن يدري؟ فقد يكون بينهم من ندم لقعودهم عن نصرتهم.

ولم تخف هذه الاعتبارات عن أبي سفيان وهو الذكي الألمعي، فقصدهم ليجتمع بزعمائهم، وليسعى في إنشاء تحالف بينهم وبينه والقبيلان موتوران من المسلمين فيتعاونان على قتالهم ويوحدان الخطط للقضاء عليهم، وتلك كانت إحدى الغايات التي رمى إليها أبو سفيان من رحلته إلى المدينة وزيارته لبني النضير، ولو كان يريد مهاجمة المدينة فعلاً لجاء بقوات أكبر كما فعل يوم أُحُد بعد ذلك.

وهنالك غاية أخرى وهي تجسس حال المسلمين وعجم عودهم ودرس علاقاتهم بجيرانهم، وقد أدرك أبو سفيان كل ذلك من اجتماعه بسلام بن مشكم

سيد بني النضير فأطلعه على حال المدينة وما كان يجهل ما يجري في داخلها، ويلوح لنا أنه لم يوفق في حمل يهود بني النضير على مخالفة قريش؛ لأنهم كانوا يرون أن مصلحتهم الخاصة تقضي بأن لا يزجوا بأنفسهم في حرب طاحنة لا ناقلة لهم فيها ولا جمل، سيما وقد كانت العلاقات بينهم وبين المسلمين حسنة إجمالاً حتى ذلك الوقت وكانوا مرتبطين باتفاقات تقضي عليهم بأن يشتركوا معهم في الدفاع عن المدينة إذا هاجمها مهاجم أي أن معاهدتهم كانت دفاعية فقط.

وأراد أبو سفيان– بعدما اجتمع بابن مشكم ودرس الحالة عن كثب وعرف ما يود معرفته– ألا يعود من دون أن يعمل عملاً ماديًا يشعر المسلمين بوصوله إلى قرب عاصمتهم فأرسل حين الرحيل جماعة من رجاله فهاجموا العريض في ضاحية المدينة فحرقوا نخلاً وقتلوا معبد بن عمرو الأنصاري وحليفًا له كانا فيها ثم عادوا على الأثر فانضموا إلى رفقائهم فارتحلوا من دون أن يقفوا لمنازلة المسلمين.

وغادر النبي ﷺ المدينة على الأثر يقود ٢٠٠ من المهاجرين والأنصار في طلب المكيين فلم يدركهم فواصل التقدم حتى بلغ قرقرة الكدر على طريق مكة فوقف فيها مدة ثم قفل من دون أن يشتبك معهم وتُعرف هذه الحادثة في السيرة النبوية بغزوة السويق؛ لأن القريشيين طرحوا في رجوعهم إلى مكة كمية من زادهم ومن السويق فغنمه المسلمون وأضافوا الغزوة إليه.

و لم يطل المطال بعد ذلك على قريش حتى جمعت قواها ورجالها وزحفت بها على المدينة فوقعت معركة أُحُد وستقرأ تفاصيلها في الصفحات التالية.

غزوة غطفان

كانت قبيلة غطفان من قبائل الحجاز المعروفة في تلك الأيام. والظاهر أنها

بادت فلم نعثر لها على أثر، وكانت تنزل شرقي المدينة على طريق نجد في منطقة قريبة من منازل فزارة وسليم وعبس وذبيان وتبعد منازلها عن المدينة نحو ١٥٠ كيلو مترًا، ويرجح أن تكون في منطقة الحناكية المعروفة في شرقي المدينة الآن.

ووصلت الأخبار إلى المدينة في شهر المحرم من السنة الثانية بأن جمعًا من بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا بقيادة دعثور بن الحارث المحاربي يريدون غزو المدينة، فخرج النبي ﷺ على رأس ٤٥٠ مقاتلاً يقصدهم فلجأوا إلى رؤوس الجبال عند دنوه من أرضهم.

ويجب أن يلاحظ أن مجموع جيش المسلمين زاد في هذه الحملة ١٣٧ رجلاً بالنسبة لعدده يوم بدر فقد كان حينئذ ٣١٣ وهو الآن ٤٥٠، أي أن الزيادة بلغت نحو الثلث تقريبًا، وقضى شهرين في نجد للبحث والاستطلاع وتُعرف حالة تلك البلاد وقبائلها ورجالها تمهيدًا للأعمال المقبلة التي كان ينوي القيام بها في أرجائها عند سنوح الفرص.

وليس هذا كل ما فعله المسلمون في نجد خلال تلك المرحلة فقد عادوا إليها للمرة الثالثة في شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة. وبيان ما وقع أن أخبارًا وصلت إليهم بأن أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وحويطب بن أبي العزى من تجار قريش خرجوا بقافلة كبيرة يطلبون العراق بدلاً من الشام، خوفًا من المسلمين وقد أصبحوا يسيطرون على شمالي الحجاز.

وسيّر النبي ﷺ على الفور قوة بقيادة زيد بن حارثة على رأس ١٠٠ راكب فالتقت بقافلة قريش عند ماء يقال له (الكدر) في نجد فهاجمتها فهرب الذين كانوا فيها من الرجال، والظاهر أن عددهم كان قليلاً؛ لأنهم ما كانوا يتوقعون مهاجمة المسلمين

في أراضي نجد، وغنمها هؤلاء وعادوا بها إلى المدينة، وهي أول قافلة يغنمونها.

ويقول المؤرخون إنه كان فيها فضة كثيرة، وأن سهم بيت مال المسلمين وهو الخُمس بلغ ٢٥ ألف درهم من غنائمها وهو مبلغ لا يُستهان به.

أحُـــــد

زاد تتابع الحوادث وسيرها في أحقاد قريش، ودفعها إلى التعجيل بمحاربة المسلمين، وللقضاء على نفوذهم واستعادة ما كان لها من مقام كادت تفقده؛ فمن نكبة بدر الكبرى، إلى تهديد خط تجارتها مع الشام، وقد انقطع أو كاد في السنة الثانية لظهور المسلمين في الشمال، إلى سيطرتهم على تلك المنطقة الواسعة؛ ولولا ذلك لما اضطر أبو سفيان إلى السفر للعراق، ولم ينجه ذلك منهم فقد هاجموه وانتزعوا قافلته وأمواله فانقلب يدعو ويلاً وثبورًا.

فهذه الاعتبارات الجوهرية تُضاف إليها الرغبة في استعادة السيادة والسلطان وإعادة الأمور في شمالي الحجاز إلى ما كانت عليه، جعلت قريشًا تسرع في إعداد حملتها الكبرى على المدينة ولم يبخل زعماؤها وأغنياؤها بالمال، فقد جادوا به كما أثبت المؤرخون، وسلموه إلى أبي سفيان وأطلقوا يده إطلاقًا تامًا في اتخاذ ما يراه من تدابير.

وقضى أبو سفيان أشهرًا يعد ويستعد، ولما تكاملت قواه وكان ذلك في شهر رمضان (أي بعد سنة من معركة بدر الأولى) وثلاثة أشهر من معركة «الكدر» في نجد، واعتقد أن رجاله قادرون على اقتحام المدينة والتغلب على المسلمين وخضد شوكتهم سار بهم إليها لقتالها، والانتقام من سكانها، وتألف جيش قريش في هذه المرة من ٤ عناصر :

(١) الأحابيش وهم جيش مكة الأهلي.

(٢) المتطوعون من أبناء مكة وصناديها.

(٣) بنو كنانة أحلاف قريش.

(٤) قبائل تهامة أحلاف قريش.

ويقولون إن عدد رجالها بلغ ثلاثة آلاف مقاتل منهم ٧٠٠ دارع يملكون عددًا كبيرًا من الإبل والخيل والسلاح والذخيرة.

وصحبت بعض نساء مكة- وفي مقدمتهن هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة أبي سفيان وابنة عتبة المقتول يوم بدر مع ابنه الوليد- الجيش، وغني عن البيان أن خروج النساء معهم يدل على أن قريشًا كانت جادة وعلى أنها أدركت أن تساهلها مع المسلمين في أول الأمر، عاد عليها بالوبال فجاءت تتلافاه وتتلو عليهم درسًا في الشجاعة والنجدة يعيد إليها مكانتها بين القبائل ويفتح طريق الشام في وجه تجارتها الواسعة.

ولم يكن ما يجري بمكة من استعداد بخافٍ على الرسول ﷺ فقد كان عمه العباس يطلعه على التفصيلات، وكان ذلك شأنه في معظم الأدوار، ومما لا ريب فيه أن ضلع الذين ظلوا في مكة من الهاشميين كان مع الرسول فكانوا يعطفون عليه وإن لم يدخلوا في دينه، يؤيد هذا قوله لأصحابه يوم بدر قبل المعركة «من لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنما خرج مستكرهًا»، فرد عليه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وكان من المسلمين الأولين وقد هاجر إلى المدينة واشترك في بدر قائلاً: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف، وقد أُسر العباس في تلك

المعركة وقُتل فيها ربيعة والد أبي حذيفة والوليد شقيقه وشيبة عمه.

وكتب العباس إلى ابن أخيه بما جرى ووصف له الحالة فلما تلقى النبي الرسالة جمع المسلمين على الفور وأخبرهم بسير قريش لقتالهم وسألهم عما يرونه وكان من رأيه أن يقيموا مدافعين داخل سور المدينة وقال لهم (دعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر وإن دخلوا علينا قاتلناهم) وأيّد عبد الله بن أُبي بن سلول هذا الرأي وقال: يا سول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فدعهم يا رسل الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

وكان المنطق السليم يقضي على جمهور المسلمين الأخذ بهذا الرأي الناضج بيد أن فريقًا كبيرًا منهم وفي مقدمتهم الشبان وكانوا لا يزالون نشوى بخمرة انتصار بدر كبُر عليه الوقوف وراء الأسوار وألحوا على الرسول بأن يخرج بهم إلى القتال فلا يقول الناس إن المسلمين ضعفوا أو جبنوا.

ومع أنه كان من رأيه عدم الخروج كما قدمنا وهو ما تقضي به مصلحة المسلمين وكانوا لا يزالون أقلية بالنسبة لقريش ويوحي به الفن العسكري؛ إلا أنه قرر الخروج أخذًا برأي الأكثرية لئلا يتهم بالاستئثار فدخل إلى منزل ولبس لامته وتهيأ للحرب ثم خرج إليهم يدعوهم إلى الخروج فحاول بعضهم القعود وقال له إنهم استكرهوا الخروج وإنهم يرون البقاء في المدينة ولقاءهم فيها عملاً برأيه الأول فأنكر عليهم ترددهم وقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل» وأصّر على الخروج لأنه رأى أن المصلحة تقضي به وخرج بالقوم وعددهم ألف

محارب قاصدًا جبل أُحُد وذلك يوم الجمعة ١٤ شوال.

جبـل أُحـد :

وجبل أُحُد في شمال المدينة وبينه وبينها خمس كيلو مترات، وهو فوق واد يعرف باسمه، وقد اختاره النبي ﷺ مقرًا لجيشه، مع أنه واقع في شماليها وقريش قادمة من الجنوب، لأنه أدرك أن تحصن المسلمين فيه يفيدهم فائدة كبيرة من الوجهة العسكرية، ولابد لنا من القول إن احتشاد المسلمين في أُحُد معناه أنهم تخلوا عن المدينة، وما كان تخليهم عنها ذات أهمية من الوجهة العسكرية ما دامت قواهم سليمة لم يتطرق إليها الوهن والضعف.

الشقاق في جيش المسلمين :

واغتنم عبد الله بن أُبي– وقد كان يحسد النبي ﷺ كما قدمنا ويود التخلص منه فينفرد بالسيادة على المدينة– فرصة عدم أخذ المسلمين بما أشار به من التحصن وراء الأسوار وخروجهم للقتال، فخاطب قومه وهم في الشوط على طريق أُحُد أي بعد خروجهم من المدينة، وقال لهم «ارجعوا أيها الناس ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا، فقد أطاعهم وعصاني»، ثم رجع ورجع معه ٣٠٠ من قومه. فلم يؤثر ذلك في نفوس الباقين وواصل النبي ﷺ السير بالذين ظلوا معه وعددهم ٧٠٠ حتى بلغوا أُحُد فنزلوا فيه.

اليهود والدفاع عن المدينة :

وعملاً بما تقضي به المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود دعا بني قريظة والنضير إلى الاشتراك معهم في الدفاع عن المدينة، فاعتذروا بأن المعركة تقع في يوم سبت وهم لا يحملون سلاحًا فيه، وقالوا إن المعاهدة نفسها تسمح لهم بالتخلف

عن المعارك التي تقع بعيدًا عن المدينة، أي إنهم لا يقاتلون إلا في داخل الأسوار فقط.

وشذ مخيريق من أحلاف بني النضير عن جماعته وقال لهم لا سبت لكم وأخذ سيفه وعدته وتطوع في جيش المسلمين وقال إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء وقاتل حتى قُتل، فقال النبي ﷺ كلمته المشهورة «مخيريق خير اليهود» على أن هنالك من المؤرخين من يزعم أن النبي ﷺ لم يستنصر باليهود ولم يدعهم إلى الاشتراك معه في قتال، فقد روى ابن هشام أن الأنصار سألوه قائلين: «ألا نستعين بحلفائنا اليهود؟ فقال: لا حاجة لنا بهم» ويلوح لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصحة.

تعبئة الجيش :

عبأ المسلمون جيشهم في عدوة وادي أُحُد جاعلين ظهرهم إلى الجبل وذلك قبل وصول قريش، وأقام النبي ﷺ الرماة وعددهم ٥٠ في الجناح الأيسر على أكمة وأمرهم بأن لا يغادروا مكانهم مهما كان سير القتال، كما أمر المشاة بأن لا يبدأوا قريشًا بقتال قبل أن تبدأهم.

وأقبلت قريش بعد ذلك برجالها وظعنها فنزلت بالسنجة تجاه المسلمين ورتبت قواها وقدمت الرماة في الصف الأول، وجعلت الفرسان وكان عددهم ٢٠٠ على الجناحين، وكان خالد بن الوليد يقود الجناح الأيمن، وعكرمة بن أبي جهل يقود الجناح الأيسر، وقاد صفوان بن أمية المشاة، وكانت القيادة العليا لأبي سفيان، فكان هنالك أموي وهاشمي يتنازلان ويتقاتلان.

وكان عدد النساء في جيش قريش ١٧ امرأة أقمن في الساقة لرد المنهزمين وإضرام نار الحماسة في الصدور بأناشيدهن وأقوالهن وقد أدين في تلك المعركة أجل الخدم.

المعركـة :

ودارت المعركة بشدة وصدق المسلمون الحملة على قريش فوقع الذعر والاضطراب في صفوفها، وظلوا يتقدموا حتى وصلوا إلى الظعن أي إلى الساقة ورجال قريش يفرون من أمامهم.

وظن رماة المسلمين أن المعركة انتهت، حين رأوا قريشًا تتراجع منهزمة، واعتقدوا أن كل شيء تم وأن النصر تقرر للمسلمين، فغادروا أماكنهم في الجبل وانحدروا ينادون الغنيمة الغنيمة، وعبثًا حاول قائدهم عبد الله بن جبير صدهم مذكرًا إياهم بقول الرسول، فلم يقفوا ولم يرتدوا وقالوا: «والله لنأتين الناس ولنصيبن من الغنيمة فإن المشركين قد انهزموا فما مقامنا هنا»، ورأى خالد بن الوليد– وكان على جناح قريش الأيمن– أن الفرصة سانحة للقيام بعمل حاسم فهجم بخيالته ملتفًا وراء المسلمين وقاطعًا عليهم خط رجعتهم، فتبدل الموقف فجأة، ووقع الذعر والاضطراب في صفوفهم، وزاد في اضطرابهم وشتاتهم نداء منادي قريش بأن محمدًا قُتل مع أن المقتول هو مصعب بن عمير فثبت القرشيون واطمأنوا وزلزل المسلمون ووجلوا.

والواقع أن هجوم خالد الفجائي على المسلمين، أوقع الذعر والاضطراب في صفوفهم، وفي نفوسهم، فغادر بعضهم ميدان القتال لاحقًا بالمدينة، وتفرّق غيرهم في أماكن أخرى وثبت قسم وهم الأقلون في الميدان وأحاطوا بالرسول ﷺ وقاتلوا

دونه وأصابه سهم رماه عتبة بن أبي وقاص فشج وجهه وجرح شفته السفلى وكسر رباعيته (سنه) اليمنى فسال الدم على وجهه، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه، وسقط في حفرة فأخذ عليّ بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجهه، وانتزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه فسقطت ثنيته ثم انتزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى.

واستبشر المسلمون الذين ظلوا في الميدان واطمأنوا حينما عرفوا حياته، فهرعوا إليه والتفوا حوله وعددهم ١٤: سبعة من المهاجرين، ومثلهم من الأنصار، وقام وقاموا معه إلى الشِعب وكان منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فتحصنوا فيه، فلحق بهم أُبي بن خلف من قريش محاولاً قتله، فتناول النبي ﷺ حربة الحارث بن الصمة ورماه بها فسقط عن ظهر فرسه مجروحًا ومات وهو في طريقه إلى مكة.

ومثلت قريش بعد انتهاء المعركة ببعض قتلى المسلمين، فقد طافت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي جئن معها الميدان تجدع آذان القتلى وأنوفهم، ولما وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب بقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها فلم تسغها فلفظتها، واتخذت من آذان القتلى وأنوفهم قلائد عُدن بها إلى مكة.

وأشرف أبو سفيان على الجبل في المساء ونادى بأعلى صوته: انعمت فعال إن الحرب سجال يوم أُحُد بيوم بدر. فرد عليه عمر بن الخطاب وقال: لا سواء بيننا قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال له أبو سفيان: هلم إليّ يا عمر، فأمره الرسول ﷺ بأن يأتيه، فأتاه فقال له أنشدك الله يا عمر هل قُتل محمد، فقال : اللهم

لا، ثم انصرف بعد أن واعد المسلمين على اللقاء ببدر في العام المقبل.

وقضى الرسول ﷺ ليلة الأحد في أُحُد، وفي الصباح نادى بمن معه بالرحيل لمطاردة العدو فسار بمن معه حتى بلغ حمراء الأسد وتبعد عن المدينة نحو ١٢ كيلو مترًا جنوبًا فأقام فيها أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم عاد إلى المدينة.

واستشهد من المسلمين يوم أُحُد ٧٠ من المهاجرين والأنصار، وخسرت قريش ٢٣ قتيلاً.

عوامل فشل المسلمين :

معركة أُحُد هي المعركة الثانية التي وقف فيها المسلمون وجهًا إلى وجه أمام قريش وكانت نتيجتها انهزامهم وخسارتهم سبعين قتيلاً كانوا في أشد الحاجة إليهم.

ولا يحتاج الباحث إلى كبير عناء ليعلل ما جرى، ففي الحوادث التي بسطناها ما يغني عن كل إسهاب وتعليق فقد ظهر منها أن المسلمين كانوا مترددين من أول الأمر، فقد ألحوا في الخروج حينما أُبلغوا أن قريشًا سارت إليهم، مع أن الرسول دعاهم إلى البقاء وراء الأسوار. ثم عادوا بعد ذلك وبعد ما تم الاتفاق على الخروج، واقترحوا البقاء فأبى الرسول ذلك عليهم لأنه أدرك أنه لو جارهم لفقد النظام من جيشه. وزاد الطين بلة تخاذل عبد الله بن أُبي ورجوعه ومن أطاعه من قومه وإحجامهم عن الاشتراك في القتال بحجة أنهم لم يصغوا لرأيه. وحاول عبد الله ابن عمرو بن حزام الأنصاري إقناعه بالرجوع وقال له ولمن معه «يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر عدوهم» فأبوا ولما استعصوا عليه قال لهم «أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم».

ومع كل ما وقع فقد كانت الغلبة عند الصدمة الأولى للمسلمين، بيد أن ما أتاه الرماة بتخليهم عن أماكنهم وكانوا يحمون الجناح الأيسر مكَّن خالد بن الوليد من قطع خط رجعتهم واختراق صفوفهم، فتفرقت جموعهم، وتشتت قواهم.

تلك هي العوامل المادية التي يلوح للباحث أنها عملت في فوز قريش وانهزام المسلمين، فخروجهم من المدينة للحرب، وما كان لهم أن يخرجوا؛ بل كان عليهم أن يقاتلوا وراء أسوارها، ثم ترددهم في الخروج، ثم تخاذل عبد الله بن أُبي، ثم تخلي الرماة عن أماكن، إن هذه الاعتبارات ضمنت لقريش الانتصار والفوز بعد ما هُزمت في أول المعركة وكادت تمزق أيدي سبا. وبين الباحثين من يعتقد أن معظم الفضل في ما نالته قريش من فوز يعود إلى خالد بن الوليد قائد جناحها الأيمن فقد عرف أن يهتبل الفرصة حينما تخلى الرماة عن أماكنهم فهاجم بقواه المسلمين واخترق صفوفهم فكان النصر على يديه.

وقنع قادة قريش بما أدركوه من فوز وأقروا ما فعلته نساؤهم من التمثيل بالشهداء وأزمعوا الرحيل معتقدين أن محمدًا وأصحابه قتلوا وإن أمرهم قد انتهى، ولم يفكروا في دخول المدينة أو احتلالها، وما كانت هناك قوة تصدهم وتقاومهم لو أرادوه.

وأُسقط في يد أبي سفيان في المساء حينما قابله عمر بن الخطاب وأبلغه أن محمدًا لا يزال على قيد الحياة، ولم يبعثه ذلك على التوقف واستئناف القتال.

ولم يفقد النبي ﷺ شيئًا من رباطة جأشه رغم ما حدث، ولم يشغله جرحه واستهدافه للخطر عن أمر المسلمين والمدينة، فإنه لم يكد يضمد جرحه ويطمئن

على أصحابه حتى أوعز إلى من حوله، بأن يستطلعوا خبر قريش ويعرفوا الناحية التي سلكتها في رجوعها وقال لهم: إذا ركبوا الخيل تكون المدينة وجهتهم، أما إذا امتطوا الإبل فتكون مكة وجهتهم، فالإبل أقدر على السفر الشاق البعيد من الخيل. ولما أخبروه أنهم امتطوا الإبل قال: لقد عادوا إلى مكة.

وأدرك أبو سفيان بعد ما قطع مسافات أنه أخطأ بإسراعه في الرجوع وعرف أنه كان يجب عليه أن يجهز على المسلمين ويقضي على قواهم فعاودته فكرة الرجوع وكاد أن ينفذها لولا ما بلغه من لحوق النبي بهم على رأس قوة كبيرة وسعيه لإدراكهم ومنازلتهم.

وبيان ما وقع أن الرسول رحل بالذين ظلوا معه، غداة المعركة أي صباح الأحد بعد ما قضوا الليلة في أُحُد فساروا وسار على رأسهم لمطاردة قريش من دون أن يدخل المدينة وقد انضم إليهم قبل رحيلهم عدد من الصحابة الذين لجأوا إليها بعد الهزيمة وواصلوا السير حتى بلغوا حمراء الأسد وتبعد ١٢ كيلو مترًا عن المدينة على طريق مكة أي من ناحية الجنوب.

ولقد أدرك بحركته هذه أغراضًا شتى فأعاد القوة الأدبية إلى صدور أصحابه بعد الانهزام الذي أصابهم، كما أقام الدليل لأعدائه على أنه لا يزال قادرًا على الكفاح والنضال، وأن انكسار أُحُد لم يفقده عزيمته فأرهبهم ومنعهم عن الرجوع إلى قتاله وهو ما وقع فعلاً. فقد روى ابن هشام أن أبا سفيان ومن معه توقفوا في الروحاء وقد أجمعوا أمرهم على الرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين فمرّ بهم معبد بن أبي معبد الخزاعي فسأله أبو سفيان عما وراءه فقال له إن محمدًا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقًا وقد

اجتمع حوله من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيعوا والحنق عليكم شديد فارتبك أبو سفيان وسأل معبدًا عما يراه فنصحه بأن يرتحل على الفور، فقال لقد أجمعنا على أن نعود إليهم لنستأصلهم، فقال له إني أنهاك عن ذلك شفقة عليكم.

وانضم صفوان بن أمية وهو من كبارهم إلى هذا الرأي، وأشار بعدم الرجوع فامتثلوا له، ولو أعادوا الكرة على المدينة لكانت النكبة أعظم.

وهنالك أيضًا غرض آخر رمى إليه الرسول ﷺ من زحفه هذا وهو أنه أراد إقامة الدليل لأعدائه ومنافسيه في المدينة وحولها على أنه لا يزال قويًا قادرًا على متابعة الكفاح والنضال فإنه ما كان يجهل أنهم سيغتنمون الفرصة ليجددوا حملتهم على الإسلام وما سكتوا إلا مكرهين مضطرين.

الخندق وقريظة

كرّ المسلمون كرّتين في المنطقة الجنوبية خلال المدة المنقضية بين غزوة غطفان ومعركة الخندق.

فقد خرجوا في شهر شعبان للسنة الرابعة وعددهم ألف وخمسمائة مقاتل معهم ٥٠ فرسًا إلى بدر، للقاء أبي سفيان وكان واعد المسلمين اللقاء فيها حين انتهاء معركة أُحُد.

وأقام المسلمون في بدر ثمانية أيام ينتظرون وفود قريش فلم تفد، ويقول المؤرخون إنها تجهزت في ألفين وخمسمائة مقاتل وغادرت مكة حتى بلغت مكانًا قريبًا من مر الظهران (وهي على ٣٠ كيلو مترًا من مكة إلى شمالها الشرقي على طريق المدينة) فخطبها أبو سفيان قائلاً: «يا معشر قريش: إنه لا يصلحكم إلا عام

خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا» فرجعت إلى مكة و لم تذهب إلى بدر للقاء من ينتظرها، وهزأ أهل مكة بالعائدين وسموهم جيش السويق وقالوا لهم إنما خرجتم تشربون السويق.

ووصلت أخبار إلى المدينة في شهر شعبان من السنة الخامسة بأن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي من خزاعة جمع الجموع لمحاربة المسلمين فخرج النبي ﷺ للقائهم على رأس قوة كبيرة من المشاة منها ٣٠ فارسًا، وواصل التقدم حتى بلغ المريسيع وهو ماء لبني خزاعة من ناحية قديد ساحل البحر الأحمر، فلقي بني المصطلق وهم من خزاعة فدارت معركة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون وقتلوا عشرة من الخزاعيين وأسروا باقي رجالهم، ويُقال إنهم كانوا لا يقلون عن ٧٠٠ وسبوا النساء وأخذوا الذرية وساقوا النعم والشاة.

وتزوج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق وكانت في السبي فأطلق المسلمون ما كان في أيديهم من الأسرى وقالوا: «أصهار رسول الله ﷺ »، وأسلم أبوها وأكثر قومها وأصبحوا من أنصار الإسلام بعد ما كانوا من خصومه.

ففوز المسلمين في غزوة بني المصطلق وظهورها بما ظهروا به من القوة حينما قصدوا بدرًا للقاء قريش، ويسمون هذه الغزوة ببدر الثالثة، فقد جاءوها بألف وخمسمائة مقاتل معهم ٥٠ فرسًا، في حين أنهم يوم بدر الثانية لم يزيدوا على ثلاثمائة وبضعة عشر مقاتلاً- وانتصارهم على بني النضير، وخروجهم إلى نجد، أن هذا النشاط العظيم زاد في حقد خصومهم، وحرك أحقادهم، فاتصلوا وتكاتبوا وألّفوا بين العناصر التي عُرفت بعدائها للمسلمين، وأنشأوا بينها اتحادًا وثيقًا حمل

على المدينة بعشرة آلاف مقاتل، لاحتلالها والقضاء على الحركة الجديدة في ربوعها.

عناصر الاتحاد الجديد :

كان لزعماء اليهود من بني النضير الذين أُخرجوا من ديارهم ولجأوا إلى خيبر يد كبيرة في إنشاء هذا الاتحاد أو الحلف بين قبائل الحجاز وجماعاته، فقد قصد نفر منهم- وفي مقدمتهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع- مكة فاتصلوا بزعمائها وكبارها وقالوا لهم إنا سنكون معكم يدًا واحدة في قتال المسلمين. ويروى أنهم قالوا لهم أيضًا إن دينكم خير دين وأنتم أولى بالحق منه، وما كانوا يجهلون بأن دين الإسلام التوحيد ودين قريش الوثنية.

وقصد زعماء اليهود أيضًا ديار غطفان، خصوم المسلمين بعدما أتموا مهمتهم في مكة، فدعوهم إلى محالفة قريش وقالوا لهم إنها أجمعت أمرها على استئصال المسلمين، وأن اليهود على وفاق معها، وأنه يجدر بهم الانضمام إلى التحالف الجديد ولم يزالوا بهم حتى انضموا إليهم.

وعكف أبو سفيان على إنشاء جيش قوي يهاجم به المدينة ويريح قريشًا من منافسيها، فاستعان بالأحلاف والأنصار من القبائل المجاورة لمكة، وهكذا تسنى له حشد عشرة آلاف مقاتل قصد بها المدينة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، ونظن أن هذا أكبر جيش عرفه الحجاز حتى ذلك العهد.

قوات جيش الأحلاف :

وتتألف عناصر الجيش الجديد أو جيش الأحلاف أو الأحزاب كما سماهم القرآن كما يأتي:

(١) قريش مع أحابيشها.

(٢) كنانة وقبائل تهامة الموالية لقريش.

(٣) غطفـان.

(٤) بنو مرة من خزاعة في شمال الحجاز.

(٥) أشجع، وهم من القبائل النازلة بين مكة والمدينة.

(٦) بنو قريظة، وقد انضموا إليهم بعد وصولهم إلى المدينة.

تلك هي القبائل التي اجتمعت لقتال المسلمين من الجنوب والشرق والشمال وسارت إليهم بعشرة آلاف مقاتل، ولا يدخل في هذا الرقم المقاتلون من بني قريظة فقد انضموا إليهم بعد وصولهم، ومعنى ذلك أن مجموع عددهم ما كان يقل عن ١١ ألف مقاتل.

تدابير المسلمين وقواتهم :

وتلقى ولاة الأمور في المدينة تفاصيل ما جرى في مكة وأحاطوا خبرًا بما بذله زعماء اليهود من الجهود لتحزيب الأحزاب، واطلعوا على عدد القوى التي تتأهب للزحف عليهم.

واستشار النبي ﷺ أصحابه فيما يفعل، وسألهم هل يخرج للقاء القادمين في خارج المدينة، أم يلقاهم في داخلها فاتفقوا على الأخذ بالشق الثاني وبدأوا بإفراغ المدينة وجعلها في حالة دفاع وأرسلوا النساء والأطفال إلى الأطم البعيدة في الضواحي ليكونوا في مأمن من العدو إذا استباح الحمى.

واقترح سلمان الفارسي على النبي ﷺ أن يحفر خندقًا حول المدينة يمنع الأعداء من اقتحامها وقال له إن من عادتنا في فارس أن نحفر هذه الخنادق حول

المدن للدفاع عنها في زمن الغارات فأعجب بهذا الرأي وأخذ به بلا تردد، ولئن لم يكن الخندق معروفًا في جزيرة العرب حتى يومئذ، ولئن لم يكن رآه من قبل، إلا أنه أدرك بثاقب نظره وأصالة رأيه أن حفره قد يفيد في حالة كحالتهم فأرسل فنادى في المسلمين يدعوهم إلى التطوع لحفر الخندق.

وكان هو في مقدمة العاملين وقد أجمع الرواة على أنه كان ينقل التراب على ظهره بالزنبيل وكان يردد أثناء النقل البيت الآتي:

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

فيجيبه العاملون معه من المسلمين :

نحن الذين بايعـــوا محمــدا   على الجهاد ما بقينا أبــدا

وأنشد أيضًا في أثناء عمله الأبيات الآتية وهي لابن رواحة شاعر الأنصار:

تالله لولا الله ما اهـتدينا   ولا تصدقنا ولا صــلينا

فأنزلــن سكــينــة علينـــا   وثبت الأقدام إن لاقينـــا

إن الآلي لقـــد بغـوا علينـا   إذا أرادوا فتنـــة أبينـــا

وكان يرفع صوته بالشطر الأخير قائلاً: أبينا. أبينا.

وأتم المسلمون حفر الخندق في خلال بضعة عشر يومًا قضوها في عمل متواصل، كما أتموا حشد قواهم وبلغت ثلاثة آلاف مقاتل في هذه المرة، واستعدوا للقاء عدوهم.

ووصل بعد ذلك جيش قريش وتقدم من دون مقاومة؛ لأن المسلمين كانوا وراء خندقهم- وتسمى هذه الحرب باسمه «الخندق».

فنزل في مجتمع الأسيال من دومة بين الجرف والغابة. أما المسلمون

فاحتشدوا دون الخندق وجعلوا ظهرهم إلى جبل سلع ويبعد عن المدينة نحو كيلو مترين إلى الشمال، مقابل جبل أُحُد، وقد صمموا على النضال حتى النفس الأخير.

وكان الرماة منهم على أتم استعداد للقتال في هذه المرة كما كان فرسانهم يطوفون حول الخندق من الداخل ليل نهار لمنع العدو من اقتحامه.

ودهش رجال قريش وحلفاؤهم حينما رأوا الخندق – وما كانوا يعرفونه من قبل ولا خطر لهم ببال أن المسلمين يفاجئونهم بهذه المفاجأة الغريبة– فوجموا وتشاوروا فيما يفعلونه فاستقر قرارهم على النزول فنزلوا وضربوا خيامهم.

مقابلة بين القوتين :

ولا يخفى أن حالة المسلمين كانت تختلف اختلافًا كبيرًا عن حالة قريش فقد كانوا يقيمون في منازلهم، وعلى مقربة من أهلهم، وعندهم ما يحتاجون إليه من قوت ومعدات وقد وطدوا أنفسهم على الصبر والثبات والنضال إلى ما شاء الله. أما قريش وأحلافها فما كانوا يظنون أن المسألة تكلفهم أكثر من أيام معدودات، كما حدث يوم أُحُد، يصلون في خلالها إلى المدينة فيضربون ضربتهم الكبرى وينهبون أموال المسلمين وحلالهم ويغنمون كل ما يملكونه ثم يقتسمونه فيرجع كل قبيل إلى قبيلته غانمًا سالمًا، وبديهي أنهم لم يفكروا في ادخار ما يمير هذا الجيش اللجب وليس من السهل تموينه ولا تقديم حاجياته اليومية من مأكل ومشرب وعلف ولوازم أخرى في بلاد قاحلة تكاد تكون خالية من كل شيء حتى من الماء، ولذلك لقي قادته عناءً كبيرًا في تثبيت رجالهم وفي تدارك القوت لهم، يضاف إلى هذا أن العربي لم يألف الوقوف أمام الأسوار ومحاصرتها، وليست الحرب في نظره سوى وسيلة من وسائل الكسب والربح، فإذا خاضها فإنما يخوضها

لهذه الغاية في الغالب لا ليموت ولذلك فهو لا يجازف بحياته وقد نتج عن هذا أن قل عدد الذين يُقتلون في الحروب منهم.

على أن حالة المسلمين كانت تختلف عن حالة غيرهم، فقد نفخ الإسلام فيهم روحًا جديدة فأخذوا يتسابقون إلى الموت ابتغاء الحصول على رضوان الله واكتساب مرتبة الشهادة للتمتع بما أعد للشهداء من مقام رفيع وثواب عظيم في الدار الآخرة. وهذا الاعتبار هو في مقدمة الاعتبارات التي ضمنت للمسلمين النصر والتفوق على أعدائهم وخصومهم فقد كانوا يحاربون في سبيل غايتين الأولى: تأييد الدين ونصرته وتعزيز كلمة الإسلام، وأجرهم على ذلك أجر المجاهدين، والثانية: الحصول على مرتبة الشهادة وتلك أقصى ما يصبو إليه المسلم، في حين أن أعداءهم ما كانوا يحاربون في سبيل غاية معينة معروفة، ولهذا ما كانوا يثبتون أمامهم حين اللقاء رغم تفوقهم في العدد والعدد في معظم الأحيان، يضاف هذا إلى تفكك الروابط الاجتماعية بين هؤلاء واختلاف كلمتهم وتعدد زعمائهم في حين أن كلمة المسلمين موحدة ومثل ذلك قيادتهم، وجيش مثل هذا الجيش له وحدة القيادة والغاية والنظام لابد من تغلبه وانتصاره على تلك الشراذم المتفرقة المتفككة.

وأدرك قادة الجيش الإسلامي أن مطاولة الأحلاف وعدم الاشتباك معها في معركة حاسمة يضعفها ويزيد في مشاكلها وارتباكاتها فأحجموا عن منازلتها واكتفوا بالمرابطة وراء خندقهم والمحافظة عليه ومنع قريش من تخطيه أو تجاوزه. وانقضى الأسبوع الأول والحالة كما وصفنا، والجيشان واقفان أمام بعضهما بعضًا يتبادلان الشتائم في بعض الأحيان تكيلها قريش للمسلمين وتعيرهم بالوقوف وراء خندقهم وتدعوهم لتخطيه.

وأدرك هؤلاء أن امتداد زمن الحصار يضعفهم ويلقي الاضطراب في صفوفهم ويكاد يفل جموعهم؛ لأن الذين جاءوا معهم من الأحلاف والأنصار لم يأتوا للوقوف وراء الأسوار، وإنما جاءوا للسلب والنهب، فعولوا على القيام بعمل حاسم فاقتحم بعض فرسانهم، وفي مقدمتهم عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن عبدود ونوفل ابن عم خديجة بنت خويلد مكانًا ضيقًا من الخندق وهاجموا المسلمين أملاً بأن يجروهم إلى القتال فلقيهم عليّ بن أبي طالب مع بعض إخوانه وصمدوا لهم، فقُتل الأول وهُزم الثاني، وسقط الثالث في الخندق وهو منهزم فمات.

اشتراك بني قريظة في القتال :

و لم يكد جيش الأحزاب يحط رحاله حول المدينة، حتى ذهب حيي بن أخطب إلى بني قريظة، وكانوا قد أغلقوا حصنهم، وأعلنوا حيادهم، فطرق الباب فأبوا أن يفتحوه فألح ففُتح له فاجتمع إلى سيدهم كعب بن أسد، فخاطبه عاملاً على استمالته إلى جانب الأحزاب وإشراكه في الحرب التي أوقدوها لاستئصال المسلمين والانتقام لليهود، فتردد في قبول الاقتراح وقال لصاحبه إنه عاهد محمدًا ﷺ على الوفاء والصدق وليس هنالك ما يستوجب نقض العهد، فقال إنها فرصة لا يجوز الزمان بمثلها، فقد جاءت قريش وغطفان وكنانة ومُرّة وغيرها ببحر زاخر من الرجال، وما هي إلا أيام حتى يتلاشى أمر المسلمين ويُقضى عليهم، فاشترك معنا في هذا العمل، وفُز بهذا الفخر، و لم يزل به حتى أقنعه بالانضمام إلى الأحلاف فأعلن نقضه للعهد والتحاقه بقريش فثبت ذلك الأحزاب وبث فيها روحًا جديدة، وأطال مدة الحصار على المسلمين.

وشاع في المدينة خبر نقض قريظة للعهد وانضمامها إلى الأحلاف فانتدب النبي ﷺ وفدًا قوامه سعد بن معاذ (سيد الأوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) وعبد الله بن رواحة شاعر الأنصار وخوات بن جبير بن عمرو بن عوف، لاستطلاع خبرها، وموافاته بالصحيح من أمرها، وقال لهم قبل رحيلهم: «إذا رأيتم أن ما بلغنا عن انضمامها إلى الأحزاب صحيحًا فالحنوا لي لحنًا أعرفه (وذكره لهم) ولا تفشوا ذلك بين الناس لئلا يفت في أعضادهم، وإن كان الأمر بالعكس وكانوا على الوفاء فافشوا ذلك واجهروا به».

وأبلغ كعب بن أسد الوفد حينما قابله نبأ نقضه العهد وانضمامه إلى الخصم، وقد لا يبعد أن يكون عمل على إقناعه بالعدول عن هذه الخطة فأبى، فعاد من دون أن ينال منالاً، وشاع ذلك بين المسلمين فأثر في نفوسهم وأزعجهم، ولم تك حالتهم الداخلية على ما يرام، فقد كان هنالك ابن أُبي ومن معه يثبطون الهمم ويبثون الدعوة للقعود عن القتال والتخاذل قائلين إنه لا قِبَل لأهل المدينة بمقاومة عربان الحجاز وقد اتفقت على قتالهم وأجمعت على استئصالهم.

التذرع بالأساليب السياسية :

ورأى الرسول ﷺ أن أفضل ما يعمل في مثل تلك الحالة هو التذرع بالوسائل السياسية لتفريق كلمة الأحزاب وإضعافهم وذلك بعقد صلح منفرد مع غطفان يحملها على التخلي عن قريش واتصل سراً بواسطة عاصم بن عمر بن قتادة بعيينة بن حصن بن حذيفة وبالحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وعقد معهما مبدئيًا صلحًا منفردًا اشترط فيه أن يرحلا برجالهما عن المدينة مقابل ثلث محصول ثمرها من التمر.

ولما وصلت المفاوضات السرية إلى هذه المرحلة و لم يبق سوى التوقيع على العقد دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة (زعيمي الأوس والخزرج) وأطلعهما على خبر المفاوضات الدائرة بينه وبين غطفان وعلى ما تم الاتفاق عليه وسألهما رأيهما وهل يوافقان على الاتفاق فيعقده؟ أم يعارضان فيه فيرفضه؟ فقالا له:

– هل هو من عندك تحبه فتصنعه أم هو من عند الله أمرك به ففعلته ؟

– هو من عندي وقد رأيت أن أفعله لكم لأنني رأيت أن العرب قد اجتمعت عليكم ورمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أكسر شيئًا من شوكتهم بعقده.

فقال سعد بن معاذ: كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون منا بثمرة إلا قري أو بيعًا أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهكذا فشل المشروع وقُضي عليه.

وجاء نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان إلى رسول الله ﷺ وقال له:

– إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت.

– إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

وقصد نعيم بن قريظة وكان يعرفهم ويعرفونه وكان نديمًا لهم وألقى عليهم شباكه والظاهر إنه كان ذكيًا ألمعيًا يعرف من أين تؤكل الكتف- فاجتمع إلى ساداتهم وكبارهم وقال لهم: لقد عرفتم صداقتي لكم وحبي إياكم وعرفتم أنني أغار على مصلحتكم وأنشد الخير لكم، قالوا ما أنت بمتهم عندنا.

قال: والرأي عندي أن لا توغلوا في قتال المسلمين ولا تسرفوا في معاداتهم قبل أن تنالوا رهائن من أشراف قريش وغطفان يبقون في أيديكم لأنكم لا تأمنون أن ينسحبوا غدًا ولا أرض ولا مال لهم هنا بعكس حالكم، فأنتم من أهل البلاد وعندكم المال والمتاجر والمزارع فتبقون وحدكم فيفتك بكم المسلمون وتذهبون ضحية انضمامكم إلى حلفاء شأنهم غير شأنكم.

فأثرت مقالته في نفوس القرظيين وقالوا له سنفعل ما أشرت به ونطلب الرهائن قريبًا.

وانطلق الغطفاني حينما وثق من نجاح مشروعه، فلقي أبا سفيان ومعه وجوه قريش وقال لهم عرضًا في أثناء الحديث إنه اتصل به من ثقة أن بني قريظة ندموا على انضمامهم إلى الأحزاب وقيامهم على محمد وأنهم أرسلوا إليه نفرًا من قومهم يبلغونه ندمهم على ما فعلوه ويقولون له هل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنسلمك إياهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك حتى تستأصل أثرهم وترتاح منهم فأجابهم بالقبول فاتفق الفريقان على تنفيذ هذه الخطة، ثم قال فإذا أرسل إليكم اليهود بطلب رهائن فإياكم أن تعطوهم شيئًا فإنهم لن يلبثوا حتى يسلموهم إلى المسلمين فيقتلوهم وقد رأيت أن أبلغكم ما عرفته لتكونوا على حذر وكل ما أرجوه هو أن تكتموه فلا يشيع بين الناس فوعدوه الكتمان.

وانطلت حيلة الفتى الغطفاني على أبي سفيان فأوفد على الفور وفدًا برئاسة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان- وكان نعيم قد أبلغهم ما أبلغ قريشًا- إلى قريظة يطلب إليهم أن يستعدوا للقيام بهجوم عام على المسلمين

وضرب صباح غد «السبت» موعدًا له وأن يكونوا على تمام الأهبة للاشتراك فيه.

فاعتذر اليهود مبدئيًا عن الاشتراك في الهجوم بحجة أن اليوم يوم «سبت» وهم لا يباشرون عملاً فيه ثم قالوا «إننا لن نقاتل معكم ولن نشترك في معركة حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون في أيدينا فإننا نخشى أن تنسحبوا غدًا إذا اشتدت الحرب وتتركونا وشأننا أمام المسلمين يفتكون بنا ويقتلوننا ولا طاقة لنا بهم».

وعاد الوفد إلى أبي سفيان ومن معه فأبلغهم ما قاله اليهود وأطلعهم على شروطهم فقال بعضهم لبعض والله لقد صدق نعيم فيما قاله ورواه فالقوم سيئو النية ولن نسلم إليهم أحدًا من رجالنا لئلا يكون مصيره الهلاك، ثم أرسلوا يبلغونهم أنهم غير مستعدين لتسليمهم الرهائن، وإنهم إذا كانوا يريدون القتال فليقاتلوا منفردين فأبى اليهود مباشرة القتال إلا بعد أن ينالوا الرهائن خوفًا من المصير السيئ الذي ينتظرهم. وهكذا دب الشقاق في صفوف الأحلاف ووقع الانقسام بين زعمائهم، ففترت هممهم وأدركهم الوهن وأخذوا يترقبون الفرص للخلاص مما هم فيه وللانسحاب «بانتظام» فلا تقول العرب إنهم انهزموا وانكسروا.

ثورة الطبيعـة :

وفيما هم على هذه الحال يضربون أخماسًا في أسداس هبت عليهم عاصفة ثلجية باردة- وكانوا يحاصرون المدينة في شهر فبراير سنة ٦٢٧ فاقتلعت الخيام وقلبت قدور الطعام وهدمت المعسكرات فتفرقوا وتشتت شملهم، ولما رأى أبو سفيان ما صاروا فيه خطب قومه قائلاً:

«يا معشر قريش: إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل» وقام إلى جمله فركبه وارتحل وارتحل معه القوم فانتهى برحيلهم أمر الأحزاب وفشلت محاولتهم، وخاب سعيهم.

وخسرت قريش في حرب الأحزاب ثلاثة من رجالها، وقُتل من المسلمين خمسة وجُرح سعد بن معاذ ومات بعد ذلك متأثرًا من جراحه فكان عدد قتلاهم ستة.

واستردت المدينة بعد انسحاب الأحزاب بهجتها، وانتفى الخطر الذي كان يهددها وجيء بالذرية والنساء من الأطم، وكان يومها من الأيام الكبرى عند المسلمين فقد بشرهم النبي ﷺ فيه بأن قريشًا لن تغزوهم بعد ذلك، وأنهم سيغزونها، ويفوزون عليها وقد صدق فيما قال ﷺ .

استئصال بني قريظة :

لم يسرح النبي ﷺ جيشه، بعد انسحاب الأحزاب، ولم يجنح إلى الراحة والسكون، بعد كل ذلك العناء والتعب الشديدين في حربهم- وقد أقاموا حول المدينة ٢٢ يومًا- بل نادى مناديه بين المسلمين يوم ٢٣ ذي القعدة، أي بعد ظهر اليوم الذي انسحبوا في الليلة السابقة له بأن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

وتتابع المسلمون على الإثر وخرجوا بعدهم فنزل على بئر من آبارهم. ولزم اليهود حصونهم فحاصروهم وأقاموا على ذلك مدة ٢٥ يومًا أدرك هؤلاء في

نهايتها أن لا رجاء فعزموا على الاستسلام فأرسلوا إلى الرسول يقترحون أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه في أمرهم فأرسله، فلما وصل سألوه هل ينزلون على حكم محمد فأشار عليهم بالنزول فأبلغوه في الغداة أنهم قرروا الاستسلام بدون قيد ولا شرط فيقرر مصيرهم كما يشاء، وتدخل الأوس في الأمر– وكانوا حلفاءهم– واقترحوا على الرسول أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء الخزرج– أي يكتفي بإخراجهم من ديارهم وبمصادرة أموالهم وجز شعر رؤوسهم، فقال لهم ألا توافقون على أن يحكم في مصيرهم رجل منكم قالوا بلى. قال فجيئوني بسعد بن معاذ، وكان يعالج من جرحه يوم الخندق فجيء به من المدينة محمولاً على حمار وحوله نفر من قومه، فقال له الأنصار حينما وصل: يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك اليهود لتحكم فيهم.

فقال: إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء.

وأقر الرسول الحكم وقال لسعد لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سماوات) فقبض على رجالهم وساقوهم مكتفين إلى المدينة وسجنوهم في دار بنت الحرث وعددهم يتفاوت بين ٦٠٠–٧٠٠ وقيل ٩٠٠ وفيهم حيي بن أخطب زعيم بني النضير وكعب بن أسد زعيمهم ثم أمر بأن تُضرب أعناقهم فكانوا يأتون بهم أفواجًا إلى سوق المدينة فيقتلونهم ويلقونهم في حفر أعدوها لهذه الغاية، وقام علي بن أبي طالب والزبير بن العوام بهذه المهمة، ولم يقتلوا من النساء سوى واحدة طرحت الرحا على خلاّد بن سويد فقتلته.

وغنم المسلمون أموال بني قريظة واقتسموا فيما بينهم. وسبوا نساءهم وأرسلوها إلى نجد بقيادة سعد بن زيد الأنصاري فباعها وابتاع بثمنها خيلاً

وسلاحًا. وغنموا أيضًا كمية كبيرة من الماشية والإبل والأثاث والأمتعة والثياب ووضعوا أيديهم على منازلهم وأراضيهم ونخيلهم وكرومهم.

خسارة المسلمين :

وقُتل من المسلمين في بني قريظة واحد هو خلّاد بن سويد وقد طرحت عليه يهودية رحى فمات فقُتلت به كما تقدم.

بعد الخندق :

ألحقنا غزوة قريظة بالخندق لأنهما من دوحة واحدة، فالأولى أصل والثانية فرع، ولولا انضمامها إلى الأحزاب ومجاهرتها المسلمين بالعداء، ونقضها عهدهم وقد اعترف به كعب بن أسد، لما هاجموها ولما استأصلوها.

ولابد لنا من القول إن ما جرى في غزوتي بني قينقاع والنضير تكرر هنا تقريبًا، فلم يشهر اليهود سيفًا، بل اكتفوا بالاعتصام وراء أسوارهم كما فعل إخوانهم من قبل، ينتظرون المعونة والمساعدة من الخارج فلما أبطأت عليهم، استسلموا بلا قيد ولا شرط، وما كانوا يجهلون بأن مصيرهم سيكون الذبح والفناء العاجل، وقد كان في إمكانهم- ولو كان عددهم أقل من عدد محاصريهم- أن يقاوموا جهد طاقتهم ما دام المصير في الحالتين الموت. ولئن عامل النبي القرظيين بغير ما عامل به إخوانهم فلأن جريمتهم كانت أكبر، فهم لم يكتفوا بالقعود عن الاشتراك مع المسلمين في الدفاع عن المدينة عملاً بما تقضي به العهود المكتوبة بينهم، وكانت المدينة في خطر شديد، بل انضموا إلى أعداء المسلمين وخصومهم في أشد ساعات الخطر وأدقها منتهكين حُرمة القواعد الأخلاقية العامة. وحينما

ذهب وفد المسلمين لإقناعهم بالكف عما عزموا عليه رفضوا وأبوا. فإن قيل إنهم كانوا موتورين من المسلمين لأنهم فتكوا بإخوانهم، نجيب بأن هؤلاء اكتفوا في المرتين الأوليين بإجلاء أبناء عمومتهم ولم يريقوا دمهم ولم يصادروا شيئًا من أموالهم؛ بل اكتفوا من بني قينقاع- وهم أول قبيلة قاومتهم- بالجلاء واكتفوا من بني النضير بأخذ السلاح مع الجلاء.

فالمسلمون أرادوا من إنزال هذه العقوبة القاسية ببني قريظة أن يجعلوهم عبرة لغيرهم من الذين يقدمون على نقض العهود وإنكارها ولا يحجمون عن الوثوب على الجار في أشد ساعات الخطر وطعنه من الوراء طعنة قاتلة، ولولا ذلك لما عاملوهم بما عاملوهم به، ولاكتفوا منهم بالجلاء، فالغاية التي كان يرمي إليها المسلمون في ذلك العهد هي التخلص من العناصر الأجنبية الخطيرة، واتقاء الدسائس الخارجية لا سفك الدماء ولا إزهاق الأرواح، وما كان ذلك من شأنهم، ولا مما يأمر به دينهم.

ولا ريب أن فوز المسلمين في هذه الغزوة كان مضاعفًا وكان عظيمًا، مع أنهم كرهوها في أول الأمر وتخوفوا منها ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فقد أثبتت عجز قريش مع كل ما جمعته من قوى وألبته من رجال، فظهر للعيان عجزها عن التغلب عليهم، واستئصالهم فادت- بعد حصار امتد ٢٢ يومًا وبعد جهود بُذلت في خلال شهور- تجر ذيل الفشل طويلاً، كما أثبت أن المسلمين اصبحوا قوة قوية يُحسب حسابها ويُخشى جانبها، فارتفع شأنهم وتعززت مكانتهم فالوقوف أمام بضعة عشر آلاف مقاتل، والثبات في وجوههم مدة غير قصيرة، ثم ارتداد هذه

الألوف المؤلفة وتشتتها فيه ما فيه من المعاني الدالة على تضامن المسلمين واتحادهم وقوتهم.

وقد تكلل الفوز السلبي الذي ناله المسلمون في الخندق بفوز إيجابي أعظم أدركوه في بني قريظة إنهم فضلاً عن تخلصهم من منافس شديد- كان يهددهم في عقر دارهم، ولا يخفى أن القرظيين كانوا أكثر عددًا وأوفر سلاحًا من أبناء عمومتهم الآخرين- استولوا على كمية كبيرة من السلاح والمتاع والذخائر فازدادوا بها قوة ومنعة وقضوا في الوقت نفسه على النفوذ اليهودي في منطقة المدينة وتخلصوا بعد نضال استمر نحو أربع سنوات تقريبًا من منافس قوي فلم يبق أمامهم سوى يهود خيبر وكانوا أكثر يهود الحجاز عددًا، سيما وقد انضم إليهم عدد غير قليل من بني قينقاع والنضير بعد جلائهم وبعض البطون الصغيرة الأخرى حول المدينة وليست بذي بال.

وكان أول ما فعله المسلمون بعدما ارتاحوا من كفاحهم وأمنوا جانب قريش وما كان في استطاعتها أن تعود إلى مهاجمتهم- فيما لو حدثتها النفس بالمهاجمة- إلا بعد انقضاء وقت طويل لتعد في خلاله جيشًا أعظم من جيش الخندق. وأمنوا جانب اليهود، وكانوا يحسبون حسابهم- نقول إن ما فعلوه هو أنهم تجهزوا لغزو بني لحيان وهم الذين فتكوا بعاصم بن ثابت وزملائه الخمسة الذين أُرسلوا إلى نجد للتبشير بالدين الإسلامي فقتلوا أربعة منهم واقتادوا اثنين باعوهما في مكة فذُبحا انتقامًا- فقد تجهز النبي ﷺ في شهر ربيع الأول من سنة ست أي بعد بني قريظة بشهرين فقط وخرج يقود ٢٠٠ من أصحابه منهم ٢٠ فرسًا قاصدًا بني لحيان.

ومع أنه تظاهر أنه يقصد الشام (الشمال) في غزوته تلك– وقد كانت هذه عادته في الغالب، فما كان يذكر اسم المكان الذي يقصده بل ولا يوري به، وكثيرًا ما كان يذكر اسم غيره لئلا يتنبه الذين يقصدهم فيستعدوا للقائه فلا ينال منهم منالاً، وسلك في ابتداء سيره طريق الشام ثم اتجه إلى الطريق الأصلي– إلا أنه لم يعمل عملاً عسكريًا يُذكر فقد وصل فرأى بني لحيان مقيمين في رؤوس الجبال فنزل في ديارهم وقضى فيها يومين يبث السرايا ويرسلها إلى الأطراف، ثم عاد بطريق عسفان لأنه أدرك أن لا فائدة من طول الإقامة هنالك لصعوبة بلوغ القمم التي اعتصم فيها هؤلاء.

ونزل المسلمون بعسفان وتبعد عن مكة نحو ٨٠ كيلو مترًا من جنوبيها على طريق المدينة، وأرسلوا أبا بكر مع كوكبة صغيرة من الفرسان للارتياد وللقيام بشبه مظاهرة عسكرية إرهابًا لقريش. ولما عادت الكوكبة اتجهوا إلى عاصمتهم، وما كادوا يستقرون فيها، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري (وكان يقود جموع فزارة وغطفان يوم الخندق في جيش الأحزاب) فسطوا على ٢٠٠ ناقة للنبي ﷺ كانت ترعى بالغابة واستاقوا بعدما قتلوا راعيها وسبوا امرأته.

ووصل الخبر إلى المدينة، فركب النبي ﷺ في خمسمائة من رجاله، وترك سعد بن عبادة مع ٣٠٠ للدفاع وسار وراء المغيرين فأدركتهم الخيل وناوشتهم فاستردوا بعض النياق وقُتل بعضها، وواصل المسلمون تقدمهم حتى بلغوا ذا قرد وهو ماء في شرقي المدينة ويبعد عنها نحو ١٥٠ كيلو مترًا فأدركوا القوم ولم يشتبكوا معهم بحرب.

وجهز النبي ﷺ بعد ذلك بأسابيع قليلة (أي في شهر ربيع الثاني) سرية من ١٠٠ رجل بقيادة محمد بن مسلمة الأنصاري، لارتياد ديار بني ثعلبة (غطفان) وتجسس أخبارهم.

والظاهر أن خبر هذه البعثة الصغيرة وصل إلى القوم قبل وصولهم فأعدوا العدة للقائها، ولم يهاجموها حينما قدمت بالليل بل تركوا رجالها حتى ناموا فأحدقوا بهم ثم بدأوا بإطلاق النبال فوثب المسلمون إلى أسلحتهم وتقابلوا ساعة قُتل فيها رجل من بني ثعلبة فحمل إخوانه بالرماح على هؤلاء فتقلوهم إلا محمد بن مسلمة فقد جُرح ثم نقله رجل من المسلمين إلى المدينة.

ولما صلت هذه الأخبار إلى المدينة جهز النبي ﷺ أبا عبيدة على رأس ٤٠ رجلاً وأمره بأن يقصد المكان الذي قُتل به رجال السرية فسار فلم يجد أحدًا من بني ثعلبة ووجد متاعهم ومواشيهم فجاء بها إلى المدينة ولم يشتبك معهم في قتال.

الأعمال العسكرية في شمالي المدينة

لم يعد المسلمون إلى العمل في الميدان الشمالي سحابة أربعة سنوات أي بعد غزوة ودان أو الأبواء، فقد انصرفوا في خلال هذه المدة الطويلة، إلى مكافحة قريش وتنزل في الجنوب، وغطفان وسليم، وتنزلان في الشرق، واليهود كانوا حول المدينة كما تقدم.

وأول مرة تجهز فيها المسلمون لغزو بعيد واقتربوا فيه من حدود الشام، وكان الشام خاضعًا للروم، كانت غزوة دومة الجندل (الجوف) الآن وهو في شرقي المدينة الجنوبي وتبعد عنها بطريق تيماء نحو ٦٠٠ كيلو متر، وبطريق حايل

(نجد) نحو ألف كيلو متر وهي مجموعة مزارع تُعرف الآن بهذا الاسم.

ويُقال في أسباب هذه الغزوة أنه بلغ المسلمين أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا يظلمون من يمر بهم من تجار الميرة الحجازيين وإنهم يريدون مهاجمة المدينة، فسار النبي ﷺ إليهم بألف من المسلمين، وكان يسري في الليل ويكمن في النهار ومعه دليل من بني عذرة اسمه مرعب وذلك في أول السنة الخامسة فبلغ أراضيهم و لم يدر قتال بينه وبينهم، ويقول بعض المؤرخين أن المسلمين رجعوا بنعم القوم وشائهم.

وعاد المسلمون إلى الظهور في هذه المنطقة في شهر شعبان للسنة السادسة فقد جهّز النبي سرية عهد بقيادتها إلى عبد الرحمن بن عوف وقال له حينما سلمه اللواء «خذه يا ابن عوف: اغزوا جميعًا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم».

وكانت المهمة التي نيطت بعبد الرحمن- وكان معه ٧٠٠ مقاتل- أن يمضي إلى بني كلب، في منطقة دومة الجندل، وكانوا أصحاب «دولة» مستقلة تمتد أراضيها من دومة الجندل حتى تبوك وتيماء فيدعوهم إلى الإسلام فإن استجابوا له وأسلموا فليتزوج ابنة ملكهم.

وأقام عبد الرحمن في ديارهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وأسلم في اليوم الرابع ملكهم الأضبع بن عمرو الكلبي وأسلم معه كثيرون من قومه وتزوج عبد الرحمن تماضر بنته وقدم بها المدينة. وكان ذلك مقدمة لانتشار الإسلام في تلك الربوع.

و لم يعد المسلمون إلى العمل في هذه المنطقة إلا بعد فتح مكة فقد احتلوا خيبر وتيماء

وتبوك وصالحوا صاحب دومة الجندل على الجزية ووصلوا في تقدمهم حتى البلقاء.

فتح خيبر ووادي القرى

ازدادت نقمة اليهود الحجازيين على الإسلام بعد حادث بني قريظة، فنشطوا ولا سيما أبناء خيبر- وإلى خيبر لجأ كثير من بني قينقاع والنضير- إلى مقاومة الإسلام والكيد له والعمل على استئصاله، بتأليب القوى وجمع الجموع كما فعلوا يوم الأحزاب، ولم تكن أخبارهم مجهولة عند ولاة الأمور في المدينة، ولذلك عولوا على ضربهم والتخلص منهم، وأقاموا يتحينون الفرص لتنفيذ خطتهم، وما كان غزو خيبر بسيطًا، لوفرة عدد رجالها، وكثرة سلاحها، ولمناعة الأراضي التي تنزلها، ولتعدد حصونها وكانت هنالك سلسلة حصون منيعة أحسن اليهود إعدادها وتنظيمها خوف الطوارئ والمفاجآت.

ولم يطل المسلمون الإقامة في المدينة بعد رجوعهم من مكة، وبعد عقد هدنة الحديبية، وقد أمنوا بعقدها جانب قريش كما قدمنا فتجهزوا لفتح خيبر وهي واقعة في شمال المدينة الشرقي وفي طرف الحرة المعروفة باسمها، ففي شهر المحرم من السنة السادسة غادروا عاصمتهم يقودهم زعيمهم الأكبر وعددهم ١٦٠٠ مقاتل بينهم ٢٠٠ فارس.

وبلغ الجيش الإسلامي خيبر ليلاً، فنزل بقربها، وصدر إلى رجاله الأمر بأن يناموا ويستريحوا حتى الصباح، جرى كل هذا وأهل خيبر غافلون عما يُدبر لهم، ويُراد بهم، ولذلك فوجئوا بوصول المسلمين وكان أول من شاهدهم الفلاحون الذين اعتادوا الخروج في البكور إلى أعمالهم في المزارع والغيطان فصاحوا بقومهم: محمد والخميس (أي الجيش).

وعبأ المسلمون قواهم تعبئة عسكرية منظمة وقسموها إلى قسمين: قسم وهو الأكبر أُعد لمهاجمة حصون اليهود وإشعال القتال. وقسم وهو الأقل أُقيم على الطريق بين خيبر وغطفان لمقاومة هذه وصدها إذا حدثتها النفس– وكانت على عداء مع المسلمين– بالانضمام إلى اليهود.

وكان لليهود في خيبر سبعة حصون كبيرة مبنية بالحجارة للاعتصام بها والدفاع من ورائها إذا هاجمهم مهاجم. وهذه أسماؤها:

ناعم. القموص. أبي الحقيق. الشق. النطاة. السلالم. الوَطيح. الكتيبة

واحتشد المقاتلة من اليهود حينما وصل المسلمون في داخل حصن النطاة، وهو في مكان مرتفع وحوله مزارع النخل، ووضعوا نساءهم وأطفالهم في حصن الكتيبة.

وتقدم المسلمون من حصن النطاة، فجاء الحباب بن المنذر– وهو الذي أشار يوم بدر بالعدول عن التعبئة الأولى إلى النبي ﷺ يقترح عليه التحول من مكانه ويقول: «إن لي بأهل النطاة معرفة، وليس قوم أبعد مدى منهم ولا أعدل رمية، وهم مرتفعون علينا ولا نأمن من مفاجأة يفاجئوننا بها، يأتوننا من بين النخيل» ولم يتردد النبي في الأخذ برأيه فتحول وتحول الناس إلى مكان أصلح وأوفق.

وأمر النبي ﷺ بقطع شجر النخيل المحيط بالنطاة لأن كثرته تحول دون إجراء الحركات العسكرية فقطعوا نحو ٤٠٠ نخلة فخرج اليهود لقتالهم فدارت معركة عنيفة بين الفريقين اشترك فيها النبي ﷺ بالذات وقاتل أشد قتال وانتهت المعركة ولم ينل أحد من الفريقين منالاً، واستؤنف القتال في الغداة وتكرر في اليوم الثالث والرابع والخامس وأهل الحصن ثابتون يخرجون للقتال في النهار ويلجأون إليه في الليل.

وجاء في جوف الليلة السادسة يهودي من أهل خيبر إلى النبي ﷺ وقال له إنه خرج من حصن النطاة وأن رجال حاميته يتسللون منه في تلك الليلة ويذهبون إلى حصن الشق فيجعلون فيه ذراريهم ويتهيأون للقتال. ولم يشترك النبي ﷺ في القتال الذي دار في اليوم السادس لوجع أصابه في رأسه.

ودعا في اليوم السابع بعلي بن أبي طالب وسلمه الراية وأمره أن يقاتلهم فقال أأقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن لم يطيعوا لك فقاتلهم، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم.

وخرج عليّ حتى ركز الراية تحت حصن النطاة، وكان الحارث أخو مرحب وهو من كبار شجعان اليهود أول من خرج للقائه فقتله، فخرج إليه أخو مرحب فقتله أيضًا، وخرج ياسر أخوهما فخرج إليه الزبير بن العوام وقتله، ثم حمل المسلمون على الناعم ففتحوه، ثم القموص، وتتابع الفتح بعد ذلك فسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر ولم يبق سوى الوطيح والسلالم، وقد أقام المسلمون على حصارهما أربعة عشر يومًا وأرسل اليهود إلى النبي ﷺ بعد ذلك يعرضون عليه الصلح، لأنهم تبينوا عدم فائدة المقاومة وعرفوا أن المسلمين يستعدون للقيام بهجوم عام عليهم، فدارت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالاتفاق على القواعد الآتية:

(١) يحقن المسلمون دماء المقاتلة من اليهود ويتركون الذرية.

(٢) يجلوا اليهود عن خيبر وأراضيها بذراريهم.

(٣) لا يأخذ أحدهم أكثر من ثوب واحد.

(٤) تكون ذمة الله تعالى ورسوله محرمة منهم إن كتموا شيئًا.

وهكذا تم الصلح واستولى المسلمون على خيبر وجلا عنها اليهود إلا بعضهم وتركوها بين يدي الفاتحين، وهذا بيان الغنائم التي غنموها:

١٠٠٠ رمح

١٠٠ درع

٤٠٠ سيف

٥٠٠ قوس

وغنموا أيضًا كميات كبيرة من الشعير والتمر والودك والمتاع والماشية وغيرها. وأخذوا أيضًا كنز آل أبي الحقيق وقد حمله حيي بن أخطب حينما هاجر مع قومه من بني النضير.

وبلغت جملة قتلى المسلمين في معارك خيبر كلها ١٥ قتيلاً مقابل ٩٣ قتيلاً من اليهود.

فدك تطلب الأمان :

ولما وصلت الأخبار إلى فدك- وهي مدينة لليهود في ذاك الجوار- بسقوط خيبر واستسلام أهلها أوفدوا وفدًا قابل النبي وعرض خضوعهم على أن يدفعوا له نصف حاصلاتهم فصالحهم.

مهاجمة وادي القرى وتيماء :

وعرج وهو في طريقه إلى المدينة على وادي القرى وهو آخر حصن لليهود في الشمال قبل تيماء، فحاصره أربعة أيام وفتحه عنوة، وغنم منه غنائم كثيرة، وأقام عاملاً عليه عمرو بن سعيد بن العاص.

وجاءه وهو في وادي القرى سكان تيماء اليهود يعرضون طاعتهم وخضوعهم فصالحهم وأقرهم على ما بأيديهم وعيّن يزيد بن أبي سفيان عاملاً عليها.

ثم رجع إلى المدينة بعد ما أخضع شمالي الحجاز كله وأدخله في دائرة الدولة الجديدة وقضى على نفوذ اليهود وغنم أموالهم وسلاحهم.

وأقام الرسول ﷺ بعد رجوعه من خيبر ثمانية أشهر في المدينة (ربيع الأول- شوال) سيّر في خلالها خمس سرايا: الأولى بقيادة عمر بن الخطاب إلى هوازن (الطائف)، والثانية بقيادة أبي بكر إلى بني كلاب، والثالثة إلى بني مُرّة بفدك، والرابعة بقيادة غالب بن عبد الله الليثي إلى بني مُرّة بفدك أيضًا، والخامسة بقيادة بشير بن سعد إلى غطفان، نجح أكثرها وأدى المهمة التي انتُدب إليها. وهكذا ما كان يدخر جهدًا في نشر الإسلام وتعميمه.

فتح مكــة

انقضى العام الأول لصلح الحديبية أو كاد، وجاء زمن العمرة فأمر الرسول المسلمين أن يتهيئوا لزيارة مكة وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية وخرج وخرجوا ومعه غيرهم حتى بلغ عددهم الألفين- كما قالوا وذلك في شهر ذي القعدة للسنة السابعة- يسوقون ٦٠٠ ناقة للهدي، وقد تسلح منهم ١٠٠ فارس ألّفوا الطليعة، وحملوا سلاحًا خوف غدر أو خيانة واستعدادًا للنضال إذا حدث ما يستوجبه.

ولئن لم يعارض المكيّون في دخول المسلمين إلى مدينتهم كما فعلوا في المرة الأولى، فقد قاطعوهم مقاطعة اقتصادية واجتماعية فلم يبيعوهم ولم يشتروا منهم

ولم يتصلوا بهم وجلا بعض المكيين على جبل قعيقعان كما لزم البعض الآخر منازلهم فلم يخرجوا منها لئلا يتصلوا بالمسلمين أو يحتكوا بهم، ولعل زعماء قريش خافوا أن يؤثر القادمون من المكيين في إخوانهم وأبناء عمومتهم وآلهم المتخلفين ويستميلوهم إليهم فأرادوا من هذا التدبير أن يقطعوا الطريق عليهم ويناموا مرتاحين فكان لهم ما أرادوا.

ولم يشأ النبي أن يدخل مكة بكل من معه من الرجال خوف المفاجأة والغدر فأقام ٢٠٠ منهم مسلحين بالسلاح الكامل في بطن ياجج (مكان قرب مكة) وأمرهم بأن يكونوا على تمام الأهبة والاستعداد فيسرعوا إلى نجدة إخوانهم إذا حدث حادث.

واصطف بعض المكيين من الزعماء والرؤساء عند دار الندوة (قرب الكعبة) لرؤية المسلمين عن كثب حين طوافهم، ودخل النبي مكة للمرة الأولى بعدما هجرها يحيط به أنصاره ورجاله، وقد أخذ عبد الله بن رواحة شاعر الأنصار بخطام ناقته.

وبعد ما أتم هو وأصحابه الطواف والسعي نحر هديه عند المروة وحلق إيذانًا بانتهاء العمرة ثم أمر مائتين من رجاله الذين قضوا مناسكهم بأن يذهبوا إلى جرول (بطن ياجج) فيحلوا محل إخوانهم فيأتي هؤلاء لأداء مناسكهم ففعلوا.

وانقضت الأيام الثلاثة التي سُمح للمسلمين بأن يقضوها في مكة عملاً بأحكام المادة الثالثة من اتفاق الحديبية، فجاءه ظهر اليوم الرابع سهيل بن عمرو (بطل معاهدة الحديبية ومندوب قريش في عقدها وتوقيعها) وحويطب بن عبد العزى وناشداه العهد بأن يخرج من أرضهم عملاً بالاتفاق، فأمر رجاله بالرحيل

فرحلوا وعادوا إلى المدينة سالمين من دون أن يحدث لهم حادث. ولا ريب أن دخولهم على قريش في غيلها، وظهورهم بما ظهروا به من القوة أثر في نفوس الكثيرين من أبنائها وعجل في خضوعها للمسلمين فإنه لم يكد ينقضي عام على العمرة حتى كان كل شيء قد انتهى وحتى دخلت مكة في حوزة المسلمين وخضعت قريش. لهم وعلت كلمتهم في الحجاز وأصبحوا أصحاب الأمر والنهي في ربوعه.

وبيان ما حدث أنه لما عقد اتفاق الحديبية، وخيرت القبائل الضاربة حول مكة في الانضمام إلى إحدى الفئتين انحازت خزاعة إلى المسلمين (وكانت تنزل بأسفل مكة عند بئر يقال له الوتير) ودخلت في عقدهم وانحاز بنو بكر بن عبد مناة إلى قريش ودخلوا في عقدها، وكان بين هاتين القبيلتين خلاف قديم وثارات مطلوبة.

واغتنم نوفل بن معاوية الديلي (من بنيل ديل من بني بكر) فرصة الهدنة وقعود الناس عن الحرب، فأعد عدته لمهاجمة خزاعة طلبًا لثأر قديم له عندها، وباغتها ذات ليلة على بئر الوتير (أسفل مكة) فدار قتال بين الفريقين قُتل فيه خزاعي واحد واستؤنف القتال في الغداة بين الفريقين فأمدت قريش أحلافها من بني بكر بالسلاح والرجال، ويقال إن بعض زعمائها اشترك في القتال متخفيًا لئلا يتهم بنقض العهد وفقدت خزاعة في هذه المعارك ٢٠ قتيلاً وقيل أكثر.

ولما ولت الحالة إلى هذه الدرجة من الخطورة، قصد عمرو بن سالم الخزاعي المدينة ومعه أحد بني كعب، ليستنجد حلفاءه المسلمين وليذكر لهم عمل قريش ومهاجمتها إياهم ونقضها العهد وتبعه أيضًا بديل بن ورقاء كبير بني خزاعة مع وفد

من قومه فقابلوا الرسول وأطلعوه والمسلمين على ما حدث لهم بالتفصيل.

ورأت قريش أن تتدارك الأمر وأن تزيل ما تركته زيارة الخزاعيين للمدينة من أثر في نفوس المسلمين فانتدبت أبا سفيان لزيارتها فيسعى لحل الخلاف سلمًا، ولإبقاء عهد الحديبية نافذًا محترمًا ويمد مدته إذا أمكن فقد ذاقت (قريش) بواسطته طعم الهدوء والراحة بعد ما حرمتهما طويلاً فعكفت على العناية بتجارتها ومصالحها الاقتصادية ولا تنمو التجارة إلا في ظل الهدوء والسكينة.

ووصل أبو سفيان المدينة وقصد منزل كريمته أم حبيبة زوج النبي وقد تزوجها مدة إقامتها مهاجرة في الحبشة ثم دخل عليها بعد وصولها إلى المدينة في جمادى الأولى من السنة السابعة للهجرة، فاستراح قليلاً ثم أتى المسجد فزار النبي وكلمه فيما جاء لأجله وعرض عليه أن يمد أجل الهدنة واعتذر عما حدث من بكر وخزاعة فأعرض عنه وأبى أن يجيبه ويناقشه فزار أبا بكر ورجاه أن يتوسط لإصلاح ذات البين فرفض فقصد عمر بن الخطاب مستشفعًا فرفض التدخل وأنكر عليه أن يزوره لمثل هذا الأمر وهو المعروف بشدة عداوته لقريش وقال له والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به فخرج حتى جاء علي بن أبي طالب وكلمه كلامًا رقيقًا لينًا لإثارة عاطفته وقال له إنك أمس القوم بي رحمًا وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبًا فاشفع لي عند محمد فأجابه معتذرًا.

والتفت أبو سفيان إلى السيدة فاطمة وكانت تشهد المجلس وأمامها ابنها الحسن وكان لا يزال طفلاً يدب بين يديها ورجاها أن تأمر ابنها (الحسن) أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر فاعتذرت إليه وقالت ما يجير أحد على رسول الله.

وسأل أبو سفيان عليًّا أن ينصحه في الخطة التي يسير عليها بعد ما أقفلت في وجهه الأبواب وضاقت عليه السبل، فأشار عليه أن يقوم بنفسه في المسجد فيجير بين الناس بصفته سيد كنانة وزعيمها. ثم يعود إلى مكة، ففعل ما أشار به عليه ثم عاد إلى قومه فقصّ عليهم ما وقع فأدركوا أنه فشل في مهمته وعرفوا أن المسلمين لن يسكتوا عنهم، وقد جاءت الحوادث مؤيدة لما توقعوه فقد أصدر الرسول على أثر سفر أبي سفيان أمرًا بالتعبئة العامة وأشار بأن تكون «سرية» كما أمر بإقامة حراس على الطرق المؤدية إلى مكة فلا يفلت أحد ولا يصل إلى قريش خبر.

الزحف على مكة :

ولما أتم تعبئته غادر المدينة يوم ٨ وقيل ١٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة يقود جيشًا مسلحًا منظمًا موحد القيادة والغاية يبلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل، وقيل عشرة آلاف، وقيل اثني عشر ألفًا، وهذا بيان عنهم مأخوذ من السيرة الحلبية:

٧٠٠ مهاجر
٤٠٠٠ أنصاري
١٠٠٠ من مزينة
٤٠٠ من أسلم
٣٠٠ من جهينة

وكان في هذا الجيش ٩٨٠ فرسًا موزعة كما يأتي: ٣٠٠ للمهاجرين و٥٠٠ للأنصار و١٠٠ لمزينة و٣٠ لأسلم و٥٠ لجهينة. ويقول ابن هشام إنه غادر المدينة يقود عشرة آلاف، ولا يدخل في هذا الإحصاء الذين انضموا إليه في أثناء

الطريق من أسلم وغفار وأشجع وسليم، وقد أرسل يستنفرهم ويقدرون عند بعض المؤرخين بألفين، أي إن مجموع الجيش عند هؤلاء اثنا عشر ألفًا لا عشرة كما ذهب إليه ابن هشام ولا ستة آلاف وأربعمائة كما أثبت صاحب السيرة الحلبية وسلك المسلمون الطريق السلطاني المعروف في زحفهم.

النـزول بمر الظهـران :

وواصل هذا الجيش اللجب تقدمه وسار يطوي الفيافي والقفار والمسلمون صائمون وهم جد حريصين على كتمان أمرهم وإخفاء خبر مسيرهم حتى وصل إلى مر الظهران (واد كبير تتجمع سيوله من جملة شعاب وأودية شمالي وشرقي مكة وينحدر سيله غربًا فيسقي جميع المزارع في وادي فاطمة ويبعد عن مكة ٣٠ كيلو مترًا) فاستقر فيه وضرب مخيمه استعدادًا للعمل العظيم الذي ينتظره.

تدابير قـريش :

وغم على أقطاب قريش أمر المسلمين وانقطعت أخبارهم عنهم- ولما كانوا واثقين من أنهم لن يقعدوا عنهم وأنه لابد لهم من الانتقام منهم لغزوهم خزاعة فقد أقلقهم جهل ما يُدبر في المدينة.

وغادر أبو سفيان مكة في الليلة التي نزل فيها المسلمون مر الظهران ومعه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء لتجسس الأخبار وسؤال الركبان عن حالة المسلمين وقال لصاحبه وقد استوقفت نظره النيران التي أضمرها المسلمون بمر الظهران أنه ما رأى نيرانًا كالنيران المشبوبة الليلة فأجابه بديل لعلها نيران خزاعة.

– إن خزاعة أقل من أن تكون هذه نيرانها.

وأدركهم العباس بن عبد المطلب وقد أزمعوا الرجوع إلى مكة، وكان العباس قد خرج مهاجرًا إلى المدينة للانضمام إلى ابن أخيه، فالتقى به في الطريق وعاد معه، فنادى أبا سفيان فوقف له وقال له ما وراؤك.

– هذا رسول الله في الناس.

– ما الحيلة ؟

– أنصحك بأن تركب عجز هذه البغلة ورائي (وكان يركب بغلة رسول الله) فآتيه بك وأستأمن لك.

– موافـق

وأردف العباس أبا سفيان وجرت بهما البغلة حتى وصلا خيمة النبي فنزلا عنها وأسرعا فدخلا عليه وكان عمر بن الخطاب يعدو وراءهما محاولاً قتل أبي سفيان قبل أن يدخل خيمة الرسول فيجيره فلم يحل ذلك بين عمر وبين اقتحام الخيمة فأخذ العباس برأس أبي سفيان وقال يا رسول الله إنني أجرته وهو في جواري.

وطال الجدال بين العباس وعمر بن الخطاب هذا يلح في قتله وذاك ينادي بأنه أجاره، وأخيرًا أمر الرسول العباس وكان يسمع ما يدور بينهما بأن يبقيه عنده حتى الغداة ليبت في أمره.

وجاء العباس في الغداة بأبي سفيان فلما دخل عليه بادره بقوله:

– ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

– ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله آخر لأغنى عني شيئا.

– ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

– أما هذه فوالله إن في النفس منها شيئًا حتى الآن.

فتدخل العباس وقال له: ويحك أسلم قبل أن تُضرب عنقك فأسلم.

واقترح العباس على أبي سفيان بعد ما دخل في الإسلام وبعد ما تقرر زحف المسلمين على مكة أن يسرع بالرجوع إليها فيتوسط لتستسلم من دون حرب ولا قتال حقنًا للدم وأنه لا طاقة لها بالمقاومة فانطلق فدخلها فصرخ بأعلى صوته قائلاً:

يا معشر قريش: هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به فأسلموا.

فصاحت زوجته هند في وجهه وشتمته ونادت بقومها قائلة: اقتلوا الخبيث.

فقال لهم «ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فادخلوا دار أبي سفيان فمن دخلها فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن».

فتفرق الناس على الفور وقد قُذف في قلوبهم الرعب وجنحوا إلى التسليم فقصد فريق المسجد (الكعبة) فلجأ إليه واعتصم آخرون في بيت أبي سفيان وآوى آخرون إلى بيوتهم.

كيف دخل المسلمون مكة :

عبأ المسلمون جيشهم من الصباح تعبئة عسكرية، استعدادًا لدخول مكة وأعدوه على منوال جعلهم يحيطون بها من جميع الأطراف، فقاد علي بن أبي طالب الطليعة وتلقى أمرًا بأن يدخل من كداء، وقاد الزبير بن العوام الجناح الأيسر، وخالد بن الوليد الجناح الأيمن وأُمر بأن يدخل من الليط (أسفل مكة) وقاد

عبيدة بن الجراح القلب. وقاد الرسول بنفسه الساقة (مؤخرة الجيش) وركز رايته على الحجون (أعلى مكة) وركب ناقته القصواء وتعمم بعمامة سوداء ولبس ملابس الإحرام.

وأصدر قبل الزحف أوامره إلى قادة الجيش وأمرائه بأن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم وأن يعفوا عمن يستسلم إليهم واستثنى من ذلك أحد عشر رجلاً وأربع نساء، امتازوا بعدائهم الشديد للإسلام فهدر دماءهم وأمر أن يقتلوا ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة وهذه أسماء الرجال منهم: عبد الله بن خطل، وعبد الله بن أبي سرح ابن الحارث العامري، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود بن المطلب، وكعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، والحارث بن هشام المخزومي، وزهير بن أبي أمية المخزومي، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحي، ووحشي بن حرب.

وهذه أسماء النساء: سارة مولاة لبني المطلب بن عبد مناف، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية، وفرتنا وقريبة وهما قينتان لعبد الله بن خطل، وقد عفى عن أكثر هؤلاء بعد ذلك ولم يقتل منهم سوى الأول والرابع والخامس فقط وقتلت من النساء قريبة فقط وعفى عن الباقيات.

مقاومة بسيطة :

وحاول فريق من قريش تجمعوا في الخندمة (أسفل مكة) بقيادة صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل المقاومة فصدمهم خالد بن الوليد وهزمهم بعدما قتل ١٢ منهم.

ولما انتهت المقاومة وتم الاستيلاء على جميع الأطراف مشى النبي ﷺ على

ناقته وانطلق حتى أتى الكعبة فطاف سبعة أشواط وصلى ركعتين شكرًا لله على ما أولاه من نصر وتأييد. وبعد ما تسلم مفاتيح البيت وقف على بابه، وكانت قريش مجتمعة في الصفا فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خُلق من تراب. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا.

يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون إني فاعل بكم ؟

– خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

– اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وكان فتح مكة يوم ٢٠ رمضان للسنة الثامنة من الهجرة. وهكذا سقط آخر معقل للوثنية في الحجاز فانهارت بانهياره وتقلص ظلها.

نتائج فتح مكة :

والواقع أن فتح مكة على هذا الموال، لم يك خاتمة النضال بين المسلمين وقريش وحدهما وقد امتد ٢١ سنة تقريبًا ١٣ قبل الهجرة و٨ بعدها بل كان خاتمة النضال في بلاد العرب ووسيلة لاتساع نطاق الإسلام وانتشاره في داخل الجزيرة وفي خارجها، فلم يطل المطال على قبائل شرقي الحجاز- وكانت تلتزم الحياد في العراك الدائر بين المدينة ومكة- حتى أقبلت وفودها تتسابق إلى المدينة، تعلن إسلامها وانضمامها إلى الدولة الجديدة بمحض إرادتها واختيارها ومن دون

ضغط أو إرهاب، لأنها أدركت عدم فائدة القعود والتردد.

ويمكن القول أن فتح مكة أنتج النتائج الآتية :

١ - قضى على الوثنية والشرك في جزيرة العرب وعلى نظم الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وأبدلها بدين التوحيد وأنشأ لها نظمًا وعادات وتقاليد جديدة سعدت بها وارتقت.

٢ - قضى على الحكم الإقطاعي في جزيرة العرب وأقام مقامه دولة موحدة قادت العرب إلى مواطن النصر والفخار وسودتهم على العالم.

٣ - قضى على نظام العصبية وعلى روح القبيلة وساوى بين الجميع فلا تفاضل ولا تنافس بل الكل إخوان في ظل راية التوحيد.

٤ - قضى على عهد الكفاح والنضال بين القبائل فانصرفت إلى نشر الإسلام وتعزيزه.

٥ - أعاد الصلح بين البيوت والعائلات، وقد انقسمت على بعضها في زمن الحرب فقاتل الابن أباه والأب أولاده في سبيل الدين ونشره فالتأم الشمل وأُزيلت الاختلافات.

ويضيق بنا النطاق لو حاولنا وصف الثمرات العظيمة التي جناها المسلمون من فتح مكة فهي كثيرة عميمة .

بيـان عن الغـزوات

قتلى المسلمون	قتلى خصومهم	اسم الغزوة	ملاحظات
		١- ودان أو الأبواء	لا قتال فيها
		٢- بـواط	لا قتال فيها
		٣- بدر الأولى	لا قتال فيها
		٤- العشيرة	لا قتال فيها
٨	٧٠	٥- بدر الكبرى	
		٦- بنو سليم	لا قتال فيها
		٧- بنو قينقاع	لا قتال فيها
٢		٨- السويق	
		٩- امرا وغطفان	لا قتال فيها
٧٠	٢٣	١٠- أُحُـد	
		١١- حمراء الأسد	لا قتال فيها
		١٢- بنو النضير	لا قتال فيها
		١٣- ذت الرقاع	لا قتال فيها
		١٤- بدر الثالثة	لا قتال فيها
		١٥- دومة الجندل	لا قتال فيها
		١٦- المريسيع	لا قتال فيها
٦	٣	١٧- الخندق	
١		١٨- بنو قريظة	قتل كل رجالها اليهود
		١٩- بنو لحيان	لا قتال فيها
١		٢٠- ذو قـرد	
١٥	٩٣	٢١- خيبر ووادي القرى	
٢	٢٨	٢٢- فتح مكـة	
١٢	مجهول	٢٣- حنين والطائف	
		٢٤- تبـوك	لا قتال فيها
١١٧	٢١٧		

بيان عن السرايا

وهذا بيان آخر بأسماء السرايا التي سيّرها وعددها وعدد القتلى فيها :

قتلى المسلمون	قتلى خصومهم	اسم الغزوة	ملاحظات
		١- سرية حمزة	لا قتال
		٢- سرية عبيدة بن الحارث	لا قتال
		٣- سرية سعد بن أبي وقاص	لا قتال
	١	٤- سرية عبد الله بن جحش	
		٥- سرية زيد بن حارثة	لا قتال
٥		٦- سرية الرجيع	تبشير بالدين
٦٩		٧- سرية بئر معونة	تبشير بالدين
		٨- سرية عكاشة بن محصن الأسدي	لا قتال
٩		٩- سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة	لا قتال
		١٠- سرية أبي عبيدة إلى غطفان	لا قتال
		١١- سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم	لا قتال
		١٢- سرية زيد بن حارثة إلى بني العيص	لا قتال
	٢	١٣- سرية زيد بن حارثة إلى جذام	لا قتال
		١٤- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل	لا قتال
		١٥- سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد	لا قتال
مجهول العدد		١٦- سرية عمر بن الخطاب إلى هوازن	
		١٧- سرية أبي بكر إلى بني كلاب	لا قتال
		١٨- سرية بشير بن سعد إلى بني مُرّة	
	مجهول	١٩- سرية غالب الليثي إلى نجد	لا قتال
٨٣	٣		

قتلى المسلمون	قتلى خصومهم	اسم الغزوة	ملاحظات
		٢٠- سرية بشير بن سعد إلى غطفان	لا قتال
٤٩		٢١- سرية الأجزم إلى بني سليم	
		٢٢- سرية غالب الليثي إلى كديد	لا قتال
	مجهول	٢٣- سرية غالب الليثي إلى بني مُرّة	
		٢٤- سرية شجاع بن وهب إلى هوازن	لا قتال
١٤		٢٥- سرية كعب الغفاري إلى ذات أطلاح	لا قتال
١٢	مجهول	٢٦- سرية مؤتة	
		٢٧- سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل	لا قتال
		٢٨- سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر	لا قتال
مجهول	مجهول	٢٩- سرية أبي قتادة إلى نجد	قتال
		٣٠- سرية أبي قتادة إلى اضم	لا قتال
	مجهول	٣١- سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة	قتال
		٣٢- سرية عينية بن حصن إلى تميم	لا قتال
		٣٣- سرية خالد بن الوليد إلى نجران	لا قتال
		٣٤- سرية أسامة بن زيد إلى فلسطين	لا قتال
١٥٨	٣		

هذا هو بيان السرايا وعددها ٣٤، وهنالك من يضيف إليها سرايا أُرسلت لأغراض خاصة كهدم الأوثان والأصنام فيجعلها ٣٨، كما أن هنالك من يزيد في الغزوات ويجعلها ٢٧ أو ينقصها إلى ٢٦ .

الباب الحادي عشر

الدبلوماسية الإسلامية
لدولة المدينة المنورة

رأينا كيف أن الرسول ﷺ يتخذ أساليب مختلفة لنشر الدعوة الإسلامية وتكوين الدولة الإسلامية الأولى في عشر سنوات وما أقصرها في عمر الدول.

نرى النبي ﷺ يعرض نفسه أولاً على القبائل ثم يحارب مدافعًا عن الإسلام متبعًا قبل الحرب إرسال مبعوثيه للدول والمدن لتدخل في الإسلام أو دفع الجزية وعقد المعاهدات التي تؤكد هذا. وأخيرًا حين تستقر الدعوة الإسلامية وتعم الجزيرة العربية بعد فتحة مكة والانتهاء من تبوك وإسلام ومبايعة ثقيف، تهرع الوفود إلى النبي ﷺ من كل درب وذلك في العام التاسع للهجرة الذي عُرف بعام الوفود ومنها وفد بني تميم، وبني عامر، وبني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، وبني حيفة، ووفد بني طيئ، وبني زبيدة، وكندة، ووفد همدان وغيرها.

وسنقصر الكلام هنا على سفراء النبي ﷺ ورسائله ومعاهداته التي سنتناول بعضها بالتحليل، ولقد أعطت معاهدة الحديبية الفرصة للمسلمين في نشر الدعوة الإسلامية والتعريف بالإسلام، وكان من ذلك أن بعث الرسول ﷺ كتبًا لرؤساء القبائل والإمارات المختلفة بالجزيرة العربية، وللملوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة.

* * *

صلح الحـديبية

قـريش تعترف بالدولة الإسـلامية

أول عهد سياسي بين المسلمين وقريش

هدأت الحالة في جنوبي المدينة هدوءًا نسبيًا بعد انسحاب الأحزاب وفشلهم أمام الخندق؛ فلم تعد قريش تحرك ساكنًا ولم تعد تفكر في غزو المسلمين واستئصالهم كما كان صناديدها ينادون بذلك من قبل، ولعل الحادث الوحيد الذي وقع بين الخندق- وكان في شهر شوال من السنة الخامسة- وبين الحديبية وكانت في شهر ذي القعدة من السنة السادسة، هو حادث العيص في شهر جمادى الأولى من السنة السادسة نفسها أي قبل الحديبية بستة أشهر، وخلاصته أن النبي ﷺ سيّر قوة بقيادة زيد بن حارثة ومعه ٧٠ مقاتلاً لمهاجمة قافلة لقريش علموا أنها عائدة من الشام فالتقى الفريقان في العيص «شرقي المدينة ويبعد عنها نحو ٣٠ كيلو مترًا» وغنم المسلمون ما في القافلة، وأسروا رجالها، وكان من جملتهم أبو العاص بن الربيع صهر النبي، وأم هالة بنت خويلد شقيقة السيدة خديجة زوج النبي، وقادوهما إلى المدينة وأصابوا كمية كبيرة من الفضة في القافلة لصفوان بن أمية من كبار تجار قريش.

أما حديث الحديبية فخلاصته أن الرسول غادر عاصمته في شهر ذي القعدة من السنة السادسة على رأس ٧٠٠ وقيل ١٤٠٠ من المسلمين يسوقون ٧٠ ناقة للهدي، معلنًا أنه يقصد مكة للعمرة والزيارة لا للقتال والفتح.

واتصل الخبر بقريش وعرفوا أنه خرج برجاله يقصدهم وأدركوا أنه يرمي إلى غرض سياسي مضمر، بعد الغرض الديني الظاهر، فهو يريد إظهار قوته وسطوته،

ولفت الأنظار إلى الفوز العظيم الذي أدركه، فقد غادر مكة من ست سنوات خائفًا يترقب، لا يصحبه من الناس سوى صديقه وصاحبه أبي بكر وهو يخشى الوقوع في أيدي أعدائه الذين كانوا يعملون لاغتياله، أما اليوم فهو يعود رئيسًا لطائفة كبيرة من الذين يؤمنون بدينه، ويصدقون رسالته، ويتسابقون إلى نصرته، ويستعذبون الموت في سبيله، وقد انتشر اسمه، وذاع صيته، وعلا قدره ومقامه.

و لم تخف هذه الاعتبارات على زعماء قريش وكانوا يرقبون حالة المسلمين عن كثب، فاجتمعوا في دار الندوة وبحثوا في الخطة التي يسيرون عليها إزاء الزيارة وهل يسمحون له بدخول مدينتهم في موكبه الفخم، وبين رجاله الأبطال، فيتحدث بحديثه أهل مكة خاصة، والعرب الذين يشهدون الموسم عامة، ويقدرون بالألوف ويذكرون ما أدركه من نجاح وتوفيق بفضل إخلاصه في دعوته، وتجرده عن كل غرض دنيوي، أم يأبون السماح له ويقاومونه إذا أصر على الدخول؟ وبعد أخذ و رد اتفقت كلمتهم على الأخذ بالشق الثاني وأصدروا بالإجماع قرار قالوا فيه «لا يدخلها علينا أبدًا ولا تتحدث بذلك عنا العرب».

وعبأت قريش قواها، وحشرت جندها، وأذاعت أنها ستقاومه بالقوة إذا حاول الدخول وأرسلت الفرسان فرابطوا على طريقه فلما بلغه ذلك وكان في عسفان وهي على مرحلتين من مكة وبينهما نحو ٨٠ كيلو مترًا تقريبًا، عدّل خطة سيره وسلك طريقًا غير الذي أقاموا القوى عليه تأهبًا للنضال وواصل تقدمه حتى بلغ الحديبية من أسفل مكة وتبعد عنها نحو ٣٠ كيلو مترًا وهي من ناحية الغرب الشمالي وتسمى الشميسي في الوقت الحاضر.

ولاحظ قادة الجيش القرشي المرابطون بذي طول (أول مدخل مكة من جهة المدينة) وكراع الغميم تأخر وصول المسلمين وأدركوا أنهم سلكوا طريقًا آخر فتخلوا عن مراكزهم وساروا على عجل إلى مكة فأبلغوا قريشًا ما وقع ودعوها إلى أن تكون على تمام الأهبة والاستعداد.

وضرب المسلمون خيامهم في الحديبية «الشميسي» وقد كان في استطاعتهم دخول مكة لو أرادوا فالطريق إليها كانت مفتحة ولكنهم فضلوا النزول هنالك للراحة والنظر في ما يكون بينهم وبين قريش فلا تكون «العمرة» وسيلة لحرب جديدة وما جاءوا لخوضها ولا لإضرامها.

وعرفت قريش بوصول المسلمين إلى الحديبية ونزولهم فيها فانتدبت بديل بن ورقاء الخزاعي لمقابلة الرسول وإبلاغه قرار قريش بعدم السماح له بدخول مدينتها ولإقناعه بالرجوع، فاستقبله ومن معه، وقال له إنه ما جاء يريد حربًا وإنما جاء البيت زائرًا ومعظمًا. فرجع الوفد إلى قريش وأبلغها ما سمع فلم يرضها ذلك فانتدبت مكرز بن حفص بن الأخيف أخا عامر لمقابلته وإقناعه بالرجوع فلما وصل إلى معسكر المسلمين استقبله النبي وكلمه بما كلم به بديلاً فعاد إلى قريش وأبلغها ما سمع.

واستقر رأي قريش على إيفاد الحليس بن علقمة قائد الأحابيش (جيش قريش) لمقابلته ولاستطلاع حالة المسلمين فلما رآه الرسول ﷺ مقبلاً قال إن هذا من القوم الذين يتألهون وأمر بأن يؤتى بالنياق السبعين التي جاء بها المسلمون للهدي فتعرض أمامه فلما رآها وكانت سمينة بدينة أُعجب بها وعاد إلى مكة معظمًا لما رأى من دون أن يقابل الرسول ﷺ ووصف لقريش ما شاهده فقالوا له

اجلس فأنت أعرابي لا شأن لك بالسياسة، فغضب وقال لهم يا معشر قريش ما عاهدناكم على هذا ولا حالفناكم على أن تصدوا عن البيت من جاء له معظمًا، ثم أقسم بأنه لينفرن بالأحابيش (الجيش) نفرة رجل واحد (أي يخرجهم عن طاعتهم) إذا لم يسمحوا للمسلمين بزيارة الكعبة.

وأوفدت قريش وفدًا رابعًا هو عروة بن مسعود الثقفي وكان من حكماء العرب وأذكيائهم فجاء معسكر المسلمين وجلس بين يدي الرسول ﷺ فقال له «لقد جمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك تنقضها بهم» ثم هدده تلميحًا وقال له إن قريشًا حشدت قواها وإنها لن تسمح له بدخول مكة؛ فساءت اللهجة الشديدة التي استعملها أقطاب المسلمين فأسمعه أبو بكر كلامًا قارصًا وأعاد الرسول ﷺ عليه ما قاله للذين تقدموه فرجع إلى مكة يقص ما سمع ويقول «لقد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، لقد رأيت قومًا لا يسلمونه أبدًا فروا رأيكم».

ورأى الرسول ﷺ بعد ما تعددت الرسل من قِبَل قريش، ولم تتقدم المفاوضات التي دارت خطوة واحدة، أن يرسل مندوبًا فقد يوفق إلى إقناع القوم بحسن نيته فيكون التفاهم على يده، فدعا بعمر بن الخطاب واقترح عليه أن يقصد مكة لمفاوضة قريش فتردد وقال له «إنني أخاف قريشًا على نفسي فقد عرفت عداوتي لها وغلظتي عليها وليس بمكة أحد من بني عدي يمنعني» وكان عمر من بني عدي، ثم اقترح عليه إرسال عثمان بن عفان الأموي في هذه المهمة لعصبيته ومقامه فيهم فأجاز الاقتراح وانتدب هذا، فسار إلى مكة فلقيه إبان بن سعيد بن

العاص الأموي (أي ابن عمه) حين وصوله فأجاره حتى يؤدي رسالته ويخرج فذهب فقابل أبا سفيان والوجوه وتكلم معهم وأطلعهم على حقيقة نيات المسلمين فقالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل فأبى إلا أن يطوف رسول الله ﷺ ، وأبطأ عثمان في الرجوع إلى المسلمين، وتناقلت الألسن أنه قُتل واتصل ذلك بالرسول ﷺ فأعلن بأنه لن يبرح مكانه حتى ينازل قريشًا ويناجزها ودعا المسلمين إلى مبايعته على الحرب فبايعوه تحت شجرة كانت هنالك ثم قطعها عمر ولا يزال مكانها معروفًا وقد أقاموا فيه مسجدًا، وتسمى تلك البيعة «بيعة الرضوان» وعاد عثمان بعد ذلك إلى معسكر المسلمين وتبيَّن أنه لم يصب بأذى.

وتبدل الموقف بعد زيارة عثمان وبعد الثبات الذي ثبته المسلمون حول مكة وبعد التصرف الحكيم الذي تصرفوه فلم يحرجوا قريشًا ولم يبدأوها بالقتال، وجنحت هذه إلى السلم فانتدبت سهيل بن عمرو لحل المشكلة فدارت بينهما محادثات ختمت بالاتفاق على القواعد الآتية:

١ - يرجع المسلمون عن مكة فلا يدخلونها في عامهم.

٢ - للمسلمين أن يزوروا مكة في العام القابل فيقيموا فيها ثلاثة أيام فقط ومعهم سيوفهم في القرب.

٣ - تجلو قريش عن مكة زمن نزول المسلمين فيها.

٤ - توضع الحرب بين الفريقين مدة عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٥ - من جاء محمدًا صلى الله عليه وسلم من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد صلى الله عليه وسلم لم يردوه عليه.

٦ – من أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله عليه وسلم وعهده فله ذلك، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فله ذلك.

تلك هي القواعد التي تم الاتفاق عليها وقد أُدمجت في الكتاب الآتي، وهو أول عقد سياسي عقده المسلمون مع قريش وهذا نصه:

«باسمك اللهم

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا إسلال ولا إغلال، وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك وأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها».

هذا هو نص عقد الحديبية وقد تولى كتابته عليّ بن أبي طالب وختمه الرسول بخاتمه ووقعه سهل بن عمرو وشهد عليه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود ابن سلمة ومكرز بن حفص وعليّ بن أبي طالب، وحمله سهيل إلى قريش فأجازته وبذلك تهادن المسلمون وقريش.

ولم يرق هذا الاتفاق في عين بعض المسلمين وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب وانتقدوا بعض شروطه ورأوا فيها غبنًا للمسلمين ولا سيما المادة الخامسة القائلة

بأن يرد محمد إلى قريش من جاءه منها بغير إذن وليه ولا ترد قريش إليه من يجيء منه، وسألوا الرسول كيف قبله فأجابهم بأن مصلحة المسلمين تقضي بقبوله وبدأ فورًا بتنفيذه وذلك أنه قام إلى ناقته فنحرها ثم حلق رأسه (ولا يكون نحر الهدي إلا بعد الانتهاء من العمرة) فكأنه أراد أن يشير إلى انتهاء العمرة ثم أمر بالرحيل على الفور فرحل المسلمون إلى المدينة.

ولا ريب أن صلح الحديبية كان فوزًا سياسيًا للمسلمين فقد أراح بالهم من جهة قريش عدوتهم الكبرى، وأطلق يدهم بالعمل في المناطق الأخرى كما ساعدهم على نشر دعوتهم الدينية فدخل في دينهم كثيرون وزاد عددهم زيادة كبيرة، ما كان يرجى لهم أن يبلغوها لو واصلوا الحرب والكفاح. ولا أدل على ذلك من زحفهم بعد سنتين أي في السنة الثامنة للهجرة إلى مكة بجيش بلغ عدده عشرة آلاف مع أن عدد الذين جاءوا منهم للعمرة (يوم صلح الحديبية) ما كان يزيد على ألف وأربعمائة على أكبر تقـدير.

وقد كان من النتائج المباشرة للمادة الخامسة من اتفاق الحديبية وهي التي تقضي على المسلمين بأن يردوا على قريش من يأتيهم بدون رغبة أولياء أموره، أن زاد عدد الذين دخلوا في الإسلام من أبنائها وأبى المسلمون إيواءهم في المدينة وفاء بعهدهم، عن الستين، وحيث إن هؤلاء يأنفون البقاء معها فقد ألّفوا عصابة قوية منهم جعلت دأبها الغارة على قوافلها، ومتاجرها ورجالها في أسفارهم فضايقوها وكادوا يعرقلون حركتها فلم تجد مناصًا من الالتجاء إلى الرسول ﷺ تسأله أن يؤوي هؤلاء ويستقدمهم ويكف أذاهم فأرسل إليهم فجاءوا وانضموا إلى إخوانهم المسلمين فكان فوزًا جديدًا لهم كما أقاموا بعملهم هذا برهانًا على وفائهم بعهودهم وتمسكهم بها.

نتائج هذه المعاهدة :

١ – اعتراف قريش بكيان المسلمين بعد خمس عشرة سنة يعتبر أول المكاسب السياسية؛ بل أهمها اعتراف قريش رسميًا بأن النبي ﷺ وأصحابه أمة لها كيانها بل دولة لها خطرها.

٢ – الهدنة لا تُعقد إلا بين فئتين متكافئتين عسكريًا وسياسيًا على الأقل، هذا التكافؤ رفضته قريش حتى وقعت عليه الاعتراف به رسميًا مرغمة.

٣ – إخماد نار العداوة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات يأمن فيها المسلمون عداوة قريش وشرورها.

٤ – تفهم المشركين لحقيقة الإسلام أثناء المفاوضة في الحديبية، فلا يأتي زعيم من حلفائها أو أصدقاء قريش وسيطًا إلى الحديبية– إلا ويحمل في ذهنه عن المسلمين صورة مشوهة فيعود إلى قريش بصورة مشرفة لما لمسه من واقع المسلمين المشرف مما سبب الانشقاق في معسكر الشرك، الأمر الذي أزعج قريش وجعلها تتوسل إلى سيد الأحابيش كما ذكرنا حتى لا ينفذ تهديده ضدهم.

٥ – آثر الرسول ﷺ السلم على الحرب مع ما صار إليه المسلمون وقتئذ من المنعة والقوة والقدرة على الفتك بأعدائهم، مما يؤكد أن الإسلام يؤثر السلام على الحرب.

٦ – أعطت هذه المعاهدة الفرصة للمسلمين في نشر الدعوة الإسلامية والتفرغ لتعريف الناس بها حتى قيل إن من دخلوا الإسلام من تاريخ المعاهدة حتى فتح مكة أي في أقل من سنتين أكثر ممن دخلوا الإسلام

في جميع السنين التي سبقت ذلك الصلح ويكفي للتدليل على صحة هذا الرأي هو أن عدد المسلمين يوم أُبرم صلح الحديبية لم يزد على ألفين على الأكثر، بينما بلغ عددهم في السنة الثانية وقبل فتح مكة بقليل أكثر من عشرة آلاف.. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الصلح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ١-٣].

وقد نزلت هذه الآيات عقب صلح الحديبية، ويقول عامة المفسرين والمحدّثين- كما جاء في صحيح البخاري- إن المراد بالفتح في هذه السورة هو صلح الحديبية التاريخي.

ومن الأبطال العظام الذين دخلوا الإسلام وأسرعوا إلى المدينة معلنين إسلامهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

٧ - تفرغ النبي في فترة الصلح هذه للقضاء على أخطر عدو للإسلام بعد قريش وهم اليهود، وقد حاربهم النبي ﷺ في وقائع خيبر وفدك وتيماء كما أوضحنا عندما تناولنا الحروب النبوية في هذا الفصل، وأيضًا تمكّن النبي ﷺ في ظل صلح الحديبية من أن يقوم بأول حملة عسكرية في حياته خارج حدود الجزيرة العربية بأن نقل المعركة إلى الشام لإشعار الإمبراطورية البيزنطية قدرة المسلمين العسكرية.

٨ - ومن نتائج صلح الحديبية أيضًا إرسال النبي لسفرائه وبطريق رسمي إلى خارج الحدود حيث قام في فترة الهدنة بالاتصال بملوك وأمراء الشرق

الأوسط ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام وذلك عن طريق رسائل خاصة مع سفرائه في السنة السابقة من الهجرة، ورغم اختلاف تأثير هذه الرسائل، فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دون شك.

٩ – كما أعطى صلح الحديبية الفرصة في الحيطة والحذر وضبط النفس ساعة الاستفزاز واحترام المعارضة النزيهة والسماح بها والالتزام بوفاء العهد للمسلمين جميعًا لتكون نبراسهم فيما بعد حياة الرسول ﷺ .

١٠– إمكان تعديل بند من بنود المعاهدة وفي هذا مكسب سياسي كبير للرسول ﷺ ، فحينما تعهد النبي لقريش بأن يمتنع عن إعطاء حق اللجوء لمن جاء إليه في المعاهدة من أبناء مكة وأن يرد ولا يسمح له بالإقامة في المدينة حتى ولو كان مسلمًا وهو الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو فقبله النبي ﷺ وتضايق المسلمون من قبوله ولكن بعد فترة تطلب قريش تعديل هذا الشرط حيث أصابها بالنكبات وأفدح الخسائر لأن تنفيذ النبي لهذا الشرط جعل أبناء قريش المسلمين المتمردين عليها والفارين من سجونها يلجأون إلى منطقة العيص في الساحل وصار عددهم ما يقرب من الثلاثمائة مقاتل مسلم بقيادة أبي بصير قد قاموا بالثورة ضد مشركي قريش وقوافلهم التجارية واستجاب النبي لرجاء قريش بإسقاط هذا الشرط من بنود المعاهدة وأصبح يقبل كل من جاء إليه من أبناء قريش ولا يرده. وهذه دلالة أخرى تؤكد عدم رغبة الإسلام في القتال والحرب.

هذه هي نتائج صلح الحديبية بعد تحليل بنودها وشرحها تعطينا في النهاية عظمة الرسول السياسية في تصريف أمور دولته في الداخل أو في الخارج.

التبشير بالإسلام في خارج الجزيرة

كُتُب النبي ﷺ إلى رؤساء الدول المجاورة

أدرك المسلمون في خلال ست سنوات من النتائج المادية والأدبية ما لم يكن يخطر لأحد ببال أن يدركوها يوم وصول مهاجريهم إلى دار هجرتهم الجديدة، فقد حققوا الأغراض الآتية:

١ - قضوا على النفوذ اليهودي في منطقة المدينة واستولوا على ممتلكات اليهود وأراضيهم وغنموا أسلحتهم وأموالهم.

٢ - ضربوا قريشًا ضربة كبيرة في بدر واستولوا على عدد من قوافلها، وحازوا جانبًا من أموالها، وعرقلوا تجارتها مع الشام وكانت تعول في معائشها على هذه التجارة وكادوا يقطعونها.

٣ - وقفوا أمام أعظم جيش عرفه الحجاز (جيش الأحزاب) في تاريخه العسكري مدة ٢٢ يومًا فارتد خائبًا مدحورًا.

٤ - نشروا نفوذهم السياسي والعسكري في المناطق المحيطة بالمدينة وسيّروا البعوث العسكرية إلى الغرب والشرق والشمال، ووصلوا إلى دومة الجندل (أراضي الرومان) وأخضعوا بني كلب.

٥ - أنشأوا جيشًا عسكريًا قويًا اثبت كفاءته في المعارك التي خاضها وبعد ما كان عدده لا يتجاوز الستين في السنة الأولى للهجرة والثلاثمائة في السنة الثانية بلغ ثلاثة آلاف في السنة الخامسة.

٦ – قصدوا مكة في السنة السادسة للهجرة وعددهم يقدر بالمئات ومعهم النياق للهدي والصدقة يقومون بمظاهرة سياسية كبيرة فضلاً عن الغرض الديني، ويهددون قريشًا في عقر دارها، ويستخفون بها ولم يرجعوا إلا بعد أن اعترفت بهم وعاقدتهم وعاملتهم على قاعدة المساواة، لا فاضل ولا مفضول، ولا قوي ولا ضعيف.

ورأى النبي ﷺ بعد أن أدرك هذه النتائج المادية العظيمة الشأن، وبعد ما أمن جانب قريش، وقضى على نفوذ اليهود– وقد اتحدت هاتان القوتان عليه، وكان يخشى منهما على الإسلام، ولم تبق في الحجاز قوة عسكرية، أو كتلة سياسية يخشى بأسها ويرهب جانبها– أن يعمل على نشر الإسلام في أنحاء جزيرة العرب وفي خارجها كما نشره في الحجاز وأن يتصل برؤساء الدول والحكومات فيدعوهم إلى الدخول في دينه، واتباع طريقته، والاهتداء بهديه، لاعتقاده أن رسالته عامة لا تختص بقبيل دون قبيل، ولا بأمة دون أمة.

وهذه أسماء الدول والممالك التي كاتبها وخاطب ملوكها وأمراءها داعيًا إياهم إلى الإسلام :

(١) قيصر الروم
(٢) كسرى الفرس
(٣) عظيم القبط
(٤) نجاشي الحبشة
(٥) ملك غسان
(٦) صاحب اليمامة (نجد)
(٧) صاحب البحرين

هؤلاء هم الملوك والأمراء الذين كتب إليهم ونحن مثبتون نص الكتب المرسلة إلى كل منهم، وأسماء الرسل الذين حملوها والجواب الذي أجاب به كلاًّ منهم، وواصفون المعاملة التي عاملوا الرسل بها.

ولا نملك نصًّا صريحًا أو قرينة قاطعة نستعين بها على ذكر اسم اليوم الذي أُرسلت فيه هذه الكتب أو كُتبت فيه على الأقل، وكل ما لدينا من أقوال المؤرخين القدماء- ولم يكونوا يعنون بإثبات مثل هذه التفاصيل- أن الرسول ﷺ بعد ما كتب الكتب إلى ملوك البلاد المجاورة على أثر منصرفه من الحديبية، وكان ذلك في أواخر السنة السادسة للهجرة، كان ينادي المسلمين من منكم يذهب إلى البلاد الفلانية ويذكر اسمها فيتطوع أحدهم، ويكون من الذين سبق لهم أن زاروا تلك البلاد وجاسوا خلالها، فيحمل الكتاب ويمضي به، مع العلم بأنه اختار بنفسه عددًا من الذين حملوا كتبه وانتدبهم لهذه المهمة لمؤهلات عرفها فيهم ولخبرتهم الزائدة في شؤون البلاد التي خصهم بالسفر إليها.

١ - كتابه إلى قيصر الروم :

كان يجلس على عرش الروم (الرومان) حين ظهور الإسلام الإمبراطور هرقليوس (Héraclius) ويسميه العرب هرقل، وكان في الأصل من كبار قوادهم العسكريين، وقد قهر الفرس في معارك شديدة دارت بينهم وبينه وردهم إلى ما وراء حدودهم واسترد منهم خشبة الصليب المقدسة وقد انتزعوها من مكانها في بيت المقدس حينما استولوا عليه في سنة ٦١٤م.

وكان هرقليوس، حين إرسال كتاب الرسول، يقيم في حمص وقد جاءها من أنطاكية، عاصمة الروم السياسية والعسكرية في الشام يومئذ، وكان معتزمًا السير

على قدميه إلى بيت المقدس شكرًا لله على ما أولاه من نصر وتوفيق.

وحمل دحية بن خليفة الكلبي، كتاب قيصر، وكان من الخبيرين بأحوال القوم، وقد أُمر بأن يقصد بصرى ويقابل الحارث بن أبي شمر الغساني (ملك غسان) ويوسطه في إرسال الكتاب إلى الإمبراطور، فقابله فانتدب عدي بن حاتم لمرافقته فسار معه إلى القدس وقدمه إلى قيصر فسلمه الكتاب وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم

«السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فاسلم تسلم. واسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك) أي إثم شعبك الذي يطيعك.

ووضع هرقل الكتاب بين فخذه وخاصرته وأكرم الرسول وأعاده من دون أن يرسل جوابًا معه.

٢ – كتابه إلى كسرى :

وحمل كتابه إلى المداين (عاصمة الفرس يومئذ) عبد الله بن حذافة السهمي وكان يتردد على بلاد الفرس، ويعرف شؤونهم فانطلق حتى بلغها وسلمه إلى الملك واسمه يومئذ خسرو ابرويز وهذا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًّا. أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فلما تُرجم الكتاب له مزقه وصرف الرسول وكتب إلى باذان عامله في

صنعاء بأن يبعث رجلين أشداء من عنده إلى المدينة فيأتيان به. فأرسلهما هذا مع كتاب إلى الرسول يأمره بأن ينصرف معهما إلى المداين فلما قدما عليه أبلغاه أنهما جاءا ليذهبا به إلى كسرى وطلبا إليه أن يستعد للسفر معهما، فأخبرهما أنه قُتل وأن ابنه شيرويه هو الذي قتله وأخذ المُلك مكانه فعادا إلى صاحبهما في صنعاء فأخبراه بالخبر، وبعد قليل جاءه كتاب من شيرويه يقول فيه «انظر الرجل الذي كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري».

٣ – كتابه إلى المقوقس :

وحمل حاطب بن أبي بلتعة كتابه إلى المقوقس عظيم القبط في مصر وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط

«سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وسلم حاطب الكتاب إلى المقوقس في الإسكندرية فضمه إلى صدره ودعا كاتبًا يكتب له بالعربية؛ فأرسل إليه- كما يقول بعض المؤرخين- كتابًا وديًا.

وأكرم المقوقس رسول النبي وقيل إنه أجازه بمائة دينار وخمسة أثواب،

وأرسل معه الهدايا الآتيـة:

١ – مارية بنت شمعون وكانت أمها رومية ويُقال إنها كانت من أجمل نساء مصر.

٢ – سيرين.

٣ – قيسر.

٤ – بريرة (جارية سوداء).

٥ – هابو (غلام أسود).

٦ – بغلة شهباء سُميت دلدل.

٧ – فرس ملجم سمي ميمون.

٨ – حمار أشهب سُمي يعفور.

٩ – مربعة فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك.

١٠– كمية من العسل.

١١– ألف مثقال من الذهب.

١٢– عشرون ثوبًا من قباطي مصر.

١٣– كمية من العود والند والمسك.

١٤– قـدح من قـوارير.

وقد أسلمت مارية قبل وصولها إلى المدينة كما أسلمت سيرين، فتزوج النبي ﷺ الأولى، ووهب الثانية لحسان بن ثابت الشاعر، وولدت مارية للنبي إبراهيم وهو الذكر الوحيد الذي وُلد له ﷺ و لم يعش طويلاً.

٤ – كتابه إلى النجاشي :

وحمل عمرو بن أمية الضمري كتابه إلى نجاشي الحبشة واسمه «أصمحة» فجاء أكسوم عاصمة الأحباش القديمة وسلمه الكتاب وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة. سلم أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين فإذا جاءك فاقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى»[(١)].

وقد نشر بعض المؤرخين المسلمين صورة كتاب زُعم أن النجاشي أجاب به على الكتاب المرسل إليه معلنًا قبوله الدعوة ودخوله في الدين الإسلامي، وليس هنالك دليل تاريخي أو مادي يؤيد هذه الرواية، ولذلك أغفلنا نشر الكتاب ولو كان ما يروونه من إسلامه صحيحًا لظهر أثره في قومه الأحباش وقد كانوا ولا يزالون على دين النصرانية.

(١) يدل هذا الكتاب على أنه كُتب قبل هذا التاريخ أي في زمن هجرة جعفر وأصحابه، وكان ذلك قبل انتقال المسلمين إلى المدينة وهو ما يدعو إلى الشك في صحته.

٥ – كتابه إلى ملك غسان :

وحمل شجاع بن وهب الأسدي كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وهذا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك».

ولما تسلم الكتاب وقرأه رمى به وقال من ينتزع مني ملكي أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته. عليّ بالناس ولم يزل جالسًا حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعل. ثم دعا بالرسول وقال أخبر صاحبك بما ترى.

ويُقال في رواية أخرى أنه أراد غزو المدينة وكتب بذلك إلى هرقليوس يستأذنه فأجابه بعدم الموافقة.

٦ – كتابه إلى صاحب اليمامة (نجد):

وأرسل سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن عليّ الحنفي صاحب اليمامة يحمل كتابه وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى هوذة بن عليّ. سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فاسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك».

وأجاز هوذة الرسول بجائزة وكساه أثوابًا ورده ردًا لطيفًا.

٧ - كتابه إلى صاحب البحرين :

وبعث العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين يدعوه إلى الدخول في الإسلام فأسلم.

وهكذا اتصل بملوك زمانه وأمرائه الذين يجاورون بلاد العرب وعمم دعوته ونشرها، وأذاع خبرها، فتحدث بها الناس في كل مكان وعرفها القريب والبعيد.

لماذا لم تُفتح الحبشة :

ومما يستحق الذكر بوجه خاص أن بلاد جميع الملوك والأمراء الذين كاتبهم واتصل بهم، خضعت للملمين ودخلت في دينهم سلمًا أو حربًا، ما عدا الحبشة، فقد فتح المسلمون بلاد كسرى وقيصر وحوران ومصر واليمامة والبحرين- وهي البلاد التي كتب إليها، واستولوا عليها. والحبشة هي القطر الوحيد الذي كتب إليه داعيًا إلى الإسلام و لم يسلم و لم ينفر المسلمون إليه، و لم يحملوا عليه، و لم يفكروا في فتحه مع أنهم حملوا على جميع الممالك الأخرى وأخضعوها تدريجيًا ويلوح لنا أن مصدر ذلك ما كان بين الإسلام والحبشة من علاقات ود وثيقة نشأت عن المعاملة الحسنة التي عامل بها الأحباش المهاجرين المسلمين الذين لجأوا إليهم قبل الهجرة هربًا من اضطهاد قريش وظلمها، فقد آووهم وأكرموا مثواهم وأبوا أن يسلموهم إلى أعدائهم، حينما جاء وفدها يطالب بهم. يُضاف إلى هذا ما ذكره بعض الرواة وهو أن النجاشي نفسه (أصحمة) أمهر أم حبيبة بنت أبي سفيان حينما عقد لها على رسول الله ﷺ في أكسوم، وقد كانت من اللاجئات إلى الحبشة، على أثر وفاة زوجها ثم نُقلت إلى المدينة بعد ذلك وبنى بها، وكانت في عداد نسائه.

وفضلاً عن ذلك فقد صلى النبي على أصحمة نفسه صلاة الغائب حينما نُعي إليه، أثبت ذلك البخاري في صحيحه نقلاً عن جابر بن عبد الله فروى أن النبي ﷺ نعى إلى أصحابه أصحمة قائلاً: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة».

رد الملوك والأمراء على كتب الرسول

تختلف روايات المؤرخين في الوقت الذي سافر فيه رسل النبي عليه السلام إلى الجهات التي أُرسلوا إليها، هل سافروا قبل غزوة خيبر أم بعدها؟ وأغلب الظن أن بعضهم سافر قبل تلك الغزوة، والبعض الآخر بعدها، فقد جاء في غير رواية أن دحية بن خليفة الكلبي شهد خيبر ثم ذهب برسالة هرقليوس إلى حمص حيث سلمها إليه هناك وتُليت ترجمة الخطاب عليه فلم يغضب و لم يثر و لم يهدد بإرسال جيش إلى بلاد العرب بل رد على الرسالة ردًا جميلاً.

وفي نفس الوقت بعث الحارث الغساني حاكم تخوم الشام من قِبَل الروم إلى هرقل يخبره أن كتابًا وصله من محمد عليه السلام، ورأى هرقليوس شبهه بالكتاب الذي أرسل إليه وقد استأذن الحارث هرقليوس في أن يذهب على رأس جيش لمعاقبة هذا الرجل الذي يدعي النبوة، لكن هرقل آثر أن يكون الحارث في استقباله ببيت المقدس حين يصل إليها ويحتفل برد صليب الصلبوت الذي كان الفرس قد استولوا عليه إلى مكانه ببيت المقدس وتظاهر بعدم الاكتراث بهذا الداعي إلى دين جديد و لم يدر بخلده أن بلاد الشام كلها بما فيها بيت المقدس ستدخل بعد سنوات قليلة في حوزة الدولة الجديدة التي أنشأها محمد عليه الصلاة والسلام، وأن مدينة دمشق إحدى مدن الشام ستنتقل إليها عاصمة الخلافة الإسلامية، وأن الصراع

سيظل قائمًا بين الروم وبين المسلمين حتى يتمكن الأتراك العثمانيون من فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م والقضاء الأخير على الدولة الرومانية.

أما كسرى ملك الفرس فقد استشاط غضبًا من كتاب الرسول ومزقه وكتب إلى بازان عامله على اليمن يأمره أن يبعث إلى الحجاز رجلين جلدين يأتيانه برأس هذا المدعي النبوة، فلما بلغت مقالة كسرى رسول الله وما فعله بكتابه قال: مزق الله ملكه، فاستجاب الله دعوته وانتزع ابنه شيرويه المُلك منه وقتله، وكان بازان قد أرسل إلى النبي عليه السلام من يستطلع أمره فأخبرهم رسول الله بقتل كسرى وولاية شيرويه فآمنوا برسالته وحملوا دعوة الإيمان إلى بازان الذي استجاب لها وبقي واليًا على اليمن من قِبَل رسول الله.

أما المقوقس عظيم القبط في مصر فقد أكرم رسول النبي عليه السلام وحمله ردًا جميلاً على كتابه إليه وأرسل معه هدية: جاريتين وبغلة بيضاء وحمارًا وبعض خيرات مصر ومقدارًا من المال. أما الجاريتان فمارية التي اصطفاها النبي لنفسه وأنجب منها ولده إبراهيم، وسيرين التي أُهديت إلى حسان بن ثابت.

وكان لدى نجاشي الحبشة فكرة عن الإسلام منذ هاجر بعض المسلمين إلى بلاده فرارًا بدينهم من اضطهاد كفار قريش لهم قبل الهجرة العامة إلى يثرب فلما وصله كتاب رسول الله تقبله بقبول حسن حتى لقد ورد في بعض الروايات أنه أسلم، وإن تشكك طائفة من المستشرقين في صحة هذه الروايات. وقد أرسل إليه رسول الله كتابًا آخر يطلب إليه رد المسلمين الذين كانوا يقيمون بالحبشة إلى المدينة فجهز لهم سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ومعهم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان التي كانت قد هاجرت مع المهاجرين إلى الحبشة هي

وزوجها عبيد الله ابن جحش الذي جاء إلى الحبشة مسلمًا ثم تنصّر وظل على نصرانيته حتى مات، وكان رسول الله قد خطبها وهي بالحبشة فلما قدمت إلى المدينة أصبحت من أزواجه ومن أمهات المؤمنين.

أما أمراء العرب فقد رد أمير عمان على الرسالة ردًا فاحشًا، ورد أمير البحرين ردًا حسنًا، وأسلم «ورد» أمير اليمامة بشرط أن يُنصب حاكمًا إذا هو أسلم فلعنه رسول الله لطمعه، ويروى أنه مات بعد ذلك بعام واحد.

وهنا نتساءل: لماذا كانت معظم إجابات الملوك والأمراء حسنة وكان أقلها ينطوي على شدة وغلظة؟ ولماذا لم يتفق هؤلاء وهؤلاء على محاربة النبي ﷺ والقضاء على الدولة الإسلامية وهي ما تزال في مهدها.

والجواب عن ذلك أن العالم يومئذ كان كعالم اليوم قد طغت عليه المادة وغرق في الترف وضعف في نفوسه وازع الدين فآثر الحياة الناعمة على حياة الكفاح في سبيل العقيدة ولم يشأ أن يورط نفسه في حرب مع المسلمين قد تعرض حياته للخطر وتحرمه من متاع الحياة الدنيا.

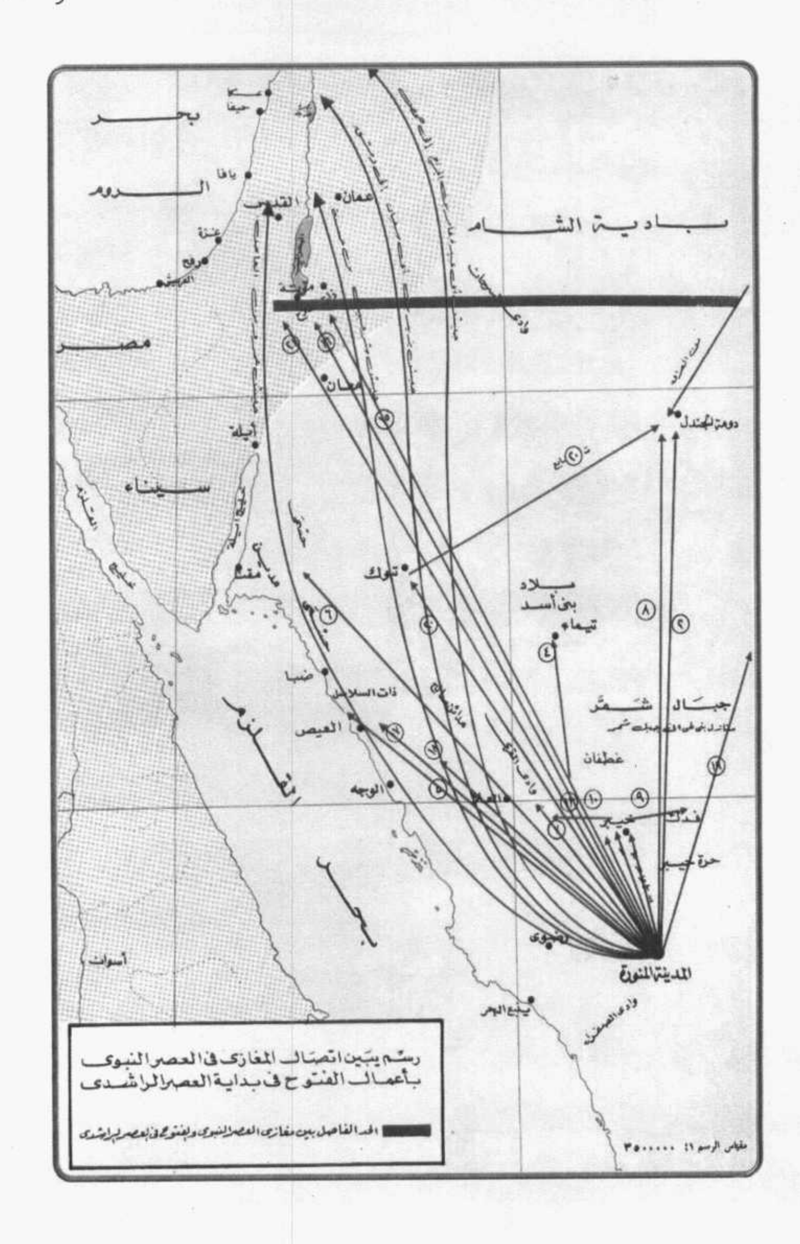
على أن العقائد التي كانت سائدة في البلاد التي كان يحكمها الملوك والأمراء الذين أرسل إليهم رسول الله يدعوهم إلى السلام لم تكن صحيحة حتى يتمسك بها معتنقوها؛ فالوثنية والمجوسية كانتا ظاهرتي البطلان واليهودية والنصرانية كانتا قد شوههما التحريف حتى أخرجهما من حيز المعقول وجعلهما طقوسًا غير مفهومة ورموزًا مبهمة.

لذلك لم يلبث الناس حين سمعوا دعوة الإسلام بما فيها من وضوح ومسايرة للعقل ومساواة أمام رب واحد لا شريك له بيده النفع والضر والحياة والموت له

تعنو الجباه وتخشع القلوب، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، لم يلبث الناس حين سمعوا هذه الدعوة ورأوا صاحبها يزداد أتباعه ويعلو شأنه يومًا بعد يوم وهو اليتيم الفقير لم يلبثوا أن اعتقدوا أنها دعوة الحق وأنها لابد أن تغلب وتسود فآثروا الإيمان بها على إرضاء ملوكهم ومصانعة أمرائهم.

ولقد أحس الملوك والأمراء بما أحسن به الناس ولا أدل على ذلك من الحوار الذي دار بين أبي سفيان وبين هرقل حين وصله كتاب رسول الله وتعقيب هرقليوس على إجابة أبي سفيان الذي كان إذ ذاك ما يزال على الشرك بقوله: إن كان ما تقوله حقًا فسوف يملك موضع قدمي هاتين ولو خلصت إليه لغسلت قدميه لكن شهوة الملك وحب السلطان حالا بينه وبين اعتناق الإسلام وقد كان في اعتناقه الخير كل الخير.

وحتى الذين ردوا ردًا شديدًا على كتب رسول الله لم يكن حرصهم على التمسك بعقائدهم هو الذي دفعهم إلى هذا الرد وإنما كان خوفهم على زوال ملكهم هو الذي حملهم عليه ولو كان الدافع روحيًا لوقفوا من رسول الله غير هذا الموقف ولأتبعوا التهديد بالعمل والقول بالفعل وشنوها حربًا شعواء على هذه الدعوة الجديدة.



رسم يبين اتصال المغازي في العصر النبوي بأعمال الفتوح في بداية العصر الراشدي

الباب الثاني عشر

نشأة الدولة
الإسلامية الكبرى

نشأة الدولة الإسلامية

لم تنشأ الدولة الإسلامية العربية، طبقًا للأساليب التي تنشأ بها الدول في عصرنا، ويعني علم الحقوق الأساسية بدرس تحولها وتطورها، ونظمها وأوضاعها، ولم تتكون كما تكونت، وربما كان هذا التباين في النشأة بين الدولة العربية الإسلامية الأولى- وقد وُلدت من حوالي ١٤٠٠ سنة- وبين دول العصر الحاضر، هو مصدر ما بين الباحثين من خلاف على حقيقة وجودها السياسي، فمنهم من ينكرها وهم أقلون، أما الأكثرية فتؤمن بقيامها وتقول بوجودها.

والطرق المتبعة في إنشاء الدول وتكوينها مختلفة متباينة في عصرنا الحاضر، فإما أن تجتمع هيئة قانونية سياسية، تمثل أمة من الأمم، فتعلن استقلال الأمة التي تمثلها وتأسيسها دولة تذكر اسمها واسم عاصمتها، ثم تبلغ ذلك إلى الدول فتعترف بها رسميًا وتنشئ علاقات سياسية معها. وإما أن تُغير حكومة من الحكومات على قطر من الأقطار فتقتطعه من جسم الدولة التي كان خاضعًا لها ثم تمنحه الحرية والاستقلال فينشئ دولة خاصة به ويبلغ الدول خبر ظهورها فتعترف بها، وقد حدث هذا في خلال الحرب العظمى وفي ختامها، فقد اعترفت دول الحلفاء بدول جديدة ظهرت في أثناء تلك الحرب وهي دولة بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وغيرها، ويمكن القول بأن معظم الدول الحديثة التي نشأت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨ تكونت على هذا المنوال. وإما أن يثور شعب على حكومة تحكمه ويحاربها وينفصل عنها فتعترف باستقلاله مرغمة كما فعل الحجاز في إبان الحرب العظمى.

وهنالك أيضًا طرق وأساليب أخرى في نشأة الدول وتكونها يعرفها من درس القانون الدولي وعلم الحقوق الأساسية وليس هنا موضع التبسط فيها.

وبديهي أن الدولة الإسلامية العربية الجديدة في بلاد العرب، لم تنشأ هذه النشأة ولم تتكون هذا التكون، لأن إنشائها لم يكن الغاية من الدعوة الإسلامية التي دعا إليها نبينا العظيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربي الهاشمي صلوات الله وسلامه عليه، فهو لم يأت لتأسيس الدول ولا لفتح الممالك ولا للبسطة في المُلك، كما أثبتنا ذلك في متن الكتاب، وإنما جاء مبشرًا ونذيرًا ومرشدًا وهاديًا إلى الناس كافة، لا إلى عنصر من العناصر أو شعب من الشعوب، والقرآن وكتب السُنة مشحونة بالآيات والأحاديث التي تؤيد هذه النظرية تأييدًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فنشر الدين الإسلامي وتعميمه إذًا هو الغرض الأصلي للحركة التي تحركها المسلمون في ابتداء أمرهم، أما إنشاء دولة خاصة بهم، فقد جاء عرضًا ولضرورة من الضرورات الاجتماعية، ومعظم حوادث الكون هي في الغالب وليدة هذه الضرورة مع العلم أن الدين لم ينفصل عن السياسة إلا بعد النهضة الحديثة.

لقد كان المسلمون في مكة أقلية ضئيلة مجردة من كل حول وطول، وعرضة لكل ظلم واضطهاد، وكانت قريش تحول بينهم وبين ممارسة شعائرهم الدينية وتسعى لحملهم على الارتداد عن دينهم. وغني عن البيان أن طائفة هذا شأنها، لا تفكر في تأسيس الدول والحكومات، لأنها ليست ذات كيان اجتماعي مستقل، وأقصى همها أن ترد الهجمات الموجهة إليها، وتحتفظ بكيانها فلا تذوب وتتلاشى.

وتبدل الحال حينما نزل المسلمون المدينة، فتمتعوا بقسط وافر من الحريات

وأخذوا يجهرون بآرائهم ومعتقداتهم الشخصية لا يخافون عقابًا ولا اضطهادًا، كما أخذوا يؤدون فروضهم الدينية في مسجدهم الجديد، ولم يتسن لهم مدة ثلاث عشرة سنة أن ينشئوا مسجدًا مثله في مكة، وتلك هي الحرية الدينية، وكانوا يجتمعون ويتناقشون في الخطط التي يسيرون عليها لنشر دينهم ويعقدون العقود والمعاهدات مع القبائل المجاورة لهم وتلك هي الحرية السياسية. ولقد أتاح اجتماع هذه الحريات وتفاعلها نشوء حياة اجتماعية جديدة توفرت فيها الشروط والمزايا التي يشترطها علماء الاجتماع المعاصرون في تكون الهيئات الاجتماعية وهي:

(١) وحدة المثل الأعلى
(٢) التجانس
(٣) التاريخ المشترك
(٤) اتحاد الذكريات
(٥) الاتحاد العنصري

ولما كان لابد لكل هيئة اجتماعية مهما كان نوعها وشكلها وغرضها من حكومة تدير شؤونها وتنظم أمورها، وتدبر مصالحها، وتصون مرافقها، بدأت الدولة الإسلامية تظهر تدريجيًا وتكونت بالفعل قبل أن تتكون بالقوة أو قل إنها نشأت عمليًا قبل أن تنشأ نظريًا، وهو ما كان يحدث غالبًا في تكون معظم الدول في القرون الأولى والوسطى.

لقد صار المسلمون يؤلفون الأكثرية المطلقة في المدينة وكانوا يتألفون من ثلاثة عناصر رئيسية:

(١) المهاجرون المكيون وكان عددهم في ازدياد

(٢) الأوس

(٣) الخزرج

وكانوا جميعًا يدينون بالطاعة لصاحب الرسالة الإسلامية، وينقادون لأوامره، ويرجعون إليه في شؤونهم الخاصة والعامة، ويتبعون أوامره ونواهيه، فينظر في أمورهم، ويفصل في قضاياهم وينصفهم فيطيعونه، ويتبعون كل ما يصدره إليهم من الأوامر والتعليمات، وتلك هي وظائف الحكومات في كل عصر ودهر: تسوس الناس وتدبرهم، وتضرب على يد الباغي وتؤدبه، وتقيم الأحكام وتنفذها، وتوزع العدل وتنظمه، وتسهر على المصالح العامة وتسيرها، وهو ما كان النبي يباشره بالذات في عهده، وهو ما سار عليه خلفاؤه من بعده.

فالدولة الإسلامية نشأت وتكونت عمليًّا من اليوم الذي وصل فيه النبي إلى المدينة، وتسلم زمامها وأصبح صاحب السلطان الأعلى في ربوعها، نعم إن المسلمين لقوا في ابتداء أمرهم معارضة من ابن أُبي، ومقاومة من اليهود، ما لبثوا أن ذللوهما (المعارضة والمقاومة) وتغلبوا عليهما فتفردوا بالسيادة وبسطوا نفوذهم على شمالي الحجاز ثم اتبعوه بجنوبيه، وكان النبي يعيِّن عاملاً (حاكمًا إداريًا) من قِبَله عن كل بلد يفتتحه أو يدخله في الإسلام سلمًا كما فعل في مكة وتيماء وعمان والبحرين واليمن، وكان هؤلاء العمال يتلقون منه التعليمات مباشرة وينفذون أوامره، ويقيِّمون أحكام الإسلام، وأي دليل مادي يصح الاستشهاد به على أن النبي أنشأ حكومة ثابتة أقوى من هذا الدليل، ولا سيما متى ذكرنا أن القبائل في الحجاز ما كانت في حروبها وغزواتها تعنى بالاستيلاء على الأراضي ولا بافتتاح المدن ولا ببسط النفوذ، بل كان أقصى همها السلب والنهب والحصول على المال،

ثم تعود بعد ذلك إلى ديارها الأصلية تاركة البلاد لأهلها. وقد تنزه الإسلام عن هذا وما كان المسلمون يمدون أيديهم بسوء إلى القبائل التي تدخل في دينهم، بل كانوا يرحبون بها ويدمجونها في جامعتهم وهيئتهم الجديدة، أما القبائل اليهودية التي صالحتهم بعد ما حملوا عليها فقد اكتفوا منها بالجزية طبقًا لما جاء في دستورهم (القرآن).

ولقد إعتبرنا انتصار المسلمين في بدر– وإن لم يخرجوا في الأصل، للقاء قريش ولم يسعوا لقتالها– فاتحة الحروب التي انتهت بإخضاع الحجاز، ففي بدر ظهر المسلمون عسكريًا، وفي بدر أثبتوا أنهم ذوو قوة، وفي بدر تغلبوا على قريش وهزموها، وكان عددها ضعف عددهم على أقل تقدير. كما كانت قواها المادية الأخرى تزيد على قواها أضعافًا مضاعفة. وبديهي أن الغنائم التي غنموها منها، والسلاح الذي استولوا عليه، وأموال الفداء التي قبضوها، ساعدتهم على توسيع نطاق جيشهم، فازداد ونما فأخضعوا به الحجاز ثم جزيرة العرب، ولكن بالسلم لا بالحرب، فقد خافت القبائل بأس جيشهم الجديد الموحد القيادة والغاية، وحسبت حساب نشاطه وسرعته، فأقبلت وفودها إلى المدينة تعلن دخولها في الإسلام وانتظامها في الهيئة الاجتماعية الجديدة، فاستقبلها المسلمون بالترحاب واستعانوا بها في عملهم العظيم، وهكذا كان عددهم ينمو بدون انقطاع، وما دخل الإسلام قلبًا وخرج منه.

فطريقة «السلم المسلح»– وتسير عليها دول أوروبا في عصرنا الحاضر، متنافسة في الإكثار من المعدات الحربية، وبناء الأساطيل، لاعتقادها أنها أنفى للحرب– هي الطريقة التي اتبعها المسلمون في فتح جزيرة العرب فقد عملوا في

السنوات الأولى، على استمالة القبائل وضمها إليهم، وإدخالهم في دائرتهم، ولما كثر عددهم وازداد سوادهم أصبحوا بطبيعة الحال يؤلفون أكبر قوة في داخل الجزيرة، فهابتهم القبائل الأخرى وألقت إليهم الزمام وجاءتهم طائعة مختارة لئلا يسيروا إليها أو يحملوا عليها، لأنها شعرت بعجزها عن لقائها ومقاومتهم، وهكذا فشا الإسلام في الجزيرة ودانت به القبائل فأفادها في حاضرها ومستقبلها، وأنقذها من حالتي الفوضى والجهالة، وضمن لها الاستقرار والهدوء، فلا تفاخر في الأنساب، ولا تعاظم بالآباء، ولا غزوات ولا غارات، ولا نهب ولا سلب، فقد أبطل ذلك الإسلام وألغاه، وأقام مقامه نظام حكم جديد مطابق لحالة البلاد الاجتماعية كما أنشأ حكومة قوية بسطت نفوذها على بلاد العرب كلها وأرسلت عمالها وموظفيها فانتشروا وسيطروا يؤيدهم جيش قوي، جنده المسلمون كافة، وقائده الأعلى الرسول وأمراؤه الصحابة. ومعنى ذلك أن النبي لم يقتصر على نشر الدين وإذاعة تعاليمه بل أنشأ بالفعل دولة هذه أركانها وعناصرها:

١ - دستور مسنون كامل حاو لجميع الأحكام «القرآن».

٢ - حكومة منظمة لها ديوان «سكرتارية» وجند وشرطة نشرت نفوذها في الداخل وأنشأت صلات خارجية مع بعض الدول في خارج الجزيرة واتصلت بعضها ببعض.

٣ - جيش ينفذ دستورها وأوامرها، وقد كان المسلمون كافة جند هذا الجيش.

٤ - موارد مالية ثابتة (أموال الصدقات والخراج والجزية) وقد جبا المسلمون الصدقات في عصر الرسول من القبائل، كما جبوا الجزية من اليهود

والنصارى الذين خضعوا في شمالي الحجاز وفي اليمن.

٥ – شعب يطيعها وينفذ أوامرها ويلتف حولها.

٦ – وطن ثابت ذو وحدة جغرافية؛ فقد خضعت جزيرة العرب لهذه الدولة، ولم يكن لها حتى ختام العهد النبوي، رعايا أجانب، بل كان رعاياها من أبناء العرب أنفسهم.

وخلاصة القول إنه توافرت لهذه الدولة جميع العناصر التي يشترط توفرها في هذا العهد لقيام الدول وفي مقدمتها الوطن «الأرض» والوحدة الجغرافية؛ فقد قامت في بلاد عربية؛ والوحدة العنصرية، فقد كان جميع رعاياها من العرب أي إنها منهم وإليهم؛ والموارد المالية، وقد ضمنها لها نظام الزكاة والصدقة والجزية؛ ووحدة الغـاية.

ومشكلة اليهود كانت من المشكلات الخطيرة التي واجهت المسلمين في ابتداء ظهورهم، وإبان نشأتهم، فقد ساء النازلين منهم في المدينة وحولها- وكانوا يؤلفون قوة كبيرة قوية في شمالي الحجاز- أن يعظم أمر المسلمين، وأن ينتشر نفوذهم، وأن ينتزعوا منهم السيادتين الاقتصادية والسياسية على بلاد الشمال، فعكفوا على مقاومتهم سرًّا وعلنًا، أملاً بأن يتغلبوا عليهم، ويقضوا على نفوذهم.

ولقد دل النضال الذي دار بين المسلمين واليهود على تفكك عُرى الروابط الاجتماعية بين أبناء هذا العنصر، وعلى أن شأنهم ما كان يختلف عن شأن القبائل الأخرى القاطنة في بوادي الحجاز، فقد انقسموا إلى شيع وأحزاب ضعفت بينها الروابط (الصلات) ولم يخف أمرهم على المسلمين فهاجموا قبائلهم الواحدة بعد الأخرى بادئين بالأصغر والأضعف، فقضوا عليهم وسلبوهم ما كان لهم من نفوذ

وسلطان ولذلك لم ير يهود خيبر وتيماء ووادي القرى بدًا من الخضوع للمسلمين حينما هاجموهم بعد ما كانوا يتمتعون بنفوذ عظيم، ورأى عمر بن الخطاب في عهده أن مصلحة المسلمين السياسية والاجتماعية تقضي بإجلاء البقية الباقية من هؤلاء فأجلوا مع النصارى أيضا، فلم يبق في الحجاز، سوى الدين الجديد، وبقيت في اليمن والعراق والشام- ولا سيما في حوران وفلسطين- طوائف كثيرة من النصارى واليهود أقرها الإسلام على دينها، ولم يتعرض لها، واكتفى منها بالجزية وكانت تسقط عن كل من يدخل في الإسلام من أفرادها.

وطبيعي أن الغنائم التي غنمها المسلمون من يهود الحجاز، والأسلحة التي صادروها منهم، والأراضي التي وضعوا يدهم عليها- وكانت لليهود زراعة نامية حول يثرب وفي خيبر وبقية المناطق التي ينزلونها، وإطم منيعة كما كانت لهم تجارة واسعة- ساعدتهم في عملهم العسكري وفي توطيد بنيان دولتهم الجديدة، وفي نشر نفوذهم، فهابتهم القبائل الأخرى، وكانت تحسب حساب اليهود، وتظن أن المسلمين لن يقدروا على إخضاعهم والاستيلاء على أرضهم وحصونهم، فلما صار أمرهم إلى ما صار إليه، وتلاشت قواهم العسكرية والمادية كانت قريش في مقدمة من خضع للمسلمين وانقاد إليهم. وقد كان فتح مكة بعد خيبر؛ وتلا ذلك خضوع قبائل نجد واليمن وحضرموت، ومعنى ذلك أن انتصار المسلمين في خيبر وإنجازهم أمر اليهود أوقع الرعب في قلب قريش، وكانت تتوهم أن سفينة الإسلام لن تلبث أن تتحطم حين ارتطامها بحصون اليهود فلما هاجموا خيبر وفتحوها وعادوا سالمين، أُسقط في يد قريش ولم يجد المسلمون كبير مقاومة حينما حملوا حملتهم الكبرى عليها فاستسلم إليهم ودخلت في طاعتهم، ومن تحصيل الحاصل

القول بأن فتح مكة زاد في نفوذ الإسلام زيادة عظيمة فهو فضلاً عن فائدته الأدبية، ضمن للمسلمين تأييد قوة قريش عسكريًا وماليًّا واقتصاديًا فانحازت إليهم، ووضعت مواردها تحت تصرفهم، وشدت أزر الدولة الجديدة، وقد كان مديروها وولاة أمورها من أبنائها ورجالها وشجعانها؛ لأنها أدركت أن عزها في عز هذه الدولة، سيما ولم يبق ما يستوجب الخلاف والنزاع، بعد ما ارتضت دين الإسلام، ونبذت عبادة الأوثان، واستقبلت حياة جديدة وعهدًا جديدًا كان أيمن من العهد القديم وأبرك وأجزل، فقد أنالها التفوق والسيادة لا على جنوبي الحجاز وحده– وما كان نفوذها المادي في الجاهلية يتجاوزه– بل على الشرق كله فانقاد لها، وخضع لأبنائها، فحكموه وتولوا قياده مئات السنين.

ولئن تسنى للمسلمين حل مشكلة الخلافة بسهولة وبدون عناء وقد نشأت بسبب وفاة النبي فذلك لم يتيسر لهم في مشكلة الردة، والباحثون من المؤرخين متفقون على أنه كان لعزيمة أبي بكر، وقوة إيمانه ويقينه أعظم تأثير في إخمادها والقضاء عليها.

لقد كانت فتنة الردة طعنة نجلاء وجهت إلى قلب الدولة العربية الإسلامية، وكان فوز دعاتها معناه الرجوع إلى نظام الجاهلية واستعادة كل قبيلة من القبائل ما تفقده من استقلال داخلي بخضوعها للدولة الجديدة، ورجوعها إلى ما كانت عليه قبل الإسلام؛ حيث لم يكن سلطان فوق سلطانها، ولا نفوذ يعلو نفوذها.

وقد تجلت الردة في صور وأشكال شتى، ومعنى ذلك أن القبائل المرتدة لم تكن على وفاق بينها وأن كلاً منها كان يعمل منفردًا مما سهّل للمسلمين التغلب عليها وإخضاعها، ولولا ذلك لكانت المهمة أصعب وأشق. ومما يستحق الذكر أنه

كان بين أبناء القبائل التي ارتدت أناس أقاموا على التمسك بدينهم وأخلصوا له وانفصلوا عن المرتدين ولم يسبحوا في تيارهم وبينهم أبناء عمومتهم، وهذا نادر في تاريخ القبائل، وقد اعتادت أن تجعل العصبية فوق كل اعتبار، فيشد ابن العم أزر ابن عمه ويخوض المنايا تأييدًا له، وهذه إحدى نتائج رسوخ عقيدة الإسلام في صدور هؤلاء الذين شلوا بقعودهم عن الفتنة حركة دعاتها بين قومهم، وكانوا عونًا للمسلمين كما كانوا عيونًا لهم يطلعونهم على الجليل والحقير من أحوال قبائلهم.

وكذلك يجب أن لا ننسى ما كان لادعاء النبوة من أثر في إذكاء نار هذه الفتنة السياسية، ومما يستوقف النظر بوجه خاص، أن ثلاثة من أدعيائهم هم من أهل نجد، وكان الرابع يمانيًا وقد ظهر وقُتل والنبي على قيد الحياة، أي إنه لا علاقة لحركته بحركة الردة، وخاض بعض أنصاره فتنتها مع الخائضين يوم قام سوقها، ولم يلق المسلمون كبير عناء في القضاء على حركتهم واستئصال شأفتهم.

وثمة اعتبار محلي خاص، لا نشك في أنه أثر أثره في بعض قبائل نجد، وحملها على أن تقف من حكومة المدينة الموقف الذي وقفته، فقد كبر عليها أن تظل خاضعة لحكومة أبي بكر القرشية- الأنصارية- المضرية- وأن تؤدي إليها الزكاة، وهي لا ترى نفسها دونها في القوة والعصبية، ولذلك لم تتردد في تأييد طليحة الأسدي ومسيلمة الحنفي، حينما قاما يدعيان النبوة، توهمًا منها أن النبوة هي الوسيلة الوحيدة لإدراك السيطرة والنفوذ، أملاً بأن تنال على يد هذين الدعيين ما نالته قريش على يد محمد بن عبد الله ﷺ، وقد جهر بذلك أحد أقطاب بني حنيفة حينما صرّح بأنه وإن كان لا يشك في كذب مسيلمة وصدق محمد، إلا أن

كذب هذا أحب إليه من صدق ذلك؛ لأنه من أبناء قبيلته، واستمات بنو أسد وبنو غطفان في الدفاع عن قضية طليحة، استماتة بني حنيفة في الدفاع عن قضية مسيلمة، ولو اتفقت قوى هؤلاء وهؤلاء وانضم إليهم بنو تميم ووحدوا القيادة، لما تسنى لجيوش أبي بكر إخضاعهم بسهولة، سيما وهي لم تتغلب عليهم وهم متفرقون إلا بعد عناء عظيم، وقد اعترف المؤرخون الإسلاميون بأنه كان بين بني حنيفة أنفسهم من ثبت على الإسلام، وكان عونًا للمسلمين في نضالهم مع مسيلمة وأنصاره وما كان هؤلاء يقاتلون مع مسيلمة حبًا فيه، وإنما كانوا يسعون للتخلص من سلطة المدينة، وقد ظنوا أن موت النبي ﷺ مؤذن بزوالها، فلما استخلف أبو بكر، وظهر أن المسلمين يعتزمون السير على سنته، وتنفيذ ما جاء به من أحكام قاموا وثاروا يريدون نقض هذا النظام والتخلص منه، والرجوع إلى ما كانوا عليه من نظم الجاهلية والتمتع بالاستقلال الداخلي المطلق، وتلك هي «الرجعى» السياسية، وهذا هو معناها في الاصطلاح العصري.

فإذا قيل لنا إن هنالك قبائل، لم تحاول الخروج على النظام كله، وإنها طلبت وضع الزكاة عنها، أي إعفائها من دفع الضرائب المفروضة عليها لخزينة الدولة، وأن غيرها طلب وضع الصلاة، نجيب أن اختلاف المظاهر لا يؤثر وإنه ولو تساهلت حكومة المدينة مع قبيلة من القبائل أو أظهرت شيئًا من الضعف والاستكانة لأطمعت الآخرين فيها، وحملتهم على طلب المزيد، وما كانت غايتهم الحقيقية سوى التخلص من النظام نفسه، لأنه لا يتفق مع ما اعتادوه من استقلال ولا مع الأنفة التي شبوا عليها في أحضان قبيلتهم.

وجملة القول إن المسلمين لقوا عناءً عظيمًا في إطفاء فتنة الردة فكلفهم القضاء عليها دماء غالية، وأفقدهم عددًا كبيرًا من رجالهم، فعدد من قُتل منهم في معركة عقرباء وحدها يزيد كثيرًا على عدد الذين قُتلوا في سبيل فتح الحجاز وبلاد العرب الأخرى، وما ذلك إلا لأن بني حنيفة استماتت في الدفاع عن قضيتها، وكانت تقاتل دون ظعنها ونسائها ومالها، ولو كُتب للحنيفيين الفوز في يوم عقرباء لواصلوا الزحف حتى المدينة، ولارتفع شأن مسيلمة، ولعظم نفوذه ولتبدل تاريخ جزيرة العرب ولسار في اتجاه غير الاتجاه الذي سار فيه.

وكانت معركة عقرباء هذه خاتمة المعارك التي دارت في بلاد العرب بين أنصار النظام الجديد وبين خصومه، فلما انجلت عن اندحار هؤلاء وفشلهم واستقرت قواعد الدولة الجديدة وخضعت القبائل، وقد تردد بعضها فعلاً لمعرفة نتيجة النضال الدائر. فينضم إلى الفريق الغالب وهو ما جرى فعلاً في أثناء النضال بين المسلمين وقريش. وهو ما يتكرر في جزيرة العرب حتى الآن بدون انقطاع تقريبًا، فمن دأب قبائلها أن لا تشترك في نضال يدور بين قوتين من قواتها تتنازعان السيادة والنفوذ إلا إذا اضطرت؛ لأنها تأبى المغامرة وتنفر منها، في حين إنها لا تتردد في الانضمام إلى الغالب وتقديم الطاعة له، وسيان عندها فاز هذا أم ذاك ما دام كلاهما عربي، وما دامت لا تطمع بأن تحوز السيادة والنفوذ لنفسها.

وحدث بعد عقرباء ما حدث بعد فتح مكة، فقدمت القبائل كلها الطاعة والخضوع لحكومة أبي بكر ودفعت الزكاة، وأقامت أحكام الدين، ولولا ثبات أبي بكر ومن معه من الصحابة واستبسالهم في القتال والنضال، لما انتشر الإسلام بمثل ما انتشر به من السرعة الزائدة، ولما أنشأ المسلمون تلك الإمبراطورية العظيمة،

ولحرمت الحضارة من الخدمات الكبرى التي أسداها لها العرب بنقلهم الحضارتين اليونانية واللاتينية.

وكانت بلاد فارس وقد وقف جيش خالد بعد انتهائه من حروب الردة وفراغه من أمر نجد على حدودها، في مقدمة الأقطار التي أقدم المسلمون على مهاجمتها في المرحلة الجديدة لاعتبارات عديدة إيجابية وسلبية.

مهاجمة الإمبراطورية الفارسية

كانت هنالك عوامل عدة تغري المسلمين بمهاجمة فارس وتدفعهم إلى قتالها واقتحام حدودها، بعضها سلبي وبعضها إيجابي، وهي :

١ – ما بشرهم به رسولهم من أنهم سيفتحون بلاد كسرى ويستولون على خزائنه وإيوانه.

٢ – كتابه إلى كسرى بالدعوة إلى الإسلام، ورفض هذا قبول الدعوة، وتمزيقه الكتاب، وقول النبي حينما نُقل إليه ذلك «مزق الله ملكه».

٣ – رغبة ولاة أمور المدينة في فتح ميدان جديد للعرب يقاتلون فيه ويكافحون بعد ما انتهى أمر الجزيرة كلها وخضعت للدولة الجديدة، فالحرب والغزو من «العادات المحلية» عند العرب.

٤ – وفود بعض أبناء العراق من رعايا الإمبراطورية الفارسية إلى المدينة ومقابلتهم ولاة أمورها وطلبهم تجهيز حملة على العراق لإنقاذ العرب من سكانه وتحريرهم، وضمهم إلى الدولة الجديدة باعتبارهم ذوي عصبيتها، فالعربي ابن عم العربي حيثما كان وأنى وُجد، وذلك شعار العرب في كل زمان ومكان.

٥ - الرغبة في امتلاك العراق ونشر الإسلام في ربوعه ويُعد من أخصب بلاد العرب، وأكثرها ثروة وغنى.

ولابد لنا بهذه المناسبة من الاعتراف بأن نظام توزيع الغنائم الذي جاء به الإسلام- ويقضي بتوزيع أربعة أخماس الغنيمة أو ٨٠ في المائة على الجيش المحارب، واستبقاء العشرين الأخرى لبيت المال (خزينة الدولة) لإنفاقه على المصالح العامة- كان له كبير الأثر في تنشيط حركة النضال وفي حمل العرب على مواصلته، فهو فضلاً عن الثواب الأخروي الذي يضمنه للمجاهدين الأحياء منهم والأموات، ولا سيما الذين يسقطون صرعى في الميدان، فإنه يضمن فائدة مادية لمن يظل حيًّا في حالة النصر والفوز وهو سهم من الغنيمة ويناله بنسبة عادلة بعد إخراج سهم بيت المال وهو مخصص للمصالح العامة كما قلنا.

ولقد نسخت الشرائع الحديثة هذا النظام فحل محله نظام التجنيد الإجباري، ويجعل الجندي المحارب تحت كفالة الدولة وتقدم إليه كل ما يحتاج إليه مدة وجوده في الجيش وتساعد عائلته إذا كان له من يعوله إذا سقط صريعًا في إبان الخدمة، أما في صدر الإسلام فما كانت الدولة مسئولة عن حاجيات الجندي وشؤونه، ما عدا السلاح وكانت تقدمه لمن لا يملكه فكان هو الذي يبتاع فرسه ويقدم له علفه، وكانوا يسهمون لأصحاب الخيل بأكثر من سهم المشاة عند توزيع الغنائم، وكان الجندي نفسه يتدارك طعامه وشرابه وكسوته أيضًا، واشترط المسلمون حينما افتتحوا البلدان في الشام وفلسطين ومصر على سكانها في عقود الصلح أن يقدموا لمن يمر بهم من جند المسلمين الطعام لمدة ثلاثة أيام، وهي مدة الضيافة المقررة عند العرب لا يسأل فيها الطارق عن المكان الذي قصده، والقصد من ذلك أن تُترك له

فرصة يستريح فيها من عناء السفر ويطلع على ما هو في حاجة إلى الاطلاع عليه من شؤون القطر الذي يزوره، ويقف على المعلومات التي يحتاج إليها، فيسير على هدى بعد انقضاء مدة الضيافة ويدبر نفسه بنفسه من دون تعب ولا نصب. على أن نظام التجنيد عند المسلمين طرأ عليه تحول كبير في عهد عمر بن الخطاب وأصبح من المصالح الكبرى التي يعنون بها ويسهرون على تنظيمها.

ولقد أصاب أبو بكر في غزو العراق أغراضًا شتى؛ فحقق للمسلمين ما بشرهم به نبيهم من امتلاك إيوان كسرى، كما نشر الدين الإسلامي في تلك البلدان الغنية العظيمة وأوجد مورد رزق لسكان الجزيرة، وقد أثرت فيهم حروب الردة والغزوات المتتابعة التي غزاها المسلمون في خلال عشر سنوات ودر عليهم أرباحًا طائلة فتدفقت أنهار الثروة في المدينة وعاش الناس مترفين منعمين.

تلك هي الأسباب الإيجابية التي دفعت المسلمين إلى غزو العراق وبعثتهم على مهاجمة إمبراطورية كانت تعد من أعظم الإمبراطوريات في عصرها وكانت تنافس الإمبراطورية الرومية وكانت باتفاق الآراء أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ القديم وتجاذبها حبل المجد والفخار، ولطالما اكتسح جندها بلاد الروم ولطالما دوخوهم وهددوا عاصمتهم، ومعنى ذلك أن قوى الفرس العسكرية كانت عظيمة، وكل نسبة مفقودة بين قوتهم وبين قوى العرب التي هاجمتهم في الشرق وأنشبت أظافرها في جسم دولتهم وما زالت بها حتى قوضت بنيانها ودكت أركانها وورثت أرضها وديارهم والملك لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وبين الباحثين من العلماء خلاف في تعليل الأسباب المادية التي ضمنت النصر والتفوق للمسلمين ومكنتهم من إخضاع فارس وانتزاع مُلك الأكاسرة،

ويورد كل واحد منهم أسبابًا وعللاً يعتقد أنه لا سواها هي التي عجلت في فوز خالد والمثنى وسعد والنعمان والأحنف. وينتحي كل واحد من هؤلاء (الباحثين) ناحية خاصة يعكف على دراستها، فيتمسك بعضهم بالعامل الاقتصادي، ويجعله السبب المباشر في غزو العرب للعراق وفي انهزام الفرس، ويتمسك آخرون بالعامل الاجتماعي، ويرون أن ما غشي فارس في الفترة التي تقدمت ظهور الإسلام من غواش وما تسرب إليها من فساد واضطراب، نتج عن انتشار الإلحاد والإباحية ساعد على سقوط هذه الإمبراطورية تحت سنابك خيل العرب.

ويقول آخرون إنه كان للاضطرابات السياسية الداخلية وقد نمت وكثرت في تلك الفترة فتعدد سقوط الملوك وقيامهم وازدادت المؤامرات والدسائس أثر كبير في إضعاف الدولة وتسرب الخلل إليها وانفضاض القلوب من حولها، وملاشاة نفوذها، سيما وقد سبق الغزو العربي غزو رومي فقد بلغ هرقليوس المداين بجيوشه واحتلها بعد ما هزم الجيش الفارسي وشتت قواه وأملى على الفرس شروط الصلح الذي أرادها فانصاعوا مضطرين وبديهي أن هذا الانكسار المريع أنهك قوى الفرس، فلم تستطع ثباتًا أمام المسلمين الذين تدفقوا من غربي جزيرتهم يحملون دينًا جديدًا، وتعاليم جديدة ويسيرون تحت قيادة جمعت شملهم ووحدت صفوفهم وأنشأت منهم أمة جديدة تطمح إلى المجد وتطمع في امتلاك العالم وإخضاعه.

لقد استغرق فتح الإمبراطورية الفارسية ١٣ سنة تقريبًا اكتسحها المسلمون من أقصاها إلى أقصاها، وتغلبوا على الفرس، وقد قاتلوا على كل شبر من أراضيهم تقريبًا وظلوا يطاردونهم من نهر الفرات حتى نهر جيحون- وهو الحد الفاصل بين بلاد إيران الحاضرة وبين أفغانستان وكان كذلك في العهد القديم- فوقفوا عنده،

حتى استؤنفت الأعمال العسكرية في العهد الأموي فاجتازوا النهر واحتلوا ما وراءه ونشروا الإسلام في آسيا الوسطى.

ونرى من الواجب أن نذكر أن نضال العرب لم يكن قاصرًا على هذا الميدان وحده فقد كانوا ينازلون الروم في الشام وفلسطين ومصر وطرابلس الغرب وتونس وكيليكية في نفس الوقت الذي كانوا يحاربون فيه الفرس، أي إنهم كانوا يخوضون الحرب مع الروم والفرس في وقت واحد وينازلونهم هنا وهنالك، ولعل هذا هو السر في طول زمن النضال في الميدانين، ولو تفرغ المسلمون لإحدى الدولتين وصبوا قواهم عليها لما قاومتهم كل هذه المدة الطويلة، ولقصر أمد الحرب.

المجتمع الإسلامي ينمو ويتسع

اتسع المجتمع الإسلامي في حياة الرسول حتى شمل جزيرة العرب كلها تقريبًا، وكانت المبادئ التي وضعها الرسول عقب الهجرة لمجتمع المدينة، تسير مع الإسلام أنى سار، فلما عم الإسلام الجزيرة كانت هذه المبادئ مسيطرة على نفوس المسلمين جميعًا؛ وبخاصة أولئك الذين تمكن الإسلام من قلوبهم، وبقي مبدأ واحد وضع الرسول أصوله أيضًا في مجتمع المدينة، ولكنه كان أكثر وضوحًا عندما انتشر الإسلام واتسع نطاقه، ذلك المبدأ هو ما يسميه بعض المؤرخين المحدثين «عصبة الأمم الإسلامية». وقد نشأ هذا المبدأ بالمدينة في صورة مصغرة، ويبدو ذلك من مراجعتنا لنص المعاهدة التي عقدها الرسول بالمدينة، وبيَّن فيها حقوق جماعات المسلمين وواجباتهم، وحقوق سكان المدينة من غير المسلمين وواجباتهم، ففي هذه المعاهدة برزت الدولة الإسلامية كما سبق القول، وبرز كذلك زعيم الدولة

الإسلامية الذي يُرجَعْ إليه إذا اشتد أمر أو نشب خلاف واسع، وبرزت كذلك الأسرة الإسلامية المتساوية المتعاونة المتآلفة، وبالإضافة إلى ذلك برز شيء كان موجودًا من قبل الإسلام، ولكن الرسول أبقى منه جانب الخير ونظمه ورتب حدوده، وذلك هو وحدات هذا المجتمع، أو قل: الأسرة أو القبيلة في المجتمع الإسلامي، لقد دعم الرسول التعاطف بين أفراد هذه القبائل، ونصت المعاهدة سالفة الذكر على أن بني عوف على ربعتهم (أمرهم الذي كانوا عليه) يتعاقلون في معاقلهم الأولى (يسيرون على ما كانوا عليه من التضامن في دفع الدية أو أخذها) وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، ومثل ذلك للمهاجرين من قريش ولبني الحارث وبني ساعدة وغيرهم.

فلما اتسع الإسلام وشمل جزيرة العرب كلها كان هذا التعبير «عصبة الأمم الإسلامة» أدق دلالة وأوضح معنى، فقد رد النبيُّ الأمراء إلى إماراتهم والملوك إلى ممالكهم بعد أن أسلموا، ولم تكن في الجزيرة مستعمرة خاضعة لمكة أو ليثرب، وكان العرب يومئذ جميعًا سواسية أمام الله في إيمانهم المتين به، وكانوا جميعًا يدًا واحدة على من اعتدى عليهم، أو حاول فتنتهم عن دينهم.

وكان الرسول بذلك يضع الدستور الإسلامي للأجيال القادمة، ويهيئ الأمر للعلاقات بين الدول والممالك الكبرى التي كان يدرك أن الإسلام سينتظمها في يوم ما، وخلاصة هذا الدستور هو وحدةٌ بلا استعمار، مركزية في الأهداف، والسياسة، والرياسة العليا التي تتكلم باسم الجميع في الشئون الخارجية والقضايا العامة ولا مركزية في المشكلات الداخلية.

ذلك هو المجتمع الإسلامي الأول الذي كوّنه الرسول صلوات الله عليه على أساس من الإيمان بالله والإخاء والحب فكتب له النصر، وتقدم من فوز إلى فوز، وانطلق أفراده يحملون هذه الرسالة السامية إلى أركان الأرض، أو قُل انطلقت هذه الرسالة من تلقاء نفسها إلى أركان الأرض، وكانت تنتصر ولو انهزمت جيوش المسلمين، وكانت تتقدم ولو تراجع أولئك الذين يحملون قبسها ويدافعون عنها.

ذلك هو المجتمع الإسلامي كما كوّنه الرسول وأضفى عليه من خُلُقه السامي وسيرته العطرة، المجتمع الذي كان مثال الإيثار في عالم كله أثرة، المجتمع الذي كان نورًا وهاجًا في عالم مشحون بالظلمات.

أعمال العرب في ربع قرن

لقد تم للعرب في مدة لا تزيد عن ربع قرن ما لم يتم لغيرهم من الأمم التي عرفها التاريخ سواء من تأخر عنهم ومن تقدم، فقد عملوا في هذه الفترة الصغيرة الأعمال الآتية:

١ – جاءوا بشريعة من أعظم الشرائع التي عرفها التاريخ وأكملها وأتقنها.

٢ – أنشأوا دولة لا عهد للعرب بمثلها في تاريخهم: فتحت الجزيرة وحاربت الروم في الشمال وانتزعت منهم نحو نصف ممتلكاتهم في آسيا وإفريقية، وحاربت الفرس ودكت دولتهم وورثتها.

٣ – أنشأوا حكومة تدرجت تدرجًا طبيعيًا، فبعد ما كانت في أول الأمر تتألف من رئيس وسكرتيرين وعمال أصبحت بعد انقضاء سنوات على تأسيسها تملك دواوين ومصالح وصارت ذات نظام ثابت راسخ.

٤ – أنشأوا جيشًا قويًا منظمًا قهروا به الفرس والروم، واستولوا على معظم

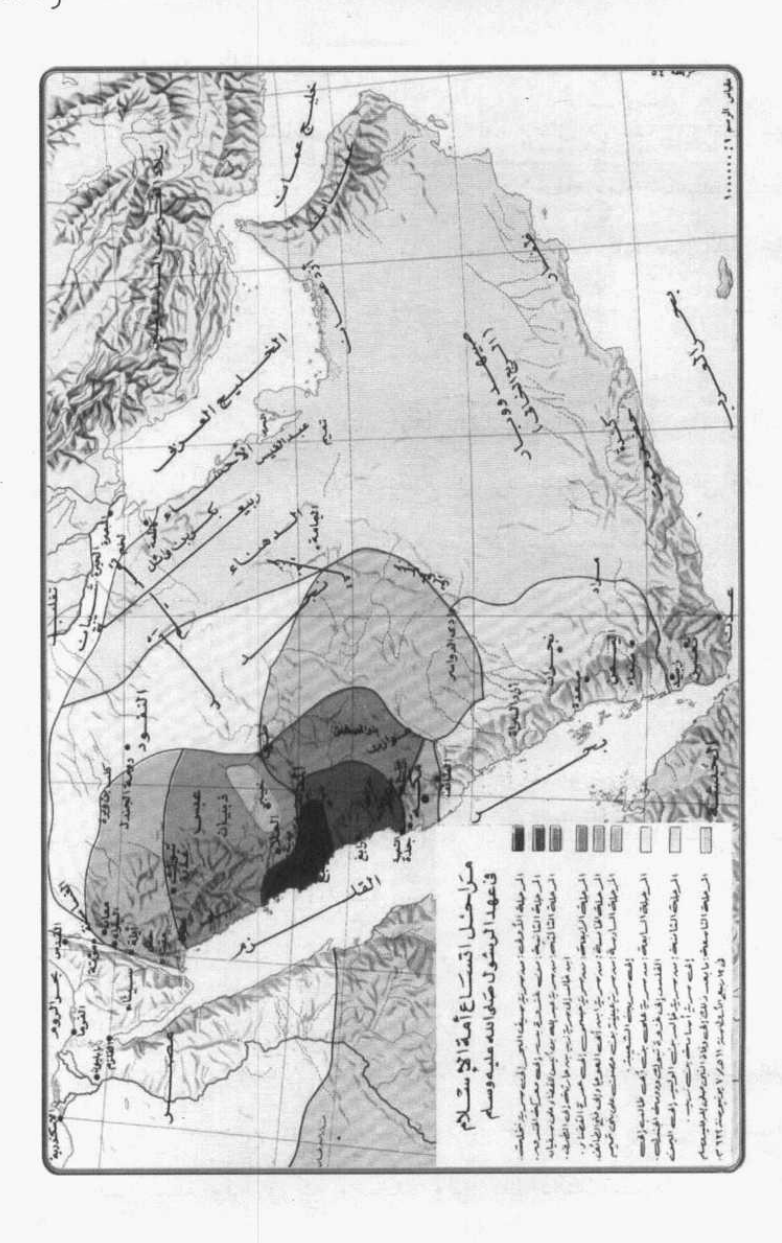
الأجزاء المعروفة من العالم المتمدن في ذلك الوقت، ووضعوا لهذا الجيش نظمًا جديدة يسير عليها في تعبئته وسوقه وقيادته.

٥ - أنشأوا هيئة اجتماعية جديدة متضامنة متماسكة بعد ما كانوا قبائل يقاتل بعضها بعضا، وبعد ما كان الجار يفتك بجاره، والأخ يفتك بأخيه.

٦ - قضوا على تقاليد الجاهلية وعاداتها فلا تفاخر بالآباء ولا تنابز بالألقاب، بل الكل سواء أمام الشرع والقانون.

٧ - نشروا الأمن في أنحاء جزيرة العرب وفي البلاد التي خضعت لهم، ووزعوا العدل، وضمنوا المساواة، ومنعوا الاعتداءات فانقاد الناس إليهم وأقبلوا عليهم، ورأوا فيهم محررين ينقذونهم من ظلم الحكومات التي كانت تسيطر عليهم وتذيقهم ألوان النكال والعذاب.

هذا بعض ما يرد على ذهن الباحث وهو يحاول تلخيص الأعمال التي عملها العرب في خلال ربع قرن لانتشار الإسلام بينهم وظهور دولتهم الجديدة في المدينة أي منذ وصول النبي مهاجرًا إليها حتى ابتدأ عهد عثمان بن عفان الخليفة الثالثة، فقد أوقفت الاضطرابات الداخلية التي ظهرت في أواخر عهده حركة الفتح وعطلتها تعطيلاً مؤقتًا لاشتغال قواد الجيش بها، واشتراك بعضهم فيها، على أنها ما لبثت أن عادت في العهد الأموي إلى ما كانت عليه، حينما استقرت قواعد الدولة الأموية الجديدة فافتتح المسلمون المغرب الأقصى ودخلوا الأندلس واستولوا على أسبانيا وواصلوا تقدمهم في أواسط آسيا فاستولوا على أفغانستان وتركستان وأوغلوا في الشرق حتى أخضعوا معظم ممالكه، كما بلغوا أسوار القسطنطينية في زحفهم من سورية وأنشأوا أسطولاً كبيرًا ساد البحر الأبيض وسيطر عليه.


مراحل اتساع أمة الإسلام
في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
الخليج العربي
خليج عمان
بحر القلزم
النفود
دومة الجندل
الدهناء
ربيعة
عبد القيس

سيطرة روح الإسلام على المجتمع

لعل القرّاء يذكرون الشاب الذي مرضت أمه وطال مرضها، ووقف منها ابنها موقفًا كله إخلاص وحنان، أنفق بسخاء على علاجها، وقام بخدمتها بشفقة واضحة، وكان يكد نهاره ليحصل على المال الذي يلزم لها، فإذا جن الليل عاد يغسل لها ثيابها ويقدم لها الطعام والدواء، ويمضي بجوار سريرها ليله كلّه، يهب إذا أشارت ويلبي طلبها إذا رغبت في شيء.

ولكن المرض زاد وقطع الأطباء الأمل في شفائها، وزاد أنينها، وزادت تأوهاتها، والشاب يألم لأمه؛ لأنه لا يستطيع أن يرد عنها قسوة المرض وقسوة الألم، وبينما كانت أمه تصرخ وتتأوه وتتوجع، تأثرت نفس الشاب وانهارت قوى المقاومة فيه، واتجه تفكيره إلى وجوب أن يريح أمه من هذا العناء، وكيف ؟ وضع لها بعض السم في شراب وقدمه لها بيد مرتجفة، وسرعان ما أسلمت روحها لبارئها.

وعاد الشاب لنفسك فأدرك أنه ارتكب جريمة، واعترف بوزره، وقُدم للمحاكمة قاتلاً مع سبق الإصرار والاعتراف، إن القانون يعاقبه بالقتل ولكن القاضي لم يطبق عليه القانون، وإنما طبق عليه روح القانون، لأنه أدرك البواعث التي دفعته إلى ارتكاب هذه الفعلة المنكرة وحكم عليه حكمًا مخففًا.

ذلك هو الفرق بين القانون وروح القانون.

ومن المعروف في الإسلام أن تارك الصلاة وهو معتقد وجوبها يُحث على أدائها، فإن لم يؤدها استحق القتل على ذلك، ولكن حد القتل لا يثبت على المسلم لو وقف متجهًا للقبلة وقرأ وركع وسجد، ولو كان ذهنه منصرفًا عن الصلاة

ومتجهًا إلى الدنيا، ولو كان شارد اللُب ينقر برأسه الأرض في حركات «أوتوماتيكية» خالية من الصلة بالله ومن الإحساس بالقرب منه، فهذه الصلاة– وإن أسقطت عنه الفرض– لا تسمو للتعبير عن روح الإسلام.

والذي نحب أن نقرره بعد هذه المقدمة أن روح الإسلام كانت مسيطرة على هذا المجتمع، وكان الرسول ﷺ باعث هذه الروح ومركز إشعاعها، تدل على ذلك الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].. فالآية هنا لم تصفه بالعدل أو الصدق وغير ذلك من الصفات التي يجب أن تتوافر في المسلم؛ بل وصفته بما هو أكثر من الواجب، وصفته بما لا يمكن أن يوضع في كلمات أرق وأجمل من هذه العبارات السامية: رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم.

ولعل روح الإسلام التي يمكن أن نستنبطها من هذه الآية تتمثل في الحب، حب الله، وحب الخير، وحب المسلمين بعضهم بعضًا في الله.

وإذا وُجِد هذا الحب بين الإنسان وبين ربه، عَبَده بإخلاص وحَرِص على تقوية صلته به، وحينئذ لا تكون صلاته قراءة وركوعًا وسجودًا ونقرًا للأرض برأسه، ولكنها ستكون انفلاتًا من الدنيا، وخُلوصًا لله واتصالاً به.

وإذا أحب المسلم الخير عمله ووجد لذة ومتعة في عمله، تفوق كل أجر وكل جزاء.

وإذا أحب المسلم المسلم اختفت الحاجة إلى القوانين وظهر الإيثار، ونعم المجتمع بحياة سامية جميلة.

فالحب هو ذلك الهدف السامي، الذي يدرك من قرأ القرآن الكريم بعناية أنه أعظم ما يمنحه الله ويعطيه، وأغلى ما يحرمه ويمنعه، تعال بنا إلى القرآن الكريم لنرى ما الجزاء الذي يمنحه الله للتوَّاب والمتطهر والمتقي والمؤمن والمقسط.. وما العقاب الذي ينزله الله بالكافر والظالم والمفسد والخائن والمختال... شيء واحد ولكنه ينطوي على كل شيء، إنه الحب يمنحه الله التواب والمطهر ويحرم منه الكافر والظالم والخائن، قال تعالى:

- ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٣١].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].
- ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].
- ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].
- ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].
- ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ

مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف: ٤].

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].
- ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].
- ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].
- ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].
- ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].
- ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾ [النساء: ١٠٧].
- ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].
- ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].
- ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وسيطر الحب على هذا المجتمع وانطلق كالسحر قوله ﷺ : «لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». فإذا هذا المجتمع يسير ليس فقط تبعًا للإسلام؛ بل تبعًا لروح الإسلام، والسيرة النبوية تذكرنا بقصة الرجل الذي جاء

يسأل الرسول، فقال له الرسول: ليس عندي شيء ولكن ابتع عليَّ.. وكيف أن عمر قال للرسول: ما كلفك الله مالاً تملك. هل تصرف الرسول في هذه المسألة تبعًا لتعاليم الإسلام وأوامره؟ وهل يمكن أن تكون هناك تعاليم تقضي بأن يستدين إنسان ليمنح إنسانًا آخر؟ لا، فالله سبحانه يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكن الرسول لم يتصرف هذا التصرف لأنه مكلف به؛ بل لأنه يحب الخير. وإن جهدت نفسه في سبيله، إنه تصرَّف تبعًا لروح الإسلام لا تبعًا لقانونه، هنا رجل محتاج وربما كانت حالته لا تشجع التجار على إقراضه، والرسول يستطيع أن يسد حاجة الرجل ولو بطريق القرض، وسيعينه الله على السداد، تلك هي روح الإسلام أن تحس بأن حاجة الناس هي حاجتك، وأن تعمل على عون الناس ومساعدتهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لا لأنك مكلف بهذا؛ بل لأنك تحب الخير وتحس بالسعادة أن تقوم به.

وذلك الرجل الذي حسب الإسلام صيامًا وصلاة وذِكر فأخذ يصوم النهار ويقوم الليل، يُكْثِرُ الذكر، ويعتمد على الناس في الإحسان إليه ومساعدته بالطعام والشراب واللباس، هذا الرجل مسلم بلا شك، ولكن روح الإسلام غابت عنه، هذه الروح التي تكره أن يعيش الإنسان على جهد سواه، وألا يسهم في خير الإنسانية وكفاحها. وأن يكون مستهلكًا ولا إنتاج له؛ ولذلك أرشد الرسول أصحابه إلى روح الإسلام في هذه القصة، فسأل: أيكم يكفي طعامه وشرابه؟ فلما قالوا: كلنا. قال: كلكم خير منه.

وعندما حاقت الهزيمة بالمسلمين في أُحُد، وركزت قريش جهدها للفتك بالرسول، وقف مسلمون بررة يتلقون عن الرسول الردى ويدافعون عنه وهم

مستعدون للموت دونه، ليس في الإسلام ما يلزم المسلمين بهذا ولكن حبهم للرسول وإدراكهم لروح الإسلام كل ذلك قادهم إلى أن يدركوا مبلغ الخسارة التي يخسرها الإسلام لو قُتل الرسول في مثل هذه الظروف فقدموا أنفسهم فداءً له، ووضعوا أجسامهم هدفًا للموت في سبيله.

والرجل الذي جاء حزينًا كاسف البال يقول للرسول: هلكت، واقعت زوجتي في رمضان، فيسأل الرسول: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ فيجب: لا. فيسأله: هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ فيقول: لا. فيسأله هل عندك ما تطعم به ستين فقيرًا ؟ فيقول: لا. فيقول له الرسول: اجلس هنا فلعل الله يجعل لك من هذا الأمر مخرجا. ثم يفد للرسول تمر فيعطيه له قائلاً: تصدّق بهذا التمر، فيقول الرجل: والله يا رسول الله ما بين لامتيها أحوج منا إليها. فيضحك الرسول ويقول: خذه فأطعمه أهلك. وهكذا قَلَبَتْ روحُ الإسلام العقوبة إلى رحمة وعطاء.

ولعلنا الآن نستطيع أن نكتفي بهذا القدر من الحديث عن روح الإسلام وسيطرتها على ذلك العهد وهذا المجتمع.

المــراجـــع

(١) آثار المدينة المنورة	عبد القدوس الأنصاري
(٢) فصول من تاريخ المدينة	علي حافظ
(٣) تاريخ الإسلام السياسي	د. حسن إبراهيم حسن
(٤) مجتمع المدينة في عهد الرسول	ابن إدريس
(٥) تاريخ المدينة المنورة	ابن شبه
(٦) المجتمع المدني في عصر النبوة	العمري
(٧) صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة	أحمد ياسين الخياري
(٨) أطلس تاريخ الإسلام	د. حسين مؤنس
(٩) المساجد الأثرية بالمدينة المنورة	محمد إلياس عبد الغني
(١٠) بيوت الصحابة ﷺ حول المسجد النبوي الشريف	محمد إلياس عبد الغني
(١١) السيرة النبوية	ابن هشام
(١٢) المدينة المنورة معالم وأحداث	د. محيي الدين إمام
(١٣) تاريخ معالم المدينة المنورة	أحمد ياسين الخياري
(١٤) في منزل الوحي	د. محمد حسين هيكل
(١٥) حياة محمد	د. محمد حسين هيكل
(١٦) عبقرية الإسلام في أصول الحكم	د. منير العجلاني
(١٧) نشأة الدولة الإسلامية	أمين سعيد
(١٨) المدينة المنورة	عبد السلام هاشم حافظ
(١٩) دولة الرسول في المدينة	د. محمد ممدوح العربي

(٢٠) السيرة النبوية	جامعة الأزهر
(٢١) المدينة المنورة	محمود الشرقاوي
(٢٢) نزهة الناظرين في مسجد الأولين والآخرين	جعفر البرزنجي
(٢٣) ضيوف الرحمن	وزارة الإعلام السعودية
(٢٤) التاريخ الشامل للمدينة المنورة	د. عبد الباسط بدر



المؤلف في سطور

- كاتب صحفي بدار الهلال الصحفية.
- عضو نقابة الصحفيين .
- عضو اتحاد الكُتّاب والأدباء .
- كتب في عدة جرائد ومجلات مصرية وعربية منها :

– مجلات (الهلال– المصور– حواء– الكواكب– طبيبك الخاص) ....بمصر .

– مجلة الرابطة– جريدة العالم الإسلامي.. عن رابطة العالم الإسلامي بالسعودية .

- حصل على الميدالية الذهبية وشهادة التقدير في مهرجان القراءة للجميع من السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس جمهورية مصر العربية.. تقديرًا لإثرائه المكتبة العربية بمؤلفاته الفكرية .

المؤلفات التي صدرت له :

- «**موسوعة الفكر الإنساني**» في عشرة أجزاء [أربعة مجلدات].. صدرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة الألف كتاب الثاني .
- «**فاتنات وأفاعي**».. صدر في سلسلة كتاب الهلال عن مؤسسة دار الهلال الصحفية .
- «**فاتنات الدنيا وأفاعي الزمان**».. والكتاب طبعة جديدة للكتاب السابق بعد أن زُودت فصوله– صدر عن دار الكتاب العربي، القاهرة/ دمشق .
- «**عظماء ومشاهير معاقون غيّروا مجرى التاريخ**»... صدر عن دار الكتاب العربي، القاهرة/ دمشق .

- «**حصاد الفكر الإسلامي**» عشرة كتب إسلامية غيّرت الفكر الإسلامي (الجزء الأول)، صدر عن دار الكتاب العربي، القاهرة/ دمشق.
- «**كتب غيّرت الفكر الإنساني**».. صدر في سلسلة مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
- «**موسوعة عباقرة الحضارة العليمة في الإسلام**» صدر عن مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع ـ المدينة المنورة / السعودية .
- «**المساجد الجامعة في الإسلام التي ساهمت في تكوين الحضارة الإسلامية**» صدر عن مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع ـ المدينة المنورة / السعودية .

المؤلفات التي لم تصدر بعد :

- «موسوعة الخالدين من أعلام الفكر» [٢ مجلد].
- «الفاروق عمر بن الخطاب وأثره في تقدم الفكر الإنساني».
- «كتب هزت وطنًا وكتب أحدثت ضجة».
- «مع الأئمة الأربعة المجتهدون عبر الزمان».
- «معالم الطريق لتربية الناشئين.. التربية المثالية في الإسلام».
- «الأمن والسلام في الإسلام».

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

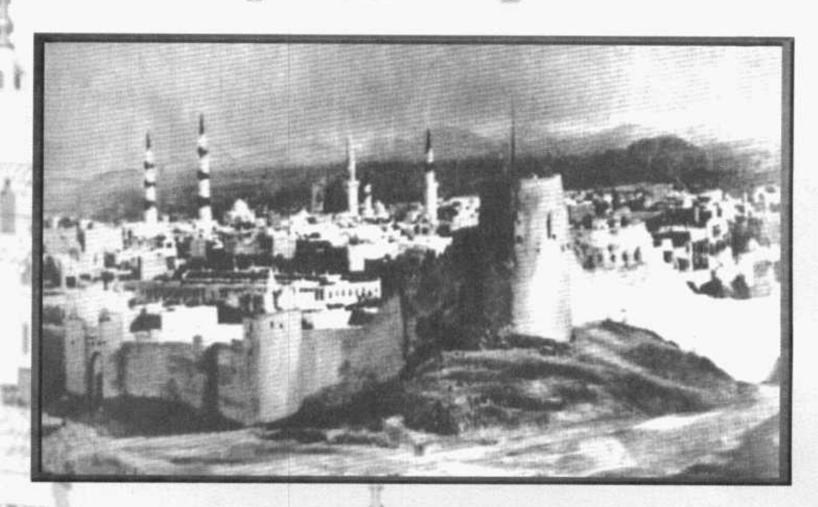
الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

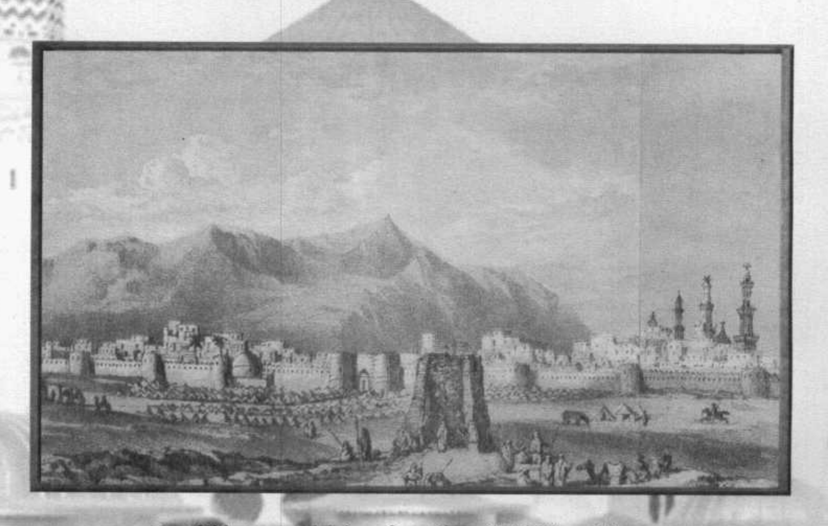
ملحق الخرائط

والصور الملونة

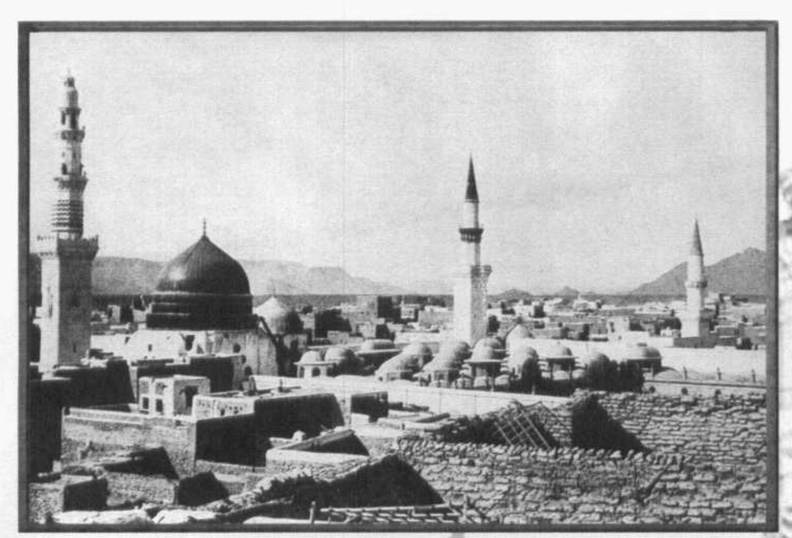
المدينة المنورة قديماً



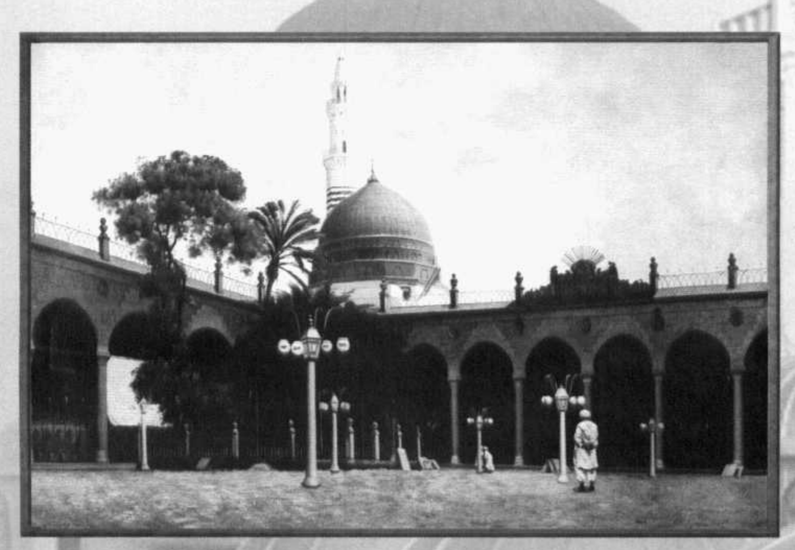
صورة المدينة المنورة قديماً



المدينة المنورة و فيها المسجد النبوى
لوحة للرسام البريطانى الشهير
"ريتشارد بورتون " عام١٨٥٢



صورة نادرة للمسجد النبوى الشريف
قبل بداية التوسعة السعودية

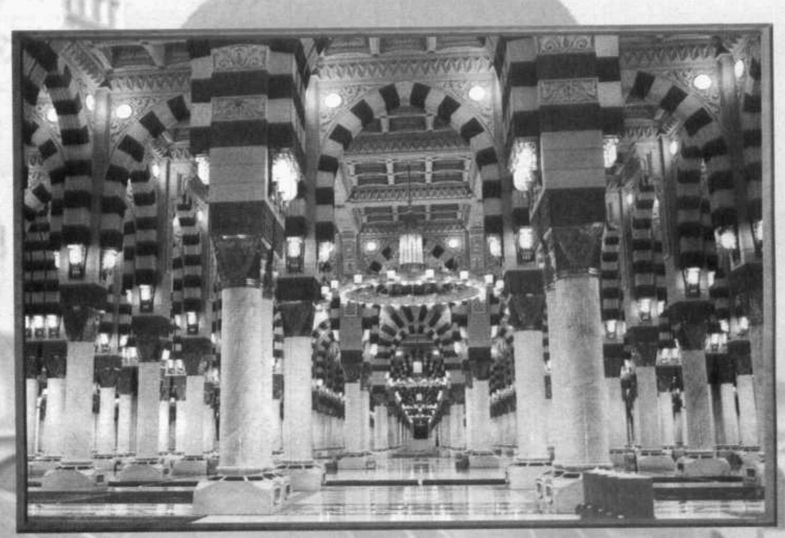


صورة لصحن المسجد النبوى قديماً
وتظهر فيها القبة الخضراء

محمد عطية

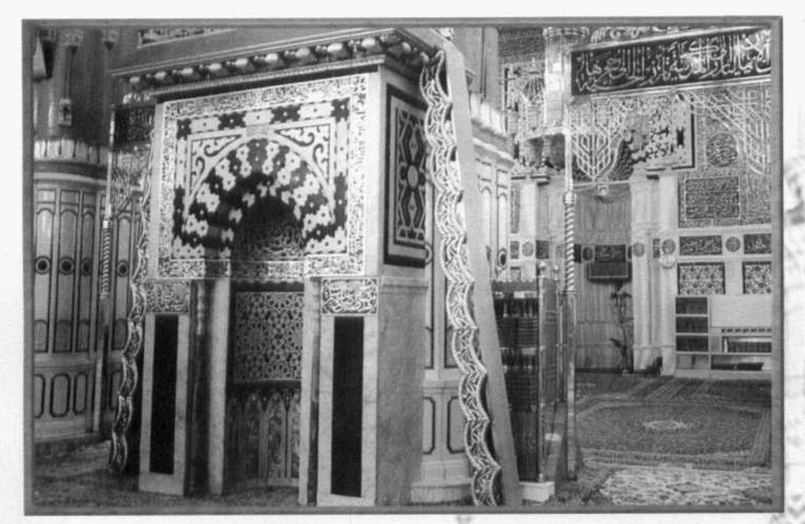


صورة عامة للمسجد النبوى الشريف بعد توسعة
خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز



صورة للحرم النبوى الشريف من الداخل

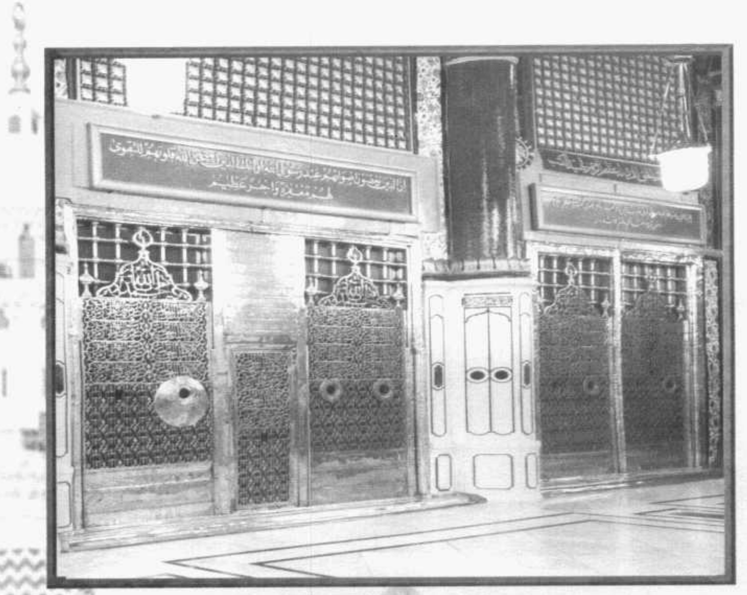
محمد عطية



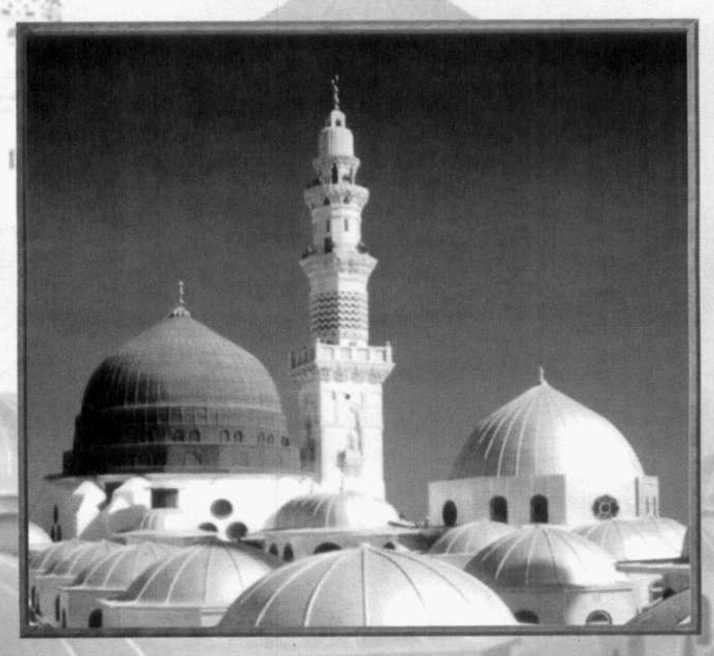
صورة للمحراب النبوى



الروضة الشريفة

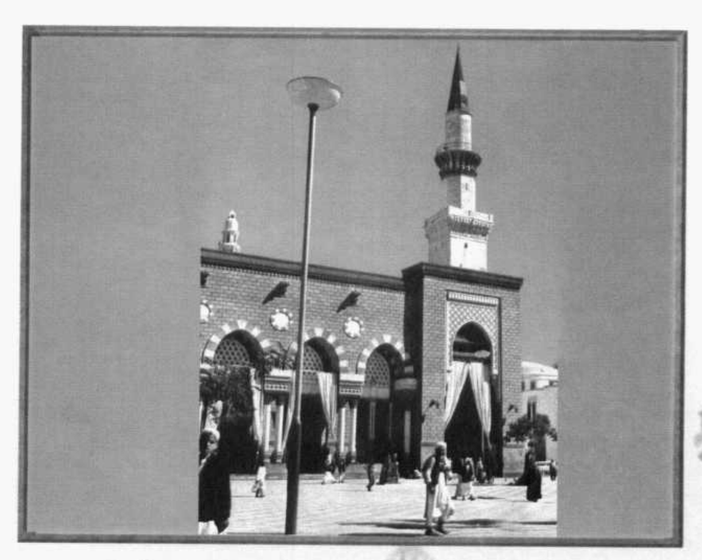


المواجهة الشريفة

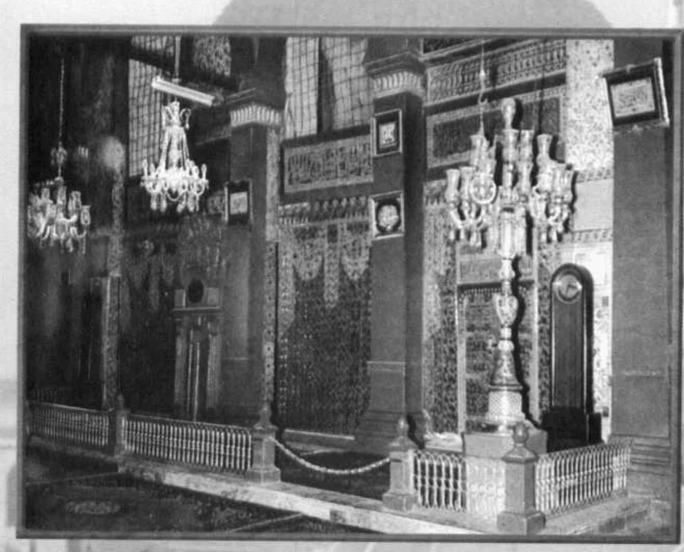


القبة الخضراء

محمد عطية

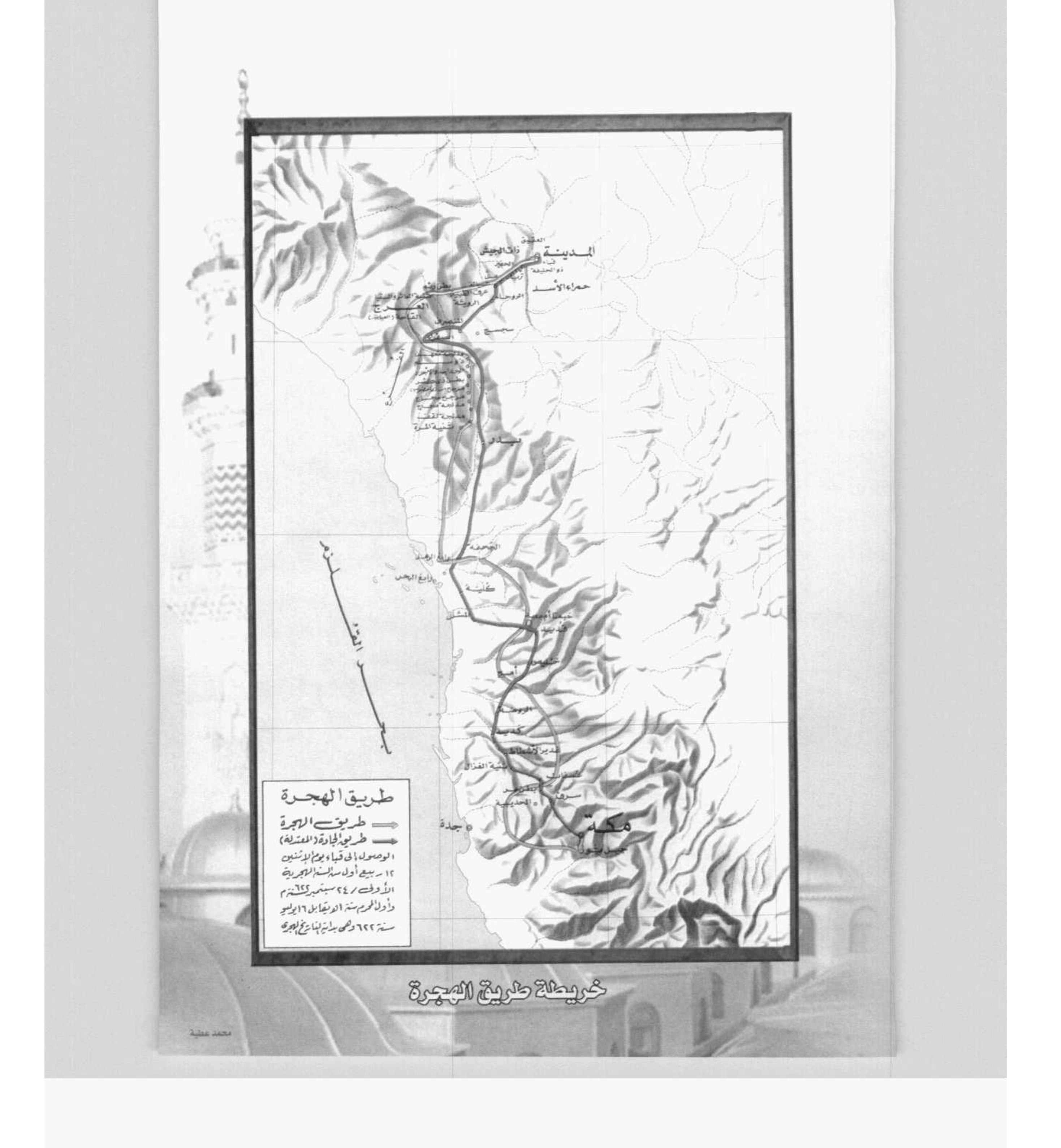


صورة نادرة لباب السلام قبل توسعة خادم الحرمين الشريفين الأخيرة



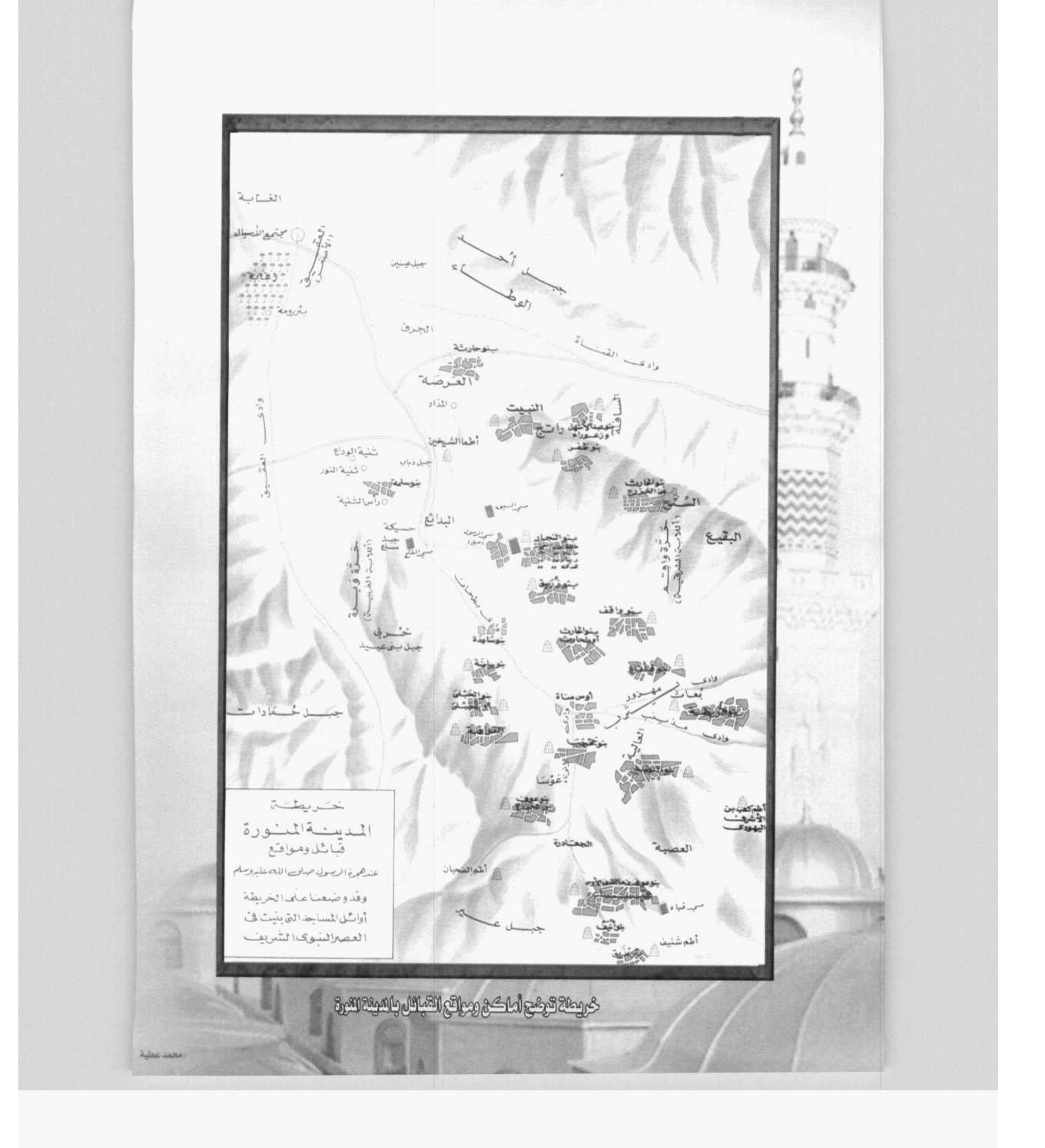
الحجرة النبوية الشريفة من جهة دكة الأغوات

محمد عطية



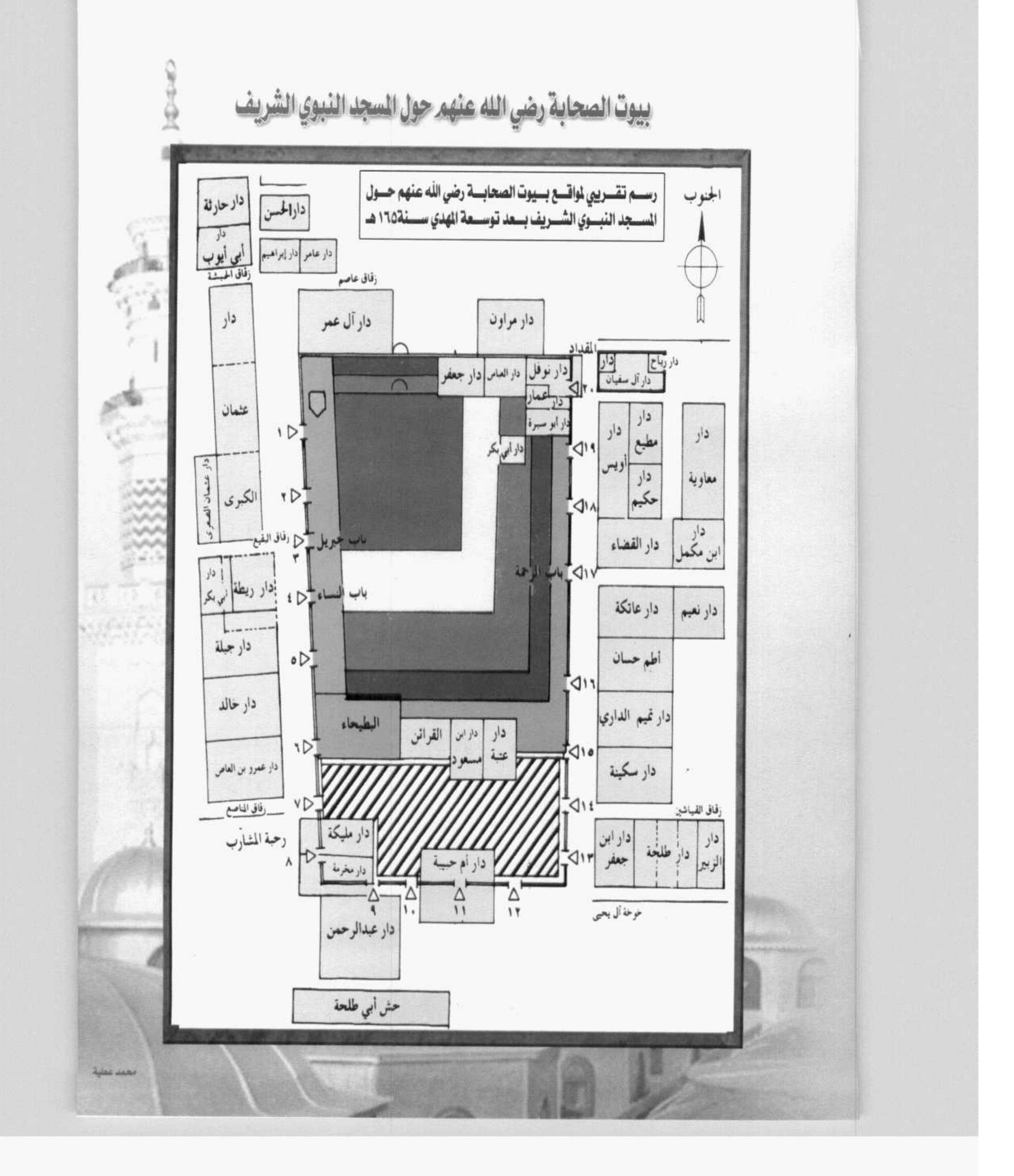
خريطة طريق الهجرة

محمد عطية



خريطة توضح أماكن ومواقع القبائل بالمدينة المنورة

محمد عطية


بيوت الصحابة رضي الله عنهم حول المسجد النبوي الشريف
رسم تقريبي لمواقع بيوت الصحابة رضي الله عنهم حول المسجد النبوي الشريف بعد توسعة المهدي سنة ١٦٥ هـ
الجنوب
دار حارثة
دار أبي أيوب
دار الحسن
دار عامر
دار إبراهيم
زقاق الحبشة
زقاق عاصم
دار آل عمر
دار مراون
دار عثمان الكبرى
دار عثمان العمري
المقداد
دار رباح
دار آل سفيان
دار نوفل
دار العاص
دار جعفر
عمار
دار أبو سبرة
دار أبي بكر
دار أويس
دار مطيع
دار حكيم
دار معاوية
دار القضاء
دار ابن مكمل
زقاق البقيع
باب جبريل
باب النساء
باب الرحمة
دار أبي بكر
دار ريطة
دار جبلة
دار خالد
دار عمرو بن العاص
دار عاتكة
دار نعيم
أطم حسان
دار تميم الداري
دار سكينة
البطيحاء
القرائن
دار ابن مسعود
دار عتبة
زقاق المناصع
زقاق القياشين
رحبة المشارب
دار مليكة
دار مخرمة
دار أم حبيبة
دار ابن جعفر
دار طلحة
دار الزبير
خوخة آل يحيى
دار عبدالرحمن
حش أبي طلحة
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠

بقيع الغرقد



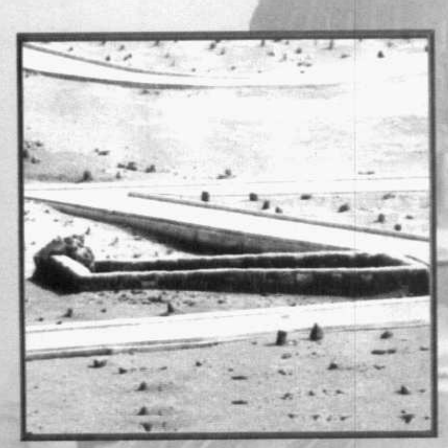
صورة توضح الجهة الشرقية من بقيع الغرقد



صورة عامة للبقيع



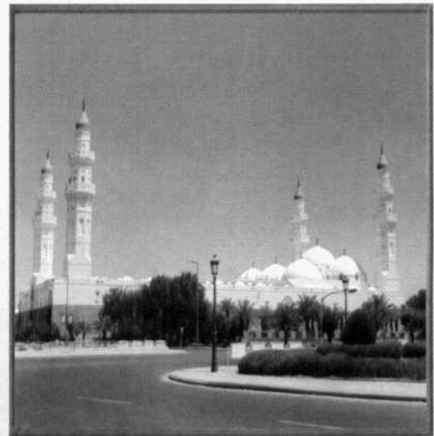
صورة قديمة للبقيع



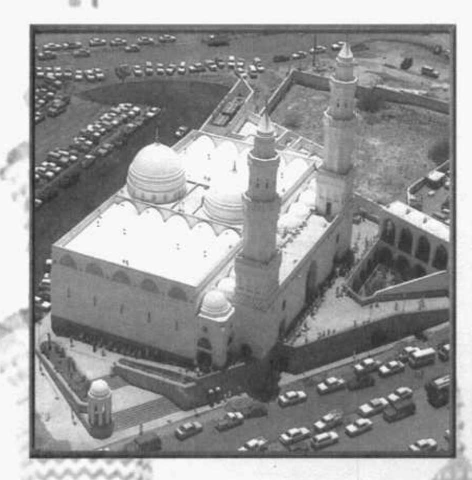
صورة توضح أحد قبور البقيع

محمد عطية

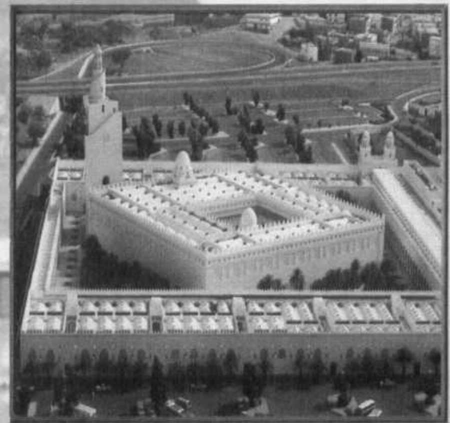
المساجد الأثرية بالمدينة المنورة



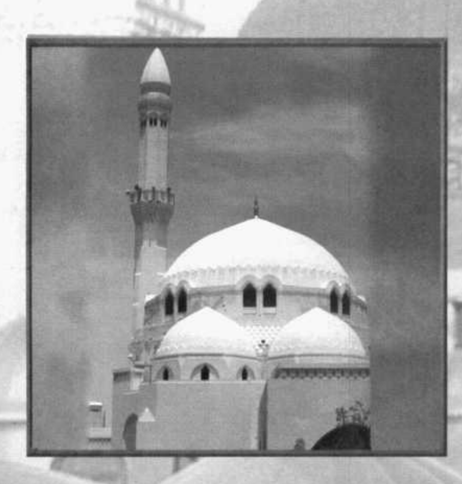
مسجد قباء



مسجد القبلتين



مسجد الميقات



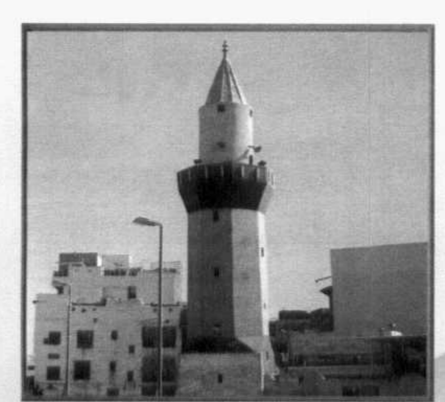
مسجد الجمعة

محمد عطية

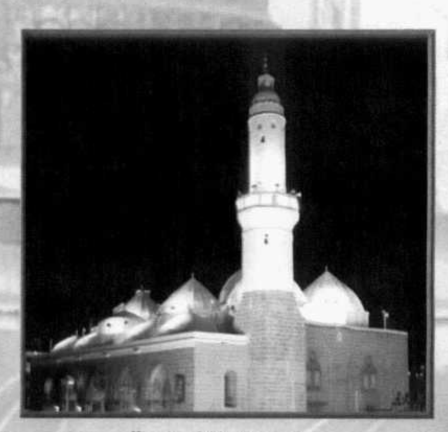
المساجد الأثرية بالمدينة المنورة



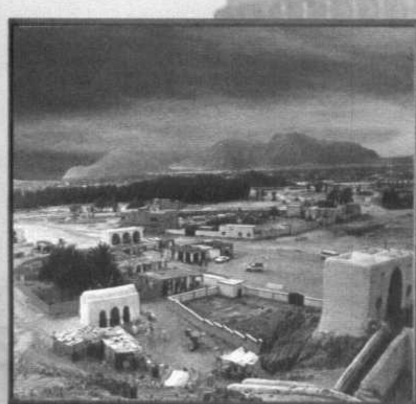
مسجد أبي بكر الصديق رضي الله عنه



مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه



مسجد الغمامة



صورة قديمة لمساجد الفتح

محمد عطية

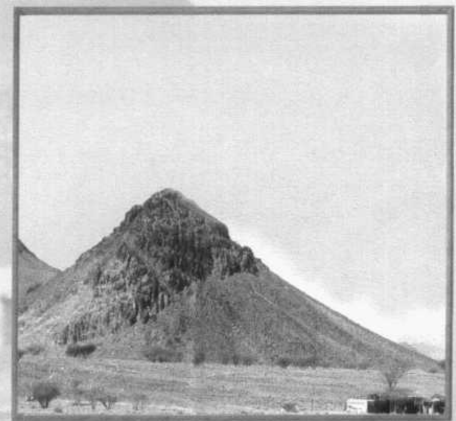
جبال المدينة المنورة



جبل أحد



جبل الرماة وتظهر مقبرة شهداء أحد

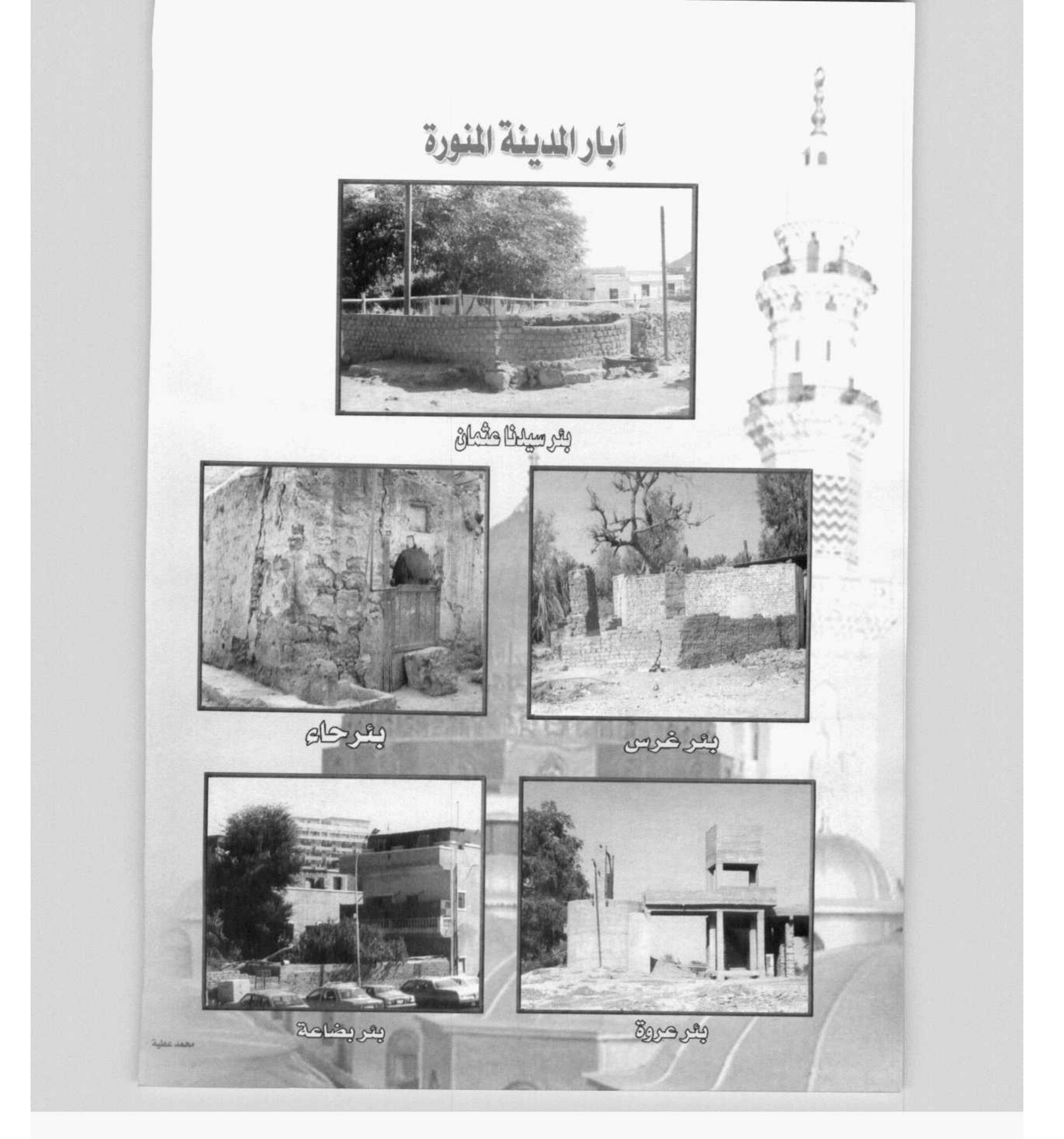


جبل ثور



جبل عير

آبار المدينة المنورة



بئر سيدنا عثمان

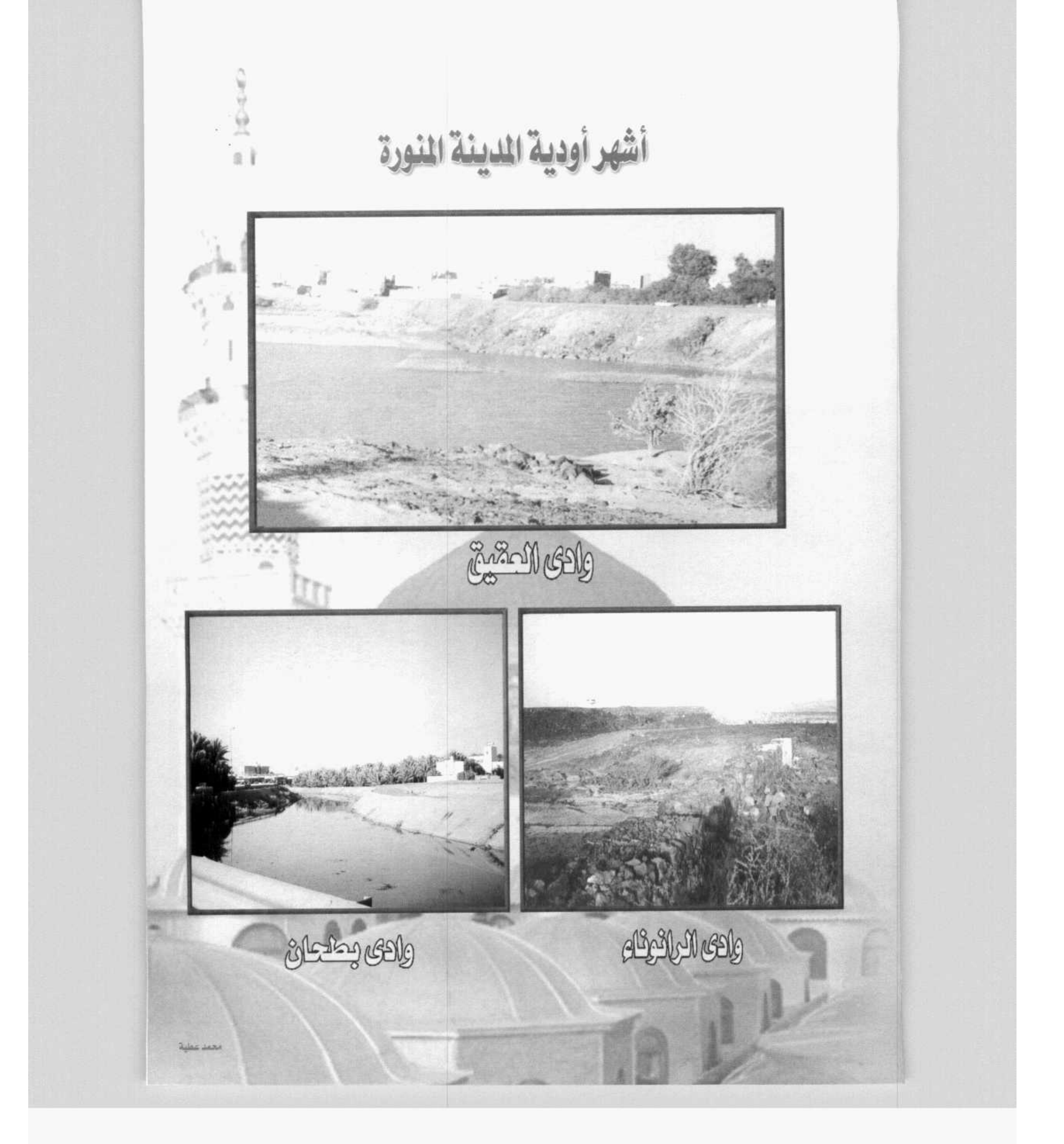
بئر غرس

بئر حاء

بئر عروة

بئر بضاعة

محمد عطية



وادى العقيق

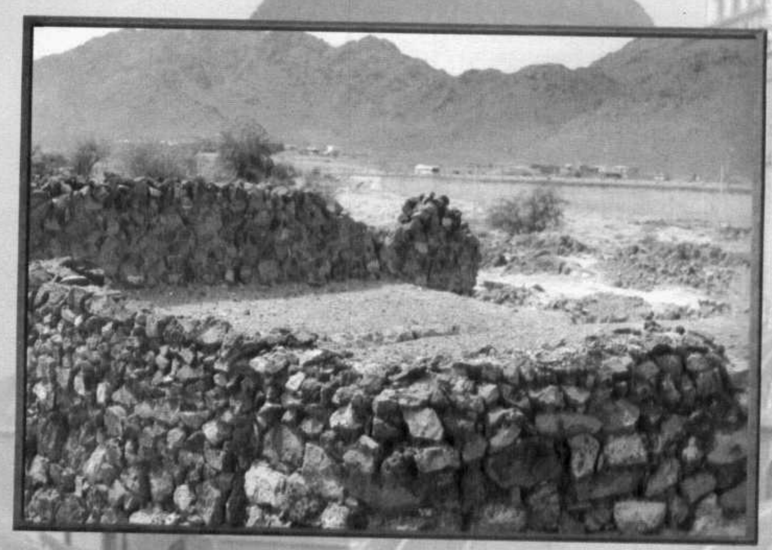
وادى الرانوناء

وادى بطحان





بقايا أطلال قصر سعيد ابن العاص



بقايا أطلال قصر عروة بن الزبير